

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الثانى

تأليف: د. ألبرت حورانى
ترجمة: نبيل صلاح الدين
مراجعة: د. عبدالرحمن الشيخ

اهداءات ٢٠٠٣
ا/ نبيل صلاح الدين
القاهرة

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

تاريخ الشعوب العربية

الكتاب الثانى

ويتضمن الجزءين الثالث والرابع

تأليف

د. البرت حورانى

ترجمة

نبيل صلاح الدين

مراجعة

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

فهـــــرس

الجزء الثـالث

العصر العثمـــانى

من القرن السادس عشر الى أواخر القرن الثامن عشر

الجزء الرابـع

عصر الامبراطوريات الأوربية

(١٨٠٠ ـ ١٩٣٩)

الموضوع **الصفحة**

مقـــدمة المراجـع

انتهى حورانى فى القسمين الأولين من كتابه هذا (صدرا معا فى الجزء الأول من تاريخ الشعوب العربية فى هذه السلسلة) من دراسة الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية للعالم العربى حتى سقوط دولة المماليك ، وهو يتعرض فى هذا الجزء لتاريخ العالم العربى منذ قيام الدولة العثمانية حتى التاريخ المعاصر . ويميل بعض الدارسين الى أن الحقبة العثمانية غير جديرة بأن تكون حقبة مستقلة تحظى بدراسة مستقلة عن العصر المملوكى ، وحجة هؤلاء أن علاقات الانتاج في الدولة العثمانية هي نفسها علاقات الانتاج فى العصر المملوكى . وهو قول صحيح الى حد كبير ، ونضيف اليه انه حتى العناصر الحاكمة كانت هي نفسها في العصر المملوكي خاصـــة في مصر ، اذ ظـــل العنصر المملوكي هو الحـــاكم الحقيقى وكان الباشوات العثمانيون فى كثير من مراحل هذه الحقبة مجرد شكل ، كما لعب مشايخ العرب دورا مهما بعضه خطير ومدمر فى الحقبتين المملوكية والعثمانية على سواء . وعلى كل حال ، فقد كان لخلاف المؤرخين حول الحقبة العثمانية أثر فى اهمال دراستها الى حد ما ، فبعض الباحثين فى التاريخ الاسلامى لا يعتبرونها حقبة اسلامية ، وينهي المتخصصون فى التاريخ الاسلامى الوسيط حدهم الزمنى عند سقوط دولة المماليك ، وكثير من الباحثين في التاريخ الحديث يبدءون دراستهم عند مرحلة الغزو الأوربى للمنطقة العربية خاصة منذ الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ ، ولا تحظى الفترة العثمانية عند هؤلاء الا بصفحات باعتبارها مقدمة لدراساتهم ، وهكذا ضاعت هذه الفترة بين التاريخين الاسلامى والحديث . وهذا القول لا ينفى أن باحثين جادين تداركوا الى حد ما هذا القصور ، فصدرت كتابات جادة عن الفترة العثمانية فى مصر وعن الفترة العثمانية عموما ، منها المؤلف الضخم للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد

الشـــناوى رحمـه الله ، وكتـابات الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، والكتاب التسجيلى التوثيقى للدكتور صلاح هريدى عن دور الصعيد فى مصر العثمانية ، وغيرهم ٠

ولا شك أن تطورا اجتماعيا ما حدث خلال الحقبة العثمانية ـ على أية حال ـ وان كان بطيئا ، فقد عمل العثمانيون على دعم الطرق الصوفية التى تستوعب بحكم طبيعتها عناصر غير مملوكية ، كما راحوا يوسعون من قاعدة الأشراف ٠

ومن الواضح أن حورانى يعتبر الفترة العثمانية فترة لها خصائصها التى تجعلها جديرة بالدراسة المستقلة ، وهو بنظرته هذه يراعى العلاقات الدولية ، والسياســات الخارجية أكثر مما يراعى التاريخ الاجتمـاعى والاقتصادى الذى يعتبره بعض الباحثين ـ كما أسلفنا ـ مجرد امتداد للعصر المملوكى ، بالنظر الى علاقات الانتاج والعناصر الحاكمة ٠ يقول حورانى : « خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان الجزء الأكبر من العالم الاســـلامى موزعا بين ثلاث امبراطوريات كبيرة : العثمانيون والصفويون والمغول ٠ وكانت كل البلاد التى تتحدث العربية جزءا من الدولة العثمانية وعاصمتها اسطنبول ، ما عدا أجزاء من الجزيرة العربية والســودان ومراكش ، وقد ضمت أيضـــا الأناضــول وجنوب شرق أوربا ٠٠ » ٠

ثم ينتقل حورانى بعد ذلك الى عصر الامبراطوريات (من ١٨٠٠ الى ١٩٣٩) وهو العصر الذى حكمت فيه أوربا العالم ، وهو فى هذا الجزء يركز على استمرارية التراث الاســلامى ، ويؤكد أن الاحتــلال الأوربى للعالم العربى رغم تأثيره العميق لم يمحق أو لم يستطع أن يمحق الشخصية الاسـلامية ، لكنه ساعد فى ظهور الحركة الوطنية التى لم تكن معارضة بالضرورة للصحوة الاسلامية ، بل كثيراً ما كانا شيئا واحدا ٠

ثم يتابع حورانى عرضه التاريخى حتى حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وقد ركز حورانى على النتائج السيئة لحرب ١٩٦٧ أكثر من تركيزه على

النتـــائج الايجابية لحرب ٧٣ ، مع أن هذه الحرب الأخيرة قد أفرزت سلاما ، وغيرت علاقات دول المنطقة ببعضها البعض · دعنا نقول ان طريقة تناول حورانى لفترة التاريخ المعاصر هى أضعف جوانب كتابه ، ولعله معذور ، فاتسام هذه الفترة بالمعاصرة جعله يوجز العرض ايجازا شديدا ، وربما اعتمد فى هذا الايجاز على افتراض أن القارىء يعرف عن هذه الفترة قدرا كبيرا من المعلومات ·

والله ولى التوفيق ·

د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الجـــزء الثـــالث

العصر العثمـــانى

من القرن السادس عشر الى أواخر القرن الثامن عشر

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان الجزء الأكبر من العالم الاسـلامى موزعا بين ثلاث امبراطوريات كبيرة : العثمـانيون والصفويون والمغول . وكانت كل البلاد التى تتحدث العربية جزءا من الامبراطورية العثمـانية وعاصمتها اسطنبول ، ما عدا أجزاء من الجزيرة العربية والسودان ومراكش ، وقد ضمت الامبراطورية العثمانية أيضا الأناضول وجنوب شرق أوروبا ، وكانت التركية هى لغة الأسرة الحاكمة والنخبة العسكرية والادارية ، التى كانت فى أغلبها ممن اعتنقوا الاسلام من البلقان والقوقاز ، بينمـا كانت النخبة الدينية والفقهية من أصـول مختلفة قد تلقت تدريبها فى مدارس الامبراطورية الكبرى فى اسطنبول ، ومنها نقلوا التراث الشرعى والفقهى باللغة العربية .

وقد كانت الامبراطورية دولة بيروقراطية تضم مناطق مختلفة فى نظام ادارى ومالى واحد،وعلى أية حال،فقد كانت تمثل أيضا آخر التجليات العظيمة لعالمية دنيا الاسلام ، فحافظت على الشريعة ، ووسعت حـدود العالم الاسلامى وحمته وحرست المدن المقدسة فى الجزيرة العربية ونظمت الحج اليها ، وكانت أيضا دولة متعددة الأديان ، فاعترفت بالمجتمعات المسيحية واليهودية فيها . وكان سكان مدن الولايات من المسـلمين يجذبهم العمل بالجهاز الادارى . وفى البلاد العربية تطورت ثقافة عربية عثمانية تحافظ على التراث ، مع تطويره بطرائق جديدة الى حد ما ، وفيما وراء الحدود تطورت مراكش بطريقة مختلفة تماما تحت حكم أسراتها الحـاكمة dynasties ، التى ادعت هى الأخرى سلطة قائمة على أساس من حمايتها للدين .

وفى القرن الثامن عشر ، تغير توازن القوى بين الحكومة العثمانية المركزية والولايات Local governments . فقد اكتسبت بعض العائلات العثمانية أو الجماعات الحاكمة فى الولايات فى بعض أجزاء الامبراطورية حكما ذاتيا ، بالرغم من أنها ظلت مخلصة للمصالح الأساسية للدولة العثمانية ، كما حدث تغير فى العلاقات بين الامبراطورية ودول أوربا ، ففى حين توسعت الامبراطورية العثمانية فى أوربا فى القرون الأولى من حكمها ، أصبحت فى أواخر القرن الثامن عشر تعانى من التهديد العسكرى الآتى من الغرب والشمال . وقد شهدت هذه الفترة أيضا بدايات التغير فى طبيعة التجارة واتجاهاتها ، فقد أصبحت الحكومات الأوربية ، وكذلك التجار الأوربيون اقوى مركزا فى البحر المتوسط والمحيط الهندى . وبنهاية القرن الثامن عشر ، كانت الصفوة العثمانية الحاكمة قد أصبحت واعية بالتدهور النسبى فى السلطة والاستقلال ، وبدأت استجاباتها الأولى المرتجلة للوضع الجديد .

الفصل الثالث عشر

الامبراطورية العثمانية

حدود السلطة السياسية

كان قبول علماء الشريعة Ulema ومن يمثلونهم للحاكم سلاحا ذا حدين (١) ، فطالما كان الحاكم قادراً على حماية نفسه والدفاع عن المصالح الحضرية التي كانت مرتبطة بمصالحه الخاصة ، كان بامكانه أن يأمل في خضوع المدن والأراضي التابعة لها ، كما كان يأمل في مبايعة الفقهاء وولائهم وتعاونهم الي حد ما ، رغم حذرهم من تذبذب الأمراء الذي عبر عنه الغزالي وآخرون . فقد كان هناك دائما علماء راغبون في الخدمة لدى الحاكم كقضاة أو مسئولين ، وكانوا مستعدين لاضفاء الشرعية على أعماله . واذا اضمحلت قوته ، فليس بامكان المدينة انقاذه ، اذ يمكن أن تحول المدينة ولاءها للحاكم الجديد الذي يستحوذ على السلطة الفعلية وتكون لحظة سقوط المدينة هي النقطة التي تستقل فيها (٢) ، ويذهب القاضي والزعماء الآخرون للقاء الحاكم الجديد لتسليم المدينة له .

وقد تكرر نمو وانهيار كثير من الأسر الحاكمة طوال خمسة قرون منذ انهيار الخلافة العباسية حتى قيام الامبراطورية العثمانية ، ونحن

---

(١) بمعنى ضرورة موافقتهم عليه acceptance — (المراجع) .

(٢) ليس بمعنى الاستقلال السياسي التام ، وانما بمعنى ممارستها للحكم الذاتي ، أو تسيير الامور بها تسييرا ذاتيا . النص :

— which the city might act autonomously ...

(المراجع) .

بحاجة الى طريقتين لتفسير هذه الظاهرة . الطريقة الأولى تتعلق بضعف قوة الأسر الحاكمة ، والطريقة الأخرى بتجمع أسباب القوة فى يد مناوئيها. وقد مال معظم المؤرخين والكتاب المعاصرين الى التركيز على عوامل الضعف الداخلية في الأسرة الحاكمة وتفسيرها بمنظور أخلاقى ، وعند نظام الملك، كانت هناك بدائل لا نهاية لها في التاريخ الانسانى ، فقد تفقد الأسرة الحاكمة الحكمة والعدالة التى أناطها الله بها ، وينتج عن هذا أن يسقط العالم فى فوضى حتى يظهر حاكم جديد حباه الله بالصفات المطلوبة .

وقد جاءت أكثر المحاولات منهجية لشرح أسـباب سـقوط الأسر الحاكمة ضحايا لضعفها الذاتي على أيدى ابن خلدون ، وكان تفسيره مركبا : عصبية الجماعة الحاكمة ـ وهى التضامن الموجه لتحقيق السلطة والحفاظ عليها ـ تتحلل تدريجيا تحت تأثير الحياة المدنية ، ويبدأ الحاكم فى البحث عن الدعم من الجماعات الأخرى :

اعلم أن صاحب الدولة ، انما يتم أمره كما قلنا بقومه ، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه ، وبهم يقارع الخوارج على دولته ، ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله ، فهم أعوانه على الغلب وشركاؤه فى الأمر ، ومسـاهموه فى سـائر مهامه ، هذا مادام الطور الأول للدولة كما قلناه .

فاذا جاء الطـور الثانى ، وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالروح ، صاروا فى حقيقة الأمر من بعض أعدائه واحتاج فى مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة ، الى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونه (١) .

وحين يتوقف الحاكم عن الحفـاظ على الشريعة وهى قاعدة الازدهار المدنى ورباطه أو وهى ـ أى الشريعة ـ ما يربطه مع سكان الحضر ، يصبح أولئك الذين حوله ضحايا للرغبة فى الرفاهية والانفاق البذخى ، مما يزيد الضرائب على الشعب ، فتصبح بطانة الحاكم بدورها فريسة لهذا البؤس الذى يحل على الشعب عندما تفقد ـ أى بطانة الحاكم ـ السيطرة على شئونهم الخاصة ليصبحوا أداة فى أيدى الآخرين ومعتمدين عليهم (٢) .

وإذا ما فاقت متطلبات الحاكم قدرة المجتمع على توفيرها - ليس بالضرورة بسبب زيادة في الانفاق والتبذير على القصور ، وانما قد تكون راجعة أيضا الى محدودية القدرة الانتاجية للمجتمع - كان يتعين على الريف الواقع تحت سيطرة الدولة أن ينتج الطعام الذى يكفى سكانه ، وسكان المدن أيضا وأن ينتج أيضا المواد الخام . كما كان يتعين على الذين يربون الماشية ويفلحون الأرض وينتجون السلع أن ينتجوا فائضا كافيا يدفع كضرائب لسد نفقات قصر الحاكم والحكومة والجيش ، وقد كانت امكانية ذلك تعتمد على عوامل عدة بعضها قابل للتغيير ، فقد تحدث تعديلات فى تقنيات الانتاج : بادخال محاصيل جديدة أو نظم للرى جديدة ، على سبيل المثال مما يرفع الانتاج والفائض معا ، أو يحدث فقدان فى المهارات الفنية ويأتى بنتائج عكسية . والتغيرات فى حجم الفائض يمكن بدورها أن تؤثر فى المقدرة على توظيف الانتاج باستصلاح أراضى جديدة وادخالها دائرة الانتاج ، أو بزراعة أرض منتجة فعلا بطرائق جديدة (لزيادة انتاجها) . والحاجة لمنتجات البلاد الأخرى سيان فى ذلك منتجات الأراضى أو المدن يمكن أن تزداد أو تقل أو تتلاشى ، كما أن التغيرات الحادثة فى طرائق النقل أو تكاليفه وكذلك درجة الأمان المتوفرة للنقل برا وبحرا - كل ذلك يمكن أن يؤثر فى قدرة الدولة على تلبية مثل هذه المتطلبات . وعلى المدى المتوسط أو الطويل ، يمكن لمعدلات الانجاب أو الوفيات أن تزيد أو تنقص من القدرة على الانتاج . وربما حدث التغير أيضا فى العلوم الطبية أو أخلاقيات المجتمع وآدابه ، مما يؤثر على الانجاب أو المعاملات .

كانت هذه كلها عمليات تظهر تأثيراتها على المدى الطويل ، ولكن كانت هناك أيضا وقائع تقوم بدور العامل المساعد على احداث تغيرات مفاجئة ذات نتائج تعد بمثابة كارثة ، مثل حرب تقطع الطرق التجارية ، وتدمر المدن وحرفها ، وتجهد الريف ، أو أن تسوء - وربما لعدة سنوات - المحاصيل بفعل الجفاف فى المناطق المعتمدة على الزراعة بالمطر ، أو نقص المياه فى الأنهار الكبرى ، أو وباء يمكن أن يودى بحياة نسبة كبيرة من السكان . ومن المناسب تصور التأثير القاسى والمدمر للأوبئة فى زمن

أمكن فيه السيطرة على انتشارها ــ وقد اختفى بعضها بالفعل ــ وعلى وجه الخصوص حمى الطاعون ــ الوباء الأعظم لتلك القرون ــ التى تأتى من بعض المناطق التى انتشر فيها مثل شمال العراق ، وبعض أجزاء الهند ، وكانت الفئران الحاملة له تأتى اما بطريق البر أو البحر حتى عالم البحر المتوسط ، حيث أمكنها الانتشار بسرعة فى المدن والقرى لتقضى على عدد كبير من السكان والماشية (بين عامى ١٧١٧ و ١٧٤٨ وهى فترة تتوافر عنها الاحصاءات الدقيقة ، اذ فقد ميناء أزمير التركى على البحر المتوسط ٢٠٪ من سكانه فى طاعون وبائى، وفقد أكثر من هذه النسبة فى وباء مماثل بعد قرابة واحد وثلاثين عاما) .

. . .

وقد تفاعلت هذه العوامل مع بعضها البعض ، وكان بعضها تراكميا بحيث كان يتسبب فى استمرارها ، وساعدت فى تفسير التغير فى العلاقة بين متطلبات من يملكون السلطة وقدرة المجتمع على ارضائهم ، كما ساعدت فى تفسير ظهور التحديات من قادة جماعات بامكانها حشد القوة واستخدامها لبسط سيطرتهم على الموارد ، ومثل هذا التغير يمكن أن يحدث داخل نظام قائم ، حين يستولى عسكر الحاكم على السلطة ، كما يمكن أيضا أن يحدث ذلك بتراكم القوة خارج نطاق السيطرة الفعلية للحاكم ، وقد يستطيع الحاكم أن يعبىء قواته من رجال الجبال أو السهوب سواء بمواهبه فى الاقناع أو نتيجة أفكار دينية ، وسواء حدث الاستحواذ على السلطة من الداخل أو الخارج ، فقد كانت القوة الرئيسية الفاعلة فى غالب الأحيان مكونة من العسكر المستجلبين المنحدرين من خارج المناطق الوسطى من الدولة ، من الوديان أو السهوب أو عبر الحدود ، وهم ذوو بأس ودراية فى شئون الخيل والسلاح اللازمين للحرب فى ذلك الوقت ، قبل أن تصبح المدفعية هى العامل الحاسم ، وقبل الملم المشاة باستخدام الأسلحة النارية ، وهناك بعض الدلائل على أنه قبل ظهور الرعاية الطبية الحديثة ، كان رجال الجبال والسهوب أكثر صحة من الآخرين ، وأنجبوا فائضا من الشباب الذين كانوا ينضمون للجيوش ، وكان القائد الذى يطمح أن يكون حاكما ، يفضل استخدام عسكر من خارج المجتمع الذى يرغب فى السيطرة عليه ويحكمه ، أو على الأقل من المناطق البعيدة ، بحيث

تكون مصالحهم مرتبطة بمصالحه ، وبمجرد أن يفرض الحاكم سيطرته فقد يفقد الجيش تماسكه ، أو يبدأ فى تكوين مصالح مختلفة عن مصالح الأسرة الحاكمة . وقد يحاول أن يحل محلهم جيشا من المحترفين أو المرتزقة ولهذا الغرض أيضا كان عليه البحث فى الريف البعيد أو ما وراء الحدود ، وكان الجنود المدربون داخل منزله يعتبرون من مماليكه أو عبيده بمعنى لا يعنى المساس بهم أو التحقير من شأنهم ، ولكن بما يعنى ذوبان شخصيتهم ومصالحهم فى شخصية سيدهم ومصالحه . وبمرور الوقت ، قد يظهر حاكم جديد من داخل الجيش أو المماليك ويؤسس أسرة حاكمة جديدة .

وهذا هو السياق الذى يمكن فى اطاره فهم ما كان يبدو بلا معنى من ظواهر تتابع الأسر الحاكمة فى التاريخ الاسلامى . فقد جاءت فى القرون الأولى نخبة حاكمة قادمة من بلدان غرب الجزيرة العربية ، وكانت قادرة على تعبئة جيش وجهاز ادارى ونظام قضائى ، ومكنت الحياة المدنية المستقرة من الازدهار ، وأمكن استتباب الأمن فى الريف ، وجرى اصلاح أنظمة الرى وتوسيعها ، وإدخلت منتجات وتقنيات جديدة وتوحدت الأراضى الواقعة حول المتوسط وحول المحيط الهندى فى منطقة ثقافية سياسية واحدة ، مما حقق تجارة عالمية واسعة ، والدلائل القليلة المتوفرة تشير الى زيادة فى السكان ، وكانت تلك فترة من الأنظمة المستقرة فى مدن مزدهرة وريف منتعش من حولها : بغداد فى جنوب العراق ، ومدن خراسان ، ودمشق فى سوريا ، والفسطاط فى مصر ، والقيروان فى تونس ، وقرطبة فى اسبانيا .

وعلى أية حال ، فمنذ القرن العاشر أو الحادى عشر وما بعده ، كانت هناك فترة طويلة من الاضطرابات كانت أعراضها الواضحة تفكك الخلافة العباسية وظهور خلافتين منافستين فى مصر والأندلس ، وظهور أسرات حاكمة فى عالم الاسلام تستمد قوتها من عناصر عرقية أخرى كان الحماس الدينى هو دافع بعضها ، ذلك أن مسيحيى الأندلس قد توسعوا على حساب الدول الاسلامية التى تشكلت على أنقاض الخلافة الأموية العربية ، فنشأ المرابطون والموحدون فى المغرب والأندلس ، نتيجة الحركات الدينية

التى عبأت البربر من الجبال وأطراف الصحراء فى مراكش تماما كما عبأت الحركات الدينية الأتراك والمغول فى الشرق ، وربما كانت هذه التغيرات أعراضا لاختلال أعمق فى التوازن بين الحكومة والسكان والانتاج ، وواجهة لأسباب أخرى : مثل انكماش مناطق السكان المستقرين فى العراق وتونس بفعل تفكك الأنظمة القديمة للرى ، أو توسع منطقة الشعوب الرعوية ، وربما كان هناك أيضا انخفاض فى سكان بعض الأماكن ، وانخفاض فى الطلب على منتجات المدن الاسلامية مرتبط باحياء الحياة الحضرية والانتاج فى ايطاليا •

وكانت هناك لحظات من العافية فى القرن الثالث عشر ، اذ كانت هناك بعض الأسرات الحاكمة قادرة على انشاء نظم راسخة لا تهددها القوى المستقرة خارج العالم الاسلامى ، فى الوقت الذى انكمشت فيه القوة والثروة بالعراق ، وحل فيه الخراب بسبب الغزوات المغولية ، وانتهاء الدولة العباسية • فعلى سبيل المثال ، نجد أن الحفصيين فى تونس كونوا دولة خلفت الموحدين ، كما نجد المماليك فى مصر وسوريا ، وهم نخبة عسكرية ذاتية النمو تنامت فى أحضان خدمة أسرة حاكمة سابقة هى الأيوبيين • ومن مظاهر العافية هذه زراعة مناطق واسعة ، بل ربما كانت شاسعة فى اتساعها ، ومقدرة جهاز الحكومة على جلب فائض هذه الأراضى من الريف الى المدن ، بالاضافة لانتعاش انتاج المحضر ، وانتعاش التجارة فى اطار الشريعة الاسلامية على المذهب السنى الذى يحظى بقبول عام • كل ذلك أدى لتحقيق نوع من التكافل ، استمر بين الجماعات الحاكمة والسكان فى الحضر •

الا أن ذلك النظام كان هشا ، حتى انه بدأ يهتز بحلول القرن الرابع عشر بفعل محنة قوى ، قد يكون أهمها الوباء الأعظم المعروف فى التاريخ الأوروبى باسم « الموت الأسود » ، الذى هاجم معظم البلاد فى الجزء الغربى من العالم فى منتصف القرن الرابع عشر ، واستمر لقرابة قرن بعدها فى اندلاعات متكررة ، وفى تقدير تقريبى أن ما يقرب من ثلث سكان القاهرة ماتوا فى الوباء الأول ، وبحلول منتصف القرن الخامس عشر أصبح سكانها

أقل من النصف قليلا عما كان عليه الحال منذ مائة عام قبلها (١٥٠ ألف نسمة تقريبا بدلا من ٢٥٠ ألف) ، ولم يكن ذلك راجعا الى تكرار هذه الأوبئة ، وانما لأن ذلك الطاعون خرب الريف مثلما خرب المدينة ، ولهذا فان المهاجرين من الريف لم يعوضوا الفارق في سكان المدن بسبب نقص سكان الريف والماشية والانتاج الزراعي ، كما أن الموارد المتاحة أمام الحكومة من خلال الضرائب تدنت ٠

وقد أضيفت لهذه الآثار المتراكمة من الوباء عوامل أخرى ، هي تنامي صناعة النسيج في ايطاليا وبلاد أوروبية أخرى ، كما أن توسع الملاحة الأوروبية في المتوسط أثر على توازن التجارة ، ولهذا فقد كان من الصعوبة بمكان أن تحصل الحكومات الاسلامية على الموارد التي احتاجتها ، وكانت هناك أيضا تغيرات في فنون الحرب وبناء السفن والملاحة ، بالاضافة الى الاستعمال الجديد لمسحوق البارود في المدفعية والأسلحة النارية ٠

في مثل هذه الظروف المتغيرة كان النظام السياسي القائم في الدولة المملوكية ، والنظام السياسي في دول المغرب عرضة للتهديد من قبل أسر حاكمة جديدة ، كانت قادرة على ايجاد الموارد من الرجال والثروة لتشكيل جيوش كبيرة فعالة ، والتحكم في ريف منتج والتمكن من فوائضه ، ومن رعاية التجارة والصناعة في المدن ٠ وفي غرب المتوسط ، كان التهديد للنظام الديني والسياسي نابعا من الممالك المسيحية في اسبانيا ، التي اتحدت في مملكة واحدة قبل اختفاء آخر سلالة اسلامية مباشرة في ١٤٩٢ ، وسرعان ما اكتسبت هذه الممالك الثروة التي جلبها اكتشاف وفتح امبراطورية في أمريكا ٠ وفي شرق المتوسط ، كانت القوة الجديدة البازغة هي أسرة حاكمة اسلامية سميت باسم مؤسسها عثمان ؛ ولهذا كان اسمها الاسلامي عثمانلي وأصبحت بالانجليزية Ottoman .

الحكومة العثمانية

كانت الدولة العثمانية من حيث المنشأ هي احدى الامارات التركية التي تكونت نتيجة توسع السلاجقة غربا في الأناضول ، ونتيجة هجرات العناصر التركية في الاتجاه ذاته ، وعلى الحدود المتغيرة المتنازع عليها مع الامبراطورية البيزنطية ، نشأ عدد من هذه الامارات التي قبلت اسميا سيادة السلجوقيين ، ولكنها كانت تحكم ذاتيا في الواقع ، وتلك الدويلة (الامارة) التي أسسها « عثمان » كانت واقعة في شمال غرب الأناضول ، على نقطة الالتقاء الرئيسية مع البيزنطيين ، وقد اجتذبت المقاتلين في الحروب على الحدود ، وقبائل الأتراك الرحل المتجهين غربا بحثا عن المرعى ، ولكن كان لديها أيضا داخل حدودها أراضي زراعية منتجة شاسعة ، ومدن ذات أسواق كان بعضها نقاطا مهمة على طرق التجارة الممتدة من ايران وما وراءها في آسيا حتى المتوسط ، ومع توسع هذه الامارة العثمانية تنامت مواردها وأصبح بامكانها استخدام أسلحة وتقنيات جديدة لفنون الحرب ، كما أصبح في امكانها انشاء جيش منظم ، وبنهاية القرن الرابع عشر ، كانت قواتها قد عبرت المضايق الى شرق أوربا وتوسعت هناك بسرعة ، وأصبحت (أى هذه الامارة العثمانية) بامبراطوريتها التي كونتها في شرق أوربا أكثر قوة ، وذلك من أكثر من ناحية ، واكتسبت موارد جديدة من الأيدى العاملة ، اذ اندمجت الجماعات الحاكمة السابقة في ادارتها الحكومية ، وانضم الرعايا من قرى البلقان الى جيوشها ، وأصبحت قادرة عندئذ على الاتجاه شرقا نحو الأناضول بالرغم من هزيمة جيشها أمام جيش تركي آخر بقيادة تيمور لنك • وفي عام ١٤٥٣ ، امتصت ما خلفه البيزنطيون من الامبراطورية وفتحت القسطنطينية كعاصمة جديدة لها باسم « اسطنبول » •

وقد كانت قوتها مهددة من قبل الصفويين في الشرق وهي أسرة حاكمة أخرى صاعدة من أصول غير محددة • وكان هناك صراع طويل للسيطرة على المناطق الحدودية الواقعة بين مراكز سلطتهم الرئيسية

وشرق الأناضول والعراق ، فقد فتح العثمانيون بغداد فى ١٥٣٤ واستردها الصفويون ١٦٢٣ ولم يستعدها العثمانيون حتى ١٦٣٨ ، وكان من جزاء الصراع مع الصفويين أن اتجــه العثمانيون جنوبا الى أراضى السلطنة المملوكية ، ونظرا لقوتهم النارية وتنظيمهم العسكرى ، استطاعوا احتلال سوريا ومصر وغرب الجزيرة العربية (١٥١٦ ـ ١٥١٧) .

وفى ذلك الوقت ، أصبحت الامبراطورية العثمـانية هى القوة العسكرية والبحرية الرئيسية فى شرق المتوسط وأيضا فى البحر الأحمر، وهــذا ما زاد من احتمـالات الصراع مع البرتغاليين فى المحيط الهنـدى والاسبان في غــرب المتوسط ، وفى منطقــة البحر الأحمر كانت سياسة الامبراطورية العثمانية دفاعية لمنع تقدم البرتغاليين ، ولكنها استخدمت قوتها البحرية لايقاف التوسع الاسباني وانشاء سلسلة من النقط الحصينة القوية فى الجزائر (فى العشرينات من القرن الخامس عشر) وطرابلس فى الخمسينات ، وتونس فى ١٥٧٤ ولكنها لم تتوسع الى أبعد من ذلك فى غرب مراكش ، وقد استمرت الحروب البحرية بين العثمانيين والاسبان لفترة من الزمن ، ولكن طاقات الاسبان أصبحت موجهة أساسا تجاه العالم الجديد فى أمريكا ، ونشأ شكل من الاتزان بين القوى البحرية فى البحر المتوسط ، وأصبح بين العثمانيين والاسبان علاقات سلمية منـذ ١٥٨٠ وما بعدها .

وبمعنى ما ، تكون الدولة العثمانية مثلا آخر على العملية التى جرت عدة مرات فى تاريخ الشعوب الاسلامية ، بنفس آليات التهديد للأسر الحاكمة الراسخة على أيدى قوى مسلحة مكونة أساسا من الشـــعوب الرحل ، وكانت أصـــولها مشابهة لأصـــول حـــكام الدولتين العظميين الأخريين فى نفس الوقت تقريبا ، وهما الصفويون فى ايران والمغول فى الهند ، فقد استمدت هذه الأسرات جميعا قوتها فى البداية من المنـاطق المأهولة التى يسكنها رجال القبائل الأتراك ، وكلهم كانوا مدينين بنجاحهم العسكرى لاستخدام مسحوق البارود الذى شاع استخدامه فى النصف الغربى من العالم ، ونجحوا جميعا فى بلورة سياسات مستقرة دائمة ،

وفى انشاء قوة عسكرية ، ونظام مركزى بيروقراطى ، قادر على تحصيل الضرائب وحفظ النظام والقانون على مســاحة واسعة لفترة طويلة ٠ والامبراطورية العثمانية من أكبر الهياكل التنظيمية السياسية التى عرفها العالم الغربى منذ تفكك الامبراطورية الرومانية ، فقد حكمت الامبراطورية العثمانية أوروبا الشرقية وغرب آسيا ومعظم المغرب ، وجمعت بأيديها بلادا كانت ذات تراث سياسى شـــديد التباين ، وكثيرا من الجماعات العرقية ، ما بين اليونان والصرب والبلغار والرومان والأرمن والأتراك والعرب ، ومجتمعات دينية عديدة من المسلمين الشيعة والسنة واليهود والمسيحيين من كل الكنائس التى ظهرت فى التاريخ ، وبسطت سلطتها على معظمهم قرابة ٤٠٠ سنة وعلى بعضهم لستمائة عام ٠

وقد كان « بيت عثمـــان » على رأس النظام الحاكم فى هذه الامبراطورية الشاسعة ، وتركزت القوة والسلطة فى العائلة أكثر منها فى شخص بعينه ، ولم يكن هناك قانون جامد للخلافة ، ولكن أدت عادات عائلية معينة بشكل عام الى انتقال السلطة بشكل سلمى ، الى فترات حكم طويلة ، وقد كان أحد أبناء الحاكم يخلفه عادة حتى القرن السابع عشر ، ولكن بعدها أصبح من المسلم به أنه عندما يموت الحاكم أو يتنحى عن الحكم فيجب أن يخلفه أكبر أفراد العائلة الأحياء ٠ وكان الحاكم يعيش فى بيت شاسع يضم جزءا للحريم وأولئك الذين يحرسونهن ، وخاصة الخدم ، والبستانيين وحرس القصر ٠

وعلى رأس النظام الحكومى كان « الصدر الأعظم » هو المسئول الرفيع ، وأكثر الألفاظ شـــيوعا عنه بالانجليزية (الوزير الأعظم) Grand Vizir ، وبعـد الفترة العثمانية الأولى كان هـذا الصــدر الأعظم يعتبر هو صاحب السلطة المطلقة بعد الحاكم ، وكان يشرف على عدد من الوزراء الآخرين ، الذين كانوا يسيطرون على الجيش وحكومات الولايات وموظفى الخدمة المدنية ٠

وفى المرحلة الأولى من التوسع ، كان الجيش العثمانى يتكون أساسا من الفرسان من الأتراك وسكان الأناضول الآخرين وريف البلقان ، وكان ضباط الفرسان السباهيين Sipahis (والمفرد سباهى) ، لهم الحق فى تحصيل الضرائب من أراضى زراعيــة معينــة مقابل خدماتهم فى أوقات الحاجة مع عدد معين من الجنود وهو ما يعرف بنظام (الطيمار) ، وبمرور الوقت أصبحت هذه القوة أقل فعالية وأهمية سواء بسبب التغيرات فى فنون الحرب ، أو لأن صاحب الطيمار لم يكن راغبا فى التغيب عن أراضيه لفترات تستغرقها حملات طويلة فى مناطق نائية بعيدة من الامبراطورية المتنامية • ومنذ فترة مبكرة تأسس جيش آخر على درجة عالية من التنظيم من المشاة ويقصد بهم الانكشارية Janissaries ، والفرسان ، وذلك عن طريق التجنيد الدورى للفتيان من القرى المسيحية التى اعتنقت الاسلام فى البلقان • وهو ما يعرف بضريبة الدم أو الدفشرمة Devsirme

وخلال القرن السادس عشر، نشأت بيروقراطية حاذقة عرفت بالقلمية Kalemiya كانت تتكون أساسا من مجموعتين : الكتبة الذين يحررون المســتندات والوثائق والأوامر والضـــوابط والتوجيهات والردود على الالتماسات بأشكالها وصيغها المناسبة وحفظها ، وأولئك الذين احتفظوا بالســـجلات المالية مثل تقديرات الأصول المســـتحق عليها الضرائب ، وحسابات ما تم تحصيله ، وكيفية انفاقه (والحسابات والمستندات كانت تحفظ فى أرشيف ليس له مثيل فى العالم الاسلامى ، وله أهمية تاريخية عظمى لمعظم النصف الغربى من العالم ، وبدأ التنقيب المنظم فيه فى الحقب الحديثة فقط) •

وكان كبار المسئولين فى الجيش والحكومة يتقابلون بانتظام فى القصر على هيئة مجلس (ديوان) ، ويتخذون القرارات فيمـــا يتعلق بالسياسة ، واستقبال السفراء واتخاذ القرارات ، واصدار الأوامر ، والبحث فى الشكاوى ، والبت فى الالتماسات ، وخاصة ما تعلق منها بسوء استعمال السلطة ، وفى البداية كان الحاكم يرأس اجتماعات هذا المجلس ولكن فيما بعد أصبح الصدر الأعظم رئيسا له •

وقد عم نظام الحكم هذا فى أنحاء الامبراطورية ، وكان الصناجق يعينــون لحــكم المــدن المهمة والأراضى التابعة لها ، ثم انضمت تلك الصنجقيات الهائلة العدد لتتركز فى ولاياته ، وكان الوالى يعيش فى بيت مماثل لبيت السلطان بشكل مصغر ، وحوله كتبته ومحاسبيه ، ومجلس كبار الاداريين الذين يجتمعون بانتظام ٠

وكان تحصيل الضرائب من أهم مهام الحكومة فعلى المجموع من هذه الضرائب يمكن تسيير أمور الحكومة ٠ (أو كان من بين الواجبات الأساسية المنوطة بالحكومة جمع الضرائب التى يعتمد على محصولها فى تسيير الأمور) ٠ فكانت السجلات المالية الدقيقة والمحفوظة فى الأرشيف على الأقل فى الفترة الأولى المبكرة من قيام الدولة، تحتوى تفاصيل تقديرات الضرائب على المساكن والأراضى المزروعة والميزانيات المنتظمة من الدخل والانفاق ، وكمثل الحال فى الدول الاسلامية السابقة ، كان هناك ثلاثة أنواع من الضرائب المنتظمة : أولها كانت الضرائب على انتاج الريف من المحاصيل والأسماك والماشية ، وفى بعض المناطق كانت الضرائب على القمح والمنتجات الزراعية الأخرى تستحق كنسبة من المحصول ، (العشر من حيث المبدأ ولكن فى الواقع كانت أكثر من ذلك بكثير) ٠ وفى مناطق أخرى كانت تقدر على مساحة المناطق القابلة للزراعة ، وكانت بعض الضرائب تجمع نقدا وبعضها يجمع عينا خاصة ضريبة القمح الذى يمكن تخزينه لفترة طويلة ٠ وكان ثانى نوع من الضرائب هو الضرائب المتنوعة على الأنشطة فى الحضر ، على الانتاج المباع فى الأسواق ، وعلى الحوانيت والمحال والحمامات العامة والخانات ، وعلى الأنشطة الصناعية (النسيج والصياغة والدباغة) وعلى البضائع المستوردة والمصدرة ، وكانت هناك رسوم مستحقة على الطرق الرئيسية لمواجهة النفقــات اللازمة لصيانتها والحفاظ عليها ٠ وكان ثالثها الضرائب الشخصية (الجزية) يدفعهــا المسيحيون واليهود ، ولم يكن المسلمون يدفعون ضرائب شخصية منتظمة ٠ وبالاضافة الى هذه الضرائب المنتظمة كانت هناك مدفوعات طارئة فى وقت الحاجة ، وفى بداية الامبراطورية كانت هذه الضرائب تحدد بعناية وتخصص لأغراض مختلفة ، مثل الخزينة الخاصة بالحاكم أو أفراد من

عائلته ، ومرتبات ونفقات الولاة والصناجق وتعويضات ملاك الطيمار ، وبحلول القرن السابع عشر أصبح هذا النظام فى حالة تدهور حيث زادت الاحتياجات المالية للحكومة (وعلى الأخص لجيشها) عن امكانية تخصيص عائدات الضرائب لمثل هذه الأغراض ، ولهذا فقد تم احلال نظام الالتزام محل النظم الآنف ذكرها tax-farms ، وهو نظام يتولى فيه الأفراد سواء أكانوا تجارا أم مسئولين تحصيل ضريبة معينة ، وارسال العائد المحصل لمثل هذه الأغراض التى تحددها الحكومة بعد اقتطاع نسبة منها كعمولة ، وبنهاية القرن السابع عشر أصبحت بعض الالتزامات تورث بالفعل (أو أصبحت وظيفة الملتزم وراثية فى بعض الأحيان . أو أصبحت المناطق التى يجمع منها الملتزم ، تورث فى بعض المجالات) .

وفى بواكير الامبراطورية (أو فى المراحل الأولى من تاريخ الامبراطورية) ، كانت معظم الوظائف الرئيسية فى الحكومة من نصيب قادة الجيش ، كما انضم الى الحكومة أيضا أعضاء الجماعات الحاكمة السابقة فى البلاد التى اندمجت فى الامبراطورية ، والطبقة المتعلمة من السكان فى المدن ، وبحلول القرن السادس عشر كانت وظائف الوزراء وقادة الجيش وحكام الأقاليم تختار من بيت الحاكم نفسه ، وكان أعضاء هذا البيت من الذين جندوا من معتنقى الاسلام فى البلقان ، أو من المماليك القادمين من القوقاز ، أو من أفراد عائلات الحكام السابقين ، وكان من الممكن أيضا لأبناء من كانت لهم مناصب مهمة فى الحكومة ، أيا كانت جذورهم ، أن ينضموا للبيت ، فكلهم كانوا يعتبرون عبيد الحاكم ، اذ كانوا يدربون بعناية للخدمة فى القصر ، ثم يترقون الى مناصب فى القصر أو فى الجيش أو الحكومة . وقد اعتمد الترقى على الرعاية أو الانتساب الى صاحب حيثية ، فيستطيع المسئول النافذ أن يؤمن وظائف لأولئك الذين ينتسبون له بالعائلة أو بالجذور العرقية أو بأية طريقة أخرى ، وقد كان الكتاب والمسئولون الماليون يتمون تدريبهم بعد تعليم رسمى نظرى فى المدرسة ، وكان هناك عنصر وراثى فى تكوين الطبقة البيروقراطية (القلمية) إذ كان الآباء يأتون بأبنائهم للخدمة .

وبهذه الطريقة كان الحاكم قادرا على احكام سيطرته على النظام الحكومي كله ، وهكذا يعتمد على قدرته في ممارسة السلطة ، وفي الجزء الأول من القرن السابع عشر جاءت فترة ضعفت فيها قوته وتبعها فترة من الانتعاش في قوة الحكومة ولكن بشكل مختلف ، وأصبح الصدر الأعظم أكثر تسلطا ، والطريق الى الترقي من خلال القصر أصبح أقل منه من خلال بيت الصدر الأعظم وكان لهذا أسباب عدة : أحدها كان التضخم الذي سببه تخفيض قيمة العمرة ، واستيراد المعادن النفيسة الى منطقة البحر المتوسط من المستعمرات الاسبانية في أمريكا ، ومالت الامبراطورية الى أن تصبح أقل أوتوقراطية (الأوتوقراطية هي حكم المفرد المطلق) وأكثر من أوليجاركية (الأوليجاركية هي حكم الصفوة أو الأقلية) المسئولين الأقوياء الذين تربطهم العصبية لمنشئهم في بيت واحد أو لتلقيهم العلم معا أو — وهذا هو الأغلب — لقرابتهم أو ارتباطهم بأواصر النسب والمصاهرة .

وقد اتخذ تنظيم العمل الحكومي وطرائقه ، شكل النموذج الملكي الايراني الذي عبر عنه نظام الملك وكتاب آخرون من نفس النوع : أن الحاكم العاقل العادل يجب أن يقف بعيدا عن طبقات المجتمع المختلفة ليتمكن من تنظيم الأنشطة فيه ، ويحافظ على التناسق الكلي ، وبشكل مبدئي ، كان المجتمع العثماني منقسما بشكل محدد الى الحكام (العسكر) والرعية ، وكان تعريف العسكر يشمل كبار المسئولين وأصحاب التيمار وأفراد الفصائل المسلحة من المنظمين والمؤقتين ، وكانوا جميعا مستثنين من الضرائب الخاصة الموسمية التي أصبحت نوعا من الضرائب الشخصية (ضريبة الرأس) ؛ وبالتالي أصبح لهم وضعهم المميز المقتصر عليهم ومن حيث المبدأ ، فقد كان هؤلاء الذين حازوا هذه الوضعية المميزة ، هم وحدهم الذين يعينون في المناصب الحكومية . وكان الانكشارية بشكل خاص يخضعون لنظام خاص صلوم تماما ، ولم يكن مسموحا لهم بالزواج أو العمل بالتجارة طالما كانوا في الخدمة، واذا تزوجوا بعد التقاعد فليس بامكان أبنائهم الالتحاق بالقوات ، وكان ذلك الفصل ظاهرا في حياة الحاكم

المنعزل في القاعات الداخليــة من قصر توبكابي على التلال المطلة على البوسفور ، يعيش وسط عبيده وحريمه ، ولم يحدث على الاطلاق بعد فترة حكم سليمان (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) أن حدث زواج رسمي (زواج موثق) من العائلات العثمانية حتى لا تكتسب نفوذا ، وكان أيضا باديا في وجود ثقافة بلاط راقية في القصور ولغة تركية عثمانية ازدادت ثراء من الفارسية والعربية ، وتعليم شــمل الأدب الفارسي العفيف الى جانب الأدب الديني العربي ٠

وعلى أية حال ، لم يكن الحفاظ على النظام أو تحصــيل الضرائب ممكنا بدون تعاون الرعية ، فالحاكم وعسكره كانوا ينظرون الى الرعيــة لا كمجموعة من الأفراد يتم التعامل معهم بشكل مباشر ، ولكن كمجموعة من الجماعات (الطوائف) ٠

واذا كان من اللازم التعامل مع قطاع معين من الشعب بشكل منفصل لجمع الضرائب أو الخدمات الأخرى التي تؤدى للدولة ، فقد كانوا يعتبرون وحدة واحدة ، وكان يتم التعامل مع أحدهم كوسيط ، وتتعامل الدولة مع القطاع من خلاله ، وعادة ما يكون أحد الذين تقبلهم الجماعة وأيضا الحكومة ، ويمكن أن تكون له وضعية معنوية ، وأيضــا بعض الاستقلالية وحرية الحركة ، ويتوسط في ابلاغ تعليمات الحكومة وأوامرها للجماعة ، كما يعبر عن مشاكل طائفته ومطالبهم من الحكومة ، ويساعد أيضــا على حفظ السلام والنظام في المجموعة ، ويسوى النزاعات والصراعات بالتحكيم قبل أن تصل الى نقطة يصبح تدخل الحكومة فيها ضروريا ٠

وكانت هذه الوحدات مختلفة النوع ، من حيث جمع الضرائب ، فكانت الصنجقية تنقســم الى أقسام أصغر ، أى الى مدن صغيرة ، أو قرى أو قبائل رعوية ، وكانت المدن تقسم الى أحياء (محلات أو حارات) ، رغم أن هذا المصطلح كان يستخدم استخدامات مختلفة ومتباينة تباينا شديدا ، فيمكن أن يضم الحى بضع مئات أو عدة آلاف من السكان ، وكانت الحرف والمهن المختلفة تنظم بشكل منفصل لأغراض جمع الضرائب

وحصر القوى البشرية الماهرة ، حيث كانت هناك عدة مناسبات كانت الدولة تلزم فيها طوائف الحرفيين بالمشاركة فى المواكب الرسمية ، ويمكن أن نتحدث عن هذه المجموعات الحرفية فى العصر العثمانى كما لو كانت معادلة تقريبا للطوائف الحرفية فى أوربا فى القرون الوسطى ، والتى كان لها بعض الوظائف الأخرى بخلاف تحصيل الضرائب أو توفير العمالة الماهرة . وعلى أية حال ، فلم تكن طوائف الحرفيين هذه مكتفية ذاتيا ، بمعنى أنها تتشكل بمباركة من الحكومة العثمانية .

وقد كان للمجتمعات اليهودية والمسيحية المختلفة وضعية خاصة ، لأنهم كانوا يدفعون الجزية (ضريبة الرأس) ولهم أنظمة قانونية شرعية للقوانين الشخصية . ولأن الحكومة أيضا كان لابد لها من أن تتأكد من ولائهم ، فى العاصمة والأقاليم ، فقد اعترفت الحكومة بزعيم روحى واحد لكل جماعة وكان له سلطة قضائية خاصة ، وكان مسئولا عن جمع الجزية والحفاظ على النظام فى طائفته ، وبهذه الطريقة تكامل غير المسلمين فى الجسد السياسى ، وان لم يكونوا منتمين له بشكل كامل ، ولكن كان يمكن للفرد منهم أن يرتفع الى منصب حساس ذى قوة ونفوذ ، فاليهود كانوا مهمين فى الخدمة المالية فى القرن السادس عشر ، ونحو نهاية القرن السابع عشر أصبح اليونانيون هم أهم المترجمين فى مكتب الصدر الأعظم ، كما كان منهم حكام للمقاطعتين الرومانيتين فاليشيا Wallachia ومولدافيا Moldavia (الأفلاق والبغدان) ، ولم يكن يبدو أنهم يعيشون فى عزلة أو تحت ضغط ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحرية التجارة والعبادة والتعليم ، وكانوا أحرارا فى حدود معينة ، كما كان بامكانهم القيام بمعظم الأنشطة الاقتصادية ، وكان اليهود مهمين فى المصارف ، واليونانيون فى التجارة البحرية ، ومع القرن السادس عشر أصبح للأرمن أهمية فى تجارة الحرير الايرانى .

العثمانيون والتراث الاسلامى

لقد عبرت ألقاب الحاكم العثمانى ، مثل « بادشاه » أو سلطان ، عن علاقته بتراث الملكية الايرانى الفارسى ، وكان أيضا وريثا لتراث

اسلامى محدد وبامكانه الادعاء بممارسة السلطة الشرعية بالمنظور الاسلامى ، وكان يبدو هذا الادعاء المزدوج فى الألقاب المستخدمة فى الوثائق الرسمية :

جلالة السلطان المنتصر المؤزر بنصر الله ، لباسه النصر ، الباديشاه الذى يطاول مجده السماء ، ملك الملوك ، تاج الأسرة الحاكمة ، ظل الاله الوهاب ، خاتم الملك وجوهر الحظ ، سليل العدالة وكمال قوة الملك ، بحر الرحمة والانسانية ، ومنجم جواهر الكرم ، ومصدر ذكريات الشجاعة ، وتجسيد أنوار السعادة ، مقيم حمى الاسلام ، العادل فى تاريخ الزمان ، سلطان القارتين والبحرين ، وحاكم الشرقين والمغربين ، وخادم الحرمين وسمى رسول الانس والجن ، السلطان محمد خان (٣) .

وقد استعمل العثمانيون لقب الخليفة فى بعض الأحيان أيضا ؛ ولكنه لم يكن فى ذلك الوقت يعنى تلك السلطة المتفردة العالمية التى عرف بها الخلفاء السابقون ، ولكنها كانت تعنى أن السلطان العثمانى هو أكبر من مجرد حاكم محلى ، وأنه يستخدم سلطاته فى أغراض يفرضها الدين ، وفى بعض المناسبات عبر الكتاب والأدباء العثمانيون عن وضع السلطان المهيمن فى عالم الاسلام باضفاء لقب (الخليفة المعظم) عليه .

وقد دافع العثمانيون عن حدود الاسلام ووسعوها كلما أمكن ، وقد واجههم تهديد من عدة جهات ، وكان الصراع بين العثمانيين والصفويين فى ايران فى الشرق حول السيطرة على الأناضول والعراق قد اكتسب تدريجيا نبرة دينية عالية ؛ لأن الصفويين أعلنوا التشيع مذهبا رسميا للأسرة الحاكمة ، بينما أصبح العثمانيون أكثر التزاما بالسنة بتوسع امبراطوريتهم لتشمل المراكز الرئيسية للتراث الاسلامى الراقى ، وعلى الجانب الآخر منهم كانت تقف قوة أوربا المسيحية ، وكانت الامبراطورية البيزنطية قد اختفت مع سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وازدهرت الدولة الأرثوذكسية فى روسيا ، وادعت ميراث الدولة البيزنطية ، ولم تبدأ فى التقدم جنوبا باتجاه البحر الأسود حتى نهاية القرن السابع عشر ،

ولم يأت التهديد الرئيسى منها بقدر ما جاء من القوى الثلاث الكاثوليكية العظمى فى شمال وغرب حوض المتوسط : اسبانيا ، والامبراطورية الرومانية المقدسة وامتدادها الجنوبى فى ايطاليا ، وفينيسيا (البندقية) ومستعمراتها الشرقية فى البحر المتوسط ، وخلال القرن السادس عشر كان هناك صراع مع اسبانيا للسيطرة على غرب المتوسط والمغرب • ومع فينيسيا (البندقية) حول جزر شرق المتوسط ، ومع الامبراطورية الرومانية المقدسة للسيطرة على حوض الدانوب ، وبنهاية القرن استقرت حدود شبه ثابتة تقريبا ، فسيطرت اسبانيا على غرب المتوسط (عدا بعض نقاط على ساحل المغرب) ، وسيطر العثمانيون على حوض الدانوب حتى المجر ، وفقدت فينيسيا (البندقية) قبرص وجزرا أخرى ولكنها احتفظت بكريت ، وقد تغير هذا التوازن جزئيا خلال القرن السابع عشر ، ففتح العثمانيون كريت آخر المواقع الحصينة العظيمة لفينيسيا (البندقية) ، ولكنهم خسروا المجر لصالح الامبراطورية الرومانية المقدسة كما خسروا — أى العثمانيون — بعض أراضيهم الأوروبية وانتهى الأمر بمعاهدة كارولو فيتز (١٦٩٩) •

ولم يكن السلطان حاميا لحدود الاسلام فقط ، ولكنه كان أيضا حاميا وراعيا للأماكن المقدسة كمكة والمدينة فى الحجاز ، والقدس والخليل فى فلسطين ، ولكونه حاكم مكة والمدينة كان فخورا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، وقد سيطر أيضا على الطرق الرئيسية للحجيج لتنظيم الحج السنوى الذى كان أحد واجباته الرئيسية ، وكان يمارس هذه المناسبة برسميات ضخمة واحتفال شعبى رئيسى ، وكان الحج تأكيدا سنويا للسيادة العثمانية فى قلب العالم الاسلامى •

وقد كان آلاف الحجيج يسافرون كل عام الى المدن المقدسة من كل أنحاء العالم الاسلامى ، وقد قدر رحالة اوروبى كان فى مكة فى موسم الحج من عام ١٨١٤ بأنه كان هناك ما يقرب من سبعين ألفا من الحجيج ، وكانت مجموعات الحجيج تقصد المدن المقدسة من اليمن ومن أواسط الجزيرة العربية ، وعن طريق الموانىء من السودان ومن العراق عن طريق

أواسط الجزيرة العربية ، وقوافل الحج الرئيسية كانت تخرج من القاهرة ودمشــــق ، وكان لقافلة دمشق نصيبها الأكبر من الاهتمام فى العصر العثماني ؛ لأنهــا كانت مرتبطة باسطنبول عن طريق برى رئيسى ، يمكن السيطرة عليه بشكل أكثر احكاما ، وفى كل عام يغادر اسطنبول مبعوث خاص يعينه السلطان قاصدا دمشق ، مصحوبا بكبار المسئولين أو أفراد من العائلة العثمانية الذين يقصدون الحج ، وكان هذا المبعوث يحمل معه (الصرة) وهى أموال ومؤن مرسلة الى سكان المدن المقدســـة ، وكانت أموال الصرة تدفع جزئيــا من حاصــلات وعائدات الأوقاف الامبراطورية المخصصة لهذا الغرض (وحتى القرن الثامن عشر كانت هذه الصرة ترسل بطريق البحر الى مصر ثم تنتقل الى هناك بصحبه حجاج القاهرة) ، وفى دمشق ينضم مبعوث السلطان ومن معه الى قافلة الحج التى ينظمها حاكم المدينة ، والتى يقودها مسئول معين كقائد للحجيج (أمير الحج) ، ومنذ بدايات القرن الثامن عشر كان يقوم بذلك والي دمشق بنفســـه ، وبعـد قرون ، في أواخر العصر العثماني قبـل تغير وسائل المواصـلات بقليل ، والتى غيرت بدورها طرق أداء الحج ، وصف رحالة انجليزى هو الرحالة دوتى C. M. Doughty قيام قافلة الحج من دمشق حين يتحرك الحجاج خارجين من المدينة فى احتفال مهيب :

« وحين طلع الفجر الجديد ، لم نكن قد تحركنا بعد ، وعندما ارتفع النهار رفعت الخيام ، وسيقت الجمال لتبرك بجوار أحمالها ، وانتظرنا لنسمع طلقة المدفع التى تعلن عن بداية حجة العلم وسمعناها نحو الساعة العاشرة تنطلق ، وحينئذ رفعت الأحمال على ظهور الجمال بنظام تام وبلا أدنى فوضى ، وامتطى آلاف الركاب الذين ولدوا فى بلاد القوافل ابلهم فى سكون ، وظل جملة الابل واقفين مقيمين على كعوبهم ، وكان عليهم ، هم وخدم الخيام وحرس المعسكر أن يسيروا على نعالهم تلك الفراسخ الثلاثمائة ، حتى ولو أغمى عليهم ، ثم ان عليهم لن يجرجروا أقدامهم المنهكة بعد الحج الى الشمال مرة أخرى ، وحين انطلق المدفع ثانيا بعد هنيهة ، تقدمت كوكبة الباشا ، وبعدها راس القافلة ، وبعدما يقرب من ربع الساعة بدأنا ، نحن

الذين نحتل المؤخرة ، بعـد أن تحرك الركب أمامنا فى ضرب جمالنا ، وتحركت رحلة الحج العظيم » (٤) ٠

ويتحرك ركب الحج من دمشق وهم يحملون المحمـل وهو هيكل خشبى مغطى بقماش موشى ويعلوه بيرق النبى ﷺ المحفوظ فى قلعـة دمشق ، ويتحركون جنوبا على طريق عليه من أماكن الراحة المزدوة بقلاع وحاميات ، حتى يصلوا الى مكة (المكرمة) ، وعند وصولهم يصبح محافظ دمشق صاحب الاشراف العام على الحج بكامله ، وقيادة قافلة الحج كانت فى الواقع من أهم واجباته وكان الطلب على عائدات دمشـق والأقاليم السورية الأخرى يشكل أهم مورد لمواجهة نفقاته ٠ أما القافلة التى كانت تبـدأ من القاهرة ، فلم تكن أقل أهمية من قافلة دمشق ٠ فكانت تضم حجاجا من المغرب قدموا الى مصر بالبر أو البحر وكذلك المصريين ويقودها أيضا أمير الحج ، وتحمل معها المحمل الخاص بها وكذلك الكسوة وهى ستار لتغطية جوانب الكعبة ، ويخترق موكبها سيناء وغرب الجزيرة حتى مكة ، وكان أمير الحج يحمل معه المعونات للقبائل على الطريق ، ولم يكن منع الهجمـات التى يقوم بها رجال القبـائل على القوافل ممكنا فى كل الأحوال ، وذلك اما لأن المعونات لم تدفع ، أو بسبب الجفاف ، الذى يدفع بالبدو لمحاولة الاغارة على موارد مياه القوافل ٠

وقد كانت أكثر الواجبات الزاما للحاكم الاسلامى ، والتى كانت تعبر عن تحالفه وتقوى صـلاته مع السكان المسلمين ، هى الحفاظ على الشريعة ، وانشاء المؤسسات التى من شأنها الحفـاظ على الشريعة ٠ وفى العصر العثمانى ، كانت المؤسسات الدينية المتحدثة باسم الشريعة أكثر التصاقا بالحاكم (السلطان) عن ذى قبل (عن الفترات السابقة على قيام الدولة العثمانية) ، وكانت مدرسة الفقه الحنفى هى المفضـلة لدى العثمانيين ، وكانت الحكومة تعين القضاة من فقهائها وتدفع رواتبهم ، وقد أنشأ العثمانيون فصيلة من العلماء الرسميين موازية للفصائل البيروقراطية والسياسية والعسكرية ، وكان هناك تسلسل بين الرتب فى هذه الفصائل

المختلفة ، وقد لعب هؤلاء العلماء الرسميون دورا مهما فى الادارة الامبراطورية ، وكان على رأسهم القاضيان العسكريان (قاضى عسكر) اللذان كانا عضوين فى ديوان السلطان ، وكانا يرأسان قضاة المدن الكبرى ويليهم قضاة المدن الصغرى أو المناطق ، وكان الاقليم يقسم الى مناطق (قضاء) ، لكل منها قاض مقيم ، وكانت وظائفه أكثر من شرعية حيث كان يقضى فى القضايا المدنية والمنازعات ، وكان يسجل التعاملات المالية من المبيعات والقروض والمنح والعقود بشكل يتفق مع الشريعة ، وتعامل أيضا فى المواريث وتقسيم العقارات والأراضى بين الورثة طبقا لنصوص الشريعة ، وكان أيضا الوسيط الذى يصدر السلطان والولاة الأوامر عن طريقه · (وكل هذه المستندات والوثائق من مختلف الأنواع كانت تسجل بعناية وتحفظ فى أرشيف محفوظات القضاء وهى أهم مصادرنا عن التاريخ الاجتماعى أو الادارى عن الأراضى التى حكمها العثمانيون وقد بدأ المؤرخون فى استخدامها حاليا) ·

وقد كانت الحكومة تعين رجال الافتاء الأحناف لتفسير الفقه ، وكان على رأسهم مفتى اسطنبول « شيخ الاسلام » الذى كان المستشار الدينى للسلطان ، وكان يعتبر أعلى الشخصيات فى النظام الدينى ككل ، وكان من العلامات على حرية أحكامه أن يستطيع الحد من سلطة مراكز القوى ويؤنبها ، وأنه ليس من ضمن المسئولين الكبار فى ديوان السلطان ·

وكان أولئك المختارون للمناصب العليا فى الهيكل القضائى ، يتعلمون فى المدارس الامبراطورية ، وخاصة تلك الموجودة بالعاصمة ، وكان هناك مجمع متخم للمدارس التى أسسها السلطان محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية فى القرن الخامس عشر ، وأخرى أنشأها سليمان أو « سليمان العظيم » كما سماه الأوربيون فى القرن السادس عشر · وكان كل كبار المسئولين فى الخدمة من خريجى هذه المدارس · وقد سيطرت أيضا على وظيفة القضاء كما سيطرت على الوظائف الأخرى نفس العوامل من المحسوبية والوراثة ، التى أصبحت أكثر أهمية بمرور الوقت، فأبناء كبار المسئولين كان يسمح لهم بالقفز وتخطى مراحل فى مسار

الترقيات ، وكان بالامكان أيضا لهؤلاء الذين تعلموا للخدمة فى المجـال العلمى ، الانضمام الى البيروقراطية أو حتى الخدمة العسكرية أو السياسية بالواسطة أو غيرها ٠

وقد استخدم السلطان قوته من حيث المبدأ لاعلاء الشريعة ، وكان من المظاهر المعبرة عن ذلك ، أن أولئك الذين كانوا يعملون فى القضاء كانوا يعتبرون من العسكر ، أى من أفراد الصفوة الحاكمة وأصحاب الامتيازات المالية والقضائية ، وكذلك أيضاً كان السادة الأشراف المنحدرون من نسل النبى ﷺ ، والذين سجلت أسماؤهم فى سـجلات يقوم عليهـا أحدهم « نقيب الأشراف » ، الذى يعينه السلطان فى كل مدينة كبيرة ، وكان نقيب الأشراف الذى يرأس طبقة السادة فى اسطنبول ، شخصية كبرى فى الامبراطورية ٠

وفى الواقع ، لم تكن الشريعة هى القانون الوحيـد السائد فى الامبراطورية ، فقد وجد السلاطين العثمانيون أنه من الضرورة أن يصدروا قوانينهم الخاصة وتوجيهاتهم للحفاظ على سلطتهم وضمان سيادة العدل مثل من سبقهم من الحكام ، وكانوا مستندين فى ذلك للقوة التى خولتهـا الشريعة ذاتها للحكام طالما مارسوها فى حدود الشريعـة ، وكل الحكام المسلمين قد استنوا التشريعات،ولكن ما بدا فريدا فى النظام العثمانى أنهم شكلوا تراثا متراكما تجسد فى (القانون‌نامة) ، التى كانت عادة ما ترتبط بأسماء محمد الثانى أو سليمان ، المعروف فى التراث العثمانى باسم القانونى ، وكانت هذه القوانين من أنواع مختلفة ، بعضها تظم دفع الضرائب التقليدى للأقاليم المختلفة عند فتحها ، والأخرى تناولت المسائل الجنائية ، وحاولوا تطويع قوانين الأقاليم المفتوحة وعاداتها لتصبح متوافقة مع قانون عثمانى موحد ، وبعضـها يتعلق بنظام الترقى فى الحكومة ، والاحتفالات فى القصـور ، وشئون العائلة الحاكمة ، وقد قام القضـاة بتطبيق هذه القوانين ، ولكن أهمهـا جميعا كان ما يتعلق بالشئون الجنائية ، وعلى الأخص تلك التى تمس أمن الدولة ، وكانت تعرض على

مجلس السلطان (الديوان السلطانى) أو الوالى Provincial governor
ولكن فيما بعد يبدو أن القانون الجنائى قد تعرض للاهمال .

الحكومات فى الأقاليم العربية

كانت الامبراطورية العثمانية ، قوة أوربية آسيوية أفريقية ، لها مصالح حيوية تحميها ، وأعداء يواجهونها ، فى كل هذه القارات الثلاث . وخلال معظم سنوات وجودها ، كان جزء كبير من مواردها مخصصا للتوسع فى شرق وأواسط أوروبا والسيطرة على مستعمراتها الأوروبية التى كانت تضم معظم سكان الامبراطورية ، كما كانت تغل معظم الايرادات ، ومنذ أواخر القرن السابع عشر وما بعده كانت مشغولة بالدفاع ضد التوسع النمسوى القادم من الغرب ، ومن الروس من الشمال فى المنطقة الواقعة حول البحر الأسود ، وعليه يجب النظر الى مكانة الأقاليم العربيـــة فى الامبراطورية مع البلقان والأناضول ، الا أنها كانت لها أهميتها الخاصة ، فالجزائر فى الغرب كانت نقطة حصينة فى مواجهة التوسع الاسبانى ، وبغداد فى الشرق كانت مركزا لمواجهة الصفويين ، أما ســـوريا ومصر والحجاز فلم تكن معرضة لنفس النوع من التهديد من القوى الخارجية ، بعد أن توقفت المحاولات البرتغالية فى القرن السادس عشر لمد سيطرتها البحرية على البحر الأحمر ، وكانت لهذه البلاد (مصر وسوريا والحجاز) أهميتهـا بأشكال أخرى ، فعائدات مصر وسوريا كانت جزءا رئيسيا من الميزانيـة العثمانية ، كما كانتا المواقع التى ينظم فيها الحج السنوى الى مكة ، وقد أعطت السيطرة على المدن المقدسة للعثمانيين نوعا من الشرعية والحق بجذب اهتمام العالم الاسلامى ،لم تكن تتمتع به أية دولة اسلامية أخرى .

ولهذا ، فقد كان من الأهميـــة أن تحتفظ حكومة السلطان بالأقاليم العربية تحت سيطرتها ، وكان لهذا أكثر من طريقة ، ففى الأقاليم البعيدة عن اسطنبول بمسافة لا تسمح بارسال الجيــوش الامبراطورية بشكل منتظم ، لم يكن ممكنا اتباع نفس الطريقة التى تتبع مع الأقاليم القريبة ،

أو البلاد الواقعة على الطرق الامبراطورية الرئيسية ، وبمرور الوقت بعد الغزوات الأولى ظهرت أنظمة مختلفة من الحكم وتنامت فى ظل توازنات مختلفة بين السلطة المركزية والقوى المحلية ٠

وأما الأقاليم السورية فى حلب ودمشق وطرابلس ، فكان من الواجب حكمها بشكل مباشر بسبب عائداتها من الضرائب ، وموقع حلب من التجارة العالمية ، وموقع دمشق كأحد مراكز تنظيم الحج ، وموقع القدس وحيفا كمدن مقدسـة (القدس موقع المعراج والخليل حيث دفن ابراهيـم عليه السلام) ، وكانت الحكومة فى اسـطنبول قادرة على الاحتفـاظ بالسيطرة المباشرة عن طريق البر من خلال الأناضول وكذلك عن طريق البحر ، ولكن ذلك كان مقصورا على المدن الرئيسية وسهول انتاج القمح وما حولها والموانى على الساحل ، أما فى الجبال والصحارى فكانت السيطرة أكثر صعوبة نتيجة لطبيعة الأرض ، وذلك الى جانب عوائدها الضعيفة ، وكان كافيا للحكومة العثمانية أن تقر سلطة العائلات المحلية من الملاك طالما قاموا بتحصيل الضرائب وارسال عائداتها ، وطالما لم يهددوا الطرق التى تمر بها التجارة أو الجيوش ، وكذلك كان الحال مع زعماء القبائل الرعوية فى الصحراء السورية ، وتلك الواقعة على طرق الحج الى مكة فكان لها اقرار رسمى ، وقد كانت سياسة المناورات والدس بين عائلة وأخرى أو بين فرد من عائلة وآخـر ، كافية فى العـادة للحفاظ على التوازن بين المصالح الامبراطورية والمحلية ، ولكن تلك المصالح كانت عرضة للتهديد فى بعض الأحيان ٠ ففى بداية القرن السابع عشر ، اتفق حاكم حلب المشاغب مع أحد ملاك الأراضى المعروف بالقوة والنفوذ فى جبل الشوف فى لبنان هو فخر الدين المعنى (ت ١٦٣٥) ، واستطاعا تحدى الامبراطورية العثمانية مع بعض التشجيع من الحكام الايطاليين لفترة من الوقت ، وفى النهاية تم القبض على فخر الدين ، وأعدم ، وبعـد ذلك أنشأ العثمانيون محافظة رابعة عاصمتها صيدا لمراقبة ملاك الأراضى الأقوياء فى لبنان ٠

أما العراق ، فكان مهما بشكل أساسى كقلعة أمام الغزو القادم من ايران ، وكانت ثروة الريف قد تراجعت كثيرا مع تدنى نظـام الرى ،

ومناطق كثيرة كانت تحت سيطرة القبائل الرعوية وكبار رجالها • ليس فقط فى شرق الفرات ولكن أيضا فى الأراضى الواقعة بينه وبين دجلة ، وكانت السيطرة العثمانية المباشرة فى أغلبها ، محدودة فى بغداد المركز الذى كان ينظم فيه الدفاع ضد ايران ، بالاضـــافة الى المدن الكبرى على الطرق الممتدة من اسطنبول حتى بغداد وخصوصا الموصل فى أعالى دجلة، وفى الشمال الغـربى ، أقر العثمانيون مجمـوعة من العـائلات الكردية كمحافظين محليين ، أو جامعى ضرائب من أجل دعم المواجهة مع الايرانيين وفوض العثمانيون حاكما اقليميا فى شاهريزر من أجل السيطرة عليهم، والى الجنـوب كانت البصرة مهمة كقاعدة بحرية طالما كان هناك تهديد برتغالى أو هولندى للخليج ، ولكن فيما بعد تقلصت البحرية العثمانية هناك ، وكانت هناك نقطة ضعيفة فى النظام العثمانى ، هى المدن الشيعية المقدسة فى النجف وكربلاء ، التى كانت مرتبطة بشكل وثيق بالمراكز الشيعية فى ايران ، وكانت هى النقاط التى شعت منها العقيدة الشيعية على الريف المحيط •

وكانت مصر،مثل سوريا،مهمة لأسباب استراتيجية ومالية ودينية: فقد كانت احدى القلاع المهمة فى السيطرة العثمانية على شرق المتوسط. كما كانت دولة ذات عائد ضرائبى مرتفع ، ومركزا قديما لتعليم الاسلام ، وموقعا لتنظيم الحجيج ، وكانت السيطرة عليها أكثر صعوبة من سوريا لبعدها عن اسطنبول وطول الطريق الذى يخترق سوريا ، ولأنها تملك الموارد اللازمة لتكون مركز قوة مستقلا : ريف غنى ينتج فائضا هائلا لاستخدام الحكومة ، ومدينة كبرى ذات تراث طويل كعاصـــمة ، ومنذ البداية كانت الحكومة العثمانية مترددة فى اعطاء سلطة كبيرة لواليها فى القاهرة ، وكان يستبدل كثيرا ، وكانت سلطاته محوطة بالضـوابط ، وعندما فتح العثمانيون مصر أسسوا عددا من الفصائل العسكرية ، وخلال القرن السابع عشر أصبحت هذه القوات مندمجة فى المجتمع المصرى ، وتزاوج العسكر من العائلات المصرية ، ومارســوا التجـارة والحرف ، واكتسب المصريون الحق فى الانضمام لهذه القوات ، ورغم أن قادة هذه

القوات كانوا يرسلون من اسطنبول،الا آن بعض الضباط الآخرين كانوا من العثمانيين المحليين الذين كان لهم عصبية محلية ٠

وبنفس الطريقة تزايد التضامن بين بعض الجماعات المملوكية،وعندما احتل العثمانيون القاهرة ، امتصوا بعض الصفوة العسكرية السابقة من الدولة المملوكية فى نظامهم الحكومى ، وليس واضحا ما اذا كان هؤلاء المماليك قد استطاعوا انعاش عزوتهم باستجلاب رجال جدد من القوقاز أو ما اذا كان الضباط الأتراك هم الذين أنشأوا منازل أخرى جديدة باستخدام نظام مشابه فى التعبئة والتدريب ، وأيا كانت أصولهم فقد ظهرت فى القرن السابع عشر مجموعات من المماليك العسكريين من القوقاز وغيرها ، والذين كانوا أقوياء بما يكفى لتبوؤ بعض المناصب الحساسة في الحكومة ، واحكام السيطرة على معظم الثروة الريفية والحضرية فى مصر ، ومنذ حوالى ١٦٣٠ ، حازت البيوت المملوكية سلطة ونفوذا كبيرين ، وفى الستينات من القرن السابع عشر تمكن الولاة من استعادة نفوذهم ، ولكن ذلك تعرض للتهديد مجددا من كبار الضباط فى احدى هذه الفصائل العسكرية وهى الانكشارية فى نهاية هذا القرن ٠

وقد بدأت عملية تقلص السلطة فى مصر وانتشرت فى بعض المناطق الهامشية من الامبراطورية ، ففى الحجاز كان كافيا للعثمانيين الاحتفاظ بالسلطة على مرفأ جده ، حيث كان يحكمها وال عثمانى لفرض سيطرتهم على المدن المقدسة مرة فى العام فى موسم الحج ، ويأتى الحجيج وعلى رأسهم مسئول كبير من الحكومة ، حاملا الدعم والمعونة لسكان مكة والمدينة والقبائل التى على الطرق ٠ وكان الاقليم أفقر من أن يغل عائدات على اسطنبول ، وأبعد وأصعب من أن تحكم السيطرة عليه بشكل دائم ، وقد استندت السلطات المحلية فى المدن المقدسة الى أفراد معينين من الاشراف من نسل النبى محمد ﷺ ٠ أما الى الجنوب فى اليمن ، فلم تكن هذه الدرجة من السيطرة الضعيفة متاحة بشكل دائم ، ومنذ منتصف القرن السابع عشر لم يكن هناك وجود عثمانى حتى فى موانىء الساحل ، التى كانت

تتزايد فيها أهمية « تجارة البن » ، أما فى الجبال فقد أدى غياب القوة العثمانية الى ظهور سلالة من الأئمة الزيديين ٠

وقد كانت المساحة الواقعة تحت الحكم العثمانى فى المغرب محكومة من مقر الوالى العثمانى فى الجزائر ، ولكن منذ سبعينات القرن السادس عشر ، أصبحت هناك ثلاث ولايات عواصمها طرابلس وتونس والجزائر ، وقد نشأ بها نمط عثمانى نموذجى للحكومة الاقليمية حيث يرسل الوالى من اسطنبول ، مع حاشيته ، وينشىء ادارة يعمل بها العثمانيون المحليون ، وترافقه قوات من الانكشارية المحترفين الجندين من الأناضول ، وقاض حنفى (رغم أن معظم السكان من المالكيين) وقوات بحرية من مصادر مختلفة ، وتضم الأوربيين الذين تحولوا للاسلام ، ويستخدمون أساسا للقرصنة على السفن التجارية للدول الأوربية التى كان السلطان العثمانى أو الولاة المحليون معها فى حالة حرب ٠

وخلال قرن واحد ، بدأ التوازن بين الحكومة المركزية والقوى المحلية فى التغير لمصلحة الأخيرة ، ففى طرابلس تولى العسكر السلطة الفعلية مع بداية القرن السابع عشر ، وكان ممثلهم المنتخب يشارك الوالى ، وكانت سلطة الحكم مزعزعة ، ولم يكن حجم الحياة فى الاقليم يسمح بقيام ادارة كبيرة مستديمة أو جيش كبير ، فالبلدان كانت صغيرة ، والريف المستقر المنتج المزروع كان محدوداً ، وكان من الصعب على الحكومة السيطرة على قباطنة الأسطول ، الذين أدت تصرفاتهم كثيرا الى قيام القوات البحرية الأوروبية بقصف طرابلس بالمدفعية ٠

وفى تونس ، استقر الحكم العثمانى المباشر لفترة قصيرة من الوقت، فقبل نهاية القرن السادس عشر بقليل تمرد صغار ضباط الانكشارية وشكلوا مجلسا وانتخبوا قائدا (الداى) الذى شارك الوالى فى الحكم ، وفى منتصف القرن السابع عشر بزغ شخص ثالث (الباى) الذى ترأس فصائل الانكشارية التى تحصل الضرائب الريفية ، فكان له نصيب من السلطة٠ومع بداية القرن الثامن عشر،أمكن لأحدهم أن يؤسس أسرة من

(البايات) الحسينيين ، وقد نجح البايات وحكوماتهم المحلية فى تعميق جذور وطنية ، وانشاء تحالف من المصالح مع سكان تونس ، وهى مدينة كبيرة وغنية ومهمة ، وكانت المواقع السياسية والعسكرية الرئيسية غالبا بين أيدى مماليك من الأصول الشركسية والجورجية ، مع بعض معتنقى الاسلام من اليونانيين وأوروبا الغربية ، الذين تدربوا فى بيوت البايات، وكانت الصفوة تميل الى أن تصبح تونسية بالتزاوج أو غيره من الطرائق، وكان أفراد العائلات التونسـية المحليـة يتولون المناصب الكتابيـة أو الادارية ، وكان لكل من أعضاء الصفوة الحاكمة التركيـة التونسية وأفراد العائلات المحلية ذات المكانة مصـالح مشتركة فى السيطرة على الريف ، وفائض الانتاج فيه · وقد كانت السهول الساحلية هى الأراضى التى يسهل ارتيادها من الأراضى الخصبة الواسعة ، لذا جندوا جيشـا محليا كانوا يستخلصون به الضرائب السنوية من تلك المنطقة ، وكان للحكومة والمدينة أيضا مصالح مشتركة فى أنشطة القباطنة والبحارة ، الذين كانوا غالبا من الأوربيين معتنقى الاسلام،أو من الأقاليم الشرقية من الامبراطورية ، ولكن السفن كانت توفرها وتجهزها الحكومات المحلية بالمشاركة مع العائلات الموسرة فى تونس ·

وقد كانت الجزائر أهم مركز من بين المراكز الثـلاثة للسلطة العثمانية فى المغرب ، وكان على السلطان العثمانى الحفاظ على موقع حدود غربية قوية فى عصر التوسع الاسبانى ، حتى عندما كان الشاغل الاسبانى الأعظـم قد تحول من منطقـة المتوسط الى المستعمرات فى أمريكا ، وكان لا يزال هنـاك خطـر أن تقوم اسبانيا باحتـلال ساحل المغرب ، فكانت (وهران) تحت الحكم الاسبانى فى معظم الفترة من ١٥٠٩ وحتى ١٧٩٢، فى حين كانت الجزائر قاعدة للقوة البحرية العثمانية ، التى دافعت عن المصالح العثمانية فى غرب المتوسط ، وكانت مشغولة بأعمال القرصنة على سفن الأوربيين التجارية فى أوقات الحرب (وكانت الدول الأوربية مشغولة بنفس القدر فى القرصنة واستخدمت الأسرى الجزائريين عبيدا فى سفن التجديف) ، وكانت أيضـا قاعدة لقوة عسـكرية مهمة من

الانكشارية قد تكون أكبرها على الاطلاق فى الامبراطورية عدا اسطنبول، ومع وجود هذه القوات الكبيرة، كان والى الجزائر يمكنه أن يسيطر على طول الساحل المغربى. وهنا أيضا حدث تحول فى التوازن ، فقد ظلت القوة رسميا حتى منتصف القرن السابع عشر فى أيدى الوالى الذى ترسله اسطنبول ويستبدل كل بضع سنوات ، ولم يكن قبـاطنة البحر تحت سيطرته معظم الوقت ، والعسكر كانوا مطيعين الى الحد الذى يمكنه من تحصيل الضرائب ودفع مستحقاتهم . وبحلول منتصف القرن السابع عشر ، تمكن مجلس من كبار ضباط الانكشارية من السيطرة على تحصيل الضرائب وتفويض الداى لجمعها والتأكد من تسلمهم مستحقاتهم . ومع بداية القرن الثـامن عشر ، وصلت العملية الى نهايتها المنطقية وأصبح باستطاعة الداى الحصول على منصب الوالى ولقبه من الحكومة المركزية .

وكما كان الحال فى طرابلس وتونس ، وحدت المصالح المشتركة بين الصفوة الحاكمة وتجار الجزائر ، وقاموا معـــا بتمويل واعداد أنشـطة قباطنة البحر فى القرصنة وشاركوا فى أرباح السلع المنهوبة والفدية عن المختطفين ، وفى القرن السابع عشر وصلت السفن الجزائرية حتى سواحل انجلترا وايسلنده . ولم تكن الجزائر مركزا للثقافة الحضرية مثل تونس أو القاهرة أو دمشق أو حلب ، أو ذات برجوازية محلية غنية ، ولكن كانت تحكمها ثلاث مجموعات : الانكشارية المجلوبون غالبا من الأناضول والأجزاء الشرقية الأخرى من الامبراطورية ، وقباطنة البحار ومعظمهم أوروبيون ، والتجار وأغلبهم من اليهود ، الذين كانوا يعرضون البضائع التى يستولى عليهـا القراصنة من خـلال اتصالاتهم فى ميناء ليفورنو الايطالى ، وكانت مراكز الحياة الحضرية الجزائرية تقع الى الداخل وحول المدن الواقعة على الهضبة الكبرى ، هنـــا كان الولاة الذين يعينهم (الداى) فى الجزائر يحتفظون بقواتهم العسكرية المسلحة ، التى يجند فيها الجزائريون ، أو من أفراد عائلات الانكشارية الذين لم يكن مسموحا لهم بالانضمام الى القوات الرئيسية في الجزائر ، وهنا أيضا كانت هناك بورجوازية محلية مرتبطة بشكل وثيق مع الحكومة ، وفيما وراء هذه المدن ، كان الحكم الجزائرى

ممتدا من خلال مجموعة من زعماء القبائل المحليين الذين كانوا يحصلون الضرائب ويحضرونها للاجتماع السنوى لعائدات الضرائب ، وكانت هناك مناطق لم يكن فيها حتى هذا الجهد الوسيط ، وفى الأغلب كان هناك نوع من الخضوع الى سلطة الجزائريين العثمانيين واسطنبول ، وكان ذلك الحال فى جبال قابيل وهى منطقة بدو الصحارى الذين يربون الابل ، ومدينة واحة ميزاب التى يسكنها الاباضية ، الذين يعيشون تحت حكم مجلس من الحكماء الورعين من كبار السن ٠

الفصل الرابع عشر

المجتمعات العثمانيــة

السكان والثروة فى الامبراطورية

كانت البلدان العديدة المندمجــة فى الامبراطورية العثمانية والتى تعيش فى اطار نظامها فى السيطرة البيروقراطية ، وتحت تشريع واحد ـ تشكل منطقة تجارية هائلة كان يتحرك فيها الناس والبضـــائع فى أمان نسبى ، على طرق تجارية طويلة تحميها القوات الامبراطورية ، ومزودة ـ أى هذه الطرق ـ بالخانات وبدون دفع رسوم جمركية رغم وجوب دفع رسوم محلية ، وكانت هذه المنطقة مرتبطة من ناحية بالهند وايران حيث يحكم الصفويون والمغول ، الذين حافظوا هم أيضا على اطار من الحياة المستقرة ولم يكن مجىء الأوربيين من البرتغـاليين ، والهـولنديين والفرنسـيين والانجليز الى المحيط الهندى قد شوش بعد على الأنساق التقليدية للتجارة والملاحة • والى الغرب ، كانت الامبراطورية العثمانية مرتبطة ببلدان غرب أوربا التى كانت فى ابان التوسع الاقتصادى ، خاصة مع وجود ملكيات فردية قوية ونمو السكان وانتعاش الزراعة واستيراد المعادن النفيسة من العالم الجديد فى أمريكا الاسبانية والبرتغالية ، وظهرت أنواع جديدة من السلع ذات القيمة العالية بالاضافة الى السلع القديمـــة فى التجارة العالمية على طرق التجارة الطويلة،وظلت تجارة التوابل تمر خلال القاهرة حتى القرن السابع عشر ، حتى بدأ الهولنديون فى نقل جزء كبير منها حول رأس الرجاء الصالح ، وكان الحرير الفارسى يجلب على طول سلسلة من المدن التجارية من امبراطورية الصفويين في ايران ، خلال الأناضول الى اسطنبول وبورصة أو حلب ، والقهوة التى عـــرفت لأول مرة فى القـرن

السادس عشر كانت ترد الى القاهرة من اليمن ، ثم توزع منها الى عالم المتوسط ، وفى المغرب كان العبيد والذهب والعاج تستجلب من الأراضى الرعوية أو أراضى السافانا grassland جنوب الصحارى .

ولم يعد للصناع فى المدن العثمانية نفس الأهمية التى كانت لهم فى الأسواق العالمية ، ولكن منسوجات ســوريا ، (والشاشية) وهى غطاء الرأس النســائى المتميز فى تونس ، كانت مطلوبة فى الامبراطورية نفسها ، وكان تجار أوربا الغربية يلعبون دورا متزايد الأهمية فى بعض جزئيات من هذه التجارة ؛ ولكن أهم أنواع التجارة كانت وظلت مع بلدان المحيط الهندى ، حيث كان للتجار العثمانيين دور قيادى .

وقد كان للحـكومة القوية والنظـام العام المستقر والتجارة المزدهرة ارتباط بظاهرتين أخريين فى فترة السلطة العثمانية ، كانت احداهما تزايد السكان ، وكان هذا شائعا فى كل عالم المتوسط فى القرن السادس عشر جزئيـا ، بعد أن استرد عافيته بعـد اضمحلال طويل بسبب الموت الأسود (الطاعون) ، كما كان ذلك أيضا بسبب تغيرات كثيرة فى ذلك الوقت ، وفى تقدير تقريبى يبـدو مقبولا بصـفة عامة ، أن تعداد السكان فى الامبراطورية تزايد بمقدار حوالى النصف خـلال القرن (فى الأناضول تضاعف عدد السكان الذين يدفعون الضرائب ، ولكن ذلك قد لا يكون راجعا الى الزيادة الطبيعية ، ولكن بسبب احكام السيطرة الذى جعـل بالامكان تسجيل الضرائب وجمعها من جزء أكبر من السكان) ، وبنهاية القرن أصبح اجمالى السكان فى حدود ٢٠ ـ ٣٠ مليون نسمة بشكل متساو تقريبا مع الأجزاء الأوربية والآسيوية والافريقية من الامبراطورية ، وبحلول ذلك الوقت كان سكان فرنسا تقريبا حوالى ١٦ مليون نسمة ودويلات ايطاليا ١٣ مليون نسمة ، واسبانيا ٨ ملايين نسمة ، وتنامت اسطنبول من مدينة صغيرة نسبيا فى الفترة قبل الفتح العثمانى مباشرة الى مدينة تعدادها حوالى ٧٠٠ ألف نسمة فى القرن السابع عشر ، وكانت أكبر من أكبر المدن الأوربية : نابولى ، باريس ، ولندن ، ويبدو أن هذه الزيادة لم

تستمر فى الأجزاء الاسلامية أو المسيحية لحوض البحر المتوسط خلال القرن السابع عشر .

وقد تزايد السكان فى الريف كما فى الحضر ، وهذه الدلائل تشير الى توسع فى الزراعة وزيادة فى الانتـــاج الريفى ـ على الأقل فى بعض أجزاء من الامبراطورية ـ وكان هذا نتيجة لنظـــام أكثر عدلا لجبـاية الضرائب وتزايد الطلب من سكان الحضر ، وتقديم أغنياء المدن رؤوس أموال للاستثمار ، وفى القرن السابع عشر كانت هناك دلائل عن ازاحة الحياة الريفية المستقرة ، نتيجة الاضطراب فى جزء من الأناضول خلال السنوات الأولى من القرن المعروفة باسم انقضاضات (السلالى) Celali ، وربما كانت علامة على تزايد سكان الريف وعلامة على ضعف قدرة الحكومة على حفظ النظام .

وكمـــا هو الحال دائما ، كانت المدن أو بعض طبقاتها على الأقل ، هى المستفيدة الرئيسية من النظام العثمانى والنمو الاقتصادى ، وعندما دخل محمد الثانى القسطنطينية لم يكن باقيا منها سوى القليل مما كان قبلا مدينة امبراطورية عظيمة ، وقد شـــجع هو وخلفـــاؤه المسلمين والمسيحيين واليهود النازحين من أماكن أخرى على الاستقرار هناك ، بل وفرضوا عليهم ذلك وأضفوا على اسطنبول الجديدة طابع المجمعات السكنية العظيمة ، وأقيم قصر توكابى على التل المطل على القرن الذهبى،وفى القاعة الخارجية كانت تجرى الأعمال العامة للدولة ، وفى القاعات الداخلية عاش السلطان وحاشيته ، وقد كان القصر فى الواقع مدينة داخلية يقطنها بضعة آلاف تحيطها الأسوار.وفيما وراءه كان ينبض القلب الانتاجى للمدينة فى المجموعة المركزية للأسواق والمؤسسات الامبراطورية ، ومجمعات المساجد والمدارس والملاجىء والمكتبات وهى العلامات الشخصية المميزة للمدينـة العثمانية العظيمة ، وكانت الأوقاف الامبراطورية التى تخصص عائدات المحال والأسواق للأغراض الدينية والخيرية ، وكان القطب الثالث من الأنشطة واقعا عبر (القرن الذهبى) فى ضاحية بيرا Pera ، حيث كان يعيش التجار الأجانب ، والتى كانت واقعيا مدينة ايطالية .

وقد كان تموين المدينة هو الاهتمام الأكبر للحكومة ، وكان يلزم السكان فى الحضر أن يحصلوا على القمح من أجل الخبز ، والغنـم من أجل لحومها ، وضروريات الحياة أن يحصلوا عليها بأسعار فى حدود امكاناتهم • ومن ناحية المبدأ ، كان القمح الذى ينتج فى منطقـة يستهلك فيها ، ولكن كان هناك استثناءات للمناطق التى تخـدم المدن الكبرى ، فلاطعام هذا العدد الهائل من سكان اسطنبول والمنطقة الساحلية الأوربية على البحر الأسود كان لابد أن تكتسب شمال الأناضول أهمية خاصة،وكان لتجار معينين السلطة للتجارة فى القمح بأن يشتروه بسعر محدد تحت اشراف القاضى ، ثم نقله غالبا بطريق البحر ، ثم يبـاع بسعر تحدده الحكومة ، وكانت السفن والموانى تحت اشراف دقيق ، لضمان عدم ارسال هذا القمح الى جهة أخرى •

وكانت معظم ثروة المنطقة الواسعة للانتاج والتجارة تقع فى أيدى الحكومة كعوائد للانفاق على الجيش والبيروقراطية (الجهـاز الادارى) وكان جزء منها يتسرب الى أيدى الأفراد ، وكانت النخبة الحاكمة المتغذة فى المدينة تشكيلة من كبار التجار وكبـار العلماء ، والتى كانت ـ أى هذه التشكيلة ـ من الخصائص المميزة للمدن فى عالم الاسلام • وقد استفاد بمعظم أرباح التجارة أولئك التجار الذين عملوا فى تجـارة المسـافات الطويلة ، وصناعة المنسوجات الراقية ، وصيارفة البنوك الذين أقرضوا المال للحكومة وتجار الجملة الذين ربحوا من سهولة ممارسـة تجارتهم ، اذ كانت لهم وضعية متميزة ومحمية نسبيا ، لأن الحكومة كانت تلجأ اليهم فى الحصول على المال للأغراض الاستثنائية • ولم يستفد كبار العلماء فقط من الرواتب والمنح التى يتلقونها من السلطان ، ولكن أيضـا من الأوقاف التى قاموا على ادارتها والتى زادت عن رواتبهم ، وكانت ثروات العلماء التجار لا يفوقها سوى ثروة كبار رجال الجيش والمسئولين المدنيين الذين استفادوا من جمع الضرائب التى أوكلت اليهم ، ولكن كان غناهم مزعزعا ومعرضا لأن يستولى عليه السلطان اذا فقـدوا الحظوة لديه ، لأنهـم كانـوا يعتبرون رسـميا من عبيده ، ولهذا فليسوا قادرين على

التوريث ، ولكنه مع شيء من التوفيق والحظ والمهارة يمكنهم ان يورثوها لأسرتهم • وبظهور نظام الالتزام، يبدو أنه نشأ نوع من التوليفة بين حائزى الثروة في الريف والحضر ، من المسئولين والتجار وآخرين ، للحصول على حق الالتزام • وفى القرن الثامن عشر ، كان حائزو حق الالتزام مدى الحياة قد أصبحوا طبقة جديدة من ملاك الأراضى ومارسوا زراعة الأرض على أسس تجارية •

الولايات العربية

فى حدود ما درس عن تاريخ الولايات التى تتحدث العربية من الامبراطورية ، يبدو أنها تشترك فى كثير من الخصائص التى تتميز بها المناطق الأوربية والأناضولية ، فيظهر أن تعداد السكان قد تزايد فى الفترة ما بعد الفتح العثمانى مباشرة بسبب استتباب الأمن والازدهار العام للامبراطورية ، ولكنه بعد ذلك ظل ثابتا أو حتى تدنى قليلا ، فقد كانت المدن العربية الكبرى بعد اسطنبول هى الأكبر فى الامبراطورية ، فكان تعداد القاهرة قد تزايد ليصل الى حوالى ٢٠٠ ألف نسمة فى منتصف القرن السادس عشر ، ووصل الى ٣٠٠ ألف نسمة فى نهاية القرن السابع عشر ، وفى نفس هذا الوقت كانت حلب تضم حوالى ١٠٠ ألف نسمة ، وربما كانت دمشق وتونس أصغر قليلا ولكنهما تقريبا فى نفس الحجم،ولم تستعد بغداد عافيتها بعد تدنى نظام الرى فى جنوب العراق والغزو المغولى ، وتحول حركة تجارة المحيط الهندى من الخليج الى البحر الأحمر ، وكان سكانها أقل من المدن السورية الكبرى • أما الجزائر فقد كانت الى حد كبير انجازا عثمانيا كنقطة حصينة فى مواجهه الاسبان، وكان فيها ما بين ٥٠ ألف ، و١٠٠ ألف نسمة فى نهاية القرن السابع عشر •

وقد ارتبط تزايد السكان بالتغيرات الفيزيقية الطبيعيه وتوسع المدن ، وقد حافظ العثمانيون على النظام فى المدن والحضر بقوات شرطة منفصلة تعمل ليلا ونهارا فى مختلف الأحياء ، واشرفوا على الخدمة العامة :

(المياه ، تنظيف الشوارع وانارتها ، مكافحة الحرائق) وبالسيطرة على الشوارع والأسواق التى أشرف عليها القاضى • وحذا الولاة العثمانيون والقادة العسكريون حذو السلطان فى اسطنبول باقامة منشآت عامة كبرى فى مراكز المدن خاصة فى القرن السادس عشر ، فبنيت المدارس والمساجد وألحق بها منشآت تجارية كان ايرادها يستخدم فى صيانتها ، على سبيل المثــال : مجمــوعة دكاكين زاده محمــد باشــا Duqakin zade Mehmet pasha فى حلب كان بهــا ثلاث قيصريات ، وأربعــة خانات وأربع أسواق أنشئت للانفاق على مسجد كبير • ومسجد التكية فى دمشق ، وهو مجمع من مسجد ومدرسة ونزل للحجاج بناه « سليمان العظيم » ، وبنى بعده المجمع الذى بناه العسكرى البارز رضوان بك فى القاهرة •

ولم تعد لأسوار معظم المدن أية فائدة ، وذلك لأن النظام الذى أنشأه وحافظ عليه العثمانيون فى الريف المحيط من ناحية وكذلك بسبب تطور المدفعية من ناحية أخرى ، جعل الأسوار غير فعالة عنـــد الدفاع ، فهدم بعضها وأصبح بعضها الآخر غير مستخدم ، وتنامت المدن الى ضـــواح سكنية مع تزايد السكان ، وعاش الأغنياء فى مراكز المدن بالقرب من موقع السلطة ، أو فى الضواحى حيث يكون لهم نفوذ ، أو على مشــارف المدينة حيث الهواء النقى والأرض متسعة • أما الحرفيون وصغار التجار والعمال فقد عاشوا فى المناطق الشعبية التى انتشرت على خطوط التجارة ، فظهر فى حلب الجديدة Judayda وباب نيراب Bab Nayrab وبنقوسه Banqusa وفى دمشق ســـوق ساروجا Saruja والميــدان الذى يمتد على طول الطريق المؤدى الى الجنوب ، الذى يجلب منه القمح من Hawran حوران وعن طريقه يتوجه الحجاج الى المدن المقدسة ، وفى القاهرة نجد الحسينية الواقعة شمال مركز المدينة القــديم وعلى الطريق الذى تأتى منه وتغادر القوافل من سوريا ، وبولاق ذلك الميناء على نهر النيل •

وفى هذه الأحياء ، كانت ثمة دلائل على أن معظم العائلات ــ فيما عدا تلك الشديد فقرها ــ كانت تمتلك مساكنها • ولهذا فقد كان السكان مستقرين ، وكان هناك ميل خلال الفترة العثمانية الى أن تميز للأحياء

نفسها على أسس دينية أو عرقية ، فالجديدة فى حلب كانت أساسا مسيحية ، وكان هناك حى كردى فى دمشق • والمنطقة حول جامع ابن طولون فى القاهرة كان يسكنها غالبية من المغاربة، يتجمعون حول المسجد والنافورة العامة والسوق الصغيرة • وكان هذا الحى بؤرة الحياة لسكانه ، توحدهم الاحتفالات سواء أكانت عامة (الذهاب والعودة من الحج أو عيد القيامة) ، أم خاصة (الزواج والميلاد والوفاة) ، ويحرسها بالليل حرس وبوابات ، الا أنه فى أنشطتهم الاقتصادية عبر الرجال على الأقل كافة الحدود وكانت جميع قطاعات السكان تلتقى فى الأسواق •

وقد أدت السياسة المالية العثمانية وتنامى التجارة مع أوربا الى تزايد أهمية المسيحيين واليهود فى حياة المدن ، وقد كان لليهود نفوذ فى اقراض المال والصيرفة للحكومة المركزية أو لحكام الأقاليم (الولاة) وكملتزمين وعلى مستوى آخر كحرفيين ومتعاملين فى المعادن النفيسة،وكان للتجار اليهود أهمية فى تجارة بغداد ، وكان معظم اليهود فى تونس والجزائر ، من أصول اسبانية ، وكانوا بارزين فى التعاملات مع بلدان شمال وغرب المتوسط • والعائلات اليونانية التى نشأت فى حى الفنار Phanar فى اسطنبول تحكمت فى كثير من تجارة القمح والفراء فى البحر الأسود • ولعب الأرمن دورا كبيرا فى تجارة الحرير مع ايران • وفى حلب والأماكن الأخرى التى عاش فيها التجار الأوربيون ، لعب المسيحيون دور الوساطة بمعاونة العثمانيين فى شراء بضائع للتصدير وتوزيع ما يأتون به من أوربا ، وكان المسيحيون السوريون نشطين فى التجارة بين دمياط والساحل السورى ، وعمل المسيحيون الأقباط كمحاسبين وملتزمين ومسئولين اداريين فى مصر •

وبعد أن اكتسبت الحكومة العثمانية جذورا دائمة فى حواضر (مراكز) الولايات الكبرى، نشأت هناك جماعات عثمانية محلية حاكمة • وفى الأقاليم التى كانت تحت الحكم العثمانى المباشر ، كان القاضى والحاكم يعينان من اسطنبول ويتغيران كثيرا ، أما المسئولون الماليون فكانوا ينتمون الى العائلات العثمانية المستقرة فى المدن الاقليمية،وتوارثوا خبرات

خاصة أبا عن جد ، وانجذب أفراد الانكشارية للمجتمع وتوارثوا امتيازاتهم جيلا بعد جيل، رغم المحاولات التى بذلت لمنع اندماجهم فى المجتمع بارسال كتائب جديدة من اسطنبول، وكان الولاة أو القادة العسكريون يستطيعون ـ اذا ما مكثوا فى الولاية فترة طويلة ـ أن يؤسسوا لأنفسهم أسرة حاكمة معتمدين على المماليك الذين يعينونهم فى المناصب المهمة ٠

وهذه الجماعات المحلية كانت تجتذب للتحالف مع التجار والعلماء ، وقد كان أصحاب أكبر الثروات فى الحضر من الصيارفة والمصرفيين وتجار القوافل ٠ وبرغم ارتفاع وتزايد أهمية التجار الأوربيين والمسيحيين واليهود ، فان أهم أنواع التجارة وأكثرها ربحية كانت هى التجارة التى تتم بين أرجاء الامبراطورية العثمانية أو التى تتم بينها وبين بلدان المحيط الهندى على يد التجار المسلمين ، الذين سيطروا على سبيل المثال على تجارة البن فى القاهرة وعلى التجارة المرتبطة بالحج الى مكة المكرمة وعلى التمر بسوريا والصحراء الكبرى Sahara deserts ، وقد دامت ثروات قليل من هؤلاء التجار لبضعة أجيال ، ولكن الثروات التى كانت أكثر دواما كانت من نصيب العائلات ذات التراث الدينى ، وكانت هذه العائلات تمثل شريحة عددية مهمة أثناء القرن الثامن عشر فى مصر ، فقد كان العلماء بالمعنى الواسع للكلمة يضمون كل من مارس الفقه والتعليم والعبادة ، ويقدرون بأربعة آلاف نسمة من مجموع خمسين ألف نسمة من الذكور العاملين ، وكانت لهم شخصية مختلفة فى المدن العربيـة عن نظائرهم فى اسطنبول ، فقد كان كبار العلماء فى اسطنبول الى حد كبير جزءا من آلة الحكومة تلقوا تدريبا فى المدارس الامبراطورية ، وعينوا فى الخدمة الامبراطوية ويأملون فى الترقى لمناصب أعلى فيها أيضا ، أما علماء الدين فى المدن العربية فكانوا من أخلاط محلية وكان أكثرهم من العائلات العريقة التى تعود الى المماليك ، بل وما سبقها ، وبعضهم يدعى (ما ليس صحيحا فى كل الأحوال) أنهم من السادة ومن نسل النبى ﷺ ، وتلقى أغلبهم التعليم فى المدارس المحلية (الأزهر فى القاهرة ، والزيتونة فى تونس ومدارس حلب ودمشق) وورثوا تراثا ثقافيا ولغويا يعود الى ما قبل مجىء العثمانيين بزمان طويل ، وبالرغم من أنهم تمتعوا بقدر من

الاستقلالية ، الا أنهم كانوا مستعدين للانضمام للخدمة المحلية لدى السلطان ، وعادة ما كان القاضي الحنفي للمدن الكبيرة يرسل من اسطنبول، ولكن نوابه من المفتين ، ونقيب الأشراف والمعلمين فى المدارس فكانوا غالبا ما يعينون عن طريق جهاز العلماء المحلى ، وفى المدن التى ينتمى فيها السكان المسلمون الى أكثر من مذهب يكون لكل منها قاض ومفت ، وفى تونس كان كل السكان من المالكيين بخلاف ذوى الأصول التركية وكان للقاضى المالكى نفس الوضع الرسمى للقاضى الحنفى ٠

ولقد كانت تقوم بين العثمانيين المحليين وبين التجار والعلماء علاقات من مختلف الأشكال؛لتعطى لكل منهم نفوذا ووضعية لم يكن ليكتسبها فى أية أحوال أخرى ٠ والى حد ما ، كانت لهم ثقافة مشتركة ، فكان أبناء التجار يذهبون الى المدارس ، وكان المسئولون والعسكريون أيضا يرسلون أبناءهم اليها ليوفروا لهم مستقبلا أكثر استقرارا ، فعلى سبيل المثال ، أسس « بيرم » وهو مسئول تركى فى اقليم تونس سلالة من العلماء المشهورين ، والجبرتى مؤرخ مصر فى القرن الثامن عشر كان من عائلة من التجار ، وكانوا يتزاوجون فيما بينهم ، وكانت لهم أيضا روابط مالية ، ودخلوا فى شركات من العمليات التجارية ، وبانتشار نظام الالتزام، تعاون المسئولون والتجار للمضاربة عليها ، وكان رجال الجيش والمسئولون بشكل عام هم الذين تحكموا فى مقاطعات الالتزام الريفية،لأنه لم يكن من الممكن تحصيل عوائدها بدون سلطة الولاة،وكان للتجار والعلماء أنصبة أكبر فى الضرائب على المزارع المحلية والرسوم ، وكان العلماء هم مديرو الأوقاف المهمة ، ولذا فقد كان بامكانهم توفير المال للاستثمار فى المشروعات وحيازات الالتزام (المناطق التى يشملها اختصاص الملتزم) ٠

وعلى مستوى آخر ، كان هناك تحالف من نوع مختلف ، ففى نهاية القرن السابع عشر كانت الانكشارية يمارسون الحرف والتجارة رغم محاولة السلطان الابقاء على جيشه من المحترفين والمرتزقة بعيدا عن السكان المحليين ٠ ولكنهم بمرور الوقت بدءوا فى الاختلاط ، وكانت عضوية الجيش نوعا من الملكية ، وتعطى الحق فى بعض الامتيازات

والمعاشات التى يمكن أن تورث للأبناء ، أو أن يشتريها أفراد من السكان المدنيين ، وقد يتمخض تحالف المصالح عن حركات عنيفة ، وكانت المقاهى هى النقاط التى يتحول فيها الكلام الى الفعل ، ومثل هذا الفعل يمكن أن يكون من نوعين : فى بعض الأحيان كان سياسيا ، فقد حدث فى اسطنبول أن استخدم الفرقاء فى القصر أو الخدمة المدنية أو العسكرية المتصارعون حول السلطة الجند لتعبئة السكان فى الحضر ، وفى ١٧٠٣ تمرد جناح من الجيش ، وتحول تمرده الى ثورة سياسية وكان لكبار المسئولين من بعض كبار البيوتات ـ والجند والعلماء والتجار ، دور فى هذا التمرد رغم أن كل مجموعة لها مصالحها الخاصة ، فقد اتحدوا جميعا فى المطالبة بالعدل ، وأدت حركة التمرد هذه الى سقوط شيخ الاسلام الذى كان نفوذه على السلطان مصطفى الثانى غير مقبول لديهم ، ثم أدت الى اسقاط السلطان نفسه ٠ كما حدثت حركات مماثلة فى المدن الاقليمية بالاضافة الى الانفجارات العفوية عند شح الطعام وارتفاع الأسعار ، وكان مسئولو الحكومة أو الملتزمون يتسببون فى احداث نقص مصطنع بحبس القمح حتى ترتفع أسعاره ، وأحيانا يقدر لمثل هذه الحركات نجاح فورى فى استبدال وال أو مسئول غير محبوب ، ولكن الصفوة فى المدينة كانت تنظر للمتمردين بمشاعر متباينة ، فكان كبار العلماء بصفتهم متحدثين عن السكان فى الحضر يمكن أن ينضموا للاحتجاج ولكن فى النهاية كانت مصالحهم ومشاعرهم مع استقرار النظام ٠

ثقافة الولايات العربية

ترك الفتح العثمانى علاماته على المدن فى الولايات التى تتحدث العربية متمثلة فى آثار معمارية عظيمة ، بعضها من صنع السلاطين أنفسهم كعلامة على عظمتهم وتقواهم وبعضها من صنع السادة المحليين مدفوعين بالرغبة فى التقليد التى يغذيها السلطة والنجاح ، وفى عواصم الأقاليم كانت المساجد تبنى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر على النمط العثمانى ، وتحتوى على صحن يؤدى الى قاعة الصلاة ذات القبة (رواق القبلة) ، وترتفع أعلاها (أى أعلى الرواق أو القاعة) مئذنة أو اثنتان

أو أربع مآذن طويلة نحيلة مدببة ، وتزين القـاعة بالبلاط الملون على الطراز الأزنيكى (Isnik Style) ، الذى كانت تفضله القصـور العثمانية مع رسومات خضراء وحمراء وزرقاء من الزهور، كذلك كان جامع الخسراوية فى حلب من تصميم المعمارى الأكبر سنان ، وكذلك مسجد سليمان باشا فى القلعة فى القاهرة والمسجد الذى يعلو ضريح سيدى محرز فى تونس ، والجامع الجـديد فى الجزائر • وقد كان من أجمل أعمال العثمانيين فى الولايات « التكية » فى دمشق ، وهو مجمع كبير من الأبنية ومن تصميم « سـنان » أيضـا ووهب لخدمة احتياجات الحجاج • وكانت تتجمع فى دمشق قافلة الحج ، وكانت أحـد مركزين عظيمين لقوافل الحجـاج ، وبشكل ما كانت هى الأهم نظرا لأن مبعوثى السلطان يرسلون اليها مع بعض أفراد عائلته • وقد بنيت سلسلة من الاستراحات على طول طريق الحج من اسطنبول خلال الأناضول وشمال سوريا وقد كانت « التكية » أكثرها أبهة ، وتتكون من جامع ذى قبة له مئذنتان طويلتان متماثلتان على كل جانب منه ، ومبنى بالحجر بالخطوط السوداء والبيضاء التى أصبحت منذ زمن طويل احدى خصائص الطراز السورى ، وحول الفناء تقع غرف ومطابخ للحجاج • وقد ترك السلطان سليمان فى مدينة القدس آثاره على بلاط الحوائط الداخليـة لقبة الصخرة والحوائط العظيمة التى أحاطت بالمدينة ، ومن بين المدن العثمانية العظيمـة لم تكن آثار الطراز الجديد محسوسة الا فى بغداد ، اذ استمر الطراز الفارسى الأقدم • وقد استمرت المساجد والمبانى العامة فى المدن الأخرى أيضا تبنى بالطراز التقليدى ، رغم أن بعض العناصر العثمانية دخلت تدريجيا فى الزخارف •

ولم تنتقص تحت الحكم العثمانى مكانة اللغة العربية ، ولكنها على العكس قويت ، فقد كانت علوم الدين والقانون تدرس باللغة العربية فى المدارس الكبرى فى اسطنبول بشـكل لا يقل عن مثيـلاتها فى القاهرة أو دمشق ، كما كان الكتاب العثمانيون الذين يكتبون فى أنواع مختلفة يميلون للكتابة باللغة العربية ، أما الشعر والعلوم الدنيوية فكانت تكتب بالتركية العثمانية التى تطورت فى تلك الفترة كوسيط للثقافة الرفيعة ، ولكن أعمال الدين والفقه وحتى التاريخ والسير كانت بالعربية • ولهذا

فان حاجى خليفة (١٦٠٩ ـ ١٦٥٧) وهو أحد موظفى حكومة اسطنبول كتب باللغتين ، ولكن أهم أعماله فى التاريخ العام وقاموس بيبلوجرافى عن الكتاب العربى وهو كتاب « كشف الظنون » ، كانت بالعربية ٠

وقد استمر التراث الأدبى فى المدن العربية الكبرى لا فى شعره وأدبه ، وانما فى التاريخ المحلى والسير وجمع أعمال الفقه والحديث ، وقد استمرت المدارس الكبيرة مراكز لدراسة علوم الدين ولكن مع بعض الاختلاف ، فلم تكن أعلى المناصب فى الخدمة القضائية بين أيدى خريجى الأزهر أو مدارس حلب أو دمشق ، ولكن تولاها خريجو المؤسسة الامبراطورية فى اسطنبول باستثناءات قليلة ٠ وحتى كبار القضاة الحنفية فى عواصم الأقاليم كانوا فى أغلبهم من الأتراك المرسلين من اسطنبول ، وأعظم المناصب الرسمية التى يمكن أن يطمح اليها الخريجون المحليون هى نائب القاضى أو المفتى (الا فى تونس حيث تمخضت قوة التراث المحلى للمالكية عن أن يكون هناك قاضيان أحدهما حنفى والآخر مالكى لهما نفس السلطة والقرب من الوالى ، وكان الأخير من خريجى المدرسة الكبرى فى تونس فى جامع الزيتونة) ٠

وقد أحدث مجىء العثمانيين تشجيعا لبعض الطرق الصوفية ؛ ولكنه أيضا أدى لفرض السيطرة عليها ، وقد كان من أول أعمال السلطان سليم بعد احتلال سوريا انشاء ضريح فخم على قبر ابن عربى فى دمشق ، وقد انتشرت طائفة الخلوتية التى كانت تعاليمها متأثرة بابن عربى من الأناضول الى أرجاء الامبراطورية العثمانية ، ونشأت لها فروع فى سوريا ومصر وغيرها ، وانتشرت الشاذلية أيضا ، وربما كان ذلك بسبب الصوفية القادمة من المغرب ، وكان أحدهم ـ أى أحد هؤلاء الصوفية ـ من أسرة العلمى من مراكش واستقر فى مدينة القدس وكان نائبا للطريقة الشاذلية هناك ، وقد أصبح ضريحه على جبل الزيتون مزارا ٠

وفى نهاية القرن السابع عشر ، ظهر نفوذ جديد آتيا من شرق العالم الاسلامى هو الطريقة النقشبندية ، والتى كانت موجودة فى اسطنبول وفى كثير من الأماكن الأخرى منذ وقت مبكر ، ولكن فى ١٦٧٠ جاء من

سمرقند معلم صوفي يدعى مراد ، وقد درس في الهند ، ثم عاش في اسطنبول ودمشق وجلب معه التعاليم النقشبندية الجديدة ، التي تطورت على أيدي « أحمد السرهندي » في شمال الهند مع بدايات القرن ، وقد تلقى منحة من السلطان وأسس عائلة في دمشق ، ومن الكتاب الذين تأثروا بهذه التعاليم النقشبندية الجديدة وأشهرهم كان عبد الغني النابلسي (١٦٤١ ـ ١٧٣١) ، وهو دمشقي تركي شملت أعماله الواسعة تعليقات على تعاليم ابن عربي وعدد من الأعمال عن رحلات لأضرحة الصالحين والمزارات وهي سجل للتقدم الروحي •

وقد نشأت أشكال أخرى من الثقافة الدينية خارج التراث السني للمدن الكبيرة ، التي كانت ترعاها السلطة العثمانية • فعندما أصبح العثمانيون أكثر تمسكا بالسنة ، أصبح وضع الشيعة في سوريا أكثر صعوبة ، وانكمش تراثهم من التعاليم وانحصر في المدن الصغيرة والقرى في جنوب لبنان ، ولكن ظل مستمرا هناك على أيدي عائلات من العلماء ، وقد استدعي الى اسطنبول أحد كتاب العصر العثماني الأول ، « زين الدين العاملي » (ت ١٥٣٩) حيث أعدم ويعرف في التراث الشيعي باسم (الشهيد الثاني) ، واستمر التراث الشيعي في الازدهار خارج السيطرة العثمانية المباشرة في المدن المقدسة في العراق ومنطقة الأحساء والبحرين على الجانب الغربي من الخليج ، وقد اكتسب التشيع قوة جديدة باعلان المذهب الشيعي دينا رسميا لامبراطورية الصفويين ، وعندما احتاجت حكومة الشاه الى قضاة ومعلمين ولم يكن بامكانها توفيرهم من داخل ايران نفسها ، ذهب الدارسون من العراق والبحرين وجنوب لبنان الى قصر الشاه وتولى بعضهم مناصب كبيرة ومهمة ، وكان أحدهم نور الدين علي الكركي من لبنان (١٤٦٦ ـ ١٥٣٤) ، وقد كتب أعمالا كثيرة ومؤثرة عن المشاكل التي خلقها تبني المذهب الشيعي دينا للدولة ، وعن مدى وجوب أن يدفع المؤمن الضرائب للحاكم ، وهل يجب أن يخدم لديه العلماء ، ومدى امكانية اقامة شعائر الجمعة في غياب الامام •

وفي القرن السابع عشر ، كان عالم العلم الشيعي ممزقا بالصراع حول مكان الاجتهاد في تكوين الفقه ، وكان الوضع المسيطر معقودا للأصوليين الذين اعترفوا بالحاجة الى الجدل العقلاني في تفسير وتطبيق مفاهيم القرآن والحديث ، وظهرت مدرسة أخرى للفكر هي مدرسة « الاخباريين » الذين دعوا الى الحد من استخدام التفسير العقلاني عن طريق القياس ، وركزوا على الاحتياج لقبول المعنى الحرفي لتراث الأئمة ، وكانت هذه المدرسة مسيطرة على المدن المقدسة خلال النصف الثاني من القرن ٠

وقد كانت التأثيرات الآتية من الخارج محسوسة أيضا في المجتمعات اليهودية من الامبراطورية العثمانية ولكنها كانت من نوع آخر ، فقد أدت اعادة الاسترداد المسيحي للأندلس الى تدمير المجتمعات اليهودية هناك ، ولجأت بعضها الى المنفى في ايطاليا ومواقع أخرى في أوربا ، ولكن معظمها ذهب الى اسطنبول ومدن الامبراطورية العثمانية الأخرى ، وجلبوا معهم التقاليد والتراث المتميز لسفارديم الأندلس وخاصة التفسير الغنوصي للدين (القبالة) التي تطورت هناك ، منذ منتصف القرن السادس عشر وما بعده ٠ وكانت مدينة صفد في فلسطين هي المركز الأكثر ابداعا للفكر الغيبي ٠ وقد كان « اسحق لوريا » (١٥٣٤ ـ ١٥٧٢) مفكرا شديد الخصوصية وجاء الى صفد في نهاية حياته ، وكان له تأثير عميق على أتباع القبالة هناك ٠

وقد كانت أحد علامات تعاليمه مذهبا معينا عن العالم الذى أصبحت حياته مضطربة ، وقال ان على البشر ـ وبشكل خاص اليهود ـ معاونة الله بأعمال الفداء وبأن يعيش حياة وفقا لمشيئة الله ٠ وقد تسببت هذه التعاليم في ظهور توقعات بأن الخلاص قريب ، وأن المناخ موات لظهور المسيح ، وقد سلم أحد مدعي النبوة في عام ١٦٦٥ بأن شخصا يدعى ساباتي سيفي (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦) المولود في أزمير والذى عرف عنه القيام بأفعال غريبة وهو في حالات اشراق كمسيح خلال زيارته للأراضي المقدسة ، وانتشرت شهرته فورا خلال كل العالم اليهودي ، وحتى شمال وشرق أوربا حيث المجتمعات اليهودية التى اضطربت بسبب المذابح في بولندا

وروسيا ، وبدا كما لو كانت عودة اليهود الى الأراضي المقدسة قريبة،ولكن انهارت هذه الآمال فورا عندما استدعى ساباتي سيفي للمثول بين يدي السلطان وخيره بين الموت أو اعتناق الاسلام فاختار الاسلام . ورغم أن بعض أتباعه ظلوا على ايمانهم الا أن أغلبهم لم يستطيعوا الاستمرار في الايمان به .

وقد حدث بعض التغيير في الأفكار والمعارف بين السكان المسيحيين في الولايات التي تتحدث العربية وخاصة في سوريا خلال هذه القرون ، وكان ذلك بتأثير انتشار الارساليات الرومانية الكاثوليكية . وقد كان لهم حضور في المنطقة بشكل متقطع لمدة طويلة،فالفرنسيسكان كانوا هناك منذ القرن الخامس عشر كحماة للمزارات الكاثوليكية في الأراضي المقدسة ، وجاء بعدهم الجيزويت والكرمليون والدومنيكان وتلاهم آخرون ، ونشأ منذ أواخر القرن السادس عشر عدد من الكليات على أيدي البابوية في روما ، لتدريب القساوسة من الكنائس الشرقية المارونية والكليات اليونانية في ١٥٨٤ ، وكلية المجمع لنشر الايمان في ١٦٢٧ ، وفي القرن السابع عشر تزايد عدد قسس الارساليات في بلدان الشرق الأوسط ، وكان لذلك نتيجتان : أن تزايد عدد أولئك الذين قبلوا بسلطة البابا من بين رعايا الكنيسة الشرقية ، مع رغبتهم في الابقاء على مناسكهم وعاداتهم وفقههم الديني ، وقد كان الموارنة في هذا الوضع منذ عصر الحروب الصليبية ، وفي القرن الثامن عشر توصلوا لاتفاق مع البابوية تحددت به العلاقة بين الطرفين ، وفي الكنائس الأخرى كانت قضية سيادة البابا موضع اختلاف ، ففي حلب شمال سوريا على وجه الخصوص كانت هناك صراعات بين الجماعات الكاثوليكية وغير الكاثوليكية للسيطرة على الكنيسة ، وفي بدايات القرن الثامن عشر وقع هناك انفصال فعلي ، ومنذ ذلك الوقت نشأ خطان من البطريركية والمطارنة من داخل البطريركية الأرثوذكسية في أنطاكية ، الأولى تعترف بسيادة البطريرك للقسطنطينية ، والأخرى الكاثوليكية اليونانية التي يمكن القول إنها قبلت سلطة البابا ، وقد حدثت تطورات مشابهة في أوقات مختلفة في الكنيسة النسطورية

والسورية والأرثوذكسية والأرمنية والقبطية ، ورغم ذلك فلم يحدث قبل بدايات القرن التاسع عشر أن اعترف السلطان العثمانى بهم رسميا كملل منفصلة ٠

والنتيجة الثانية كانت تطور ثقافة مسيحية متميزة عبرت عن نفسها بالعربية ٠ وقد كان ذلك التطور موجودا منذ زمن طويل ٠ ولكن طبيعته تغيرت فى تلك الفترة فقد عاد القساوسة الذين تعلموا فى الكليات فى روما بمعرفة باللغتين اللاتينية واليونانية ، وبعضهم قام بدراسات جادة فى اللغة العربية وبعضهم أنشأ أديرة على النموذج الغربى خاصة فى جو جبال لبنان ، وهى التى أصبحت مراكز لزراعة الأرض وكذلك لدراسة علم اللاهوت والتاريخ ٠

ما وراء الامبراطورية :
الجزيرة العربية ، والسودان والمغرب

فيما وراء الحدود العثمانية فى الجزيرة العربية ، كانت تقع مناطق بها مدن تجارية صغيرة أو موانىء ، وريف قاحل حيث كانت الموارد الحضرية محدودة ، ولهذا كانت الحكومة قائمة على نطاق صغير : فقد نشأت مديريات للمدن فى الواحات فى أواسط وشرق الجزيرة العربية ، وموانىء الساحل الغربى من الخليج٠وكانت احداها أكثر أهمية من الأخريات،وتقع فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة وهى « عمان » ، وكانت عبارة عن مجتمع ريفى مزدهر مستقر نسبيا فى السهل الساحلى والوديان الجبلية فى الجبل الأخضر ، وكان السكان من الاباضية ، وكانت الامامة التى عادت فى بواكير القرن السابع عشر تحت حكم سلالة من قبائل يعرب ، قد أنشأت نوعا من الاتحاد غير المستقر بين مجتمعات تلك الوديان الجبلية ، وعلى الساحل يقع ميناء مسقط الذى أصبح مركزا مهما للتجارة فى المحيط الهندى ، وقد استعاده العمانيون من البرتغاليين فى منتصف القرن السابع عشر ، وفرض التجار العمانيون أنفسهم على طول الساحل الأفريقى الشرقى ، ولم يمارس العثمانيون السيادة على هذه الأصقاع العربية ، ولكن أحد موانىء الخليج (البحرين) كان تحت الحكم الايرانى من ١٦٠٢ ـ ١٧٨٣ ، وهنا ، وفى

الأجزاء الأخرى من الخليج ، كان أغلب السكان من الشيعة ، وقد كانت منطقة الاحساء الى الشمال من البحرين مركزا مهما للتعليم الشيعى ، والى الجنوب الغربى من الجزيرة لم تعد اليمن تحت سيطرة الحكم العثمانى وهنا أيضا كانت الموانىء تتاجر مع الهند وجنوب شرق آسـيا ، خاصـة فى البن ، كما أن المهاجرين من جنـوب الجزيرة انضـموا لجيوش الحكام الهنود ٠

والى جنوب مصر ، كانت السلطة العثمانية محدودة ، وقد امتدت على طول وادى النيل حتى الشلال الثالث وعلى ساحل البحر الأحمر،وكانت هناك حاميات عسكرية فى سواكن ومصوع تابعة لحاكم جـدة ٠ وبعدها ظهرت سلطنة ذات قوة عظيمة نسبيا (الفونج) ، وقد تأسست فى منطقة الزراعة المستقرة الواقعـة بين النيلين الأزرق والأبيض ، واستمرت لمدة تزيد على ثلاثة قرون (منذ بداية القرن السادس عشر حتى ١٨٢١) ٠

وفيما وراء الحدود الغربية للامبراطورية فى أقصى الغرب من المغرب كانت تقع دولة من نوع آخـر ، هى الامبراطورية القديمـة لمراكش ، ولم تكن العمليات البحرية العثمانية تمتد وراء المتوسـط حتى ميـاه الأطلنطى ، ولم تحاول الحكومة العثمانية فرض نفسها فى الأجزاء الساحلية من مراكش أو تفرض سيطرتها على الجبال والهضاب فى الريف وجبال أطلس ، وقد تداولت بعض السلطات المحليـة حكم المنطقة ، وفى بعض الأحوال تبلورت قوات محلية حول قيادة ذات دعاوى دينيـة ، نتج عنها هوية سياسية أوسع ، وظهر فى القرن الخامس عشر عامل جديد غير من طبيعة مثل هذه الحركات ، وهو اعـادة الاسترداد المسيحى لاسـبانيا والبرتغال الذى هدد بالامتداد الى مراكش،كما أدى أيضا الى هجرة المسلمين من الأندلس الى المدن المراكشية ، وكانت للحركات القادرة على الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين الجدد والراغبة فى ذلك جاذبية خاصة ، ومثل هذه الحركات منذ تلك الفترة وما تلاها مالت الى ادعاء الشرعية بادخال القائمين عليها أنفسهم فى خط روحى مركزى من العالم الاسلامى ،٠وفى عام ١٥١٠ تمكنت احـدى العـائلات التى ادعت الانتسـاب للنبى ﷺ (الأشراف

السعدية) من تأسيس دولة فى منطقة « سوس » الجنوبية ، وفرضت السيطرة على مدينة مراكش وبعدها اتجهت شمالا · وقد أنشأ السعديون نظاما للحكم مكنهم من السيطرة على معظم البلاد وان كان بشكل محدود ، وقد أقاموا القصر والادارة المركزية (المخزن) الى حد ما على النمط العثمانى ، وكان بامكان السلطان الاعتماد على نوعين من القوة : جيشه الخاص من الجنود السود المؤلف من طبقة العبيد المجلوبين من الواحات الجنوبية ووادى نهر النيجر ، ومجموعات معينة من العرب فى السهول ، وهم (الجيش) أو القبائل العسكرية ، وكانوا مستثنين من الضرائب بشرط أن يحصلوها ، ويحافظوا على النظام فى الريف ، وفى بعض الأحيان فى المدن · وكان ذلك وقت الازدهار المتزايد للمدن التجارية فى الشمال ، والموانىء على الأطلنطى والمدن الداخلية من فاس وتطوان ، التى انتعشت من ناحية بقدوم الأندلسيين (المورسكيين ـ وهم المسلمون المطرودون من الأندلس) الذين جلبوا معهم مهارات صناعية ، وكانت لهم اتصالات مع الأجزاء الأخرى من عالم المتوسط · وبعد فترة من القرن السادس عشر عندما تصارعت اسبانيا والبرتغال والعثمانيون حول السيطرة على البلاد ، استطاع السعديون تحقيق نوع من الاستقلالية ، حتى انهم استطاعوا أيضا التوسع غربا ، ومن موقعهم الحصين فى مراكش استطاع السلاطين السيطرة على تجارة الذهب والعبيد فى غرب أفريقيا ، وبنهاية القرن فتحوا وسيطروا لفترة من الوقت على المدن وطرق التجارة فى الصحارى حتى تمبوكتو ·

وقد كانت حكومة الأشراف دائما أضعف من حكومات السلاطين العثمانيين ، ولكن الثروة والسلطة فى الحضر كانت أكثر محدودية ، ولقد كانت فاس هى أهم المراكز الحضرية وهى مدينة ذات تراث ملحوظ فى التعليم الحضرى ؛ ولكنها كانت فى نصف حجم حلب أو دمشق أو تونس وأصغر بكثير من القاهرة أو اسطنبول ، أما عن المدن الأخرى والموانىء على الساحل الأطلنطى ، فكانت مراكز للتجارة الخارجية ، وقد ظل قباطنة الميناءين التوأم : الرباط وصافى لفترة من الوقت ، فى تنافس مع قباطنة

الجزائر ، ولم تكن تجارة المدن أو انتاج الريف كافيين لتمكين السلطان من انشاء جهاز ادارى متمكن أو جيش عامل كبير ، خارج بعض المناطق المحدودة • وكان يمارس بعض السلطة بتجريدات عسكرية من وقت لآخر، والمناورات السياسية ومكانة سلالته ونسبها الى النبى ﷺ ، وكان هو ومخزنه حكومات أقل شبها بالحكومات البيروقراطية المركزية للدولة العثمانية وبعض الدول الأوربية فى عصره عن حكومات الملكيات المتنقلة فى العصور الوسطى : حين كان الحاكم وبلاطه ووزراؤه ، وكتبته القليلون ، وأمين الخزينة وقواته الشخصية ، يتجولون فى المناطق القريبة من البلاد، ليجمعوا قدرا كافيا من المال لدفع رواتب الجند ، محاولين من خلال المناورات السياسية البارعة تحقيق سيادة مطلقة على أكبر مساحة ممكنة ، وحتى فى المدن كانت قبضته مزعزعة ، وكان عليه أن يسيطر على فاس ومكناس وغيرهما ليبقى فى الحكم ، وقد منحه علماؤهم الشرعية واحتاج الى عائدات الرسوم على التجارة والصناعة ، وكان يستطيع الى حد ما السيطرة عليهم من خلال مسئولين معينين ، أو بالمنع والمنح ، الا أنه ظل هامشيا بالنسبة للمدن • ولم يكن سكان المدن راغبين فى أن تغيب سلطة الحاكم تماما ؛ لأنهم كانوا يحتاجونها لتأمين طرق التجارة والدفاع عنها حيال الهجمات الأوربية على الساحل ، ولكنهم كانوا راغبين فى أن تكون هذه العلاقة بشروطهم : أى عدم دفع ضرائب ، وألا تطغى عليهم جيوش القبائل من حولهم وأن يكون حاكهم وقاضيهم من اختيارهم أو على الأقل مقبولا لديهم ، وفى بعض الأوقات كانوا قادرين على تعبئة العامة وقواتهم الخاصة لتحقيق مثل هذه الأغراض •

ومع وجود مثل تلك المحددات على مواردهم وسلطاتهم ، لم يكن الأشراف السعديون قادرين على خلق نظام حكومى ذى قدرة ذاتية على النمو مثل حكومات العثمانيين والصفويين،وبعد قرن أو نحوه حدث انشقاق فى العائلة وبرزت مرة أخرى التركيبات المحلية من القوى حول القادة الذين يدعون الشرعية بمبررات دينية ، وبعد فترة من الصراع تدخل فيها العيثانيون فى الجزائر والتجار الأوربيون فى الموانىء ، ظهرت مرة أخرى

أسرة من الأشراف (الفيـــلالية) أو (العاويون) من واحـــة تفلالت . واستطاعوا توحيد الدولة كلها بالمهارة السياسية وبمعونة بعض القبائل العربية : أولا في الشرق حيث تصرفوا كزعماء مضادين لانتشار السلطة العثمانية ، وبعدها فاس والشمال ثم لجتاحوا الوسط والجنوب في ١٦٧٠ (وهذه الأسرة استمرت في حكم مراكش حتى اليوم) .

وقد بدأت هذه الحكومة تأخذ شكلا فى حكم أحد أوائل الحكام من هذه الأسرة وهو مولاى اسماعيل (١٦٧٢ ــ ١٧٢٧) ، وقد احتفظت به تقريبا حتى بداية القرن العشرين ، حيث استقرت فى بيت ملكى يتكون أغلبه من العبيد السود أو آخرين من الجنوب ، ووزراء من كبار العائلات من فاس أو من قبائل الجيش ، وجيش من الأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام ، والسود من أصول العبيد ، وقبائل الجيش من السهول ، وكانت الاتاوات الحضرية تجمع فى أوقات الحاجة ، وقد تصارع السلطان مع خطرين : أولهما الخوف المسيطر من الهجمات من اسبانيا والبرتغال ، ثم التوسع العثمانى فى الجزائر ، وقد استطاع مواجهتهما بقوة جيشه وشرعيته الدينية ومقاومته الناجحة لمثل هذه الأخطار ، وقد تمكنت حكومته فترة من الوقت من حشد القوة التى مكنته من تغيير التوازن بين المدينة والحكومة لمصلحته وممارسة السلطة السياسية على معظم الريف .

وقد أصاب الغزو المسيحى للأندلس حضارة مراكش بالفقر ، كما أن الطرد النهائى للمسلمين من اسبانيا فى القرن السابع عشر جلب المزيد من الأندلسيين الذين استقروا فى مدن المغرب ، ولكنهم لم يعودوا يحملون معهم ثقافة يمكن أن تثرى المغرب ، وفى نفس الوقت كانت الاتصالات مع الجزء الشرقى من العالم الاسلامى محدودة بفعل بعد المسافة والحاجز المتمثل فى جبال أطلس ، وقد اتجه بعض المراكشيين شرقا بالفعل للتجارة أو للحج وكانوا يتجمعون فى واحة تفلالت . حيث يتحركون على الساحل الأفريقى للشمال أو عن طريق البحر الى مصر حيث ينضمون للحجيج مع القافلة التى تتجمع فى القاهرة ، وقد يظل بعض التجار هناك ، وبعض العلماء قد يبقون للدراسة فى مدارس ومساجد القاهرة أو المدينة أو القدس ، وبعضهم

أصبح من المعلمين ، وأسسوا عائلات متطلعة مثل عائلة العلمي في القدس ، الذين يعتقد بانحدارهم من نسل عالم ومعلم صوفي من جبل علم في شمال مراكش .

كان تراث مراكش اذن في هذه المرحلة متميزا ومحدودا ، فالشعراء كانوا قليلين وغير متميزين . الا أن تقاليد كتابة التاريخ والسير قد استمرت هناك . وفي القرن الثامن عشر ، كتب الزياتي (١٧٣٤ ـ ١٨٣٣) وهو رجل شغل مناصب مهمة وسافر كثيرا كتابا في التاريخ العام ، وهو تاريخ للكون ويعد الأول من نوعه الذي يكتبه مراكشي ، وقد أظهر بعض المعرفة بالتاريخ الأوربي أكثر من العثمانيين .

كان النظام الرئيسي في المدارس هو الفقه المالكي والعلوم المتفرعة منه ، وكان يدرس في المسجد الكبير في القرويين في فاس ومدارسه الملحقة به ، وكذلك في مراكش وغيرها ، وقد كان كتاب «المختصر» للخليل مهما بشكل خاص ، اذ انه يعتبر موسوعة للفقه . وفي هذه المدن وفي أماكن أخرى من العالم الاسلامي، كانت هناك عائلات كبيرة من العلماء التي حافظت على تقاليد وتراث التعليم العالي من جيل لآخر ، مثل عائلة (الفاسي) وهي أسرة من أصول أندلسية ولكنها استقرت في فاس منذ القرن السادس عشر .

وقد امتدت نفوذ القضاة والمفتين في المدن لدرجة ما الى الريف ، حيث كان العلماء يعملون ككتاب عدل لاضفاء الصيغة الرسمية على الاتفاقيات والعقود ، وكان يوفر المصدر الرئيسي للغذاء الثقافي المعلمون والمرشدون الروحيون التابعون للطرق الصوفية ، وخاصة أولئك المرتبطين بالشاذلية، وقد أسسها الشاذلي (ت١٢٥٨) ، وهو مراكشي بالمولد واستقر في مصر حيث انتشرت تعاليمه بشكل واسع ، وعاد ذلك المذهب الى مراكش على أيدي (الجزولي) في القرن الخامس عشر (ت ١٤٦٥) ، ثم روج له في فاس أحد أفراد العائلة الفاسية ، وقد كان تأثير تعاليم الشاذلية والطرق الأخرى محسوسا وملموسا على كل مستوى في المجتمع ، وكان يقدم تفسيرا للمعنى الباطني للقرآن ، وتحليلا للحالات الروحية للطريق المؤدي

الى تجربة المعرفة بالله ، وسواء أكان المعلمون والأولياء منضمين لاحدى الطرق أم لا ، فقد كان لديهم آمال بالتوسط لدى الله لمعونة الناس فى محنتهم فى الحياة على الأرض ، وهنا كما فى الأماكن الأخرى كانت أضرحة الرجال الصالحين مزارات ، ومن أشهرهم مولاى ادريس المؤسس المعروف لمدينة فاس كمدينة مقدسة سميت باسمه ، وكذلك ضريح ابنه المسمى ادريس فى فاس نفسها .

. . . .

وهنا أيضا كما فى الأماكن الأخرى ، نجد أن رجال العلم والتقوى يحاولون المحافظة على فكرة المجتمع المسلم الحق تجـاه تزايد الخرافات وأطماع الدنيا ، وفى دراسة لباحث فرنسى كشف عن حياة رجل من هذا النوع هو الحسن اليوسى (١٦٣١ ــ ١٦٩١) ، وهو رجل من الجنوب انضم للسلك التعليمى وتعلم فى فاس لبعض الوقت على طريقـة المدارس فى مراكش وغيرها ، وكانت كتاباته متنوعة ، وتشمل سلسلة من المحاورات بعنوان (المحاضرات) ، فمن جانب ، كانت هناك اغراءات ومفاسد السلطة وفى مقال شهير له عبر عن رؤية العلماء الخاصـة لدورهم ، وقد حذر السلطان اسماعيل من المظالم التى تمارس باسـمه على أيدى رجـاله ومسئوليه ، فالأرض كما يقول ملك لله وكل الناس عبيده ، واذا عامل الوالى شعبه بالعدل فهو خليفة الله فى الأرض ، وظل الله على عبيده ، وعليه ثلاثة واجبات هى : تحصيل الضرائب بالعدل ، السعى والجهاد للحفاظ على قوة الدفاع عن المملكة ، ودفع ظلم القوى للضعيف ، وهذه الأمور الثلاثة لم تكن موجودة فى مملكتـه ، فمحصلو الضرائب يمارسـون القهر ، والدفاعات مهملة ، والمسئولون يجـورون على النـاس ، والدرس الذى يخلص اليه معروف : فبمجرد انتهاء النبوة ، يكون العلماء حراسا حامين للحقيقـة ، وعلى السلطان أن يحـذو حـذو الخلفاء الراشدين ، ويأخـذ بالنصيحة الطيبة الصدوق من أهل الثقة من رجال الفقه الالهى (١) .

. . . .

وعلى الجانب الآخر من الطريق الأوسط ، كان هناك الفساد الروحى الذى يداخل الانسان العادى فى الريف على أيدى معلمى الصوفية الزائفين المتغطرسين فى الريف .

الفصـــل الخـــامس عشر

تغير ميزان القوى فى القرن الثامن عشر

السلطات المركزية والمحلية

فى القرن السابع ، أنشـأ العرب عالما جديدا اجتذب اليه شعوبا أخرى ، الا أنهم انجذبوا فى القرنين التاسع عشر والعشرين الى عالم جديد تخلق فى غرب أوربا ، وهذا بالطبع تبسيط مخل لوصف عملية فى غاية التعقيد ، كما أن تفسيرها أيضا ربما يكون مبسطا للغاية ·

وأحد التفسيرات المتداولة تقدم كما يلى : بحلول القرن الثامن عشر ، أصبحت الممالك الاسلامية القديمة والمجتمعات التى تحكمها فى حالة انهيار ، بينما تنامت قوة أوروبا وقد جعل هذا من الممكن انتشار البضائع والأفكار والقوة التى أدت الى فرض السلطة الأوروبية ، ثم الى انعاش القوة والحيوية للمجتمعات العربية بشكل جديد ·

وربما كانت فكرة الانحدار صعبة الاستعمال ، الا أن بعض الكتاب العثمانيين أنفسهم قد استخدموها ، منذ أواخر القرن السادس عشر وما بعـــده ، واعتقـد أولئك الذين قارنوا بين ما شهدوه حولهم وبين ما اعتقدوا بوجوده من قبل ، بأن الأشياء لم تعد كما كانت فى العهود السابقة من العدل والمؤسسات ودستور أخلاقيات المجتمع التى استندت اليها القوة العثمانية التى تحللت ، وقد قرأ بعضهم ابن خلدون · وفى القرن السابع عشر ، عكس المؤرخ « نعيمه » بعض أفكاره ، التى ترجمت بعض أجزاء منها الى التركية فى القرن الثامن عشر ·

وقد كان العلاج عند مثل هؤلاء الكتاب يكمن فى العودة الى مؤسسات العصر الذهبى ، سواء أكان هذا العصر ذهبيا على وجه الحقيقة أم أن تصور مثاليته أمر خيالى • وقد كتب سارى محمد باشا (ت ١١٧٧) ، الذى كان فى وقت ما أمين الخزينة أو الدفتردار فى بداية القرن الثامن عشر ، أنه يجب أن تعود الفوارق القديمة التى كانت قائمة بين الحكام والمحكومين وأن يتصرف الحكام بالعدل :

« يجب الاهتمام بتجنب دخول الرعية الى الجيش ، فلا مناص من أن تعم الفوضى حين يتقلد أولئك الذين لم يكونوا من نسل الفرسان أبا عن جد وظائف الفرسان •• وعلى المسئولين ألا يقهروا الرعية الفقيرة ، أو يحيروهم نتيجة فرض مبالغ جديدة تضاف على الضرائب السنوية التى اعتادوا دفعها •• ويجب حماية الناس فى الأقاليم والمدن برفع المظالم والاهتمام الحقيقى بأحوال الرعية ورخائها ••• الا أنه لا يجب المبالغة فى تدليل الرعايا » (١) •

وبدلا من الحديث عن الانهيار ، قد يكون من الأصلح أن نقول بأن ما حدث كان ضبطا وتعديلا لطرائق الحكم العثمانية وتوازن القوى داخل الامبراطورية ، وبنهاية القرن الثامن عشر تكون الأسرة العثمانية قد حكمت ٥٠٠ سنة وحكمت معظم البلاد العربية لأكثر من ثلاثة قرون ، فكان من المتوقع أن طرائقها فى الحكم ومدى سيطرتها قد أصابها الاختلاف من زمان لزمان أو من مكان لآخر •

وكان هناك نوعان على جانب كبير من الأهمية من التغير الذى حدث فى القرن الثامن عشر • فى الحكومة المركزية فى اسطنبول كانت السلطة تميل للانتقال من بيت السلطان الى صفوة من كبار المسئولين المدنيين فى مكاتب الصدر الأعظم • ورغم أن مجموعات مختلفة منها تنافست على السلطة،الا أنها كانت مرتبطة ببعضها البعض ، وأيضا بكبار رجال السلك الدينى والقضائى بأكثر من شكل ، فكانت لها ثقافة مشتركة تضمنت عناصر عربية وفارسية وتركية ، وكان لهم اهتمام مشترك بقوة ورفاهية الامبراطورية والمجتمع الذى كانت تحميه ، ولم يكونوا يعيشون بنسيط

عن المجتمع كما عاش عبيد القصور ؛ ولكنهم كانوا مشاركين فى الحياة الاقتصادية من خلال تحكمهم فى الهبات الدينية والالتزامات وارتباطاتهم بالتجار للاستثمار فى التجارة والأرض .

كما اندمج جيش المرتزقة أيضا فى المجتمع ، وأصبح الانكشارية تجارا وحرفيين ، والتجار والحرفيون بدورهم اكتسبوا انتسابا وارتباطا بفصائل الانكشارية ، وقد ارتبطت هذه العملية كسبب ونتيجة معا بالتغير المهم الآخر ، وهو ظهور جماعات حاكمة محلية فى عواصم الأقاليم التى كانت قادرة على التحكم فى موارد الضرائب وان تستخدمها لتكوين جيوشها المحلية الخاصة بها ، وكانت هذه الجماعات موجودة فى معظم عواصم الأقاليم ، ما عدا أولئك الذين لم يمكن التحكم فيهم من اسطنبول بسهولة ، ويمكن أن يكونوا من أنواع مختلفة فقد كان فى بعض الأماكن عائلات حاكمة مع أهل بيتهم ومن يعولون ، وكان أفرادها قادرين على تربية مجموعات قادرة على النمو الذاتى من المماليك ، كانوا مجلوبين من البلقان أو القوقاز كعبيد من الجنود أو من المتدربين فى بيت الوالى أو قائد الجيش ، ووصلوا الى مناصب مهمة فى الحكومات المحلية أو الجيش ، واستطاعوا أن يعيروا قوتهم لأفراد آخرين من نفس الجماعة ، مثل هؤلاء الحكام المحليين استطاعوا تكوين تحالفات وتوافق فى المصالح مع التجار وملاك الأراضى والعلماء فى المجتمع ، وحافظوا على النظام الذى كان ضروريا لرفاهية المدينة ، وفى المقابل استفادوا من ذلك .

وكان هذا هو الوضع فى معظم الأقاليم العثمانية فى الأناضول وأوروبا ماعدا اولئك الذين يمكن أن يطالوا بسهولة من اسطنبول ، كما حدث أيضا فى كل الأقاليم العربية ، وقد بقيت حلب فى شمال سوريا والواقعة على الطريق الامبراطورى الرئيسى ويمكن الوصول اليها بسهولة نسبية من اسطنبول ، تحت السيطرة المباشرة ، ولكن بعض افراد الجماعات المملوكية استطاعوا فى بغداد وفى عكا على ساحل فلسطين ، احتلال مناصب الولاة . وكذلك العائلات التى ارتفعت فى خدمة العثمانيين فى دمشق والموصل . أما فى الحجاز ، فقد حكم أشراف مكة المدن المقدسة —

وهم عائلة تنتسب الى نسل الرسول ﷺ ، برغم وجود حاكم عثمانى فى جدة على الساحل • فى اليمن ، لم يعد هناك وجود عثمانى ومثل هذه السلطة المركزية كانت موجودة فى أيدى عائلات الأئمة التى اعترف بها السكان الزيديون •

وفى مصر ، كان الموقف أكثر تعقيدا ، حيث كان هناك مايزال حاكم من قبل اسطنبول ، ولم يكن مسموحا له بالبقاء فترة أطول مما يجب حتى لا يكتسب قوة كبيرة ، ولكن معظم المناصب الكبرى والالتزامات قد أصبحت بين أيدى الجماعات المتنافسة من المماليك وضباط الجيش ، وبعدها تركزت فى يد واحد منهم ، أما فى الولايات العثمانية الثلاث فى المغرب، فقد استولى قادة الجيوش المحلية على السلطة بشكل أو بآخر.ففى طرابلس وتونس أنشأ قادة الجيوش أسرا حاكمة اعترفت بهم اسطنبول كحكام ؛ لكنهم كانوا يحملون لقب «باى» المحلى،وفى الجزائر انتخبت قوات الجيش سلسلة من « الدايات » ، ولكن بعضهم كان قادرا على انشاء مجموعة من كبار المسئولين ، الذين كانوا قادرين على تبادل السلطة فيما بينهم والحفاظ على منصب «الداى» بين أيديهم،وفى كل الأقاليم الثلاثة اتحد المسئولون وضباط الجيش والتجار فى البداية بالاهتمام المشترك بتجهيز سفن القرصنة (القراصنة البربر) للاستيلاء على سفن الدول الأوربية التى كان السلطان فى حالة حرب معها ، وبيع بضائعها ، ولكن هذه الأعمال انتهت فى أواخر القرن الثامن عشر •

وبرغم ضخامة تلك التغييرات فلا يصح المبالغة فيها ، فقد ظل السلطان فى اسطنبول محافظا قابضا على السلطة العليا ، وكان يمكنه خلع أكبر المسئولين واعدامه ومصادرة بضائعه،حيث ظل مسئولو السلطان « كعبيد » له ، وحتى أقوى الحكام كانوا راضين بأن يظلوا ضمن النظام العثمانى ، فقد كانوا عثمانيين محليين وليسوا ملوكا مستقلين ، ولم تكن الدولة العثمانية معادية أو أجنبية بالنسبة لهم ، فقد ظلت تجسيدا للأمة الاسلامية (أو على الأقل للقسم الأكبر منها) • وكان للحكام المحليين معاملاتهم مع القوى الأجنبية، ولكنهم كانوا يستخدمون قوتهم لدفع

المصالح الحيوية والدفاع عن الحدود الامبراطورية . بالاضافة الى ذلك، ظل للحكومة المركزية بقايا من القوة في معظم أجزاء الامبراطورية . وكانت ما تزال قادرة على منح ومنع الاعتراف الرسمي بالولاة ، حتى ان « باى » تونس و « داى » الجزائر كانا يرغبان في أن يخلع عليهما السلطان الولاية ، وقد كانت الامبراطورية تستطيع أن تستفيد من العداوات الاقليمية ، أو بين أفراد أسرة مملوكية ، أو بين الحاكم الاقليمي والأعيان المحليين ، وكان يمكنها ارسال جيش لاعادة فرض سلطتها على المناطق التى تصل اليها الطرق الامبراطورية أو الطرق البحرية لشرق المتوسط،وهذا ما حدث في مصر لفترة وجيزة في الثمانينات من القرن الثامن عشر ، وقد كان الحج الذى كان ينظمه والى دمشق حاملا الهدايا من اسطنبول الى سكان المدن المقدسة وتحرسه قوة عثمانية ، ويتحرك على طريق تحميه الحاميات العثمانية ، تأكيدا سنويا للسيادة العثمانية على طول الطريق من اسطنبول خلال سوريا وغرب الجزيرة العربية الى قلب العالم الاسلامى .

وقد ظهر توازن جديد للقوى في الامبراطورية ، وكان توازنا مزعزعا يحاول كل فريق فيه زيادة قوته كلما أمكن ، ولكن أمكنها الحفاظ على تحالف المصالح بين الحكومة المركزية والعثمانيين المحليين والجماعات التى حازت الثروة والمكانة من التجار والعلماء ، وهناك دلائل في بعض المناطق علي أن هذه التوليفة من الحكومات المحلية القوية ، وجماعات الصفوة الفاعلة في الحضر ، قد حافظت بل وزادت من الانتاج الزراعي ، الذى كان أساس رفاهية الحضر وقوة الحكومات ، ويبدو أن ذلك قد حدث في الأقاليم الأوربية ، فقد أدى تزايد السكان الى أواسط أوربا الى زيادة الطلب على السلع الغذائية والمواد الخام ، وكان بامكان أقاليم البلقان توفيرها ، وفي تونس والجزائر كان القمح والجلود تنتج من أجل التصدير الى مرسيليا وليفورنو ، وفي شمال فلسطين وغرب الأناضول زاد انتاج القطن للوفاء باحتياجات فرنسا ، ولم تمتد سيطرة الحكومة المركزية وحلفائها من الحضر لأبعد من المدن ، فكانت السلطة العثمانية في المغرب لا تصل حتى الهضبة العليا ، وفي الهلال الخصيب لم تمتد لتشمل

بعض القبائل من رعاة الابل الرحل شمالا من أواسط الجزيرة العربية ، حيث توسعت المساحة المستخدمة للزعي على حساب تلك المنزرعة،وكذلك انكمشت المنطقة التى كان يسيطر عليها المسئولون الحضريون ليمتد نفوذ الرعاة على من بقى فيها من المزارعين •

وقد حدثت تطورات من نفس النوع فى الأراضى ما وراء الحدود الامبراطورية ، حيث نشأت فى عمـان أسرة جـديدة حاكمة ادعت فى البداية امامة الاباضية وفرضوا نفوذهم على مسقط الساحلية ، وتحالفوا مع التجار والحكام بحيث يتمكنون من توسيع ونشر التجارة العمانية على سـواحل المحيط الهندى ، وفى الموانىء الأخرى من الخليج والكويت والبحرين والموانىء الأصغر منها ، ارتبطت العائلات الحاكمة بشكل وثيق بمجتمعات التجار التى ظهرت ، وفى السودان الى الجنوب من مصر ، كانت هناك سلطنتان عاشتا لمدة طويلة ، أولاهما الفونج ، وعاشت فى الأراضى الخصيبة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ، حيث كانت طرق التجـارة الممتدة بين مصر واثيوبيـا تتقاطع مع الطرق الممتدة بين غرب أفريقيا الى البحر الأحمر ، وكانت الأخرى هى دارفور ، وتقع غرب النيل على الطريق التجارى الممتد بين غرب أفريقيا ومصر •

وفى مراكش فى أقصى المغرب ، كان العلويون يحكمون منذ منتصف القرن السابع عشر ، ولكنه كان حكما بلا قاعدة عسكرية أو قوة بيروقراطية يستطيع الوالى العثمانى أن يعتمد عليها ، ومثل من سبقوهم ، لم يتمكنوا أبدا من السيطرة الكاملة على مدينة فاس مع عائلاتها القوية من كبار التجار وعلمائها حول جامع القرويين وعائلات الأولياء التى تحرس أضرحة أسـلافهم ومزاراتهم ، وكان بامكانهم فى أحسن الأحـوال السيطرة على أجزاء من الريف خارج المدن بالمناورات السياسية ، ووضعية نسبهم ، ولأنهم غير مستقرين ، تذبذبت قوتهم التى بدأت قوية فى بداية القرن الثامن عشر ، وزادت ضعفا بعدها ، ولكنها عادت الى الانتعاش فى النصف الثانى من القرن •

المجتمع والثقافة العربية العثمانية

ويبدو أن آثار القوة والثقافة العثمـــانية فى القرن الثامن عشر أصبحت أكثر عمقا على الأقاليم العربية • وتجذرت فى المدن عن طريق ما سمى بال « العثمانيين المحليين » من العائلات والجماعات ، ومن ناحية ، أسس القادة العسكريون والمسئولون المدنيون الذين استقروا فى عواصم الأقاليم ، عائلات أو بيوتا استطاعت التحـكم فى المناصب فى الخـدمة العثمانية من جيل لآخر ، وقد كانت العائلات الحاكمة المحلية والجماعات المملوكية تمثل المســـتوى الأعلى من ظاهرة كانت موجودة أيضا على مستويات أخرى،اذ تولى بعض أفرادها المناصب فى الادارة المحلية،وبعضهم اكتسب الثروة عن طريق الالتزام ، وبعضهم أرسل أبناءه الى المدارس الدينية المحلية ، ومنهـــا الى سلك القضـاء ، ومن ناحية أخرى كان أفراد العائلات المحلية ذات التقاليد الدينية يميلون الى الحصول على الوظائف فى الخدمة القضائية والدينية ، بحيث يكتسبون السيطرة على الأوقاف ، ومنها الأوقاف الغنية التى أوقفت لخدمة المدن المقدسة ، أو المؤسسات التى أنشأها السلاطين ، وقد تحولت أهداف كثير من هذه الأوقاف من النفع العام الى الأغراض الخاصة ، ويقدر عدد الوظائف الرسمية فى النظام الدينى القضائى فى دمشق فى بداية القرن الثامن عشر بخمس وسبعين وظيفة ، ولكن بحلول منتصف ذلك القرن كان العدد قد زاد على ٣٠٠ وظيفة ، وكان من نتيجة ذلك أن تحولت بعض العائلات المحلية التى كانت تنتمى الى المذهبين الشافعى والمالكى،الى المذهب الحنفى الذى أقره السلاطين العثمانيون (يبدو أن ذلك لم يحدث فى المغرب ؛ لأن الغالبية من السكان بخلاف ذوى الأصول التركية ظلوا مالكيين) •

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، كان هناك — على الأقل فى بعض كبريات المدن العربية — عائلات قوية ودائمة من الأعيان المحليين ، وكان بعضهم أكثر تركية والبعض الآخر كان أكثر عربية ، وقد كان انشاء مبان وقصور متقنة فى الجزائر وتونس وغيرها تعبيرا عن قوتهم وثباتهم ، وقد كان قصر العظم فى دمشق واحدا من أعظمها ، ويتكون من مجموعة من

الغرف والأجنحة ، بنيت حول فناءين ، أحدهما لرجال الأسرة وزوارهم ، والآخر للنساء والحياة المنزلية ، على مستوى مقياس أصغر ولكنه لا يقل بهاء . وقد كانت المنازل المبنية فى « الجديدة » ، وهى ضاحية مسيحية فى حلب أنشأتها العائلات التى أثرت من التجارة المتنامية مع أوربا ، وفى جبال جنوب لبنان كان قصر أمير لبنان « بشير الثانى » وقد بناه حرفيون من دمشق ، وهو قصر حضرى بنى على سفح منعزل ، وهذه المنازل كان يبنيها المعماريون المحليون والحرفيون ، وكان يلتزم فى التصميم المعمارى والطراز بالتراث المحلى ، ولكن كان تأثير الأنماط الخرفية العثمانية ملحوظا خاصة فى استخدام القيشانى ، وكان يختلط بهذا الطراز تقليد للطرز الأوربية كما فى دهانات الحوائط واستخدام زجاج بوهيميا والبضائع الأخرى المصنعة فى أوربا لسوق الشرق الأوسط ، وفى تونس ذكر رحالة فرنسى فى بدايات القرن أن القصر القديم « للباى » ، ويطلق عليه « البارود » ، قد زود بمفروشات على الطراز الايطالى .

وكان استمرار العائلات ونفوذها الاجتماعى مرتبطا بالمدارس المحلية . ففى دراسة عن القاهرة قدرت أن المتعلمين من السكان الذكور قد يصل الى النصف ، ولكن قليلا من النساء منهن متعلمات . وهذا يعنى أن المدارس الابتدائية (الكتاتيب) كانت هائلة العدد ، وعلى المستوى الأعلى يذكر مؤرخ من تلك المرحلة حوالى ٢٠ مدرسة ، ونفس العدد من المساجد حيث يدرس فيها مستوى أعلى ، وكانت المؤسسة المركزية هى الجامع الأزهر وقد ازدهر على حساب المدارس الأصغر والجوامع التى لم تكن لها أوقاف،وقد اجتذبت طلابا من سوريا وتونس ومراكش ومناطق اعالى النيل ، وبنفس الطريقة كان فى تونس جامع الزيتونة الذى زاد من حجمه وأهميته خلال القرن ، اذ توسعت مكتبته والهبات وعززتها ايرادات الجزية على غير المسلمين .

وفى مثل هذه المدارس العليا ، كان المنهج القديم ما زال متبعا ، وأهم الدراسات العلوم القرآنية والحديث والفقه ، وقد اجتمعت فى دراستها

مراجع الفتاوى القديمة والرسائل الفقهية ومواد اللغة ، وكانت تدرس المذاهب الأساسية فى أشكالها المعاصرة ، كما كانت أعمال ابن عربى وغيره من الصوفيين مقروءة على نطاق واسع ، وقد كانت العلوم العقلانية كالرياضيات والفلك تدرس فى أغلب الأحوال خارج المنهج ، ولكن يبدو أنها كانت تحظى باهتمام كبير .

وقد ظل هناك مجال للانتاج الأدبى على مستوى رفيع، حتى فى حدود ذلك المنهج الصارم الذى لا يتغير ، وقد ظهر فى تونس أسرة أسسها جندى تركى جاء الى البلاد مع قوات الحامية العثمانية فى القرن السادس عشر ، أفرزت أربعة رجال فى أجيال متعاقبة ، كان يسمى كل منهم محمد بيرم ، وقد عملوا جميعا فى منصب المفتى الحنفى ، كما حققوا شهرة علمية واسعة ، وفى سوريا ظهرت الأسرة التى أسسها مراد النقشبندى من آسيا الوسطى ، والتى تسلمت منصب الافتاء الحنفى لأكثر من جيل ، وكان أحدهم محمد خليل المرادى (١٧٦٠ ـ ١٧٩١) ، الذى استمر فى كتابة سير رجال العلم حسب التقاليد السورية ، وقد غطى معجم السير لشخصيات القرن الثانى عشر الهجرى .

وقد لجأ المرادى فى جمع السير الى عالم شهير كان يقيم بمصر ، هو مرتضى الزبيدى (١٧٣٢ ـ ١٧٩١) ، ويبدو فى خطابه اليه ما يعبر عن وعيه بأنه يقف فى نهاية تراث طويل عليه أن يحافظ عليه (*) .

وقد انحدر الزبيدى من أصول هندية ، وعاش لفترة فى زبيد فى اليمن ، وهى محلة مهمة على الطريق الذى يصل ما بين جنوب وجنوب شرق آسيا الى المدن المقدسة ، وقد كانت مركزا علميا مهما فى ذلك الوقت وانتقل الى القاهرة وانتشرت حيثيته من هناك ؛ نظرا لشهرته فى كتابة الحواشى والأدب، وكان من بينها تفسير للحديث، وحاشية على احياء علوم الدين للغزالى ، ومعجم عربى عظيم .

وقد طلب مرتضى الزبيدى بدوره من طالب علم صغير هو عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٣ ـ ١٨٢٥) أن يساعده فى جمع المادة فى السير ، وكان

(*) لم نعثر على النص المطلوب فى كتاب الزبيدى .

هذا دافعا له الى كتابة التاريخ،وبمرور الوقت وضع آخر اليوميات العظيمة على الطراز التقليدى ، التى لم تقتصر على الأحداث السياسية ولكنها تناولت أيضا حياة العلماء ومشاهير الرجال ٠

وفى عالم الشيعة أيضا ، استمر تراث التعليم الراقى ، ولكن العلماء والدارسين انقسموا بشكل حاد ، وقد كانت المدرسة (الاخبارية) مسيطرة بين أوساط العلماء في المدن المقدسة ولكن قرب نهاية القرن ظهرت المدرسة الأصولية بظهور عالمين مهمين،هما : محمد باقر البهبهانى (ت ١٧٩١) وجعفر كاشف الغيتة (١٧٤١ - ١٨١٢) بدعم الحكام المحليين فى العراق وايران ، نظرا لأن مرونة الأصوليين وفرت لهم بعض المميزات ، وقد أصبحت هذه المدرسة هى المدرسة الرئيسية ، واستمرت الاخبارية مسيطرة فى بعض أجزاء من الخليج ، وقرب نهاية القرن ظهرت مدرسة جديدة هى الشيخية وهددت كلا من الأصولية والاخبارية ، وقد نشأت من التقاليد الصوفية التى تعتمد على التفسير الروحانى (الباطنى) للكتب المقدسة ، وهى مسألة كامنة فى الفكر الشيعى ، ولكن هذه المدرسة أدينت من المدرستين السابقتين عليها واعتبرت خروجا عن الشيعة الامامية ٠

وليس هناك من دليل على أن أيا من الفكرين الشيعى أو السنى ، قد اخترق فى ذلك الوقت بالأفكار الجديدة التى بدأت فى الظهور فى أوربا ، وقد كان بعض الكهنة السوريين واللبنانيين الذين اكتسبوا معرفة باللاتينية والايطالية أو الفرنسية،واعين بعلم اللاهوت الكاثوليكى والدراسة الأوربية فى ذلك الوقت٠وقد تعلم قليل منهم فى أوربا وأصبحوا من الدارسين ذوى السمعة الأوربية ، وكان أشهرهم يوسف السمعانى ، وهو مسيحى مارونى من لبنان ولغوى فى السريانية والعربية وأصبح أمينا لمكتبة الفاتيكان ٠

عالم الاسلام

لقد كان المسلمون الغرب سواء أعاشوا فى ظل الدولة العثمانية أم خارج حدودها ، يشعرون بوجود روابط بينهم أعمق من أن تكون مجرد

روابط سياسية ، وقد كان من بينهم أولئك الذين يتحدثون التركية أو الفارسية أو اللغات الأخرى فى العالم الاسلامى ، وكان هناك مفهوم عام بالانتماء الى عالم مستمر ثابت تبلور على هدى الوحى الالهى الأخير الذى نزل على محمد ﷺ ، والذى تجسد بأشكال مختلفة من الفكر والنشاط الاجتماعى : القرآن وسنة النبى ﷺ والنظام الفقهى أو السلوك الاجتماعى المثالى ، والطرق الصوفية التى تتوجه نحو أضرحة مؤسسيها ، والمدارس ، وأسفار العلماء الدراسية بحثا عن العلم ، وتداول الكتب وتوزيعها ، وصيام رمضان الذى كان يجرى فى نفس الوقت وبنفس الطريقة بين المسلمين فى كل مكان ، والحج الذى جلب الآلاف من كل أنحاء العالم الاسلامى الى مكة فى نفس الوقت من العام ، وقد حافظت كل هذه الأنشطة على الشعور بالانتماء الى عالم اشتمل على كل ما هو ضرورى للرفاهية فى هذه الحياة والخلاص فى الحياة الأخرى .

ولقد كان من المتوقع لهيكل دام عصورا طويلة أن يصيبه التغيير ، وقد اختلفت مفاهيم « حظيرة الاسلام » عما كانت عليه عند بدايتها من عدة نواح ، فقد جاءت موجة من التغير من شرق العالم الاسلامى فى شمال الهند حيث كان المغول يحكمون المسلمين والهندوس ، وقد ظهر هناك عدد من المفكرين كان أهمهم شاه ولى الله من دلهى (١٧٠٣ ــ ١٧٦٢) .

وكانت تعاليمهم تدور حول أن الحــكام عليهم الالتزام بمفاهيم الاسلام ، وأن الاسلام يجب أن ينقى على أيدى معلمين يجتهدون على قاعدة من القرآن والحديث ، وأن على كافة المذاهب أن تندمج فى نسق واحد من الأخلاق والفقه ، وأن على الصوفيين ممارسة شعائرهم فى حدود مرسومة ، وقد التقى العلماء وأفكارهم القادمة من الشرق بغيرهم من علماء وأفكار المدارس الاسلامية الكبرى فى المدن المقدسة فى مواسم الحج ، وقد نتج من ذلك الاختلاط مذهب صوفى قام فى دعوته على الالزام بمراعاة الشــعائر الشرعية ، بصرف النظر عن تقــدم المسلم على طريق العرفان بالله ، وكانت النقشبندية قد انتشرت فى وقت مبكر من شمال الهند وآسيا الصغرى الى البلاد العثمانية وزاد نفوذها هناك ، كما ظهرت

أيضا الطريقة التجانية (بتشديد مع فتح الجيم) فى الجزائر والمغرب ، على يد معلم رجع من مكة والقاهرة ، وانتشرت فى غرب أفريقيا .

وقد كانت هناك حركة أخرى قد تبدو أقل أهمية فى ذلك الوقت ولكن أصبح لها تأثير كبير فيما بعد ، وقد نشأت فى قلب الجزيرة العربية فى أوائل القرن الثامن عشر،عندما قام مصلح دينى هو محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢) بالدعوة الى حاجة المسلمين للعودة الى تعاليم الاسلام كما فهمها أتباع ابن حنبل ، والطاعة الصارمة للقرآن والحديث كما يفسرها العلماء والدارسون المسئولون فى كل جيل ، ورفض كل ما يمكن اعتباره من البدع المستحدثة غير الشرعية ، ومن ضمن هذه البدع تبجيل الأولياء الأموات كوسطاء الى الله يتشفعون عنده وبعض النسك الخاصة فى الطرق الصوفية ، وقد عقد هذا المصلح تحالفا مع محمد بن سعود حاكم «الدرعية» ؛ وأدى هذا الى قيام دولة ادعت الحكم بالشريعة وحاولت جمع القبائل الرعوية حولها تحت قيادتها ، وبذلك عززت مصالح المجتمع الحضرى للواحات على الأراضى الرعوية ، ولكنها فى نفس الوقت رفضت ادعاءات العثمانيين بأنهم حماة الاسلام الحقيقيون ، وفى بداية القرن التاسع عشر توسعت جيوش هذه الدولة الجديدة فهدموا المزارات الشيعية فى جنوب غرب العراق واحتلوا المدن المقدسة فى الحجاز .

العلاقات المتغيرة مع اوربا

كان عالم الاسلام يبدو بالنسبة لمعظم من كان ينتمى اليه ، أنه عالم يتوسع وينمو ويعيش مكتفيا بمقوماته صامدا أمام التحديات ، ولكن بعض مفكرى الصفوة العثمانيين فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، كانوا يعرفون أن هناك قوى تهدده ، وأنها تقوم باحداث تغيرات فى العالم المحيط به ، وقد كانت الدولة العثمانية على الدوام واعية بالعالم من حولها : الى الشرق الامبراطورية الشيعية فى ايران ، وفيما وراءها امبراطورية المغول ، والى الشمال والغرب الدول المسيحية ، وكانت على اتصال مع غرب أوروبا وأواسطها ، وسيطرت على السواحل الجنوبية

والشرقية للبحر المتوسط ، وتقع حدودها الغربية فى حوض نهر الدانوب ، ولم يكن ما بينها وبينهم عـــلاقات عداوة ، لكن هذه العداوة قد وجدت بالفعل عندما حارب الأسطول العثمانى البنادقة والاسبان للسيطرة على المتوسط ، ووصل الجيش العثمانى الى بوابات فينا ، ويمكن أن نعبر عن تلك العلاقة فى شكل صليبية فى جانب وجهاد فى الجانب الآخر ، الا أنه كانت هناك أنواع أخرى من العلاقات ، فقد كانت التجارة تجرى على أيدى التجار الأوروبيين من البندقية وجنوه فى بدايات القرون العثمانية ، والتجار البريطانيين والفرنسيين فى القرن الثـامن عشر ، وكانت هناك تحالفات مع الملوك الأوربيين الذين كانوا فى عداء مشترك مع السلطان ، خاصة فى حالة فرنسا ضد الهابسبورج من النمسا واسبانيا . وفى عام ١٥٦٩ حصلت فرنســـا على تنازلات مشروطة لتنظيم أنشطة التجار والمبشرين ، على غرار الامتيازات السابقة التى منحت للتجـار من بعض المدن الايطالية ، ومنحت لاحقا لقوى أوربية أخرى ، وكان للدول الرئيسية فى أوربا سفارات وقنصليات دائمة فى الامبراطورية ، أصبحت جزءا من نظـــام الدولة فى أوربا ؛ رغم أنها لم ترســل بعثـات دائمـة الى العواصم الأوربية الا بعد ذلك بكثير (وبنفس الطريقة كانت بين مراكش وانجلترا علاقات طيبة عندما كانتا على عداء مع اسبانيا) .

وحتى منتصف القرن الثامن عشر ، كانت العلاقات بين العثمانيين وأوروبا تعتبر بشكل عام من وجهة نظر العثمانيين ، على قدم المساواة ، وفى أواخر القرن الخامس عشر كان جيش السلطان النظامى يستخدم الأسلحة النارية ، ويضاهى أيا من جيوش أوروبا ، وفى القرن السابع عشر قام العثمانيون بآخر غزواتهم العظيمة لجزيرة « كريت » واستولوا عليها من البنادقة ، ومع بداية القرن الثامن عشر ، كانت هناك تعاملات مع الدول الأوروبية على مستوى دبلوماسى متسـاو ، بدلا من التميز الذى كانوا يمارسونه منذ وقت طويل ، وكان جيشهم يعتبر متخلفا عن الجيوش الأخرى فى التنظيم والتكتيك واستخدام الأسلحة ، رغم أنه ليس متخلفا بالدرجة التى يصعب علاجها فى اطار النظـــام المؤسسى القائم ، وظلت التجارة تجرى فى اطار الشروط السابقة .

وفى الربع الأخير من القرن ؛ بدأ الموقف فى التغير بسرعة ، وبشكل درامي ، حين تزايدت الهوة بين المهارات التقنية لبعض الدول فى غرب وشمال أوروبا وبين بقية بلدان العالم . وخلال قرون الحكم العثمانى لم يكن هنــاك تقدم تقني وتدنى مستوى المعرفة العلمية والفهم . وبخــلاف بعض اليونانيين وغيرهم ممن تعلموا فى ايطاليا ، كانت هناك معرفة قليلة بلغات غرب أوروبا وبالتطورات فى العلوم أو التقنية التي تحققت هناك ، فالنظريات الفلكية التى ارتبطت باسم « كوبرنيكوس » كانت تذكر فى اللغة للمرة الأولى فى ذلك الوقت بايجاز ، وفى أواخر القرن السابع عشر ، كما أن التطورات التى حدثت فى الطب الأوروبى كانت تصل ببطء الى الأفهام فى القرن الثامن عشر فى الامبراطورية العثمانية .

وقد تطورت بعض البلاد الأوروبية الى مستوى مختلف من القوة ، فقد توقفت هجمات الطاعون التى كانت تفتك بالمدن الأوروبية حين طبق نظام الحجر الصــحى ، كمــا أنهى دخول زراعة الذرة وتوسع الأراضى الزراعية المجاعات وجعلت بالامكان اطعام عدد أكبر من السكان ، كما أن التحســينات فى بناء الســفن وفنون الملاحة أوصلت البحارة والتجار الأوروبيين الى كل محيطات العالم ، وأدت الى نشــأة مواقع تجارية ومستعمرات ، كما أدت التجارة واستغلال المناجم والحقول فى المستعمرات الى زيادة تراكم رأس المال الذى كان يستخدم لانتاج السلع المصنعة بطرائق جديدة وبشكل أوسع ، وأدى تزايد السكان والثروة بالحكومات الى انشاء جيوش وقوى بحرية كبيرة ، ولهذا فان بعض بلاد غرب أوروبا ـ انجلترا وفرنسا وهولندا على وجه الخصوص ـ قد عمدت الى التراكم المستمر للموارد بينما ظلت الدولة العثمانية ، مثلها مثل مناطق أخرى من آسيا وأفريقيا ، تعيش فى وضع يضمر فيه السكان ويتناقصون بفعل الأوبئة والمجاعات ، كما أن الانتــاج لم يولد رأس المال اللازم لاجراء التغييرات الأساسية فى الوسائل ، أو زيادة القوى النظامية للحكومة .

ولم يكن تنامى القوة العسكرية لأوروبا الغربية قد أصبح محسوسا بعد بشكل مباشر ، ففى غرب المتوسط وهنت القوة الاسبانية ، واستطاع

« داى » الجزائر عام ١٧٩٢ السيطرة على « وهران » التى كانت فى قبضة الاسبان ، وفي شرق المتوسط كانت قوى البندقية فى انحدار ، ولم تكن القوة الانجليزية أو الفرنسية محسوسة بعد ، وكان الخطر يبدو كما لو كان قادما من الشرق والشمال ، من روسيا ، التى كان جيشها وحكومتها قد أعيد تنظيمهما على النمط الأوروبى،وكانت تتقدم جنوبا٠وفى حرب فاصلة مع العثمانيين (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) ، أبحر أسطول روسى فى شرق المتوسط واحتل جيش روسيا جزيرة القرم التى ضمت للامبراطورية الروسية بعد سنوات قليلة ، ومنذ هذا الوقت لم يعد البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأصبح الميناء الروسى الجديد ، أوديسا ، مركزا للتجارة ٠

الى أقصى الشرق فى الهند ، بدأ أمر آخر لا يقل جسامة ، فقد دارت السفن الأوروبية حول رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر ، وبالتدريج تأسست مواقع التجارة الأوربية على سواحل الهند ، وفى الخليج ، وفى الجزر جنوب شرق آسيا ، ولكن كانت التجارة محدودة طوال ما يربو على القرن ، فقد كان طريق رأس الرجاء الصالح طويلا محفوفا بالمخاطر ، وكانت التوابل والسلع الآسيوية الأخرى ترسل عن طريق الخليج أو البحر الأحمر لمدن الشرق الأوسط لتباع فى الأسواق المحلية أو توزع غربا أو شمالا ، وكانت أوروبا تريد شراء التوابل ، ولكن لم يكن لديها الا القليل لتقدمه فى المقابل ، فقد كانت سفنها وتجارها فى المحيط الهندى مشغولين الى حد كبير فى البيع والشراء بين الموانىء الآسيوية ، وفى بواكير القرن السابع عشر تحولت تجارة التوابل حول رأس الرجاء الصالح على أيدى الهولنديين ، ولكن تجارة القهوة التى ظهرت فى ذلك الوقت عوضت الخسارة العثمانية ، وكانت تزرع فى اليمن وتوزع على العالم الغربى عن طريق تجار من القاهرة ، وقد بدأت فيما بعد الشركات الأوروبية فى التوسع فيما وراء موانيها ، وأصبحوا جامعين للضرائب وحكاما فعليين لمناطق واسعة ، فقد وسعت شركة شرق الهند الهولندية من سيطرتها على اندونيسيا ، كما تولت الشركة البريطانية ادارة منطقة كبيرة من الامبراطورية المغولية والبنغال،فى الستينات من القرن الثامن عشر ٠

وفى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، تغيرت طبيعة التجارة الأوروبية مع الشرق الأوسط والمغرب بشكل واضح ، وقد ظلت بعض الجماعات من التجار والبحارة العرب قادرة على الحفاظ على مواقعها فى التجارة مع المحيط الهندى ، خاصة العمانيين الذين امتدت قوتهم على الساحل الأفريقى الشرقى ، وبشكل عام أصبحت المعاملات بين المناطق المختلفة من العالم بين يدى التجار وملاك السفن الأوروبيين ، وجاءت السفن البريطانية الى المخا على شواطىء اليمن لشراء القهوة ، وكانت التوابل من آسيا تجلب من الشرق الأوسط مع التجار الأوربيين ، ولم يشعر التجار فقط بالخطر ولكن المنتجين أيضا أحسوا بالتهديد ، والبضائع المنتجة فى أوربا أو تحت السيطرة الأوربية فى المستعمرات فى آسيا والعالم الجديد ، بدأت فى التنافس مع بضائع الشرق الأوسط فى كل من أسواق الشرق الأوسط وأوربا ، فكانت القهوة من جزر «المارتينيك» أرخص من القهوة من اليمن ، والتجار المتعاملون فيها كانت لهم أساليب تجارية أفضل من تجار القاهرة ، وكان لهم أيضا ميزة احتكار الأسواق الأوربية ، وفى أواخر القرن الثامن عشر فقدت القهوة اليمنية (قهوة المخا) موقعها من التجارة الأوربية وكانت تواجه منافسة من قهوة جزر الأنتيل فى القاهرة وتونس واسطنبول ، وكان السكر من جزر الأنتيل والمكرر فى مارسيليا يهدد صناعة السكر فى مصر ، والمنسوجات الفرنسية ذات المستوى الجيد كانت فى متناول الناس العاديين من الرجال والنساء ، بالاضافة الى بلاط القصور فى الدولة العثمانية • وفى المقابل ، كانت أوربا تشترى غالبا المواد الخام : الحرير من لبنان والقطن من شمال فلسطين والحنطة من الجزائر وتونس والجلود من مراكش •

وفيما يتعلق بالتجارة مع أوربا ، كانت بلاد الشرق الأوسط والمغرب أقرب الى أن تصبح الموردين الأساسيين للمواد الخام ، والمشترين للسلع التامة الصنع ، الا أن آثار ذلك الوضع كانت ما تزال محدودة ، فقد كانت التجارة مع أوربا أقل أهمية لاقتصاديات البلاد العربية من التجارة مع البلاد الشرقية ، أو تلك التى تمر بالنيل أو الطرق الصحراوية بين سواحل المتوسط وأفريقيا ، وكان التأثير الأساسى هو تقليل التجارة بين

الأجزاء المختلفة للامبراطورية العثمانية فى تلك السلع التى أصبحت أوربا منافسا فيها ٠

ورغم محدودية ذلك التغيير ، الا أنه كان علامة على انتقال القوة ، فاذا وصلت السفن البريطانية حتى المخا ، فمعنى ذلك أن بامكانها الابحار فى البحر الأحمر ، وتهديد أمن المدن المقدسة وعائدات مصر ، وتوسع القوة البريطانية فى البنغال وهى منطقة ذات نسبة عالية من السكان المسلمين ، وهى جزء من الامبراطورية المغولية ، كان معروفا على الأقل للجماعة العثمانية الحاكمة ، والاحتلال الروسى لجزيرة القرم وهى منطقة من السكان المسلمين أساسا تحكمها سلالة أو عائلة مرتبطة بشكل وثيق بالعثمانيين ، وتحركات الأسطول الروسى كانت معروفة بشكل أكثر انتشارا ، وبنهاية القرن كان هناك وعى متزايد بهذه الأخطار ، وقد اتخذت شكل تنبؤات بين عامة الناس ، أما بين الصفوة العثمانية فقد سيطرت عليهم فكرة أن هناك شيئا لابد من عمله٠وقد نتج عن السفارات الموسمية لدى دول أوربا ، واللقاءات مع الدبلوماسيين والمسافرين الأوربيين بعض العلم بالتغييرات التى تحدث فى أوربا الغربية ، وأصبح من الواضح لبعض كبار المسئولين العثمانيين أن دفاعات الامبراطورية أصبحت تحتاج الى تقوية ، وبذلت بعض المحاولات لادخال تدريب حديث ومعدات حديثة الى الجيش والبحرية ٠ وفى التسعينات من القرن الثامن عشر ، اتخذ السلطان الجديد سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) مبادرة أكثر جدية لتحديث الجيش ، ولكنها لم تسفر فى النهاية عن شىء لأن خلق جيش جديد وما يعنيه ذلك من اصلاحات مالية هددت العديد من المصالح النافذة ٠

الجــزء الرابــع

عصر الامبراطوريات الأوربية

(١٨٠٠ ـ ١٩٣٩)

كان القرن التاسع عشر هو العصر الذى حكمت فيه أوربا العالم ، وقد أدى تنامى الانتاج الصناعى على مستوى واسع ، والتغييرات فى طرق الاتصال من ظهور السفن التجارية والسكك الحديدية والتلغراف ، الى التوسع فى التجارة الأوربية ، وصاحب ذلك زيادة فى القوى المسلحة للدول الأوربية الكبرى ، وكان أول غزو رئيسى لدولة تتحدث العربية هو الاحتلال الفرنسى للجزائر (١٨٣٠ ــ ١٨٤٧) ، ولم يعد بامكان الدول الاسلامية والمجتمعات الحياة فى استقرار أو الاكتفاء الذاتى من الثقافة الموروثة ، وكانوا باحتياج لحيازة القوة فى عالم يسيطر عليه آخرون ، وقد تبنت الحكومة العثمانية طرائق جديدة للتنظيم العسكرى والادارى، وأحكاما قانونية على غرار مثيلاتها من الدول الأوربية ، وكذلك فعل حاكمان اقليميان كان لهما حكم ذاتى فعلى على اقليمين من أقاليم الامبراطورية ، هما : مصر وتونس ٠

وفى عواصم هذه الحكومات الاصلاحية ، وفى الموانىء التى نمت كنتيجة لتوسع التجارة مع أوربا ، تشكل تحالف جديد للمصالح بين الحكومات الاصلاحية والتجار الأجانب وصفوة محلية من ملاك الأراضى والتجار الذين يمارسون التجارة مع أوربا،الا أن ذلك كان توازنا غير مستقر، وبمرور الوقت سقطت مصر وتونس تحت السيطرة الأوربية وتبعتهما مراكش وليبيا ، وفقدت الامبراطورية العثمانية معظم أقاليمها الأوربية ، وأصبحت أقرب الى أن تكون دولة تركية عربية ٠

ورغم استمرار رعاية التراث الدينى والفقهى للاسلام ، الا أنه ظهر نوع جديد من الفكر فى محاولة لتفسير أسباب قوة أوربا ، ولبيان أن الدول الاسلامية بامكانها تبنى الأفكار والطرائق والأساليب الأوربية بدون التنكر لمعتقداتها الخاصة ٠ وقد كان أولئك الذين وضعوا وطوروا هذا النوع

الجديد من الفكر الى حد كبير ، من خريجى المدارس التى أنشأتها الحكومات الاصلاحية والارساليات التبشيرية الأجنبية ، وكانـوا قادرين على التعبير عن أفكارهم من خلال وسائط الاعـلام الجديدة من صـحف ودوريات ، وكانت أفكارهم المسيطرة تدور حول اصلاح القانون الاسلامى وانشـاء ووضع أسس جديدة للامبراطورية العثمانية تعتمد المساواة بين المواطنين ، والتى أصبحت فى نهاية القرن التاسع عشر القضية (الوطنية) ، وبخلاف فترات نادرة من الاضطراب ، فان الأفكار الجـديدة نادرا ما مست حيـاة الناس فى الريف أو الصحراء •

ولقد انتهت الحرب العالمية الأولى بالاختفـاء النهائى للامبراطورية العثمانية ، ومن بين أنقاض الامبراطورية ظهرت الدولة التركية المستقلة ، ولكن الأقاليم العربية كانت تحت السيطرة البريطانية والفرنسية ، وأصبح كل العالم الذى يتحدث العربية تحت السيطرة الأوربية ، ما عدا بعض أجزاء من شبه الجزيرة العربية • وقد جلبت السيطرة الأجنبية تغيرا اداريا وبعض التقدم فى التعليم ، ولكنها أيضـا شـجعت على تنامى (الوطنية) بين الطبقات المتعلمة فى المجتمع ، وفى بعض البلاد كان هناك اتفاق مع السلطة المسيطرة على اقامة الحكم الذاتى فى حدود ، ولكن ظلت العلاقات فى بعض البلاد الأخـرى فى تعارض ، وقد أدى التشجيع الذى قدمتـه الحكومة البريطانى لخلق كيان وطنى يهودى فى فلسطين ، الى خلق وضع أثر فيما بعد على الآراء الوطنية فى كل البلاد التى تتحدث العربية •

الفصل السادس عشر

القوة الأدبية والحكومات الاصلاحية

(١٨٠٠ ـ ١٨٦٠)

التوسع الأوربى

أخذت المحاولات الأولى لاستعادة قوة الحكومة الامبراطورية شكلا عاجل الأهمية بسبب الحروب بين فرنسا الثورة ، وبعدها حروب نابليون مع القوى الأوربية الأخرى ، التى اجتاحت أوروبا من ١٧٩٢ الى ١٨١٥ ، واستمرت أينما أمكن للجيوش الأوربية أن تتقدم أو البحرية أن تبحر ، وقد استطاعت الجيوش الفرنسية والروسية والنمساوية فى أوقات مختلفة احتلال أجزاء من الأقاليم الأوربية للسلطنة ، وللمرة الأولى ظهرت القوى البحرية البريطانية والفرنسية فى شرق المتوسط ، وعند نقطة معينة ، حاول أسطول بريطانى دخول المضايق المؤدية الى اسطنبول ، وفى عام ١٧٩٨ ، احتلت حملة عسكرية فرنسية بقيادة نابليون مصر كاحدى وقائع حربها مع انجلترا ، وحكم الفرنسيون مصر لثلاث سنوات وحاولوا التحرك منها الى سوريا ، ولكنهم اضطروا للتراجع بسبب التدخل البريطانى والعثمانى بعد أول تحالف رسمى بين العثمانيين ودولة غير اسلامية .

وقد كان ذلك حدثا قصيرا وثار الجدل حول أهميته بين المؤرخين ، واعتبره البعض بداية عهد جديد فى الشرق الأوسط،وقد كان ذلك هو الاختراق الأول لقوة أوربية الى دولة مركزية فى العالم الاسلامى ، وأول انكشاف لسكانها على نوع جديد من القوة العسكرية ، وللتنافس بين الدول الأوربية العظمى (وقد كان المؤرخ الاسلامى الجبرتى يعيش فى

القاهرة فى ذلك الوقت ، وسجل الآثار التى تركهـا الغزاة باستفاضة وبتفاصيل حية وباحسـاس من التناقض فى القوة بين الجانبين ، وعدم كفاية حكام مصر لمواجهة هذا التحدى ، وعندما بلغت أنباء نزول الفرنسيين فى الاسكندرية الى حكام المماليك فى القاهرة ، يروى أنهـم لم يعيروها اهتماما ، معتمدين على قوتهم ، وعلى ادعائهم بأنه حتى لو أتى كل الفرنسيين فلن يكون باستطاعتهم المقـاومة ، وأن باستطاعتهم سحقهم تحت حوافر خيولهم (١) • عقب ذلك ، كانت الهزيمة والذعر ومحاولات الثورة ، وقد اختلطت معارضـة الجبرتى للحـكام الجدد باعجابه بالعلماء والدارسين الذين جاءوا معهم :

« واذا حضر لهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ••• واذا رأوا منه قابلية أو تطلعا للنظر فى المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وتراث البلاد والأقاليـم ، والحيوانات والطيور والنبـاتات ، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء ، ولقد ذهبت اليهـم مرارا وأطلعونى على ذلك » (٢)) •

وقد أدت مثل هذه الحوادث الى اضطراب البلاد العثمانية والعربية ، وكانت الجيوش الفرنسية فى المتوسـط تشترى الحنطة من الجزائر ، وكان الجيش البريطانى فى اسبانيا يشتريها من مصر ، ولم يكن بامكان سفن التجار البريطانيين والفرنسيين الابحار بسهولة فى شرق المتوسط ؛ مما وفر فرصة للتجار وأصحاب السفن اليونانيين ، ولم يغب انشـاء جمهوريات فى أجزاء من البلقان على أيدى الفرنسيين عن فطنة اليونانيين والصرب ، وقد شاعت بعض إصداء البلاغة الثـورية بين رعايا السلطان من المسيحيين ، رغم أنها كانت بلا دلالة ملحوظة عند الأتراك أو العـرب المسلمين •

وبمجرد انتهاء حروب نابليون ، انتشرت القوة والنفوذ الأوربى أكثر فأكثر ، وقد أخـذ تبنى أساليب جديدة فى التصنيع وطرائق جديدة فى

التنظيم الصناعي دفعة قوية جديدة ؛ نتيجة الاحتياجات والطاقات التي تطلقها الحروب ، وفي ذلك الحين بعد أن انتهت الحرب وتوفرت حرية الحركة للتجار والتجارة ، كان العالم مفتوحا أمام الأقمشة القطنية والصوفية الرخيصة ، والسلع المعدنية التي كانت تنتج أولا في انجلترا بشكل رئيسي ، ولكنها كانت تنتج أيضا في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا الغربية ، وفي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأت ثورة في المواصلات بعد ظهور السفن البخارية والسكك الحديدية ، وقد كان النقل البرى خاصة مكلفا وبطيئا ومليئا بالمجازفات ، وفي ذلك الوقت أصبح سريعا ويمكن الاعتماد عليه ، وأصبحت النسبة التي تمثلها تكلفته من اجمالي سعر السلعة أقل ، وأصبح بالامكان نقل سلع الرفاهية بكميات كبيرة الى أسواق كبيرة المسافات بعيدة ، كما كان بامكان الأفراد والأخبار أن تنتقل بسرعة أيضا ، مما جعل بالإمكان تنامي سوق مال دولية ، ومصارف ، وبورصة ، سوق مال وعملات مرتبطة بالجنيه الاسترليني ، وكان يمكن استثمار فوائد التجارة في خلق أنشطة انتاجية جديدة ، وكانت القوة المسلحة للدول الأوربية وراء التاجر والبحار • وقد أظهرت الحروب النابليونية تفوقهم لا في مجال الأسلحة ، حيث ان التغيرات في التكنولوجيا العسكرية جاءت متأخرا ، بقدر ما كان في التنظيم واستخدام الجيوش •

وقد ارتبط بهذه التغيرات النمو المستمر للسكان بين عام ١٨٠٠ وعام ١٨٥٠ حيث ازداد تعداد بريطانيا العظمى من ١٦ الى ٢٧ مليونا ، وتعداد أوربا ككل تزايد بمقدار ٥٠٪ تقريبا ، وأصبحت لندن أكبر مدينة في العالم بتعداد يصل الى ٢ر٥مليون في ١٨٥٠ م ، ونمت أيضا المدن العواصم الأخرى ، كما ظهر نوع جديد من المدن الصناعية التي تسيطر عليها المكاتب والمصانع • وبحلول منتصف القرن ، كان أكثر من نصف سكان بريطانيا من سكان الحضر ، وقد وفر ذلك التركيز في المدن الأيدي العاملة للصناعة والجيوش،وتنامي سوق محليةلمنتجات المصانع،تطلب هذا (وجعل بالامكان) وجود حكومات يمكنها التدخل بشكل أكثر مباشرة في حياة المجتمع ،

وفى نفس الوقت،فان انتشار التعليم والصحف أعان على توسع الأفكار التى ولدتها الثورة الفرنسية ، وأوجدت نوعا جديدا من السياسة التى حاولت تعبئة الرأى العام للدعم الفعال للحكومة أو المعارضة ٠

وقد ترددت أصداء هذا التقدم الهائل للطاقة والقوى الأوربية بشكل محسوس فى كل أنحاء العالم ، وبين الثلاثينيات والسنينيات من القرن التاسع عشر ربطت خطوط السفن التجارية المنتظمة موانىء شرق وجنوب المتوسط بلندن وليفربول ومارسيليا وتريستا،ووجدت المنسوجات والسلع المعدنية سوقا كبيرة ومتنامية ، وتزايدت صادرات بريطانيا لبلدان شرق المتوسط بمقدار ٨٠٠٪ فى القيمة بين ١٨١٥ م و ١٨٥٠ ، وفى ذلك الوقت كان البدو فى الصحراء السورية يرتدون قمصانا من قطن لانكشاير ، وفى نفس الوقت شجع الاحتياج لأوربا للحصول على المواد الخام للمصانع والطعام للسكان الذين يعملون بها ، انتاج المحاصيل للبيع والتصدير ، واستمر تصدير الحنطة رغم أنه أصبح أقل أهمية مع تزايد صادرات القمح الروسية ، وزيت الزيتون التونسى كان مطلوبا لصناعة الصابون ، والحرير اللبنانى لمصانع ليون وقبل كل هذا القطن المصرى لمصانع لانكشاير ٠

وفى عام ١٨٢٠ ، بدأ لويس جوميل وهو مهندس فرنسى ينتج قطنا طويل التيلة يناسب المنسوجات الراقية ، وكان قد وجده فى احدى الحدائق المصرية ، ومنذ ذلك الوقت تحولت الأراضى المزروعة فى مصر لانتاج القطن ، يكاد أن يكون كله للتصدير الى بريطانيا ، وفى الأربعين عاما التالية ، منذ بداية جوميل ، تزايدت قيمة الصادرات المصرية من القطن من لا شىء تقريبا الى حوالى ١,٥ مليون جنيه مصرى عام ١٨٦١ م (كان الجنيه المصرى مساويا تقريبا للجنيه الاسترلينى) ٠

فى مواجهة هذا الانفجار فى الطاقة الأوربية ، لم تستطع البلاد العربية ــ مثلها فى ذلك مثل معظم بلاد آسيا وأفريقيا ــ أن تنتج قوة تعادلها ، ولم يتغير تعداد السكان كثيرا فى النصف الأول من القرن التاسع

عشر ، وأمكن السيطرة تدريجيا على الطاعون ، على الأقل فى المدن الساحلية لأن نظام الحجر الصحى تحت الاشراف الأوربى ؛ ولكن الكوليرا جاءت من الهند • لم تكن الدول العربية قد دخلت عصر السكك الحديدية عدا بعض البدايات الصغيرة فى مصر والجزائر • كانت الاتصالات الداخلية سيئة واستمرت المجاعة • وبينما زاد تعداد مصر من ٤ ملايين فى ١٨٠٠ الى ٥ر٥ مليون فى ١٨٦٠ ، الا أنه فى بعض البلاد ظل ثابتا وفى الجزائر ولأسباب خاصة ، زادت بعض الموانىء فى الحجم خاصة الاسكندرية الميناء الرئيسى فى تصدير القطن الذى زاد من حوالى ١٠٠٠٠ طن فى ١٨٠٠ الى ١٠٠ ألف طن فى ١٨٥٠ • ظلت معظم المدن تقريبا فى نفس الحجم السابق ولم تنم تلك المدن الجديدة التى وفرت القوة للدول الحديثة ، وعدا بعض المناطق التى أنتجت المحاصيل للتصدير ، ظل الانتاج الزراعى على نفس المستوى تقريبا ، ولم يؤد الى تراكم الثروة للاستثمار الانتاجى •

بدايات الامبراطورية الأوربية

خلف التجار وأصحاب السفن من أوربا كان يقف سفراء وقناصل الدول العظمى ؛ مدعمين بالملاذ الأخير وهو القوى المسلحة لحكوماتهم ، وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان باستطاعتهم العمل بطريقة كانت مستحيلة من قبل خــــلال اكتساب النفوذ لدى الحكومة والمسئولين واستغلال ذلك لتعزيز المصالح التجارية لرعاياهم والمصالح السياسية الرئيسية لبلادهم ، وأيضا لزيادة المساعدة المتقدمة لحمـــاية المجتمعات ذات العلاقات الخاصة بحكوماتهم • كان لفرنسا علاقة خاصة خلال القرن السابع عشر مع المسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة ، وهى أجزاء من الكنائس الشرقية التى خضعت لسيادة البابا • وبشكل أكثر تحديدا مع الموارنة فى لبنان ، وبنهاية القرن الثامن عشر كان لروسيا نفس الادعاء بحماية الكنائس الأرثوكسية الشرقية •

وبقوتها الجديد ، بدأت الدول الأوربية ، وليس فرنسا وروسيا فقط فى التدخل جماعيا فى العلاقات بين السلطان ورعاياه من المسيحيين ، وثار

الصرب فى عام ١٨٠٨ فيما أصبح الآن يوغوسلافيا (لم يعد ذلك قائما الآن) على الحكومة العثمانية المحلية ، وكانت النتيجة بعد الكثير من العداوات أن تأسست بمعونة أوربا ، دولة صربية تحكم ذاتيا فى عام ١٨٣٠م·وفى عام ١٨٢١ م ، حدثت انتفاضة أكثر أهمية بين اليونانيين الذين كانوا اكتسبوا وضعا متميزا نسبيا منذ أمد طويل بين رعايا الدول والذين كانت ثرواتهم واتصالاتهم بأوربا آخذة فى الاتساع ، من ناحية كانت تلك السلسلة من الهبات فى مواجهة الحكام المحليين جزئيا حركات دينية فى ظل سيطرة اسلامية ، ولكن غذتها أيضا الروح الجديدة للوطنية القومية ، وانتشرت فكرة أن أولئك الذين يتحدثون نفس اللغة ويشتركون فى نفس الذكريات الجمعية يجب أن يعيشوا معا فى مجتمع مستقل سياسيا — بين اليونانيين بسبب الثورة الفرنسية ، وكانت مرتبطة باحياء الاهتمام باليونان القديمة · هنا أيضا كانت النتيجة تدخلا أوربيا عسكريا وسياسيا دبلوماسيا أوجد مملكة مستقلة فى ١٨٣٣ م ·

فى بعض الأماكن ، كانت الدول الأوربية قادرة على فرض سيطرتها المباشرة ، لم يحدث هذا فى الأجزاء المركزية من العالم العثمانى ولكن على التخوم حيث كانت دولة أوربية واحدة قادرة على التحرك لمصالح الآخرين ، وفى القوقاز توسعت روسيا جنوبا فى أراض تسكنها أغلبية من المسلمين وتحكمها سلالات محلية عاشت قبلا فى دائرة نفوذ العثمانيين·وفى الجزيرة العربية ، احتل البريطانيون ميناء عدن عام ١٨٣٩ م ، وكان متوقعا أن يصبح محطة رئيسية على طرق السفن التجارية الى الهند · وفى الخليج كان هناك وجود بريطانى متزايد قائم على قوة بحرية فى بعض المناطق باتفاقيات مع صغار حكام الموانىء الصغيرة ، ألزموا أنفسهم بموجبها بالحفاظ على حالة الهدنة مع بعضها البعض فى البحر (ولهذا سميت بالمحميات وتشمل أبو ظبى ودبى والشارقة) ·

ما حدث فى المغرب كان أكثر أهمية من ذلك · ففى عام ١٨٣٠ ، نزل الجيش الفرنسى على الساحل الجزائرى واحتل الجزائر · كان هناك العديد من التجديدات البحرية الأوربية لمواجهة عودة القرصنة خلال وبعد

الحروب النابليونية .. ولكن الواقعة أصبحت حدثا من نوع آخر تمتد جذورها جزئيا فى السياسة الداخلية لفرنسا بعد استعادة الملكية ، حيث تناست فرنسا الديون الناجمة عن توريد القمح لها خلال الحروب ، ولكن بشكل أعمق فى السياسة التوسعية التى أوجدها النمو الاقتصادى . أراد تجار مارسيليا وضعا تجاريا قويا على الساحل الجزائرى بمجرد استقرارهم فى الجزائر،وبعد ذلك بقليل فى بعض المدن الساحلية الأخرى. فى البداية، لم يدر الفرنسيون ماذا يفعلون،ولم يكن بامكانهم الانسحاب؛لأن موقعهم القوى لا يمكن التنازل عنه بسهولة ولأنهم كانوا قد قضوا على الادارة العثمانية المحلية . بعدها بدءوا فى التوسع بشكل غير مفهوم الى الداخل. ولاحظ المسئولون والتجار وجود احتمالات مكاسب ، عن طريق تملك الأرض. وحاول العسكريون جعل وضعهم أكثر أمنا وحماية امدادات الأغذية والتجارة مع الداخل ، وازالة الحكومة العثمانية المحلية أضعف من النظام التقليدى للعلاقات بين السلطات المحلية. وقد كانت حكومة «الداى» على رأس النظام ، تحاول ما وسعها تنظيم الحدود التى يمكن لكل قوة محلية أن تفرض قوتها ، وبمجرد انتهائها كان مختلف القادة يحاولون ايجاد توازناتهم الخاصة مع بعضهم بعضا،وقد أدى هذا الى صراع حول السيادة، وكان أكثر المتنافسين نجاحا عبد القادر (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣) فى المنطقة الغربية ، الذى استمد وضعيته من انتمائه لعائلة ذات أصول دينية فى الطريقة الصوفية القادرية ، وقد أصبح النقطة التى تتجمع حولها القوى المحلية . وقد حكم عمليا دولة مستقلة لفترة من الزمن ، كان مركزها فى الداخل ويمتد من الغرب الى شرق البلاد ، وأدى هذا بشكل حتمى الى جره الى صراع مع القوة الفرنسية المتوسعة من الساحل،وكانت رموز مقاومته للفرنسيين تقليدية حيث كانت حربه جهادا ، وكانت مشروعية سلطته قائمة على اختيار العلماء له ، واحترامه للشريعة ، ولكن كانت هناك مفاهيم حديثة فى تنظيم حكومته .

وقد هزم عبد القادر فى النهاية ، ونفى عام ١٨٤٧ ، وقضى سنواته الأخيرة فى دمشق ، وتمتع باحترام السكان ، وكان على علاقة طيبة مع ممثلى فرنسا والقوى الأوروبية الأخرى ، وخلال هزيمته ، امتد الحكم الفرنسى

جنوبا عبر الهضبة العليا حتى أطراف الصحارى ، وتغيرت طبيعتها ، فقد بدأ الفرنسيون والمهاجرون الآخرون يتوافدون لاحتلال الأراضى التى أتاحتها المصادرات ، وبيع الأراضى المملوكة للدولة وبطرائق أخرى . وفى الأربعينيات من القرن التاسع عشر ، بدأت الحكومة بشكل أكثر انتظاما فى نزع ملكية بعض ما كان يسمى بالأراضى المشاع من القرى لتوطين المهاجرين ، وقد استولى عليها الذين لديهم رأس المال لزراعتها باستخدام فلاحين مهاجرين من اسبانيا وايطاليا أو العمال العرب ، وما تبقى كان يفترض أن يكون كافيا لاحتياجات القرويين،ولكن ذلك التقسيم فى الواقع دمر الأنماط القديمة لاستخدام الأرض ، وأدى الى نزع ملكية صغار المزارعين ، الذين أصبحوا مشاركين بالمزارعة ، أو عمالا بلا أراض فى الضياع الجديدة .

وفى عام ١٨٦٠ ، بلغ عدد السكان الأوربيين فى الجزائر ٢٠٠ ألف نسمة ، بين سكان من المسلمين يصل عددهم الى حوالى ٢٫٥ مليون (وهو تعداد أقل مما سبق بفعل خسائر الحرب والأوبئة والمجاعات فى سنوات الحصاد الشحيح) . وأصبحت الجزائر والمدن الساحلية الأخرى أوروبية فى أغلبها ، وانتشرت المستوطنات الزراعية جنوبا فيما وراء السهل الساحلى الى الهضبة المرتفعة العليا ، وسيطر على الحياة الاقتصادية تحالف المصالح بين المسئولين ، وملاك الأرض الذين لديهم رأس المال لممارسة الزراعة التجارية ، والتجار الذين تولوا التبادلات بين الجزائر وفرنسا ، وكان بعضهم أوربيين ، والبعض من اليهود الوطنيين ، وكان لهذه العملية الاقتصادية بعد سياسى ، حيث ان النمو الاستعمارى طرح السؤال عما يجب أن تفعله فرنسا فى الجزائر ، وقد خضعت المناطق المتهورة الآهلة بالمستوطنين فى الأربعينات من القرن التاسع عشر تحت ادارة فرنسية مباشرة . بينما كانت الحكومات المحلية فى أيدى السكان من المهاجرين وعلية القوم من الوطنيين ، الذين كانوا فيما قبل وسطاء بين الحكومة والسكان من المسلمين ، وأصبحوا مسئولين من الدرجة الثانية . وظلت المناطق ذات المستوطنات الأقل تطورا تحت الحكم العسكرى . ولكن حجمها تناقص بتوسع الاستعمار ، وكان المهاجرون يريدون لهذا الوضع

أن يستمر ، وأن تصبح البلاد فرنسية بالكامل،وقد قيل فى ذلك : « لم يعد هناك شعب عربى وليس هناك سوى أناس يتحدثون لغة مختلفة عن لغتنا»، وأصبح عدد المستوطنين هائلا وعلى اتصال جيد بالسياسيين الفرنسيين ، بما مكنهم من تشكيل جماعات ضغط سياسى قوية ٠

وقد أوجدت هذه السياسة مشكلة حول مستقبل السكان المسلمين العرب والبربر ، ومع بداية الستينات من القرن التاسع عشر ، بدأ حاكم فرنسا الامبراطور فى تفضيل سياسة أخرى ، فمن وجهة نظره ، كانت الجزائر مملكة عربية ، ومستعمرة أوربية ، وثكنة فرنسية ، وكانت هناك ثلاث مصالح منفصلة يجب التوفيق بينها : مصالح الدولة الفرنسية والمستوطنون ، والأغلبية المسلمة ، وقد تبلورت هذه الفكرة فى مرسوم صدر عام ١٨٦٣ ، وأقر بأن سياسة تقسيم القرى يجب أن تنتهى ، كما يجب الاعتراف بحقوق المزارعين ، ووجوب دعم أوضاع القادة المحليين لامكان كسبهم لدعم السلطة الفرنسية ٠

الحكومات الاصلاحية

كانت القوى السياسية والاقتصادية الأوروبية تقترب بالتدريج من قلب بلاد العالم الاسلامى ، ولكن هذه البلاد كانت لا تزال تتمتع ببعض حرية الحركة نتيجة عدة أسباب ، كان من بينها أن الدول الأوروبية لم تكن تسمح لأية دولة منها أن تتوسع على حساب مصالح الدول الأخرى ، وقد تمكنت بعض الحكومات المحلية من خلق اطار تستطيع من خلاله أوروبا أن تحقق مصالحها بتدخل محدود ، وأن يستمر رعاياها من المسلمين وغيرهم فى قبول حكمها فى نفس الوقت ٠

ولم تؤد المحاولات المبدئية لسليم الثالث الى شىء ، وبقيت الأمور كما كانت حتى العشرينات من القرن التاسع عشر،حين تولى سلطان آخر هو محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) ، وقد اقتنع هو ومجموعة صغيرة من كبار المسئولين بالحاجة للتغيير لدرجة اتخاذ فعل حاسم ، وكانت سياستهم

الجديدة هي حل الجيش القديم وتشكيل جيش متطوع جديد يدربه مدربون أوربيون • وبهذا الجيش أمكن تدريجيا تحقيق سيطرة مباشرة على بعض الأقاليم في أوربا والأناضول والعراق وسوريا وطرابلس في أفريقيا ، وذهبت خطة الاصلاح لأبعد من ذلك ، وقد كانت النية معقودة على استعادة قوة الحكومة وتنظيمها أيضا بشكل جديد ، وقد أعلنت هذه النية في المرسوم الصادر في ١٨٣٩ م بعد وفاة محمود بوقت قصير :

« ان العالم كله يعلم أنه منذ الأيام الخوالي للدولة العثمانية ، أعلى من شأن مبادىء القرآن والشريعة السمحاء ، وقد وصلت سلطتنا المظفرة الى أعلى درجات القوة والنفوذ ، وعاش جميع رعاياها في يسر ورخاء ، ولكن حدث في أثناء المائة والخمسين عاما الأخيرة ، نتيجة ظروف صعبة ومعقدة، أن الشريعة السمحاء لم تعد تتبع ، وأن تعليماتنا لم تعد تنفذ ، وأنه من الثابت أن البلاد التي لا تحكمها الشريعة لا تستطيع أن تعيش ، ••• ونحن واثقون من عون الله القدير ورسوله ، نرى أنه من الضروري أن تفرض تشريعات جديدة حتى نحقق ادارة فعالة للحكومة والأقاليم العثمانية »(٣) •

وكان معنى ذلك أن يتحرر المسئولون من الخوف من التعسف في مصادرة الأملاك ، ويجب أن يحكموا وفقا للضوابط التي وضعها مجلس من كبار المسئولين ، وأن الرعايا يجب أن يعيشوا في ظل القوانين المستمدة من مبادىء العدل ، التي مكنتهم من متابعة مصالحهم الاقتصادية بحرية ، وأن القوانين يجب ألا تفرق بين المسلمين والمسيحيين واليهود من العثمانيين، وأن القوانين الجارية الجديدة يجب أن تمكن التجار الأجانب من التجارة والانتقال بحرية ، (واعادة التنظيم التي أعقبت هذا المرسوم عرفت باسم « تنظيمات » من اللفظ العربي والتركي عن النظام) •

ولقد أصبحت شعارات السيطرة المركزية ، والمجالس البيروقراطية ، وسيادة القانون ، والمساواة هي القواعد المنظمة لذلك التحول ، وقد كانت هناك قاعدة خفية أخرى عن أوربا كمثال يحتذى للمدنية الحديثة

والامبراطورية العثمانية كشريك لها .. وعندما أصـــدر الاصلاحيون المرسوم تم ارساله لسفراء القوى الصديقة .

وقد تحققت فى اقليمين عربيين سياسات مماثلة بدأها الحـــكام العثمانيون المحليون ، ففى القاهرة ، أدى الاضطراب الذى أصاب التوازن المحلى للقوى نتيجة الغزو الفرنسى الى اسـتيلاء محمـــد على على السلطة (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) ، وهو تركى من مقدونيـــا جاء الى مصر مع الحملة العثمانية التى أرسلت لحرب الفرنسيين ، واستطاع الحصول على تأييد سكان المدن ، وتفوق فى الدهاء على منافسـيه ، ونصب نفسه على رأس الحكومة العثمانية حاكما ، وجمع حوله جماعته الحاكمة العثمانية المحلية من الأتراك والمماليك ، وجيشـــا حديثـا وصفوة من المسئولين المتعلمين ، واستخدمهم لفرض سلطته على الادارة ومحصلى الضرائب فى الدولة بكاملها، ومد سلطته لتشمل السودان وسوريا والجزيرة العربية ، ولم يستمر الحكم المصرى فى ســوريا والجزيرة العربية لوقت طويـــل ، واضطر للانسحاب أمام تحالف مشترك للقوى الأوربية التى لم تكن ترغب فى ظهور دولة مصرية مستقلة تضعف من الدولة العثمانية ، وفى مقابل الانسحاب استطاع تحقيق الاعتراف بحق عائلتـــه فى حكم مصر تحت الســـيادة العثمانية (حمل خلفـــاؤه لقب الخديو) ، واستمر الحكم المصرى فى السودان ، الذى شكل للمرة الأولى وحدة سياسية واحدة .

وقد كان ما يحاوله محمد على من بعض النواحى أكثر بساطة مما كان يحاوله رجال الدولة فى اسطنبول ، فلم تكن هناك فكرة صريحة عن المواطنة أو التغيير فى الأسس والقواعد الأخلاقيـــة للحكومة ، الا أنه من نـــواح أخـــرى ، حققت التغييرات التى أدخلت فى مصر أهدافا أبعد مما تحقق فى باقى الامبراطورية العثمانية ، ومنذ ذلك الوقت اتخذت مصر اتجاها مستقلا فى التطور ، وقد تحققت محاولة جادة لتدريب مجموعة من الضباط والأطباء والمهندسين والمسئولين فى بعثات الى أوروبا ، وقد اســـتطاع الحاكم فى مجتمع أصغر وأكثر بساطة من مجتمع الامبراطورية ، اخضاع كل الأراضى الزراعية لسيطرته بمصادرة الالتزامات والأوقاف الخيرية ،

واستخدام قواته للتوسع فى زراعة القطن ، وشراء المحصول بسعر محدد ، وبيعه للمصدرين فى الاسكندرية وقد استلزم ذلك اتباع أسلوب جديد للرى وبناء القناطر لتحويل المياه من النهر الى القنوات ، التى تحملها الى حيث ومتى يكون لها الاحتياج ، وفى البداية حاول صناعة المنسوجات والسلع الأخرى فى المصانع ، ولكن صغر السوق المحلية وقلة الطاقة، ونقص للمهارات التقنية، جعل من الصعب تحقيق ذلك، رغم أنه كانت هناك بعض الصادرات من المنسوجات لفترة من الوقت ، وفى أواخر سنوات حكمه أجبرته الضغوط الأوربية على التخلى عن احتكاره لبيع القطن والمنتجات الأخرى ، وانتقلت مصر الى الاقتصاد الزراعى الذى يوفر المواد الخام ، ويستورد المنتجات المصنعة ، لقاء أسعار محددة فى السوق العالمية ، وفى هذا الوقت كانت الأراضى توهب من الحاكم لأفراد أسرته وحاشيته وآخرين ويقومون بزراعتها ودفع الضرائب عنها ؛ وهكذا تخلقت طبقة جديدة من ملاك الأراضى .

وفى تونس ، حدثت بدايات التغيير فى حكم (الباى أحمد) (١٨٣٧ ــ ١٨٥٥) ، الذى كان ينتمى لعائلة حازت السلطة منذ بدايات القرن الثامن عشر ، وقد تلقى بعض أفراد الجماعة الحاكمة من الأتراك والمماليك تدريبا حديثا ، وكانوا نواة لجيش جديد ، وامتدت الادارة المباشرة وجباية الضرائب ، وأصدرت بعض القوانين الجديدة ، وقد حاول الحاكم فرض احتكار سلع معينة ، وفى حكم خليفته فى عام ١٨٥٧ صدر مرسوم بالاصلاح ، يرفع شعارات الأمن ، والحريات المدنية ، وتنظم فرض الضرائب ، ويكفل الحق لليهود والأجانب فى تملك الأراضى والقيام بكافة الأنشطة الاقتصادية ، وفى عام ١٨٦١ أعلن نوع من الدستور كان الأول من نوعه فى العالم الاسلامى ، ويتكون بموجبه مجلس من ستين عضوا ، وتكون موافقته ضرورية على القوانين وألزم الباى نفسه بالحكم فى اطار هذه الحدود .

وفيما وراء حدود الامبراطورية فى الجزيرة العربية ، لم يكن تأثير القوى الأوربية محسوسا ، ففى قلب الجزيرة سقطت الدولة الوهابية

لفترة أمام التوسع المصرى ، ولكنها عادت للحياة بعد فترة قصيرة ، ولكن على مستوى أصغر ، وفى عمان ، استطاعت العائلة الحاكمة التى فرضت نفسها فى مسقط ، أن تمد حكمها حتى « زنجبار » والساحل الأفريقى الشرقى ، وفى مراكش ، حدث توسع فى التجارة الأوربيـــة ، وفتحت القنصليات ، وبدأت خطوط خدمات السفن التجارية المنتظمة ، الا أن قوة الحكومة كانت محدودة للغاية بحيث لم تستطع السيطرة على هذه المتغيرات، وحاول السلطان عبد الرحمن فرض احتكار على الواردات والصادرات ، ولكن فتحت البلاد للتجارة الحرة تحت الضغوط الأجنبية ٠

وقد مارست الحكومات المحلية التى حاولت اتباع طرائق جديدة فى الحكم للحفاظ على استغلالها ، فرض سلطاتها فى حدود ضيقة على أحسن الفروض ، وقد فرضت الدول الأوربية تلك الحدود رغم كل الخصومات بينها ، فقد كانت لهم مصالح مشتركة معينة أمكنهم أن يتحدوا لانجازها ، وتركزت اهتمـاماتهم فى البـداية وقبل كل شىء فى توسيع المجال أمام تجارتهم ، وعارضوا جميعا محاولات الحكام لاحتكار التجارة ، وقد وضعوا تعديلات فى ضوابط الجمارك عن طريق سلسلة من الاتفاقيات التجارية فى الامبراطورية العثمانية ، كانت أولاها المعاهدة الانجليزية العثمانية فى عام ١٨٣٨ ، ثم معاهدة مماثلة فى مراكش فى ١٨٥٦ ، وحصلوا على حق التجار فى حرية السفر والتجارة ، والاتصال المباشر مع المنتجين ، والفصل فى المنازعات التجارية عن طريق محاكم خاصة وليس فى المحاكم الاسلامية فى ظل القانون الاسلامى ، وبسبب نفوذ السفراء والقناصل تحولت هذه المعاهدات الى نظام يجعل المقيمين من الأجانب عمليا خارج نطاق القانون ٠

وقد كانت القوى الأوروبية مهتمة بأوضـــاع رعايا السلطــان من المسيحيين ، ففى السنوات التى تلت صدور المرسوم العثمانى (١٨٣٩) ، تدخلوا بشــكل جمــاعى أكثر من مرة ، لضمان تنفيذ تعهــداته حيال غير المسلمين ، وعلى عكس هذا الاحساس من الائتلاف الأوربى ، كانت تجرى صراعات القوى المختلفة على التوازى لضمان نفوذ أوسع ، وأدى هذا فى عام ١٨٣٥ الى حرب القرم،وفيها تلقى العثمانيون العون من انجلترا وفرنسا

ضد روسيا ، ولكنها انتهت بعودة سيطرة الائتلاف الأوربى.وقد تضمنت معاهدة باريس فى ١٨٥٦ نصا يعيد تأكيد السلطان لضماناته حيـــال رعاياه ، وبمعنى ما ، كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم تحت المراقبـــة الرسمية من أوربا ، ومنذ ذلك الوقت أصبح السلطان يعامل رسميا كأحد ملوك أوربا ، ولكن كانت تلك المعاملة محاطة بكثير من الشكوك ، فبينما اعتقدت كل من بريطانيا وفرنسا أنه يمكن للامبراطورية العثمانيـــة أن تصبح دولة حديثة على النمط الأوربى ، كانت روسيا أكثر تشككا ، واعتقدت أن المستقبل يكمن فى اعطاء حكم ذاتى واسع للأقاليم المسيحية من أوربا ، ولكن لم ترغب أى من القوى فى تشجيع تفكك الامبراطورية ، بما يعنى ذلك من آثار على أمن أوربا ، فقد كانت ذكريات الحروب النابليونيـــة مازالت حيـــة .

ولم تؤد الاصلاحات التى اتخذت فى الحدود التى فرضـــتها أوربا الا الى نجاح محدود ، فقد اتخـــذها حكام فرديون ، تعاونهم مجموعات صغيرة من المستشارين ، وبتشجيع من بعض السفراء والقناصل ، وقد كان تغير الحكام ، أو تغيير التوازن بين جماعات الاداريين المختلفة ، والصراعات الفكرية ، ومصالح الدول الأوربيـــة المتحالفة ، تؤدى جميعا الى تغير فى اتجاهات السياسة .

أما فى اســـطنبول ، فقد كانت صفوة المسئولين التنفيذيين قوية ومستقرة بشكل كاف ، وملتزمة بالمصالح الإمبراطورية ، وضمان استمرارية معينة للسياسة ، ولكن فى القاهرة وتونس ومراكش ، اعتمد كل شىء على الحاكم ، وعندما توفى محمد على ، استمرت بعض الخطوط فى ســـياسة خليفته عباس (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤) .

وفيما يتعلق بتنفيذ الاصلاحات ، فقـــد كان لها بعض النتائج غير المتوقعة ، وكانت هناك بعض التغيرات فى طريقة عمل الحكومة ، من حيث تنظيم المكاتب بطريقة جـــديدة ، ومن حيث فرض طرائق عمل جديدة على المسئولين للعمل وفقا لضوابط جديدة ، واصدار بعض القوانين الجديدة ،

ومن حيث تدريب الجيش بطرائق جديدة مختلفة ، ومن حيث جباية الضرائب بشكل مباشر ، مثل هذه الاجراءات كان المقصود منها قدرا أكبر من القوة والعدل ، ولكنها في المراحل الأولى أدت الى اضعاف العلاقة بين الحكومات والمجتمعات ، من حيث كانت الطرائق والسياسات الجديدة التى نفذها المسئولون الذين تدربوا بطرائق جديدة،غير مفهومة تماما من جانب الرعايا، ولم يكن لها جذور فى النظام الأخلاقى الذى فرغه الاذعان لعصور طويلة ، كما أصابت العلاقة القديمة بين الحكومة وعناصر معينة فى المجتمع بالاضطراب ٠

فمن الذى كان يستفيد من طرائق الحكم الجديدة ؟ كان من الواضح أن المستفيد من ذلك هم الأسر الحاكمة وكبار المسئولين ، فقد أدت الضمانات لحياتهم الآمنة وأملاكهم الى تراكم ثرواتهم واستمرارها فى عائلاتهم ، وقد مكنتهم الادارات القوية والجيوش من بسط نفوذهم الحكومى على الأراضى ، وأدى ذلك فى مصر وتونس الى تكوين اقطاعيات كبيرة من أفراد العائلات الحاكمة أو المحيطين بهم ، وفى قلب الامبراطورية العثمانية حدثت عملية مشابهة ، فقد أدى احتياج الادارة الجديدة والجيش الى الأموال فى حين أنها لم تكن بالقوة الكافية لجمع الضرائب بشكل مباشر ، الى استمرار النظام القديم من الالتزام ، وكان بامكان المزارعين الحصول على نصيبهم من الفائض الريفى ٠

وقد ميزت السياسة الجديدة ــ بالاضافة الى الحكام ــ طبقة التجار المشتغلين بالتجارة مع أوربا ، فقد تنامت التجارات الواردة والصادرة ، وكان التجار المشتغلون بها يلعبون دورا متزايدا ، ليس فقط فى التجارة ولكن فى تنظيم الانتاج ، بتقديم رأس المال لملاك الأراضى أو المزارعين ، وتقرير ما يجب انتاجه ، وشرائه وتشغيل القطن ، ولف الحرير ، ثم تصديرهما ، وكان أكبر التجار من الأوربيين الذين كان لهم ميزة واضحة لمعرفتهم بالسوق الأوربية ، وكانت لهم امكانات الاقتراض من البنوك ، وكان الآخرون من المسيحيين واليهود المحليين ، واليونانيين ، والأرمن ، والمسيحيين السوريين ، ويهود بغداد وتونس وفاس ، وكانوا على دراية

بالسوق المحلية ، وفى وضع يمكنهم من التوسط مع التجار الأجانب ، وفى منتصف القرن التاسع عشر كان معظمهم يعرفون اللغات الأجنبية المكتسبة فى المدارس الجديدة ، والبعض الآخر كانت له جنسية أو حماية أجنبية نتيجة توسع حقوق السفارات والقنصليات لتعيين عدد من الرعايا المحليين كوكلاء أو مترجمين ، وأنشأ بعضهم مكاتبهم الخاصـــة فى مركز الأعمال الأوربية فى مانشيستر أو مارسيليا ، وتمكنت بعض الجماعات الراسخة من التجار المسلمين من التحول الى نمط التجار الجديد فى بعض المناطق ، فالعرب من جنوب الجزيرة كانوا نشطين فى جنوب شرق آسيا ، والتجار المسلمون من دمشق وفاس استقروا فى مانشيستر بحلول عام ١٨٦٠ ، وأصبح بعض المراكشيين المسلمين فى حماية القناصل الأجانب ٠

ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعات التى اعتمدت عليهـا الحكومات فيما مضى والتى ارتبطت بهم مصالحها ، قد وجدوا أنفسهم بعيـدين عن المشاركة فى السلطة بشكل متزايد ، والعلماء الذين سيطروا على النظام القانونى أثر عليهم وجود نظام قانونى ومحاكم جديدة ، وكبار العائلات من المدن الذين عملوا كوسطاء بين الحكومة وسكان الحضر ، وجدوا نفوذهم يتضاءل ، وحتى لو كان أولئك الذين احتفظوا بملكية الأرض يمكنهم فى بعض المواقع الاستفادة من تحقيق المكاسب من زراعة المحاصـيل للبيع والتصدير ، فان موقعهم وسيطرتهم على المزارعين كان يهددها امتداد الحكومة المباشر ، وتوسع نشاط التجار فى الموانى ٠ والصناعات العتيقة الراسخة كالنسيج فى سوريا ، وتكرير السكر فى مصر ، وصناعة « الشماشية » فى تونس ، عانت من المنافسة من السلع الأوربيـة ، رغم أنه فى بعض الحالات كان باستطاعتهم تطويع أنفسهم للشروط الجديدة بل والتوسع أيضا ، ولا نعرف الا القليل عن أوضاع السكان فى الريف ، ولكن يبدو أنها لم تتحسن ، بل ساءت فى بعض المواقع ، ومن المحتمل أن يكون انتاج الغذاء قد تزايد بشـكل عـام ، ولكن المحاصيل السيئة وسوء الاتصالات كانت تؤدى الى المجاعات ، رغم أنها قلت عن ذى قبل ، وقد ساءت الأوضاع من ناحيتين : فقد استنفد التجنيد فى الجيوش جزءا من شبابهم وزادت الضرائب بشكل كبير ٠

وفى منتصف القرن ، تجسدت نتائج انتقال مراكز الاقتصاد ، وافتقاد القوة والنفوذ ، والاحساس بأن عالم الاسلام مهدد من الخارج ، فى شكل عدد من الحركات العنيفة الموجهة ضد النفوذ المتزايد لأوربا ، كما كانت موجهة فى بعض الأماكن ضد من استفادوا من هذه الأوضاع من المسيحيين ، وقد ظهر ذلك جليا فى سوريا عام ١٨٦٠ ، وفى وديان جبال لبنان ، كان هناك تكافل بين الجماعات الدينية الرئيسية من المسيحيين الموارنة والدروز ، وقد حظى أحد أفراد عائلة « شهاب » المحلية باقرار العثمانيين كزعيم للالتزامات ، وأصبح الشهابيون فى الواقع هم الأمراء الوارثون للجبال ، ورؤوس عائلات ملاك الأراضى من المسيحيين والدروز ، والذين كانت لهم مصالح مشتركة وتحالفات وعلاقات رسمية ٠ وبدءا من ثلاثينات القرن التاسع عشر وما بعدها ، انفرط عقد التكافل بحكم انتقالات السكان والقوى المحلية ، وسخط الفلاحين على ساداتهم ، والمحاولات العثمانية لفرض السيطرة المباشرة ، والتدخل البريطانى والفرنسى ، وفى عام ١٨٦٠ ، كانت هناك حرب مدنية أهلية فى لبنان،مما أدى الى مذبحة المسيحيين فى دمشق ، وكانت تعبيرا عن المعارضة للاصلاحات العثمانية والمصالح الأوربية المرتبطة بها ، فى فترة من الكساد التجارى ، وهذا بدوره أدى الى تدخل القوى الأوروبية وانشاء نظام خاص لجبال لبنان ٠

وفى تونس عام ١٨٦٤ ، فى فترة من ندرة المحاصيل ، وتفشى الأوبئة ، حدثت انتفاضة عنيفة ضد حكم الباى والطبقات المستفيدة منه من المماليك والتجار الأجانب ، وضد زيادة الضرائب اللازمة لمواجهة تكاليف الاصلاح ، وقد بدأت هذه الانتفاضة بين القبائل وانتشرت الى مدن السهل الساحلى الذى يزرع الزيتون ، وطالب المتمردون بتخفيض الضرائب ، وانهاء حكم المماليك ، وبالعدل وفقا للشريعة ، وتهددت سلطة الباى لفترة ، ولكن اتحاد المصالح بين الحكومة والمجتمعات الأجنبية صمد ، وأمكنه الانتظار حتى انفراط عقد التحالف بين الثوار ، وبعدها تمكن من القضاء عليه ٠

الفصل السابع عشر

الامبراطوريات الأوربية والصفوة المسيطرة
(١٨٦٠ ـ ١٩١٤)

حدود الاستقلال

حققت معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ نوعا من التوازن بين المصالح الأوربية ومصالح الجماعات المحلية الحاكمة فى الامبراطورية العثمانية الملتزمة بالتغيير ، وتعهدت القوى التى وقعت المعاهدة باحترام استقلال الامبراطورية (العثمانية) ، فى الوقت الذى اعترفت فيه بالقيمة العظيمة للمراسيم الاصلاحية التى أصدرها السلطان · وفى الواقع ، فان الموقعين على المعاهدة لم يستطيعوا تفادى التدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية نظرا لعدم وجود توازن عسكرى بينهم وبين العثمانيين، وكانت الجماعات العثمانية المختلفة تلجأ الى طلب العون من السفارات،والى استغلال علاقات الدول المختلفة بالجماعات المسيحية واهتمامهم المشترك بالأمن الأوربى ، وكان تدخل القوى الأوربيـة هو الذى حقق تسوية فى لبنان فى أعقاب الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ ، وبعد ذلك بسنوات قليلة فى عام ١٨٦٦ ، اتحدت المقاطعتان الرومانيتان وأصبحتا عمليا مستقلتين،وفى العقد التالى كشفت المسألة الشرقية التى ظلت خافية لفترات طويلة عن حدود التدخل الخارجى ، وقد واجه عدم الاستقرار فى الأقاليم الأوربية للامبراطورية قمعا شديدا ، واحتجت الحكومات الأوربية وفى النهاية أعلنت روسيا الحرب عام ١٨٧٧ ، وتقدم الجيش الروسى باتجاه اسطنبول ، ووقع العثمانيون معاهدة سلام أعطت حكما ذاتيا للأقاليم البلغارية من

الامبراطورية ، وقد أدى هذا الوضع الى تحقيق مزيد من النفوذ لروسيا كما أدى الى ظهور رد فعل بريطاني عنيف ، كما ظهرت احتمالات قيام حرب أوربية ، ولكن تفاوضت القوى الأوربية وعقدت اتفاقية برلين عام ١٨٧٨ ، وبموجبها حصل اقليمان من المناطق البلغارية على درجات متفاوتة من الحكم الذاتي ، وتعهدت الحكومة العثمانية بتحسين الأوضاع فى الأقاليم التى تضم نسبة عالية من السكان المسيحيين،وتعهدت القوى الأوربية مرة أخرى بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية •

وقد كان من الواضح أنه لن تسمح دولة أوربية للأخرى باحتـــلال اسطنبول أو المضايق ، ولم يكن أى منها راغبا فى المخاطرة بالانفجار الذى قد ينتج عن محاولة تفكيك الامبراطورية ، وقد استمرت عملية انفصال المناطق الحدودية بالفعل ، فقد اتحدت المنطقتان البلغاريتان فى دولة ذات حكم ذاتى فى عام ١٨٨٥ ، وحصلت جزيرة كريت على الحكم الذاتى فى عـام ١٨٩٨ ، وارتبطت باليونان فى عـام ١٩١٣ ، وفى ذلك العام نشبت حرب بين دول البلقان تسبب فيها رعايا الامبراطورية السابقون ، وفقدت الامبراطورية معظم أملاكها الأوروبية المتبقية ، ومن ناحية أخرى ، فبسبب زيادة الخصومات بين الدول الأوروبية وتصاعد القوة الألمانية ، أضيف عنصر جديد للتوازن الأوروبى ، واكتسبت الحكومة العثمانية قليلا من الحرية فى الحركة فى مناطقها المركزية ، وقد ظهر هذا فى الستينات من القرن التاسع عشر ، عندما بدأ الأرمن المسيحيون فى العمل بنشـــاط للحصول على الاستقلال ، واستطاع العثمانيون قمع الحركة بخسائر كبيرة فى الأرواح ، وبدون تدخل أوروبى مؤثر ، ورغم ذلك ظلت الوطنيـــة الأرمنية قوية تحت السطح •

وقد غير فقدان الدولة العثمانية لمعظم الأقاليم الأوربية من طبيعتها ، وبدا للمسلمين من مواطنيها عربا أو تركا ، كآخر علامة على فقدان العالم الاسلامى لاستقلاله السياسى فى ظروف تحوطه بالأعداء ، وصار المضى فى سياسات الاصلاح ملحا أكثر من أى وقت مضى ، وازداد تحديث البيروقراطية والجيش ، وتلقى المسئولون والضباط التدريب فى المدارس المدنيـــة

والعسكرية ، ومكنت وسائط الاتصالات الحديثة من توسيع السيطرة المباشرة ، وبظهور السفن البخارية أمكن تدعيم الحاميات العثمانية بسرعة في المناطق القريبة من البحرين المتوسط والأحمر ، ولمتد التلغراف وهو أحد قنوات السيطرة الأساسية في الامبراطورية في الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر ، وبنهاية القرن التاسع عشر كانت السكك الحديدية قد مدت في الأناضول وسوريا ، وفي السنوات الأولى من القرن العشرين ، مدت الخطوط الحديدية الحجازية من دمشق وحتى المدينة ، وقد حملت الحجيج الى المدن المقدسة ، ومكنت الحكومة العثمانية من احكام سيطرتها على الأشراف في مكة،وأمكنها استعادة وجودها المباشر في اليمن أيضا ، وقد عاشت في أواسط الجزيرة عائلة يساعدها العثمانيون ، هي عائلة « ابن الرشيد » ، أمكنها قهر الدولة السعودية لفترة من الزمن ، ولكنها ـ أي الدولة السعودية ـ استعادت سلطتها على أيدي شاب قوى من العائلة هو عبد العزيز ، وبحلول عام ١٩١٤ نازع سلطة ابن الرشيد ، أما في شرق الجزيرة ، فكان التوسع العثماني محدودا نتيجة للسياسة البريطانية ، وقد حققت بريطانيا علاقات رسمية على مستوى أعلى مع حكام الخليج لمنع النفوذ المتزايد للدول الأوربية الأخرى مثل روسيا وفرنسا وألمانيا وعقدت عدة معاهدات مع حكام البحرين وعمان وأقاليم الهند وأودعت الكويت علاقاتها بالعالم الخارجي في أيدي الحكومة البريطانية ، وكان لهذه الاتفاقيات أثر في منع التوسع العثماني رغم أن العثمانيين احتفظوا بمطالباتهم بالسيادة على الكويت .

وحتى داخل حدودها الأضيق ، لم تكن سلطة اسطنبول قوية كما كان يبدو ، فقد تفكك تحالف القوى بين الصفوة الحاكمة وكان هذا التحالف قد جعل الاصلاح ممكنا ، فقد كان هناك انشقاق بين أولئك الذين آمنوا بحكومة من المسئولين في مجلس يحكمون بهدى من ضمائرهم ومبادىء العدالة ، وأولئك الذين اعتقدوا بالحكومة التفويضية التي تكون مسئولة أمام ارادة الشعب ، الذي يعبر عن نفسه عن طريق الانتخابات ، وقد كان كثير من المسئولين القدامى يعتقدون أن ذلك يمكن أن يكون خطيرا في دولة شعبها غير متعلم ، وفيها جماعات وطنية ودينية مختلفة يمكن أن تستغل

حرياتها السياسية للعمل على تمزيق الامبراطورية • وفى عام ١٨٧٦ فى ابان الأزمة الشرقية وضع دستور وانتخب برلمان واجتمع ، ولكن السلطان الجديد عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) جمده بمجرد احساسه بالقوة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ انشقاق أعمق ، وانتقلت القوة من صفوة كبار المسئولين الى السلطان وحاشيته ، مما أضعف من الرابطة بين الأسرة الحاكمة والعنصر التركى الذى اعتمدت عليه الامبراطورية كلية •

وفى عام ١٩٠٨،قامت ثورة يدعمها جزء من الجيش أعادت الدستور (واستفادت كل من رومانيا وبلغاريا من ذلك باعلانهما الاستقلال رسميا) وفى البداية،بدا للكثيرين أن هذه الثورة قد تكون البداية لحقبة جديدة من الحرية والتعاون المشترك بين شعوب الامبراطورية ، وكتب عنها مبشر أمريكى أقام لفترة طويلة فى بيروت أن الثورة قد فهمت على أنها انتقالية :

« وقد انتقلت الأمور من بين أيدى باشـوات مستهترين مرتشين الى برلمان لممثلى كافة مناطق الامبراطورية ، انتخبهم الشعب بكل طوائفـه من المسلمين والمسيحيين واليهود ، وانفجرت الامبراطورية بكاملها فى فرح غامر ، وكتبت الصحافة ، وعقدت اللقاءات العامة ، وازدانت المدن ، وشوهد المسلمون يعانقون المسيحيين واليهود » (١) •

وفى السنوات القليلة التاليـــة ، كانت السيطرة على الحكومة فى أيدى مجموعة من الضباط الأتراك والمسئولين « لجنة الوحدة والتقدم » أو « شباب الأتراك » الذين عملوا على تقوية الامبراطورية بزيادة السيطرة المركزية •

ورغم أن الحكومة العثمانية كانت قادرة على الحفاظ على حريتها فى العمل السياسى ، أصبح هناك نوع آخر من التدخل الأوروبى أكثر أهمية: فمنذ الخمسينيات من ذلك القرن وما بعده ، كانت الحكومة العثمانية فى احتياج متزايد للمال لدفع مستحقات الجيش والادارة وبعض الأشغال العامة، ووجدت مصـــدرا جديدا للمال فى أوروبا ، حيث أدى تطور الصـــناعة

والتجارة الى تراكم رأس المال ، الذى تدفق من خـلال نـوع جديد من المؤسسات هى المصارف الى الاستثمار فى كل أنحاء العـالم وبين عامى ١٨٥٤ و١٨٧٩ ، اقترضت الحكومة العثمانية على نطاق واسع وبشروط غير جيدة مبلغ ٢٥٦ مليون جنيه تركى (الجنيه التركى كان يساوى تقريبا ٠ر٩ جنيها استرلينيا) ، وقد تسلمت بالفعل ١٣٩ مليونا ، والمبلغ الباقى خصم وبحلول عام ١٨٧٥ ، لم تعد قادرة على الاستمرار فى تحمل الفوائد وسداد الدين ، وفى عام ١٨٨١ نشأت ادارة عموم الدين لتمثل الدائنين الأجانب ، وتولت السيطرة على جانب كبير من الايرادات العثمانية ، وبهذه الطريقة كانت لها السيطرة الفعلية على تصرفات الحكومة ؛ مما كان له نتائج ماليـة ٠

انفصال افريقيا : مصر والمغرب

لقد جرت الأحداث على نحو مماثل فى مصر وتونس ، ولكنها انتهت بشكل مختلف ، بفرض السيطرة المباشرة للدول الأوروبية ، كان يمـكن لدولة واحدة أن تتدخل فى كلا البلدين بشكل فعال ولأسباب مختلفة ، ففى تونس كان تضخم المديونية للمصارف الأوروبيـة له نفس النتائج المباشرة التى ظهرت فى الدولة العثمانية ذاتها (اسطنبول) ، فقد أدى الى انشاء مفوضية دولية مالية (صندوق دين) فى ١٨٦٩ ، تلا ذلك محاولات أخرى لاصلاح الماليات واعادة تنظيـم القضـاء ، ونشر التعليم الحديث ، وكلما انفتحت البـلاد للأعمـال الأجنبية ، جـذبت اهتمـام الحكومات الأجنبية ، خاصة حكومة فرنسا التى كانت متواجدة بالفعل عبر الحدود الغربية فى الجزائر ، وفى عام ١٨٨١ احتل جيش فرنسى تونس ، جزئيا لأسباب مالية ، وجزئيا لقطع الطريق على تنامى النفوذ المنافس خاصـة النفوذ الايطالى ، وجزئيا لتأمين الحدود الجزائرية ، وبعد عامين ، تمت اتفاقية مع « الباى » تفرض فرنسا بمقتضاها الحماية رسميا ، وتكون لها مسئولية الادارة والشئون المالية ٠

وفى مصر أيضا ، قدم الانفتاح أمام المشروعات الأجنبية تشجيعا كبيرا للتدخل ، ففى أثناء حكم خلفاء محمد على ، وخاصة اسماعيل (١٨٣٦ ـ

١٨٧٩) استمر انشاء مؤسسات المجتمع الحديث ، وأصبحت مصر عمليا مستقلة عن الدولة العثمانية ، وانتشر التعليم ، وفتحت بعض المصانع الجديدة،والأهم من كل ذلك العملية التى تحولت بمقتضاها البلاد وأصبحت مزرعة لانتاج القطن للسوق الانجليزية،وقد توقف استيراد القطن الأمريكى نتيجة الحرب الأهلية الأمريكية فى الفترة (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) لبعض الوقت، وكانت هذا حافزا للتوسع فى زراعة القطن فى مصر ، واستمر ذلك بعد الحرب وتضمن انفاقا متزايدا على الرى وعلى المواصلات ، ودخلت مصر عصر السكك الحديدية مبكرا منذ الخمسينات من القرن التاسع عشر وما بعدها ، كما تم تنفيذ عمل ضخم آخر هو مشروع قناة السويس التى بنيت معظمها بالمال الفرنسى والمصرى والعمالة المصرية وافتتحت فى عام ١٨٦٩ ، وكان افتتاحها من أعظم المناسبات فى ذلك القرن ، واستغل الخديو اسماعيل الفرصة لاظهار أن مصر لم تعد جزءا من أفريقيا . ولكنها تنتمى للعالم المتمدين فى أوروبا ، وضم الضيوف امبراطور النمسا والامبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث ، وولى عهد بروسيا ، وفنانين وكتابا فرنسيين ، مثل : ثيوفيل جوتييه واميل زولا ويوجين فرومنتان وهنريك ابسن وموسيقيين وعلماء مشاهير ، وكانت الاحتفالات تحت رعاية رجال الدين من المسلمين والمسيحيين،وقادت الامبراطورة فى اليخت الامبراطورى القافلة الأولى من القوارب خلال القناة الجديدة ، وفى نفس الوقت تقريبا افتتحت دار الأوبرا فى القاهرة ، بأغنية على شرف اسماعيل ثم عزفت أوبرا ريجوليتو لفردى ، وكان من المحتم أن يجذب افتتاح القناة فى مصر اهتمام بريطانيا ، حيث كان عليها الدفاع عن التجارة البحرية مع آسيا ، والدفاع عن امبراطوريتها فى الهند .

وقد كان التصدير وتصنيع القطن مربحا لرجال المال الأوربيين وكذلك أيضا كانت القناة والأشغال العامة الأخرى ، وبين عامى ١٨٦٢ ، و١٨٧٣ ، اقترضت مصر ٦٨ مليون جنيه استرلينى وتسلمت بالفعل ثلثيها فقط ، وخصم المبلغ الباقى كفوائد ، وبرغم المجهودات لزيادة مواردها بما فيها بيع نصيبها فى القناة للحكومة البريطانية بحلول عام ١٨٧٦ ، لم تكن قادرة على الوفاء بالتزاماتها ، وبعد ذلك بسنوات قليلة فرضت

السيطرة المالية البريطانية الفرنسية ، وقد أدى تنامى النفوذ الأجنبى ، بالاضافة للأعباء المتزايدة للضرائب التى فرضت لمواجهة مطالب الدائنين الأجانب بالاضافة الى أسباب أخرى ، الى حركة للحد من سلطة الخديو ، كما أدت الى تصاعد النبرة الوطنية ، وأدت زيادة النفوذ الأجنبى وما تبعها من تداعيات أخرى ، الى قيام الجيش المصرى بحركة بزعامة أحمد عرابى - وقد أدى كل هذا الى الاسراع باصدار قانون بانشاء صندوق الدين سنة ١٨٨٦ (*) ، وعندما اجتمعت الحكومة حاولت تأكيد استقلاليتها ، وقد أدى احتمال قيام حكومة لا تنصاع بسهولة الى المصالح الأجنبية الى تدخل دبلوماسى من جانب انجلترا وفرنسا معا ، ثم الى تدخل عسكرى من جانب انجلترا منفردة ، وقد كانت ذريعة الغزو البريطانى هى الادعاء بأن الحكومة كانت متمردة ضد السلطة الشرعية ، وأن النظام قد انهار ، الا أن غالبية الشهود المعاصرين لا يوافقون على هذا الادعاء ، فالسبب الحقيقى كان رغبة الدول الأوربية فى التوسع ، متذرعة بالحفاظ على مصالحها المالية ، وقد بدأ الغزو بالقصف المدفعى البريطانى للاسكندرية ، وتبعه انزال قوات فى منطقة القنال ؛ مما أيقظ المشاعر الدينية أكثر من المشاعر الوطنية ، ولكن الرأى العام المصرى كان مستقطبا بين الخديو والحكومة ، ولم يقم الجيش المصرى بأية مقاومة فعالة ، واحتل الجيش البريطانى البلاد ، ومنذ ذلك الوقت وما بعده حكمت بريطانيا مصر فعليا ، ورغم أن السيطرة البريطانية لم تتجل فى أشكال رسمية بسبب تشابك المصالح الأجنبية ، فان فرنسا لم تعترف بالوضع المسيطر لبريطانيا فى مصر الا فى عام ١٩٠٤ .

وقد كان احتلال تونس ومصر خطوات مهمة فى العملية التى تحدد بموجبها القوة الأوربية دائرة مصالح كل منها فى أفريقيا ، وكبديل لقتال كل منها الآخر ، وكذلك فتحوا الطريق الى خطوات أخرى ، فامتد الحكم

(*) أصدر الخديو اسماعيل مرسوما بتحديد مهمة صندوق الدين سنة ١٨٧٦ م - (المراجع) .

البريطانى جنوبا على طول وادى النيل حتى السودان ، وكان السبب المعلن لهذا هو تصاعد الحركة الدينية لمحمد أحمد (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) ، الذى كان يعتبره أتباعه المهدى المنتظر ، بهدف عودة حكم الشريعة الاسلامية ، وقد انتهى الحكم المصرى على البلاد فى ١٨٨٤ ، وظهرت حكومة ذات شكل اسلامى ، ولم يكن الخوف من امتدادها بقدر ما كان التخوف من تحرك الحكومات الأوروبية هو ما أدى الى الاحتلال المصرى الانجليزى الذى قضى على دولة المهدى الاسلامية ، ونصب نظاما جديدا من الحكومة فى ١٨٩٩ ، ونظريا ، كان حكما مصريا انجليزيا مشتركا ، ولكن فى الواقع كانت ادارة بريطانية أساسا .

وبعد فترة وجيزة ، أدى تنامى النفوذ الأوروبى فى المملكة المغربية (مراكش) الى نتيجة مشابهة ، فقد انتهت بالفصل محاولات السلطان للمحافظة على حرية الدولة من التدخلات ، وفى عام ١٨٦٠ ، عندما غزت اسبانيا البلاد لفرض سيطرتها فيما وراء ميناءى سبته ومليلة ، اللذين كانا تحت سيطرة الاسبان لقرون عديدة ، وجزئيا لمقاومة انتشار النفوذ البريطانى ، انتهى الغزو بمعاهدة تنص على أن تدفع اسبانيا تعويضا ماليا يفوق طاقتها ، وقد أدت محاولات دفعها والاتفاقيات المعقودة مع الدول الأوروبية الى زيادة سريعة فى النشاط الأوروبى ، وفى خلال فترة حكم السلطان حسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) حاولت الحكومة القيام باصلاحات مماثلة لتلك التى حاولتها فى بلاد أخرى لتوفير اطار يمكن من خلاله احتواء التدخل الأوروبى : وذلك بانشاء جيش جديد ، وادارة متطورة ، وطرائق أكثر فعالية لتحصيل الايرادات واستخدامها ، وكان لهذه السياسة نجاح محدود لأن الحكومة لم يكن لها سيطرة كافية على البلاد لتنفيذها ، وأصبح الزعماء فى الريف بوضعيتهم المتجذرة فى التضامن الدينى لأسباب دينية وقبلية مستقلين عمليا ، وكانت قوتهم فى تزايد فى الجنوب ، وأضعفت الاجراءات الجديدة للضرائب والادارة سلطة الحكام فى المدن ، وأنشأ الزعماء المحليون علاقات مباشرة مع ممثلى الأجانب ، ووضع التجار أنفسهم تحت حمايتهم ، وبدأت الحكومة فى الاستدانة من المصارف الأوروبية من أجل أن تعيش وزاد هذا من المصالح الأجنبية وحدثت النتيجة

المنطقية في ١٩٠٤ ، حينما كانت انجلترا واسبانيا قوتين من بين ثلاث قوى ذات مصالح ، واعترفتا بالمصالح الأساسية للقوة الثالثة وهى فرنسا (بريطانيا فى مقابل اطلاق يدها فى مصر ، واسبانيا فى مقابل نصيب من السيطرة النهائية) ، وفى عام ١٩٠٧ وافقت الدول الأوروبية الرئيسية على السيطرة الفرنسية الاسبانية على الادارات والماليات ، واحتلت القوتان أجزاء من البـلاد : اسبانيا فى الشمال ، وفرنسا على الساحل الأطلنطى والحدود الجزائرية ، وكان هناك تمرد ضد السلطان الذى وضع نفسه تحت الحماية الفرنسية ، واستمر توسع القوة الفرنسية ، وفى عام ١٩١٢ وقع السلطان الجديد اتفاقية تقبل بالحماية الفرنسية ، وقد قبلها أيضا كبار زعماء القبائل فى الجنوب ، وبموجب الاتفاقية الفرنسية الاسبانية ، تدير اسبانيا جزءا من الشمال ، بينما تظل طنجة مركزا للمصالح الأجنبية تحت نظام دولى خاص .

وفى نفس الوقت تقريبا وصـــل تقسيم المغرب الى نهايته . فى عام ١٩١١ أعلنت ايطاليا ـ التى أتت متأخرة الى المعمعة حول أفريقيا ـ الحرب على الامبراطورية العثمانية ، وانزلت قواتها على ساحل طرابلس ، وبرغم المقاومة العثمانية ، استطاعت احتلال الموانى والحصول على بعض الاعتراف بوضعها من الحكومة العثمانية .

تحالف المصالح المسيطرة

وباندلاع الحرب العالمية الأولى ، كانت آثار السيطرة الايطالية فى ليبيا ، والفرنسية والاسبانية فى مراكش غير ملموســـة ، لكن الحـكم الفرنسى ترك آثاره فى الجزائر وتونس ، وترك الحكم البريطانى آثاره فى مصر والسودان ، ومن بعض النواحى كان ذلك علامة على الانفصال عن الماضى ، وعما كان يحدث فى الامبراطورية العثمانية،فالمصالح الاستراتيجية والاقتصادية لدولة أوروبية واحـدة كانت هائلة ، ورغم أن الحكومات المحلية فى مصر وتونس ومراكش كانت موجودة بالاسم فقط ، فانها فقدت

قوتها تدريجيا مع اتساع سيطرة المسئولين الأوروبيين ، ولم يكن لديهم حتى مجال محدود لعمل مستقل ، يسمح للحكومة في اسطنبول بضرب قوى بالأخرى والسعى من أجل ما يعتبر مصالح قومية .

ومن نواح أخرى سارت السياسات التى اتبعتها انجلترا وفرنسا بحيث يمكن اعتبارها استمرارا لأشكال أكثر فعالية لسياسات المصلحين المحليين ، وخلف هذه الواجهة من الحكومات المحلية تم ادخال المزيد من المسئولين الأجانب ، الذين اكتسبوا تدريجيا سيطرة واسعة ، ومال توازن القوى بينهم وبين المسئولين المحليين الوطنيين (فى السودان لم تكن هناك هذه الواجهة،ولكن ادارة حكم مباشرة من الطراز الاستعمارى حيث كانت كل المناصب الكبرى فى أيدى البريطانيين ، والمصريين وكان الآخرون « السودانيون » فى مواقع اقل اهمية) . وعملت الحكومات بشكل أكثر فعالية ، ولكن ايضا بشكل أكثر ابتعادا عن المجتمع ، فالجنود الأجانب أو المحليون تحت امرة قواد أجانب ، والشرطة المنظمة مكنت من سيطرة الحكومة والامتداد حتى الريف ، وجعل تحسن وسائل الاتصالات الأقاليم أكثر قربا من العاصمة : السكك الحديدية فى كل من تونس ومصر وأيضا الطرق فى تونس ، وأنشئت المحاكم العلمانية التى تعمل بالقوانين الأوروبية أو توسعت ، وأدت السيطرة المالية والجباية الضرائبية الفعالة الى تناقص الديون الخارجية الى معدلات يمكن السيطرة عليها ، وجعلت امكانية الحصول على قروض ورؤوس أموال أجنبية ميسرة من الممكن القيام ببعض المشروعات العامة ، وبشكل خاص مشروعات الرى في وادى النيل ، وذروتها سد أسوان ، وكنتيجة له أدخل نظام الرى الدائم فى صعيد مصر ، وتم افتتاح عدد محدود من المدارس أو عدلت من مدارس العهود السابقة ، وكانت كافية لتدريب المسئولين والتقنيين على مستوى يمكن من استخدامهم بفعالية ، ولكنه لم يكن كافيا لايجاد طبقة كبيرة من المثقفين الساخطين .

وفى المناطق التى تحكمها اسطنبول ، القاهرة وتونس والجزائر ، تحلقت المصالح حول الأنواع الجديدة من الحكومة وقويت خلال النصف

الثانى من القرن التاسع عشر ، وكانت سياسة الحكومة تميز – بالاضافة الى المسئولين – جماعتين بشـكل خاص ، الأولى كانت تلك الجماعات المرتبطة بالتجارة والمال ، فقد ادى تزايد السكان والصناعة فى أوروبا ، وتحسين الموانىء وتطويرها ، وبنـاء السكك الحديدية والطرق فى لبنان والجزائر وتونس ، كل ذلك أدى الى تنامى التجارة مع أوروبا وكذلك بين أجزاء مختلفة من الشرق الأوسط والمغرب برغم فترات الكساد •

وبشكل عام كان على نفس النسق كما كان من قبل ، تصدير المواد الخام للخارج (القطن المصرى ، والحرير اللبنانى ، والصوف والجلود من المغرب ، والفوسفات التونسى) والمواد الغذائية (البرتقال من فلسطين والنبيذ من الجزائر وزيت الزيتون من تونس) والواردات من المنسوجات والسلع المعدنية والشاى والبن والسكر ، وبشكل عام كان الميزان التجارى فى غير صالح أوروبا ؛ الا أن الذى خفف الوطأة (عن أوروبا) هو وصول الأموال لها من الخـارج ، وكانت هذه الأموال لازمة لتنفيـذ الأشغال العامة ، وفى مناطق أوربية أخرى ساعدت تحويلات المهاجرين الأوربيين فى العالم الجديد ، بالاضافة لفيض الذهب والفضة الذى غمر أوروبا فى هذه الفترة (من العالم الجديد) •

وقد كان القسم الأكبر من التجارة بين أيدى الشركات الأوروبيـة والتجار البريطانيين ، والفرنسيين على الأخص ، وعدد متزايد من الألمان مع توسع الصناعة وزيادة السكان فى ألمانيا ، ولكن جماعات التجار المحليين لعبت أيضا دورا ملحوظا فى التجارة الدوليـة ودورا قياديا فى التجارة المحلية ، ففى الشرق الأوسط تميز المسيحيون السوريون واللبنانيون ، واليهود السوريون والعراقيون ، والأقباط المصريون فى التجارة النيلية ، وفى المغرب سيطر اليهود المحليون ، وكذلك آخـرون من ذوى التراث الطويل فى التجارة وتجار سوس فى مراكش ، وواحة مزاب فى الجزائر ، وجزيرة جربه قبالة الساحل التونسى •

وقد امتدت المصالح الأوروبية المالية فيما وراء التجارة ، وكانت الاستثمارات الكبيرة الأولى هى تلك القروض المقدمة للحكومات التى أدت

الى فرض السيطرة المالية الأجنبية ، ولكن بعد ذلك قدمت الحكومات المزيد من القروض ولكن وجود السيطرة الأجنبية مكن من الحصول عليها بشروط أقل تعسفا عن ذى قبل ، وأصبحت الاستثمارات تمتــد لما هو أكثر من القروض للحكومات فشملت الهيئات والمؤسسات العامة التى أعطيت من أجلها الشركات الأجنبية إمتيازاته ، فبعد قناة السويس أعطيت الامتيازات في مناطق متنوعة ، في الموانى وخطوط الترام ومشروعات المياه ، والغاز والكهرباء وقبل كل شيء السكك الحديدية ، وبالمقارنة بهذا كان هنـــاك استثمار قليل في الزراعة فيما عدا في بعض الأجزاء من مصر والجزائر ، حيث كان الطلب كبيرا ومنظما على منتجات معينة ، والادارة تحت السيطرة الأوروبية ، ضمنت عائدا كبيرا مأمونا ، وكان هناك استثمار صـــغير فى الصناعة أيضا ما عدا بعض الصناعات الإستهلاكية على نطاق صغير ، وفى بعض المناطق تم الاستثمار فى استخراج المعادن (الفوسفات فى تونس والبترول فى مصر) .

لم تكن كل تلك المصارف والشركات أوروبية ، ولكن بعضها نشأ فى اسطنبول والقاهرة وغيرها ، كالبنك العثمانى ، وقد شارك فى الاستثمار الا أن رأس المال فى هذه البنوك المحلية كان فى أغلبه أوروبيا ، وكان الجزء الأكبر من الأرباح الناتجة من الاستثمار يصدر الى بـــلاد المنشأ لزيادة الثروات ورأس المال ، ولم يكن يبقى فى البلاد المعنية لتوليد المزيد من الثروة ورأس المال الوطنى .

السيطرة على الأراضى

وقد كانت الجماعات الأخرى التى ارتبطت مصالحهـــا بمصـالح الحكومات الجديدة هى جماعات ملاك الأراضى ، وقد تغيرت الأسس القانونية لملكية الأرض سواء فى الامبراطورية العثمانيـــة وفى مصر في منتصـــف القرن التاسع عشر ، ففى الدولة العثمانية ، حدد قانون الأرض الصـــادر سنة ١٨٥٨ أنواع الأراضى المختلفة ، وقد كانت معظم الأراضى الزراعية

مملوكة للدولة وفقـا للتقـاليد الراسـخة منـذ أمد طويل ؛ ولكن الذين كانوا يزرعونهـا ، أو الذين تعهـدوا بزراعتها كان من حقـم الحصـول على وثيقـة (حجـة) تمكنهم من الاستخدام الكامل لها دون أن يتهددهم شيء ، وكان بامكانهم بيعها أو توريثها ، وربما كان الهدف من ذلك القانون الصادر سنة ١٨٥٨ تشجيع الانتاج ، وتقوية وضع المزارعين الفعليين ، وفي بعض المناطق حقق القانون هذه النتيجة المرغوبة ، ففي أجزاء من الأناضول وفي لبنان تزايدت الحيازات الصغيرة من الأراضي المنتجة للحرير بفضل التحويلات المرسلة من المهاجرين لعائلاتهم ، الا أنه في معظم المناطق كانت النتائج مختلفة ، ففي المناطق القريبة من المدن ، والتي تعمل في انتاج المواد الغذائيـة والمواد الخام لاسـتهلاك المدن أو للتصدير ، كان أغلبها يقع بين أيدي العائلات الحضرية (غير فلاحين) ، وكان بامكان هذه العائلات الاستفادة من الجهاز الاداري لتسجيل الملكية ، كما كانوا في وضع أفضل من الفلاحين للحصول على القروض من المصارف التجارية أو شركات الرهونات أو من البنك الزراعي الحكومي ، وكان بامكانهم تقديم الأموال للفلاحين لتمكينهم من دفـع الضرائب أو تمويل عملياتهم ، وفي مناطق الانتاج للتصدير ، كان بامكان التجار من الحضر من ذوي الروابط مع الأسواق الأجنبية التحكم في الانتاج ، وتقرير ما يجب زراعته ، وتقديم الأموال للزراعة وشراء الانتاج ، وبعضهم كان في موقع الاحتكار ، فقد كان شراء التبغ والحرير في كل الامبراطورية العثمانية امتيازا لشركات ذات رأس مال أجنبي،وبهذه الطرائق ظهرت طبقة من الملاك الغائبين من سكان المدن ، وكان بامكانهم الالتجاء للحكومة لتدعيم مطالبتهم بجزء من الانتاج ، فالفلاحون الذين يزرعونها كانوا اما عمالا بلا ملكية ، أو مزارعين بالمشاركة ، ويحصلون على ما يكفيهم للعيش من المحصول،وقد كان من أكبر هذه الاقطاعيـات وأفضلهـا ادارة أراضي السلطـان عبد الحميد نفسه .

كما ظهر في الريف النائي بعيدا عن التاثير الفعال للمدن نوع آخر من كبار ملاك الأراضي ، فقد كانت معظم الأراضي ، خاصة في المساحات

المستخدمة للمراعى تعتبر عند الحكومة أو أولئك الذين عاشوا عليها . مملوكة للقبيلة على المشاع ، ولكن الأسر المهيمنة فى القبيلة قامت بتسجيل معظم الأراضى باسمها واذا كانت المساحة كبيرة ، لم تكن السيطرة الفعلية على الأرض فى يد زعيم القبيلة ولكن فى يد مجموعة من الوسطاء أقرب الى الأرض وعملية الزراعة من مالك الأرض فى المدينة ، أو من شيخ القبيلة ٠

وقد كان من بين هؤلاء الملاك تجار ، مسيحيون ويهود ومرابون ، ولكن بعض الأجانب فى معظم أجزاء الامبراطورية ظلوا يتحكمون من اسطنبول ، وقد كان الاستثناء الرئيسى من ذلك هو فلسطين ، حيث كان هناك مجتمع يهودى متنام منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر من نوع جديد ، ليسوا اليهود الشرقيين المستقرين منذ زمن ، ولكن كانوا من يهود أواسط وشرق أوروبا لم يحضروا الى القدس للدراسة أو الصلاة أو الدفن؛ ولكنهم أتوا برؤية جديدة عن استعادة الوطن اليهودى ذى الجذور فى هذه الأرض ، وفى عام ١٨٩٧ تبلورت هذه الطموحات فى قرارات المؤتمر اليهودى الأول ، الذى دعا الى انشاء وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يحميه القانون الدولى ، وبرغم المعارضة من الحكومة العثمانية ، والقلق المتزايد بين قطاعات من السكان العرب المحليين ، زاد السكان اليهود فى فلسطين بحلول عام ١٩١٤ الى حوالى ٨٥ ألف أو ما يقارب ١٢٪ من مجموع السكان ، وكان حوالى ربعهم مستقرين فى الأراضى التى تم شراؤها بمعونة الصندوق القومى (اليهودى) وأعلنت ملكية خالصة لليهود ، على ألا يستخدم على هذه الأراضى من ليس يهوديا ، وكان بعضهم يعيش فى مستوطنات زراعية من نوع جديد (كيبوتز) ذات ادارة جماعية للانتاج والحياة الاجتماعية ٠

وفى مصر ، كانت العملية التى انتقلت بمقتضاها ملكية الأراضى من الحاكم الى أيدى الأفراد قد بدأت أواخر سنوات «محمد على» ، وتوسعت بين عامى ١٨٥٨ و ١٨٨٠ بواسطة سلسلة من القوانين والمراسيم التى

أدت فى النهاية الى الملكية الخاصة الكاملة ، وبدون هذه القيود التى حددها القانون العثمانى ، وهنا أيضا لم تكن النية هى خلق طبقة من كبار ملاك الأرضى ، ولكن هذا فى الواقع هو ما حدث بالفعل بسبب عدد من العمليات المتشابكة ، فقد منح الخديو مساحات شاسعة من الأراضى قبل الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ لأفراد عائلته أو كبار المسئولين فى خدمته ، واحتفظ بكثير منها لنفسه كملكية خاصة . كما استطاعت العائلات الكبيرة مد ملكياتها بعد تزايد الطلب على القطن ، وبعد الاحتلال ، وقعت الأراضى التى أعطاها الحاكم لخدمة الدين الخارجى والأراضى التى أدخلت حديثا للرقعة المزروعة فى أيدى كبار الملاك أو شركات الرهونات، وغرق صغار الملاك فى الديون للمرابين فى المدن وفقدوا أراضيهم ، وحتى ان امكنهم الاحتفاظ بها فلم يكن بامكانهم الحصول على القروض لتمويل التحسينات ، كما أدت قوانين المواريث الى تفتيت الملكية الى الحد الذى لم يعد ممكنا لقطعة أرض أن تعول عائلة ، وبحلول الحرب العالمية الأولى كان أكثر من ٤٠٪ من الرقعة الزراعية بين أيدى كبار الملاك (من يملكون أكثر من ٥٠ فدانا) وحوالى ٢٠٪ كانت مملوكة لصغار الملاك أقل من ٥ فدادين (الفدان حوالى ٤٠ر٠ هكتارا) وحوالى ٢٠٪ من المزارع الضخمة كانت مملوكة للأفراد أو الشركات الأجنبية خاصة فى الشمال ، وأصبح العادى هو المالك الكبير الذى يزرع الفلاحون أراضيه ، وكان مسموحا لهم باستئجار قطع من الأراضى وزراعتها لأنفسهم ، ويضاف الى هذه الفئة عدد متزايد من العمال غير المالكين يمثلون ٢٠٪ من السكان العاملين .

وفى تونس ، توسع تخصيص الأراضى للملاك الأجانب وقد كان هناك بالفعل جاليتان كبيرتان ، فرنسية وايطالية فى زمن الاحتلال الفرنسى ، وفى السنوات العشر الأوائل من اعلان المحمية ، كانت الاجراءات التى اتخذتها الحكومة فى صالح أصحاب المصالح الكبرى الراغبين فى شراء الأراضى ، فقد كانت قضايا الأرض تنظر فى محاكم مختلطة ، وكان من جراء ذلك أن أولئك الذين استأجروا أراضى الوقف أصبح مسموحا لهم بشرائها ، ومنذ عام ١٨٩٢ تم تبنى سياسة جديدة لتشجيع الهجرة والمستوطنات تحت ضغط من جماعات الاستعمار لزيادة العنصر الفرنسى

بينهم ، وكان هناك مساحات كبيرة من الأراضى عرضت للبيع من أراضى الوقف وأراضى الدولة والأرض التى تستخدمها بعض القبائل على المشاع ، حيث سادت نفس السياسة كما كان الحال في الجزائر لحصر السكان في جزء صغير منها • وكانت تقدم للمشترين ، القروض الزراعية ، والمعدات ، والطرق ، كما كانت الظروف الاقتصادية أيضا جيدة ، واستمر الاحتياج للقمح وتزايد الطلب على النبيذ وزيت الزيتون ، وعليه زادت مساحة الأراضى بين أيدى الأوربيين خاصة في المناطق التى تزرع القمح في الشمال ، ومناطق زراعة الزيتون على الساحل ، وبحلول ١٩١٥ تملك المستعمرون حوالى خمس الأراضى المزروعة ، وكان قليل منهم من صغار الملاك ، وكان النمط التقليدى هو كبار الملاك ، يزرعون بمعاونة الصقليين والايطاليين الجنوبيين أو العمال التونسيين ، أو الذين يؤجرون أراضيهم للفلاحين التونسيين ، وكان هناك وفرة فى الأيدى العاملة لأن عملية اغتصاب المستعمرين للأراضى ، أساءت لأحوال الفلاحين الذين حرموا من امكانية الحصول على رأس المال ، وحرموا أيضا من الحماية التى كان يقدمها لهم الملاك المحليون ، وجلب التحول الاقتصادى معه تغييرا فى القوة السياسية ، فكان المستعمرون يطالبون بدور أكبر فى وضع السياسة ، وكانوا يرغبون فى أن تتحرك الحكومة باتجاه ضم البلاد الى فرنسا ، واخضاع السكان المحليين بالقوة ، والابقاء عليهم فى اطار ثقافة تقليدية ونمط للحياة يمنعهم من المشاركة بفاعلية فى ممارسة القوة ، وقد حققوا بعض النجاح فى هذا الأمر ، حيث ان حشدا كبيرا من مسئولى الحكومة كانوا فرنسيين ، كما كان المؤتمر الاستشارى للشئون المالية والاقتصادية يتكون أساسا من المستعمرين•ومن ناحية أخرى ، كانت الحكومة فى باريس وكبار المسئولين الذين أرسلوا من هناك يرغبون فى الحفاظ على المحمية على أسس من التعاون بين الفرنسيين والتونسيين •

وبحلول عام ١٩١٤،كانت السياسة الفرنسية فى تونس قد وصلت الى مرحلة مشابهة لسياستها فى الجزائر ، ولكن فى نفس الوقت كانت الأمور فى الجزائر قد تغيرت ، حيث أضعفت هزيمة فرنسا فى الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) وسقوط نابليون الثالث من

سلطة الحكومة الفرنسية فى الجزائر ، وسيطر (المستعمرون) لفترة تسلموا خلالها السلطة ، ولكن فى شرق البلاد حدث شيء مختلف ، فقد قامت ثورة واسعة بين العرب والبربر لعدة أسباب : من ناحية كان النبلاء يرغبون فى استعادة وضعهم السياسى والاجتماعى الذى ضعف بتوسـع الادارة المباشرة ، ومن ناحية أخرى كان الفلاحون سكان القرى يعترضون على فقدان أراضيهم ، وبعد فترة من الأوبئة والمحاصيل السيئة تبلورت بين قطاع كبير من السكان الرغبة فى الاستقلال ، التى لم تتجل بعد فى أشكال وطنية ولكن كان لها بعدها الدينى ، غذتها ووجهتها زعامة احدى الطرق الصوفية ، وقمعت هذه الانتفاضات وأدت الى نتائج فاجعة للمسلمين الجزائريين ، وفرضت الغرامات الجماعية وصودرت الأراضى كعقاب ، وقدرت خسائر تلك المناطق التى اشتركت فى التمرد بما يساوى ٧٠٪ من ممتلكاتها .

كانت النتـائج على المدى البعيـد أكثر سوءا ، فقد أدت الى تدمير القيادات المحلية كما نتج عن تغير النظام فى باريس ، ازالة العقبات أمام توسع ملاك الأراضى الأوربيين ، وتحولت اقطاعيات كبيرة من الأراضى الى أيادى المستعمرين،سواء بالبيع أو الهبة من أراضى الدولة أو بالاستيلاء على أراضى القبائل التى تستخدم استخداماً على المشاع ، أو بالتلاعب القانونى، وبحلول ١٨٧٤،كان الأوربيون يمتلكون قرابة ثلث الأراضى المزروعة وكانت أكثر الأراضى انتاجية تنتج القمح أو الكروم كما كانت من ذى قبل ، وكان للنبيذ الجزائرى سوق جديدة كبيرة فى فرنسا ، ومعظم الأراضى التى تزرع كروما كان يعمل بها المهاجرون الأوربيون من الاسبان والايطاليين وكذلك الفرنسيين ، ولكنها كانت مملوكة لملاك أغنياء نسبيا بما لديهم من رؤوس أموال ، واقتصر صغار المزارعين الجزائريين على أجزاء صغيرة من الأراضى غير المتميزة وبلا رأس مال،وبموارد متناقصة من الماشية ، ومالوا لأن يصبحوا مزارعين بالمشاركة أو مجرد عمال على الأرض المملوكة للأوربيين ؛ رغم ظهور طبقة جديدة من الملاك المسلمين .

وقد تزايد سكان الجزائر من الأوربيين بسبب الفرص الجديدة فى الأراضى بشكل سريع من ٢٠٠ ألف فى عام ١٨٦٠ الى قرابة ٧٥٠ ألف

فى عام ١٩١١ ، والرقم الأخير يشمل اليهود الجزائريين الذين حصلوا جميعا على الجنسية الفرنسية ، وتزايد السكان المحليون فى نفس الفترة الى ٤٫٩٤٠٫٠٠٠ ، وكان الأوربيون يشكلون ١٣٪ من اجمالى السكان ، وفى المدن الكبرى كانوا يمثلون عنصرا أكبر ، وفى عام ١٩١٤ كان ثلاثة أرباع سكان المدن الكبرى فى الجزائر من الأوربيين .

وقد سيطر هذا الوجود الأوربى المتزايد فعليا على الحكومة المحلية ، وبحلول عام ١٩١٤ أصبح لهم ممثلون فى البرلمان الفرنسى وشكلوا جماعة ضغط سياسى مهمة فى باريس ، وبالتدريج مع ظهور جيل جديد فى الجزائر ، وحصول المهاجرين من بلاد أخرى على الجنسية الفرنسية وشكلوا هوية منفصلة واهتمامات منفصلة ، بلورتها جماعات الضغط السياسى فى مطالب لاستيعاب الجزائر بقدر الامكان فى فرنسا ، مع اخضاع الادارة الفرنسية المحلية لسيطرتهم ، ونجحوا فى ذلك بشكل عام ، فقد كانت الأغلبية العظمى من المسئولين المحليين من الفرنسيين،وكذلك ممن يحتلون المواقع العليا ، وتوسعت المناطق التى كانت تديرها المجالس البلدية ذات الأغلبية الفرنسية وفى هذه المناطق لم يكن للمسلمين فعليا أية سلطة ، وكانوا يدفعون ضرائب مباشرة أكثر من تلك التى يدفعها المستعمرون ولكن العائدات كانت تستخدم أساسا لصالح الأوربيين ، وكانوا يحاكمون بناء على قانون عقوبات خاص يفرضه عليهم القضاة الفرنسيون ، كما كان الانفاق على تعليمهم قليلا .

وبنهاية القرن ، أصبحت الحكومة فى باريس واعية « بالمشكلة العربية » وبأهمية ضمان أن تظل الادارة مستقلة عن ضغوط المستعمرين، وأن بامكانها استخدام سلطاتها للحفاظ على « كرامة المهزومين » (٢) ، وبذل بعض الجهد حيال التعليم الابتدائى للمسلمين ، ولكن بحلول عام ١٩١٤ كان عدد الجزائريين الذين تلقوا تعليما ثانويا أو عاليا يعد بالعشرات أو بالمئات وليس بالآلاف .

احوال الشعب

في تلك الأجزاء من الشرق الأوسط والمغرب التي كانت سيطرة الحكومة فيها قد أصبحت أكثر فعالية ، أنشئت الأشغال العامة ، وصدرت القوانين الجديدة للأراضي لتضمن حقوق ملكية مؤكدة ، منحت المصارف والشركات العقارية رؤوس الأموال ، ووجدت المنتجات أسواقا في العالم الصناعي ، وتزايدت المساحات المزروعة ، وتزايدت المحاصيل الانتاجية بين عامي ١٨٦٠ و١٩١٤ ، ومن الواضح رغم سوء الاحصائيات أن ذلك ما حدث في الجزائر وتونس حيث تضاعفت الأراضي القابلة للزراعة ، وفي مصر بالذات كانت الظروف جيدة، في ذلك الوقت، حيث كانت سيطرة الحكومة غير مهددة حتى في صعيد مصر ، وكانت سوق القطن في تزايد برغم الذبذبات التي كان معرضة لها ، وأدت مشروعات الري الكبرى الى زيادة انتاجية الأراضي ، وتزايد المساحة المنتجة بمقدار الثلث بين عامي ١٨٧٠ و١٩١٤ ، ولم تكن هذه الزيادة بلا مخاطر ، وربحية زراعة القطن للتصـــدير كانت كبيرة ؛ لدرجة أن المزيد من الأراضي كانت توجه لها ، وبحلول حوالي ١٩٠٠ أصبحت مصر مستوردة بالكامل للمواد الغذائيـــة والسلع المصنعة .

وبالنسبة لسوريا وفلسطين والعراق، كانت الاحصائيات أكثر بعدا عن الدقة ولكن المؤشرات المتـاحة تشـير الى نفس الاتجاه ، ففي سوريا وفلسطين كان بامكان الفلاحين في القرى الجبلية زيادة مساحة الأراضي التي يزرعونها في السهول لانتاج القمح والمحاصيل الأخرى التي كان لها سوق في العالم الخارجي ، فزيت الزيتون والسمسم والبرتقال من منطقة يافا ، وفي لبنان تزايدت صناعة الحرير ، وفي العراق لم يكن العامل المهم هو توسع سلطة الدولة ، ولا تحسين الري ، أو المشروعات الكبرى للري مثل قناطر الهندية على نهر الفرات حتى عام ١٩١٣ ، وانما كانت الطريقة التي طبقت بهـا قوانين الأراضي ، عنـــدما سجلى زعماء القبائل الأراضي بأسمائهم ، وكان هناك حافز في تحويل رجال قبائلهم من الرعي الى الزراعة المستقرة لانتاج القمح أو البلح للتصدير .

وقد حدث مثل هذا التغير فى التوازن بين الزراعة المستقرة والرعى، حيثما تواجد عاملان متضافران،كان الأول توسع دائرة السيطرة الحكومية التى كانت تفضل دائما التعامل مع المزارعين المستقرين لامكان فرض الضرائب عليهم وتحبيذهم عن البدو الرحل الذين يعيشون خارج المجتمع السياسى ، والذين يمكنهم أن يشكلوا خطورة على النظام ، وكان يحدث هذا التوسع حيثما استطاعت الحكومة فرض قوتها وتحسنت المواصلات ، ففى الجزائر تحرك الجيش الفرنسى جنوبا من الهضبة العليا الى واحات الصحراء والأراضى التى يعيش فيها « الطوارق » ، وفى سوريا جعل انشاء السكك الحديدية بالامكان مد حدود الزراعة داخل السهول ، وأصبحت كل محطة سكة حديد مع مسئوليها والحامية العسكرية والسوق، مركزا لانتشار الزراعة والتجارة ، وكانت عناصر معينة من السكان تستخدم للحفاظ على النظام فى الريف ، كانت تستخدم فى الشمال مثل الجاليات الكردية ، والشراكسة (أو الجركس) الذين تركوا بلادهم فى أعقاب الفتح الروسى واستقروا فى سلسلة من القرى فى جنوب سوريا ٠

وكان العامل الثانى هو الطلب المتناقص على المنتجات الرئيسية للسهول أو الأرباح المنكمشة الناتجة منها بالمقارنة بالعائدات من المحاصيل المنتجة للبيع أو التصدير ، وبدأت سوق الابل فى الانكماش مع دخول وسائل الاتصال الحديثة (ولكن التغيير الحاسم بظهور السيارة لم يكن قد بدأ بعد) ٠ واستمر الطلب على الأغنام وتزايد مع زيادة عدد السكان ، ولكن رأس المال كان أكثر ربحية فى زراعة المحاصيل ، ومن الدلائل المتوافرة أنه كان من الواضح أن أعداد الماشية نسبة الى عدد السكان كانت فى تناقص ، ففى الجزائر كان هناك ٢ر٨٥ رأسا من الأغنام لكل نسمة من السكان ، وبعد ذلك بثلاثين عاما انخفضت هذه النسبة الى ١ر٦٥ ٠

وبشكل عام ، تميزت هذه الفترة بتزايد السكان بمعدلات تختلف بشكل كبير من بلد لآخر ، ومن بين البلدان ذات الاحصائيات التى يمكن الاعتماد عليها والتى يمكن ملاحظة الزيادة فيها بوضوح ، كانت مصر

والجزائر ، ففى الجزائر تضاعف السكان المسلمون فى خمسين عاما من ٢ مليون عام ١٨٦١ الى ٤ر٥ مليون عام ١٩١٤ ، وفى تونس كانت الزيادة بنفس المستوى من ١ الى ٢ مليون ° فى مصر كان التزايد مستمرا خلال القرن التاسع عشر من ٤ ملايين فى عام ١٩٠٠ الى ٥ر٥ مليون عام ١٨٦٠ ثم الى ١٢ مليونا فى ١٩١٤ ٠ وفى السودان ، كان التزايد مطردا منذ بداية الاحتلال البريطانى ، وفى الهلال الخصيب فان العملية لا تخرج عن تقديرات وتكهنات ، وسكان سوريا يبدو أنهم تزايدوا بنسبة حوالى ٤٠٪ بين عامى ١٨٦٠ و١٩١٤ من ٥ر٢ الى ٥ر٣ مليون ، ومن ناحية أخرى كان هناك تدفق خارجى كبير من لبنان الى أمريكا الشمالية والجنوبية ، وبحلول عام ١٩١٤ يعتقد أن حوالى ٣٠ ألف لبنانى قد غادروا البلاد ، والزيادة فى العراق كانت على نفس المستوى ، والتقديرات التقريبية تذهب الى أن يكون التعداد الكلى للبلاد العربية بشكل عام تزايد من ١٨ ــ ٢٠ مليونا عن عام ١٨٠٠ الى حوالى ٣٥ ــ ٤٠ مليونا بحلول عام ١٩١٤ ٠

وكان معظم السكان أساسا فى الريف، وقد نمت بعض المدن بشكل سريع ، خاصة الموانى المتخصصة فى التجارة مع أوربا،وهى مدن الساحل الجزائرى وبيروت والاسكندرية (بحلول عام ١٩١٤ كانت ثانية كبرى المدن العربية) وغيرها ، خاصة العواصم الوطنية أو الاقليمية ، التى تنامت تقريبا بنسبة التزايد فى اجمالى السكان ، فالقاهرة على سبيل المثال تضاعفت تقريبا فى الحجم ، وظلت أكبر المدن العربية ولكن تعداد مصر ككل تزايد ، أيضا ظلت درجة التحضر تقريبا كما كانت عليه ولم يكن تدفق المهاجرين من الريف الى المدن قد بدأ بعد ٠٠

وقد كان تزايد السكان يرجع لعدة عوامل : فى مصر ، قد يكون متعلقا بانتشار زراعة القطن ، اذ كان صغار الأطفال يساعدون فى الحقول فى سن مبكرة ؛ ولهذا فقد كان هناك حافز للزواج المبكر وكثرة الانجاب ، وفى معظم البلاد كان نتيجة لهبوط قوة عاملين نتج عنهما نقص فى السكان فيما مضى وهما : الأوبئة والمجاعات ، وكان ذلك بفضل

تحسين اجراءات الحجر الصحى تحت اشراف الأطباء الأوربيين ، وبدعم من الحكومات الأجنبية أمكن القضاء على الوباء فى بلدان البحر المتوسط تقريبا بحلول ١٩١٤ ، كما حدث بالنسبة للكوليرا ، كما أن ارتباط عاملى تزايد الانتاج من الغذاء ، وتحسن الاتصالات جعل بالامكان تعويض نقص المحاصيل المحلية الذى كان يؤدى للمجاعة فى العصور السابقة ٠ وفى بعض البلاد كالجزائر وتونس والسودان،لم ترفع الزيادة تعداد السكان الى مستويات غير مسبوقة بقدر ما عوض النقص الحاد الذى عانت منه من قبـل ، ففى الجزائر أدت الحرب والكوارث والأوبئة والمجاعة الى نقص السكان بشكل ملحوظ فى منتصف القرن التاسع عشر،وفى تونس كان هناك نقص تدريجى على فترات طويلة ، وفى السودان أدت الاضطرابات التى سببتها أحـداث الحركة المهدية وما تلاها من سلسلة من المحاصيل المتدنية ، الى هبوط خطير فى التعداد ابان التسعينات من القرن التاسع عشر ٠

ولم تكن زيادة السكان تعنى بالضرورة ارتفاع مسـتوى المعيشة بالضرورة بل انها قد تعنى العكس ، ورغم ذلك هنـاك سبب يدعو الى الاعتقاد أن المستوى ارتفع فى بعض الأماكن ٠ وكان ذلك صحيحا بالتأكيد فيما يتصل بالطبقة العليا فى المجتمع الحضرى ، أولئك المرتبطين بالحكومات الجـديدة أو بالقطاعات المزدهرة من الاقتصـاد ، فكانت مكاسبهم أعلى وتمتعوا باسكان أفضل ، ورعاية صحية أفضل ، ومجال أكبر من السلع المطروحة فى الأسواق ، وفى الريف أدى الانتاج المتزايد من الغذاء ، وتحسن الاتصالات ، الى تحسين التغذية فى بعض الأماكن على الأقل ، وليس فى المستعمرات الأوربية حيث فقد الفلاحون أفضل الأراضى ، ولكن فى مصر وبعض الأجزاء من سوريا ، حيث كان هناك توازن بين الانتاج وزيادة السكان (رغم أن تحسن الصحة العـامة فى مصر نتيجة تحسن التغذية وازنه من ناحية أخرى انتشار مرض البلهارسيا التى تحملها المياه وتنتشر مع توسع الرى) ٠

وقد كانت امكانات التحسن فى حياة الفلاحين محدودة ، حتى فى أفضل الظروف ليس فقط بحكم التزايد المستمر في السكان، ولكن بتحول

ميزان القوى الاجتماعية لصالح أولئك الذين تملكوا الأراضى أو سيطروا عليها ، فقد كانت قوة القانون والحكومة تدعم دعاواهم ، وكان بامكانهم الحصول على المال الذى لا يمكن الانتاج بدونه أو طرح المنتج فى الأسواق، وفى أغلب الأحيان لم يكن لزاما عليهم أن يعملوا فى اطار الروابط الأخلاقية بينهم وبين من كانوا يعملون لديهم ، فلم يكن للمستعمرين أو المرابين فى الحضر أو لشيوخ القبائل الذين تحولوا الى ملاك أراض ، نفس الروابط مع أولئك العاملين لديهم مثل ما كان لأسلافهم ، وفى مثل هذه الظروف لم يستطع الفلاحون أن يحصلوا من ناتج الريف سوى الحد الأدنى الذى يقيم أودهم بالكاد ، بالاضافة الى أنهم فقدوا حماية الأقوياء فى أوقات الشدة والقهر ٠

المجتمع المزدوج

بحلول عام ١٩١٤ ، ظهر فى البلاد العربية التابعة للامبراطورية العثمانية والمغرب بدرجات متفاوتة شرائح طبقية جديدة ، وهى الجماعات المالية والتجارية الأوربية ، وفى بعض الأماكن ظهرت مجتمعات المستوطنين التى تحميها وتميزها قوى حكوماتها ، وشرائح التجار المحليين وملاك الأراضى كانت مصالحها مرهونة الى حد ما بمصالح الجماعات الأجنبية ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان متعارضة معها ، وسكان الريف المتزايدين وفقراء سكان المدن الذين لم يكن لهم سوى علاقة محدودة بالسلطة ، وكانوا مستبعدين من مزايا التغييرات الادارية والقانونية والاقتصادية ٠

وقد تجلت العلاقات المتغيرة للقوى الاجتماعية فى التغييرات التى بدأت تحدث فى حياة المدن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠ وانتقل النشاط الاقتصادى والقوة من المدن الكبرى فى الداخل الى الموانى البحرية ، وبشكل خاص على سواحل المتوسط ، وقد أصبحت مواقع لتجارة الترانزيت كما أنها أصبحت المراكز الرئيسية للتجارة والمال ، حيث يتم تجميع البضائع من المناطق الداخلية وتوزع منها الواردات ،

وكانت أيضا مراكز للتصدير والاستيراد ، وحيث كان الانتاج الزراعى ينظم ويمول ، وقد كانت بعض الموانى مدنا قديمة اتخذت حجما وأهمية جديدة فحلت بيروت محل صيدا وعكا كميناء رئيسى لجنوب سوريا ، وحلت الاسكندرية محل دمياط ورشيد فى تجارة مصر البحرية مع تزايد التجارة مع أوروبا ، وقد تدنت التجارة مع الأناضول والساحل السورى ، فأصبحت البصرة هى الموقع الرئيسى لتصدير القمح والتمور بالعراق ، وأصبحت جدة الميناء الرئيسى للحجاز وتزايدت أهميتها حيث غزت غرب الجزيرة بالبضائع الخارجية عن طريق البحر بدلا من القوافل من سوريا ، وتونس وموانى الجزائر ، وقد نشأت موان جديدة كانت فعليا مراكز للحركة الدولية مثل بور سعيد فى الطرف الشمالى من قناة السويس ، وعدن كمركز لتزويد البواخر التجارية بالفحم على الطريق من أوربا عن طريق القناة الى الهند ، والدار البيضاء على ساحل الأطلنطى فى مراكش .

وقد كانت المدن والموانىء تمتلىء بالمخازن والمصارف ومكاتب شركات الشحن المشيدة على الطراز المعمارى لمثيلاتها فى جنوب أوروبا ، وكانت بها أحياء سكنية بفيلات تحوطها الحدائق ، وكان تخطيطها يشمل الحدائق العامة والميادين والفنادق والمطاعم والمقاهى والمحال والمسارح ، وكانت الشوارع الرئيسية متسعة وعريضة بما يسمح بمرور الترام والعربات التى تجرها الخيل ، وبحلول عام ١٩١٤ ، بدأت ترتادها أول سيارات . ومدن الداخل أيضا تغير مظهرها بنفس الطريقة ، فى البداية ، بذلت المحاولات لادخال طرق ومبان جديدة الى قلب هذه المدن القديمة ، وشق طريق عريض خلال القاهرة حتى سفح القلعة ، وأصلحت الأسواق وتوسعت فى دمشق ، وأنشئت سوق الحميدية ، وسوق مدحت باشا ، وعلى المدى الطويل تنامت الأحياء الجديدة خارج أسوار المدن القديمة (اذ كانت ما زالت موجودة) على الأراضى التى لا يعوق استخدامها المبانى القديمة أو مشاكل الملكية والتى يمكن تطويرها طبقا لخطة ، فتوسعت دمشق الجديدة شرقا على مرتفعات جبل قاسيون ، والقاهرة الجديدة أولا الى شمال المدينة القديمة وبعدئذ الى الغرب على الأراضى الممتدة الى النيل ،

والتى كانت مستنقعات جففت فى تلك الآونة وأصبحت مناسبة للبناء ، وتونس الجديدة توسعت جزئيا على الأرض المردومة من البحيرة الواقعة الى الغرب منها ، والخرطوم التى كانت عاصمة السودان تحت حكم المصريين ثم عاصمة للحكم المشترك كانت انشاء جديدا بشوارع متماثلة ، قرب نقطة التقاء النيل الأبيض والأزرق ، وفى نهاية تلك الفترة حدثت تغيرات مشابهة فى المغرب ، فقد امتدت الرباط عاصمة المحمية ومقر الاقامة الرئيسى للسلطان نحو الساحل ، وصممت مدينة الجديدة خارج أسوار المدينة القديمة متفادية اى تداخل مع المدينة القديمة ٠

وقد امتصت المدن الجديدة الحياة تدريجيا من المدن القديمة ، واقيمت فيها مكاتب الشركات والمصارف ، وتزايدت القصور والمكاتب الحكومية ، ففى القاهرة بنيت الوزارات الجديدة فى الضواحى الغربية ، وفيها كانت مقار القناصل من الأجانب ، وانتقل الخديو من القلعة الى قصر جديد بنى على الطراز الأوربى ، وسيطر الجيش البريطانى على القاهرة من ثكنات قصر النيل على ضفاف النيل ٠

وقد كان الأجانب يشكلون جزءا كبيرا من سكان المدن والأحياء الجديدة ، مسئولون وقناصل وتجار ومصرفيون ومهنيون ٠ والجزائر ووهران أكبر مدن الجزائر كانت فيهما أغلبيات أوربية ، ففى القاهرة كان ١٦ ٪ من السكان من الأجانب ، وفى الاسكندرية ٢٥ ٪ ، عاشوا حياة منفصلة منعزلة متميزة ، لهم مدارسهم وكنائسهم ومستشفياتهم وأماكن اللهو الخاصة بهم ، ويفصل فى قضاياهم مستشارون أوربيون أو محاكم مختلطة ، ومصالحهم الاقتصادية يحميها القناصل الذين تحميهم حكوماتهم ٠ وقد جذبت السلطة وطرائق الحياة الجديدة الى المدن أيضا التجار المحليين وغالبيتهم من المسيحيين واليهود المشتغلين بالتجارة الدولية ، وبعضهم يتمتع بالحماية الأجنبية واستوعبتهم المجتمعات الأجنبية تماما ، وفى عام ١٩١٤ ، بدأت العائلات الاسلامية من مسئولى الحكومة أو ملاك الأراضى فى ترك بيوت أسلافهم فى المدن القديمة طلبا لرفاهية العيش فى الأحياء الجديدة ٠

وقد ظهر نوع جديد من الحياة في المدن الجديدة كان انعكاسا للحياة في أوربا ، فالرجال والنساء يرتدون ملابس مختلفة ، وقد كان أحد سمات التحديث المهمة للاصلاحات في عصر محمود الثاني هو التغيير في اللباس الرسمي ، فقد تخلى السلطان ومسئولوه عن الأردية الفضفاضة والعمامات الواسعة التي كان يرتديها أسلافهم ، وأحلوا محلها الردنجوت الأوربي وغطاء جديدا للرأس هو الطربوش الأحمر ذو الزر الأسود ، كما ارتدى جنود الجيوش الجديدة العثمانية والمصرية والتونسية أزياء على الطراز الأوربي ، وقد أدى السفر وارتياد الأحياء الأجنبية والمدارس الحديثة بالتجار والمهنيين وعائلاتهم الى الاعتياد على الملابس الجديدة وارتداها المسيحيون واليهود قبل المسلمين ، وبنهاية القرن كانت بعض زوجاتهم وبناتهم أيضا يرتدين ثيابا على الطراز الايطالي أو الفرنسي ، تعلمنها من الدوريات المصورة ، وحتى عام ١٩١٤ كان نادرا ما تخرج النساء المسلمات بدون نوع من الغطاء على الرأس ان لم يكن على الوجه .

وقد كانت المساكن أيضا تعبيرا مرئيا عن التغير في طرائق المعيشة، فكانت مباني الأحياء الجديدة سواء أكانت سكنية أم للأعمال ، يصممها في الغالب معماريون ايطاليون أو فرنسيون أو تبنى على طرز ايطالية أو فرنسية بالحجارة ، وتزخرف بالمصيص والحديد المشغول ، واتخذت المباني العامة واجهات مهيبة من الخارج وبعضها كان معبرا عن رؤى جديدة في المجتمع، ففي القاهرة بنيت دار الأوبرا والمتحف والمكتبة الخديوية ، كما كانت المباني أيضا انعكاسا لرؤية مختلفة للحياة العائلية ، فكان من الصعب التوفيق بين فصل غرف المعيشة في الطابق الأرضي وغرف النوم في الطابق العلوي، وبين الفصل القديم الصارم بين الصالونات حيث يستقبل رجال العائلة الزوار ، والحريم حيث تجري حياة العائلة ، وقد أدت التغيرات في الحياة الاقتصادية والعادات الاجتماعية،بالاضافة الى الاجراءات العثمانية والمصرية والانجليزية ضد تجارة العبيد ، الى انتهاء العبودية.وفي عام ١٩١٤ ، اختفى الخصيان السود حراس عفاف الحريم من بعض القصور ، وكانت الكراسي والمناضد المصنوعة تقليدا للأثاث الفرنسي في القرن الثامن عشر ، تعني ضمنا طريقة مختلفة في استقبال الضيوف وتناول الطعام معهم ، وكانت

المنازل محوطـة بالحدائق وليست مبنية حول أفنيـة داخلية ، وكانت نوافذها تطل على الخارج الى الطرقات ، وكان بالامكان النظر الى الخارج وللآخرين النظر الى الداخل،وفى الشوارع الأكثر اتساعا أو على مشارف المدينة كانت النساء من العائلات الكبيرة يتنزهن فى عربات تجرها الخيول، وفى عام ١٩١٤ كان بامكان السيدات الأرستقراطيات من القاهرة حضور عروض الفرق المسرحية المتجولة،التى تعرض الدراما الكلاسيكية الفرنسية أو الأوبرا الايطالية وهن ـ أى المشاهدات ـ مختفيات خلف ستائر فى مقصورات دار الأوبرا .

الفصل الثامن عشر

ثقافة الامبريالية والاصلاح

ثقافة الامبريالية

واجه العرب والأوربيون بعضهم بعضا بطريقة جديدة في المدن الجديدة،وخاصة في البلاد تحت الاحتلال الأوربي،وتغيرت نظرة كل منهما للآخر ، وفي القرن الثامن عشر تزايد فضول العقل الأوربي تحت تأثير السفر والتجارة ليشمل كل العالم ، وفي القرن التاسع عشر تعمق هذا الفضول ، وكان هناك المزيد مما يغذيه ، فقد جلبت التجارة والحروب أعدادا متزايدة من الأوربيين والأمريكيين الى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وبدأت السياحة المنتظمة في منتصف القرن مع الحج للأراضي المقدسة (القدس وما حولها) والرحلات في النيل ٠

وقد تجلى الفضول العالمي في نوع جديد من الدراسة،الذي حاول تفهم طبيعة المجتمعات وتاريخها في آسيا ؛ بدراسة ما تركوه في آثارهم من السجلات المكتوبة أو منتجات الحرف ، وتعود الترجمة الأولى للقرآن (الكريم) الى ما قبل ذلك بكثير منذ القرن الثاني عشر ، ولكن هذا المجهود المبكر خلف القليل من الأثر ، وقد بدأت المحاولة المنظمة لتفهم النصوص الأساسية للمعتقد الاسلامي وتاريخ المسلمين في القرن السابع عشر بانشاء كرسي للغة العربية في كل من جامعات باريس وليدن وأكسفورد وكامبريدج ، وجمع المخطوطات في المكتبات الكبرى،ومحققاتها الدقيقة الأولى ، وترجماتها ٠ وفي الوقت الذي كتب فيه ادوارد جيبون « انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية » (١٧٧٦ ــ ١٧٨٨) ، كان لديه كم كبير من المصادر والأعمال المعروفة ليفيد منه ٠

الا أن الدراسة المنظمة لأوجه الثقافة العربية والاسلامية وانشاء المعاهد التى يمكن من خلالها تداول النتائج من جيل لآخر بدأت فى وقت لاحق ، فقد أنشأ سير ويليام جونز (١٧٤٦ ـ ١٧٩٤) الجمعية الآسيوية لدراسة التراث الاسلامي والهندوسي في الهند في المنطقة البريطانية الجديدة فى البنغال ، وهى الأولى من بين عدد كبير من مثل هذه الجمعيات العلمية ، وفى باريس كان العالم الفرنسى سيلفستر دى ساسى (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨) بداية سلسلة من المعلمين والباحثين ، امتدت الى أجيال أخرى وبلدان أخرى ٠

ولعب الدارسون الألمان فى ألمانيا وامبراطورية هابسبورج دورا خطيرا فى نمو هذه التقاليد ، فكانوا ينظرون الى الدين والتراث الاسلامى بعقول شكلتها النظريات الثقافية العظيمة لعصرهم : التاريخ الثقافى ، ودراسة استمرارية التطور الانسانى من عصر الى عصر ومن شعب لآخر، وعلم اللغة المقارن الذى حاول تتبع التاريخ الطبيعى والعلاقات العائلية للغات والثقافات والشخصيات التي تعبر عنها ، وتطبيق الطرائق النقدية على النصوص المقدسة لاكتشاف التطور المبكر للتراث الدينى ، وتسجيل وتفسير الحياة والعادات والمعتقدات لشعوب آسيا وأفريقيا ، التى أصبحت فى مجال أسفار وحكم الأوربيين ، وقد أنعش كل ذلك علم الأنثروبولوجيا ، وبنهاية القرن ، ظهر نوع آخر من العلم ليلقى الضوء على دراسة النصوص : فظهر علم الآثار بهدف السعى لاكتشاف المستوطنات البشرية وتفسيرها ، وهكذا بزغت معرفة تاريخ البلاد العربية ، خاصة مصر والعراق فيما قبل ظهور الاسلام ٠

وقد أنتج الخيال الرومانسى ، واحترام الماضى البعيد والقريب ، والانكباب على المعرفة (أو ما يشبه المعرفة) المستمدة من الأسفار والدراسة ، رؤية عن الشرق ، جعلته غامضا ومشوقا ، ومهدا للعجائب والأساطير التى أخصبت الفنون ، وأصبحت ترجمة « ليالى عربية » ألف ليلة وليلة جزءا من التراث الغربى ، وشكلت الصور منها ، ومن الكتب الأخرى أفكارا فرعية فى الآداب الأوربية ، وكتب جوته أشعارا عن الأفكار

الاسلامية ، وجعل سير والتر سكوت من صلاح الدين تجسيدا لفروسية القرون الوسطى فى كتابه «التعويذة» The Talisman ، وكان التأثير على الفنون المرئية أعظم من ذلك ، فقد ظهرت المؤثرات الاسلامية فى تجميل وتزيين بعض المبانى ومارس كبار الرسامين طرازا شرقيا فى التصوير ، ومنهم : انجر Ingres ، وديلاكروا Delacroix وبعض صغار الرسامين، وتكررت صور معينة فى أعمالهم : الفارس العربى كبطل متوحش ، واغراء الجميلات فى الحريم ، وروعة الأسواق ، والحياة التى تثير الاشفاق بين أطلال روعة الماضى •

وقد اشتبكت فكرة أخرى مع الرغبة فى المعرفة ، والانبعاث الخيالى للانجذاب الغامض • فالهزيمة تتعمق داخل الروح البشرية أكثر من الانتصار • فأن يكون المرء واقعا تحت سيطرة شخص آخر ، فانه يخوض تجربة واعية تثير الشكوك حول نظام الكون ، ويتناسى الطرف القوى — أو يفترض — جزءا من النظام الطبيعى للأمور ، ويخترع أو يتبنى أفكارا تبرر سيطرته ، وقد برزت عدة أنواع من التبرير فى أوربا القرن التاسع عشر ، وخاصة فى بريطانيا وفرنسا ، حيث كانتا الدولتين الأساسيتين المهيمنتين على الحكم فى الدولة العربية ، وكان بعض تلك التبريرات تعبيرا فى صورة علمانية عن موقف المسيحيين الغربيين من الاسلام والمسلمين ، منذ أن واجهتهم القوة الاسلامية فى البداية ، فالاسلام بالنسبة لهم يعتبر خطرا معنويا وعسكريا يجب مقاومته • وحين ترجمت هذه العقيدة الى مصطلحات علمانية ، وفر ذلك تبريرا لحكمهم وتحذيرا منهم • ولقد كان الخوف ماثلا فى أذهان الحكام البريطانيين والفرنسيين من « ثورة الاسلام » كحركة فجائية بين الشعوب المجهولة التى يحكمونها ، كما كانت ذكريات الحروب الصليبية تستخدم — من قبل الأوربيين — لتبرير التوسع •

وقد اقتطفت أفكار أخرى من الجو الثقافى لتلك الفترة ، نضجت فى منظور هيجل لفلسفة التاريخ ، وهى أن العرب ينتمون الى لحظة سابقة فى تطور الروح الانسانية ، وأتموا مهمتهم فى الحفاظ على الفكر اليونانى ، وسلمت شعلة المدنية للآخرين ، وكما هو ملاحظ فى علم اللغة

المقارن،فان أولئك الذين عاشوا فى أوساط اللغات السامية كانوا يعتبرون غير قادرين على العقلانية ، والثقافة المدنية الرفيعة التى كانت وقفا على الآريين • كما يمكن استخدام تفسير معين لدارون عن التطور لتدعيم الادعاءات بأن أولئك الذين استطاعوا الصمود فى معركة البقاء هم الأصلح، ولذلك فمن حقهم أن يحكموا ، ومن ناحية أخرى يمكن النظر للقوة على أنها تجلب معها الأعباء وعبارة « عبء الرجل الأبيض » عبرت عن مثالية ألهمت بشكل أو آخر المسئولين والأطباء والمبعوثين ، وحتى أولئك الذين يقرءون عن بعد عن آسيا وأفريقيا ، بالاحساس بالمسئولية العالمية التى تبلورت فى العون الذى يقدم لضحايا الكوارث ، والمال الذى جمع فى أوربا وأمريكا لضحايا الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٨٦٠ والذى وزعته القناصل ، كان المثل الأول للعمل العالمى المنظم الخير •

وقد قدر لفكرة الهوية الانسانية والمساواة بعيدا عن الاختلافات أن تبزغ فى بعض الأحيان ، ففى بداية القرن التاسع عشر أعلن « جوته » Goethe : « ان الشرق والغرب لايمكن أن ينفصلا مرة أخرى » (١)، ولكن فى النهاية سيطر صوت كبلنج Kipling الذى أكد أن « الشرق شرق والغرب غرب » (٢) ، (رغم أنه ربما لم يقصد تحديدا ما فهمه البعض من كلماته) •

ظهور طبقة المثقفين

ولم تكن مثل هذه المناقشات لتجرى دون أن يكون لها صدى • ففى أواخر القرن التاسع عشر ، كان الوعى بقوة أوربا ، الذى كان موجودا بالفعل لدى الصفوة العثمانية الحاكمة قد أصبح وعيا واسع الانتشار ، ونمت طبقة متعلمة جديدة ، تنظر لنفسها والعالم من حولها بعيون فتحها أساتذة الغرب ، وتنقل ما رأته بطرائق جديدة •

وبخلاف استثناءات معدودة، تشكلت هذه الطبقة فى مدارس من نوع جديد ، كان أكثرها تأثيرا تلك التى أسستها حكومات الاصلاح لخدمة

أغراضها الخاصة ، فى البداية كانت تلك المدارس متخصصة فى تدريب المسئولين والضباط والأطباء والمهندسين فى اسطنبول والقاهرة وتونس وبنهاية القرن تنامى النظـام الادارى ، وكانت هناك مدارس ابتدائية وثانوية فى عواصم المدن العثمانية ، وتحسن وسائل المواصلات جعـل بامكان التلاميذ الانتقال منها الى الكليات العليا فى اسطنبول ، ومنها يجتذبون للعمل الحكومى ، وأسست فى اسطنبول جامعـة ، وفى مصر حدثت بعض التطورات المهمـة خـارج الجهاز الحكومى ، فقد أنشئت بالقـاهرة مدرسة فرنسـية للقـانون لتدريب المحامين للعمل فى المحاكم المختلطة ، وأسست الجامعة بمبادرات أهلية ، وفى السودان نشأت كلية حكومية هى « كليـة جوردون » ، التى كانت تؤهـل الصغار للوظائف الصغرى التى تحتاجها الادارة الحكومية ، وفى تونس بالمثل كان التشجيع الحكومى محدودا ، وكانت هناك بعض المدارس الابتدائية التى تستخدم فيها اللغتان (الفرنسية والعربية) وبعض المدارس العليـا للمعلمين ، ومدرسة (الصديقية) وهى مدرسة ثانوية أنشئت على نمط الليسيه أصلحها وسيطر عليها الفرنسيون ، وفى الجزائر توسعت المدارس الابتدائيـة تدريجيا بدءا من التسعينات من القرن التاسع عشر ، ولكن ببطء وعلى مستوى منخفض وضد رغبة المستعمرين،الذين لم يكونوا راغبين فى تعليم الجزائريين المسلمين الفرنسية وما تعبر عنها من أفكار ، وأقيمت ثلاث مدارس تدرس المواد الحديثة والتقليدية على المستوى الثانوى ، وقليل من الجزائريين كان يسمح لهم بدخول المدارس الثـانوية الفرنسـية ، أو مدارس القانون والطب والآداب فى جامعة الجزائر ، حيث كان القلة قـادرين على الوصول للمستوى المطلوب وجزئيـا لأن الجزائريين كانوا مترددين فى ارسال أبنائهم للمدارس الفرنسية ٠

والى جانب المدارس الحكومية كان هناك عدد قليـل من المدارس أقامته الأجهزة الأهلية ٠ وعدد أكبر منها دعمته الارساليات الأمريكيـة والأوربيـة ، وفى لبنان وسوريا ومصر كان لبعض المجتمعات المسيحية مدارسهم الخاصة ، خاصة الموارنة بتراثهم الطويل فى التعليم العالى ، وبعض المدارس الحديثة أنشأتها المؤسسات التطوعية الاسلامية أيضا ،

وتوسعت مدارس الارساليات الكاثوليكية بالدعم المالى من الحكومة الفرنسية وحمايتها ، وفى عام ١٨٧٥ أسس اليسوعيون جامعتهم « سان جوزيف » فى بيروت وألحقت بها كلية فرنسية للطب فى ١٨٨٣ ٠

كما أدت مبادرة فرنسية الى انشاء « المنظمة الاسرائيلية » ، التى أسست المدارس للجماعات اليهودية من المغرب حتى العراق ، ومنذ بداية القرن كان عمل الارساليات الكاثوليكية منسجما من جهة ومتعارضا من جهة أخرى مع الارساليات البروتستانتية التى كان معظمها أمريكيا ، وقد أنشأت مجتمعا بروتستانتيا صغيرا ، ولكنها وفرت التعليم للمسيحيين الآخرين ولبعض المسلمين أيضا فيما بعد ، وقد كانت الكلية البروتستانتية السورية فى بيروت ، التى تأسست فى ١٨٦٦ هى قمة نظامهم التعليمى ، وأصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وهناك أيضا المدارس الروسية لأتباع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الامبراطورية ٠

وفى كل هذه الأنظمة كانت هناك مدارس للبنات ، لم تصل بعد الى نفس مستوى مدارس الذكور ، ولكنها كانت تعلم القراءة وتخرج الفتيات القادرات على كسب عيشهن فى عدة مهن ، كمعلمات فى المدارس ، أو ممرضات ، وفى النادر كصحفيات أو كاتبات وكان قليل منها مدارس حكومية ، ولكن الأغلب كان مدارس ارساليات ، وكان الآباء المسلمون يفضلون مدارس الراهبات الكاثوليكية ؛ لأنها تعلم بناتهم اللغة الفرنسية وحسن الأخلاق والنضج الأنثوى والحماية ٠

وقد ظهر جيل جديد من معتادات القراءة كان الكثير منهن يقرأن باللغات الأجنبية ، وفى منتصف القرن التاسع عشر حلت الفرنسية محل الايطالية كلغة للتجارة وحياة المدن ، وكانت المعرفة بالانجليزية نادرة فى المغرب وكانت أقل انتشارا من الفرنسية شرقا ، وانتشرت ثنائية اللغة وفى بعض العائلات خاصة فى القاهرة والاسكندرية وبيروت ، حلت الفرنسية أو الانجليزية محل العربية فى الحياة العائلية ، أما بالنسبة لأولئك الذين تعلموا حتى مستوى عال بالعربية،فقد بدأ انتاج نوع جديد

من الأدب ، ولم تكن الطباعة بالعربية موجودة الا نادرا قبل القرن التاسع عشر ، ولكنها انتشرت خلال نفس القرن خاصة فى القـاهرة وبيروت ، اللتين ظلتا المركزين الرئيسيين للنشر ، وقد خرجت المدارس الحكومية فى مصر ومدارس الارساليات فى بيروت جمهورا قارئا كبيرا نسبيا ، وفيما خلا النصوص المدرسية كانت الكتب أقـل أهميـة فى تلك الفترة من الصحف والدوريات ، التى بـدأت تلعب دورا كبيرا فى الستينات والسبعينيات من ذلك القرن ، وكان من بين الدوريات الفكرية التى تفتح النوافذ على الثقافـة والعلم والتكنولوجيا فى الغرب ، مجلتـان أسسهما لبنانيون مسيحيون فى القاهرة : « المقتطف » ليعقوب صروف (١٨٥٢ ــ ١٩٢٧) وفارس نمـر (١٨٥٥ ــ ١٩٥١) ، و «الهلال» لجورجى زيدان (١٨٦١ ــ ١٩١٤) . وكذلك موسوعة نشرت فى أجزاء دورية وضعها بطرس البستانى (١٨١٩ ــ ١٨٨٣) وعائلته ، وكانت هذه الموسوعة تضم المعارف الحديثة وتسجل ما كان معروفا ومفهوما فى بيروت والقاهرة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد كانت موادها من العلوم الحديثة والتكنولوجيا دقيقة وواضحة التعبير ، كمـا أن المقالات عن الأسـاطير والتاريخ اليونانى والأدب تمتد أبعد بكثير مما كان معروفا عن التاريخ القديم فى الثقافة الإسلامية ، وهو عمل كتبة وراجعه أساسـا العرب المسيحيون ، ويتحدث عن المواضـيع الاسلامية بنبرة لا يتخللها التحفظ أو الخوف ، وأول الصحف التى صدرت كانت تلك التى نشرت بدعـم رسمى فى إسطنبول والقاهرة وتونس ، والتى تحوى نصوصا وشروحا للقوانين والمراسيم ، أما صحف الرأى غير الرسمية فقد ظهرت فيما بعد بظهور جيل جديد من القراء رغبوا فى معرفة ماكان يحدث فى العالم ، وقد ساعد ظهور البرق (التلغراف) على تحقيق رغبتهم فى معرفة مجريات الأمور فى العالم ، وكان حجم الجمهور القارىء وتوسع حدود الحريـة الثقافية قد جعلا من القاهرة مركزا للصحافة اليومية ، ومرة أخرى كان أكثر الصحفيين نجاحا من المهاجرين اللبنانيين وهى عائلة « تقلا » التى أسست الأهرام فى عام ١٨٧٥ ، وأصبحت فيما بعد أهم الصحف العربية على الاطلاق .

ولقد كانت الكتب والدوريات والصحف هى القنوات التى أوصلت المعرفة من العالم الجديد فى أوربا وأمريكا الى العرب ، ومعظم ما نشر كان مترجما أو مقتبسا عن الفرنسية أو الانجليزية ، وقد بدأت حركة الترجمة فى عهد محمد على ، الذى كان محتاجا لدلائل عمل لمسئوليه وضباطه وكتبا لمدارسه . وقد كتب بعض أولئك الذين تدربوا فى أوربا وتعلموا الفرنسية أو لغة أخرى أوصافا لما شاهدوه وسمعوه ، وهكذا كتب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، الذى أرسله محمد على فى مهمة تعليمية الى باريس وصفا للمدينة وسكانها :

اعلم أن البارزين يختصون بين كثير من النصارى بذكاء العقل ، ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات ، .. ، وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل انسان على قدر حاله ، .. ، ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور ، وخصوصا فى أمر الملبس ، .. ، ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل الانسان منهم من الفرح الى الحزن وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل وبالعكس ، حتى ان الانسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة ، وهذا كله فى الأمور غير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فأداؤهم فى السياسات لا يتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ، .. ، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، .. ، وأقول هنا انهم ينكرون خوارق العادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا ، وأن الأديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير ، .. ، ومن عقائدهم القبيحة قولهم : ان عقول حكمائهم وطبائعيتهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها (٣) .

وبمرور الوقت ظهر نوع جديد من الأدب ، حاول الأدباء العرب التعبير به عن وعيهم وذاتهم باللغة العربية وموقعهم فى العالم الحديث ،

وقد كانت أحد الاهتمامات الرئيسية للأدب الحديث هى اللغة العربية ذاتها • وقد بدأ أولئك الذين دخلوا فى نطاق اشعاع التعليم والآداب الأوروبية فى النظر الى ماضيهم بشكل مختلف ، وبدأت تطبع فى القاهرة وأوروبا نصوص من الأعمال الكلاسيكية العربية ، وأعيد احياء ضروب وأنواع الأدب العربى القديم ، فكتب الكاتب اللبنانى الأشهر فى عصره «نصيف اليازجى» (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) عملا على نمط المقامات ، وهى سلسلة من القصص والطرائف حول بطل واسع الحيلة مروية فى سجع منغم متقن ، وكان هناك آخرون وطنوا أنفسهم لتطويع اللغة لتعبر عن أفكار وأشكال جديدة من الحساسية الفنية ، وكان من بينهم بطرس البستانى وأولئك الذين تعلموا منه ، واستخدموا نوعا من النثر الوصفى غير بعيد عن القواعد الأساسية للغة العربية ، ولكن بأنماط أكثر بساطة للتعبير وكلمات واصطلاحات جديدة ، كانت اما مطورة من مصادر اللغة العربية، أو مطوعة من الانجليزية أو الفرنسية ، وكان هناك أيضـاء احياء للشعر العربى الملتزم بالوزن والقافيـة ، ولكنه تحول تدريجيـا الى التعبير عن أفكار ومشاعر وأحاسيس جديدة ، ويمكن اعتبار أحمد شوقى (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) ، من أواخر الشعراء الكلاسيكيين وقد استخدم لغة راقية لتخليد المناسبات العـامة أو التعبير عن المشـاعر القومية أو مدح الحكام ، وهو ينتمى للنخبة التركية المصرية التى نشأت حول مقر الحاكم المصرى ، وبين معاصريه : خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) ، الذى كتب شعرا لم تستخدم فيه الأنماط التقليدية واللغة لذاتها ، وانما لاضفاء تعبير محدد عن الحقيقة سواء أكانت فى العالم الخارجى أم فى مشاعر الكاتب ، وحافظ ابراهيم (١٨٧١ ـ ١٩١٢) ، الذى عبر عن الأفكار السياسية والاجتماعية للمصريين فى عصره بلمسـة أكثر عموميـة ، وكان له قبول أوسـع من شوقى ، وبـدأت فى الظهور أنواع جديـدة تماما من الكتابـة : المسرح والقصة القصيرة والرواية ، وأول رواية مهمة كانت (زينب) لمحمد حسين هيكل التى نشرت عام ١٩١٤ ، وعبرت عن نظرة جديدة للريف ، والحياة البشرية المتجذرة فى الطبيعة ، والعلاقة بين الرجال والنساء •

وقد كان الاهتمام الرئيسى الآخر للأدب الجديد متزامنا مع تزايد القوة الاجتماعية والثقافية لأوربا ، والذى كان ينظر اليه لا باعتباره غريما فقط وانما باعتباره تحديا ، وكان من بعض النواحى تحديا جذابا ، ولقد كانت قوة أوربا وعظمتها ، والعلم والتقنية الحديثة ، والمؤسسات السياسية للدول الأوروبية ، هى الموضــوعات المفضلة ، وهــذه الكتابات أظهرت مشكلة أساسية : كيف يمكن للعرب المسلمين والدولة العثمانية الاسلامية أن يكتسبوا القوة لمواجهة أوربا وأن يصبحوا جزءا من العالم الحديث •

وقد كانت المحاولات الأولى الواضحة للاجابة عن مثل هذه التساؤلات، هى التى ظهرت فى كتابات المسئولين القائمين على الاصلاحات فى منتصف القرن فى اسطنبول والقاهرة وتونس ، وبعضها كان مكتوبا بالتركية ، ولكن بعضها كان بالعربية وخاصة أحد أعمال خير الدين (ت ١٨٨٩) ، الذى كان رائد المحاولة الأخيرة لاصلاح الحكومة التونسية قبل الاحتلال الفرنسى ، وقد بين خير الدين فى مقدمة كتابه غرضه ومقصده (٤) (*) •

ومن وجهة نظر هؤلاء الكتاب ، كان على الامبراطورية العثمانية أن تكتسب قوة الدول الحديثة بتغيير القوانين ، وطرائق الادارة ، والتنظيم العسكرى ، وعلاقة السلطان بالرعايا يجب أن تتغير لتصبح كالعلاقة بين الحكومات الحديثة والمواطنين ، والولاء للعائلة يجب أن يتحول الى احساس بالانتماء للدولة ، الدولة العثمانية التى تضم المسلمين وغير المسلمين ، الأتراك وغير الأتراك ، كل ذلك يمكن تحقيقه بدون المساس بالولاء للاسلام أو تقاليد الامبراطورية اذا فهمت بشكل صحيح •

وبمضى الوقت ، وبظهور طبقة جديدة من المتعلمين فى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر ، ظهر انشقاق بين أولئك الذين أيدوا الاصلاح ، فكان هناك انقسام فى الرأى حول أسس السلطة ، وهل يجب أن تكون فى أيدى المسئولين اعتمادا على احساسهم بالعدل ومصالح الامبراطورية ، أم فى أيدى حكومة مفوضة بالانتخاب •

(*) لم يورد الأخ المترجم فقرات الزركلى بنصها لكن المعنى مفهوم من السياق •

وقد ازداد عمق الانشقاق بين الأجيال،فالجيل الثانى فى كل البلدان الثلاثة كان على وعى بالمشكلة الكامنة فى التغييرات التى كانت تحدث ، فاصلاح المؤسسات كان خطرا ما لم يكن متجذرا فى نوع من التضامن المعنوى ، فكيف يكون ذلك ؟ والى أى حـد يمكن أن يكون مستنبطا من تعاليم الاسلام ؟ مثـل هذا السؤال أصبح ملحا عنـدما بدأت المدارس الجديدة فى انتاج جيل غير مؤسس على تعاليم الاسلام التقليدية ، وكان معرضا لرياح المذاهب التى تهب من الغرب ٠

ولم تنبع المشكلة بالطبع من المسيحيين الذين يتكلمون العربية فى لبنان أو سوريا ، والذين لعبوا دورا كبيرا فى الحياة الثقافية لعصرهم ، ولم تكن مدنية الغرب بالنسبة لمعظمهم غريبة تماما ، وكان بامكانهم التحرك تجاهها بدون أى احساس بعدم الصدق مع أنفسهم ٠ الا أنه كان لديهم مشكلة مكافئة لهذه المشكلة ، فقوة الهياكل التنظيمية للكنائس التى تعترف بها وتدعمها الدولة يمكن أن تكون عقبـة لفكرهم ، وعقبـة أمام التعبير عن أنفسهم كما يرغبون ، وقد اتجـه بعضهم تجاه العلمانية أو البروتستانتية ، والتى كانت أقرب ما يمكن للعلمانية فى مجتمع تقاس فيه الهوية بمقياس الانتماء لمجتمع دينى ٠

وكانت مشكلة بالنسبة للمسلمين لابد من مواجهتها ، فقد كان الاسلام فى أعماق أعماقهم ، واذا كانت الحياة فى العالم الحديث تتطلب تغييرا فى طرائق تنظيمهم للمجتمع ، فيجب عليهم القيام بها على أن يظلوا صادقين مع أنفسهم ، وهو يكون ممكنا فقط اذا ما فسر الاسـلام ليكون متوافقا مع البقاء والقوة والتقدم فى العالم ، وكانت تلك نقطة البداية لأولئك الذين يمكن تسميتهم بـ «الاسلاميون المحدثون» وقد كانوا يعتقدون أن الاسلام ليس فقط متفقا مع العقل والتقدم والتضامن الاجتماعى ، وهى أسس المدنية الحديثة ، اذا ما فسرت بشكل صحيح ، وانما هو يتضمنها جميعا بشكل ايجابى ، ومثـل هذه الأفكار طرحها جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ، وهو ايرانى كانت كتاباته غامضة بعض الشىء ، [illegible] تأثيره ونفوذه الشخصى كان ملحوظا وواسعا ٠ [illegible]

الى شكل أكثر اكتمالا ووضوحا فى كتابات محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) المصرى الذى كان لكتاباته تأثيرعظيم ومستمر على اتساع العالم الاسلامى ، وكان الهدف من حياته كما بينه بنفسه :

تحرر الفكر من أغلال التقليد ، وفهم الدين كما كان مفهوما فى الأمة قبل أن يظهر فيها الشقاق ، والعودة فى تحصيل المعرفة الدينية الى مصادرها الأولى ، وأن توزن بميزان العقل الانسانى ، الذى خلقه الله لكى يمنع الغلو فى الدين أو المروق منه ، وبحيث تتحقق حكمة الله ويستقر ناموسه محفوظا فى عالم البشر ، ولكى يثبت أن الدين مصادق للعلم ، ويدفع الانسان الى استجلاء أسرار الوجود ، ويحثه على احترام الحقائق الثابتة ، ويعتمد عليها فى أخلاقه وسلوكه (٥) ٠

ويظهر فى أعماله التمايز بين الأسس العقيدية للاسلام وبين تعاليمه وقوانينه الاجتماعية ٠ وقد انتقلت الأسس العقيدية للاسلام من السلف الصالح حتى وصلت للجيل الحالى ، ومن هنا كان التمسك بهذه الأسس والسير على هداها والتزام خطها فى التفكير يسمى بالسلفية وهى تعتمد ببساطة على الايمان بالله ، وبالوحى الذى نزل على مجموعة من الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ ، والمسئولية الأخلاقية والقانونية اللتين يمكن الدفاع عنهما بالعقل ، والقانون والأخلاقيات الاجتماعية من ناحية أخرى هى تطبيقات لظروف محدودة خاصة لمبادىء عامة معينة يحتويها القرآن ويقبلها العقل الانسانى ، وعندما تتغير الظروف يجب أن تتغير هى أيضا ، ومهمة المفكرين الاسلاميين فى العالم الحديث اخضاع القوانين المتغيرة والعادات للمبادىء الثابتة وبذلك يحددون حدودها وتوجهاتها ٠

ومثل هذه النظرة للاسلام أصبحت جزءا من محتويات العقل لكثير من العرب المسلمين المتعلمين ، وأيضا للمسلمين خارج العالم العربى ، ويمكن تطويرها على أكثر من مسار ، وقد كان أهم أتباع تلاميذ الامام محمد عبده ، السورى رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) وقد حاول فى

دوريته «المنار» ، أن يظل أمينا لكلا الوجهين من تعاليم أستاذه ، وقد اقترب في دفاعه عن المذاهب الثابتة للاسلام ضد كل الهجمات ، من التفسير الحنبلي لها ، وفيما بعد للوهابية في سلسلة من الفتاوى ، وحاول اخضاع القوانين لتناسب العالم الحديث في اطار من الشريعة المعدلة .

ظهور الوطنية

وقد كان الامام محمد عبده ورشيد رضا ـ وكلاهما من العلماء الذين تلقوا تعليما تقليديا ـ مهتمين بتبرير التغيير ووضع الضوابط عليه ، ولكن عند أولئك الذين تعلموا في المدارس الحديثة كانت جاذبية وجهة نظر الامام محمد عبده للاسلام تكمن في أنها حررتهم لقبول أفكار الغرب الحديثة بلا أدنى احساس بالتخلي عن ماضيهم ، وقد بدأت جماعة من الكتاب ـ أعلن بعضهم الانضمام اليه ـ في طرح أفكار جديدة حول الطريقة التي يمكن بها تنظيم الدولة والمجتمع ، كانت فكرة الوطنية قد أصبحت صريحة بين الأتراك والعرب والمصريين والتونسيين في ذلك الجيل. وكان هناك أمر أقدم وأقوى ، هو الرغبة في قيام مجتمعات مستقرة تمارس حياتها بدون تدخل ، ولكن تفاصيل الأفكار التي تؤدي الى قيام الحركات السياسية لم تصبح مهمة الا في العقدين الأخيرين قبل الحرب العالمية الأولى .

وقد نشأت الحركات الوطنية المختلفة كرد فعل للتحديات المختلفة ، فالوطنية التركية كانت رد فعل للضغط المستمر المتزايد من أوربا ، وأيضا لانهيار فكرة القومية العثمانية ، وقد أدى انفصال الشعوب المسيحية عن الامبراطورية شعبا بعد آخر ، الى أن اكتسبت الوطنية العثمانية المزيد من الصبغة الاسلامية ، ولكن في حكم عبد الحميد ، انهار التحالف بين العرش والنخبة التركية الحاكمة ، وظهرت فكرة الوطنية التركية والفكرة قائمة على أنه بامكان الامبراطورية أن تبقى فقط على أسس من التضامن بين أمة توحدها لغة مشتركة .

وحيث ان الامبراطورية العثمانية في تلك المرحلة قد أصبحت دولة تركية غربية ، فان أية محاولة لتاكيد أهمية العنصر التركي كانت خليقة بأن

تخل بالتوازن بينهم وبين العرب ، وكرد فعل ، أصبحت القومية العربية واضحة ، وفى المرحلة الأولى كانت حركة عاطفية بين بعض المسلمين المتعلمين فى سوريا تركزوا فى دمشق ، وبعض الكتاب المسيحيين من لبنان وسوريا ، وكانت جذوزها تكمن فى احياء الوعى بالماضى العربى فى المدارس الحديثة ، وتركيز المصلحين المسلمين على الفترة الاسلامية المبكرة للتاريخ الاسلامى ، والفترة التى ساد فيها العرب ، ولم تصبح قوة سياسية مهمة الا بعد ثورة ١٩٠٨ ، التى أضعفت من وضع السلطان الذى كان بمثابة البؤرة التقليدية للولاء ، وأدت فى النهاية الى استيلاء « تركيا الفتاة » على السلطة ، ولأن سياستهم تبلورت فى تعزيز السلطة المركزية ، والتركيز على الوحدة الوطنية للامبراطورية ، فقد مالت ضمنا فى اتجاه الوطنية التركية ، وبدأ بعض المسئولين والضباط العرب ـ وغالبيتهم من السوريين من دمشق والذين كانوا معارضين لهذه المجموعة لأسباب مختلفة ـ فى المطالبة بوضع أفضل للأقاليم العربية داخل الامبراطورية ، وبلا مركزية تصل الى حد الحكم الذاتى ، وفى المنطقة الناطقة بالعربية ، بدأ بعض المسيحيين اللبنانيين يأملون فى المزيد من الحكم الذاتى اللبنانى تحت حماية احدى القوى الأوربية .

ولم تكن الوطنية التركية أو العربية فى هذه المرحلة موجهة لمعارضة القوى الأوربية ، بمقدار ما كانت موجهة تجاه مشاكل الهوية والتنظيم السياسى للامبراطورية العثمانية ، فما الشروط التى كان يمكن للمجتمع العثمانى المسلم أن يستمر قائما فى ظلها ؟ من حيث المبدأ كانت تمتد لما هو أكبر من الامبراطورية ، لكل أولئك الذين يتحدثون العربية أو التركية ، وقد كانت وطنية المصريين والتونسيين والجزائريين مختلفة طرائقها ، فالثلاثة كانت تواجههم مشاكل محددة مع الحكم الأوربى ، والثلاثة كانوا منشغلين بهذه المشاكل داخل البلاد المحددة بوضوح ، ومصر وتونس كانتا عمليا كيانات سياسية منفصلة لمدة طويلة ، فى البداية تحت حكم الأسر ، وبعدها تحت الحكم البريطانى أو الفرنسى ، والجزائر أيضا كانت منطقة عثمانية منفصلة ، ثم أصبحت فى ذلك الوقت اقليما منضما الى فرنسا فعليا .

وهكذا عندما ظهرت الوطنية المصرية ، فانها قامت للحد من الاحتلال البريطاني أو انهائه ، وكانت مصرية بالتحديد أكثر منها عربية أو اسلامية أو عثمانية المحتوى، وقد احتوت مقاومة الاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ على عنصر وطني ، ولكنه يكتسب تعبيرا واضحا ولم يصبح قوة سياسية فاعلة الا في السنوات الأولى من القرن الجديد ، وأصبح أيضا بؤرة للأفكار الأخرى حول الطريقة التي يمكن بها تنظيم المجتمع ، ولم تكن قوة متوحدة فكان هنـاك انقسام بين أولئـك الذين طالبوا بالانسحاب البريطـاني ، وأولئك الذين اعتقدوا ، تحت تأثير أفكار الحداثة الاسلامية ، أن الاحتياج للتطور الاجتماعي والثقافي له الأولويـة وأن مصر يمكن أن تفيـد بهذه الطريقة من الوجود البريطاني ، وبالمثل في تونس ، كانت النبرة عالية في التعبير عن المشاعر الوطنية في مقاومة الغزو الفرنسي في عام ١٨٨١ ، ولكن الجماعة الوطنية المتميزة بوضوح « الشباب التونسي » وهي عدد صغير من الرجال ذوي التعليم الفرنسي ، ظهروا حوالي عام ١٩٠٧ ، وهنا أيضا لم يكن الشعور السائد متعاطفـا مع الانسحاب الفرنسي الفوري ، بل بالتغيير في السياسة الفرنسية ، بما يعطي الفرنسيين فرصة أكبر في التعليم الفرنسي وفرصا أكبر في الخدمة الحكومية والزراعـة ، وكانت تلك سياسة عارضها المستعمرون ، في الجزائر أيضا • وعلى سطح المقاومة المستمرة العميقة للاستعمار الفرنسي ، التي تجلت في أشكال تقليدية ظهرت حركة صغيرة هي « شباب الجزائر » لها نفس أفكار « التحديثيين » ونفس المطالب على التعليم الفرنسي والاصلاحات المالية والتشريعية وحريات سياسية أكبر داخل الاطار الموجود ، أما في مراكش ، فكانت المعارضة للحماية الفرنسية واسعة الانتشار في المدن والريف وكان زعماؤها من بين علماء المدن ورموزها في الطرائق التقليدية للفكر الاسلامي •

استمرارية التراث الاسلامي

لقـد كانت أفـكار « العثمانيـة » و « الاصـلاحات الاسلاميـة » و « الوطنية » ، تنتمي الى القلة الحضرية المتعلمة ، معبرة عن علاقة جديدة بالدولة والعـالم الخـارجي بمصطلحات مفـاهيم جـديدة ، وبخلاف هذه

الأقلية ، كانت هناك بعض الارهاصات من الفكر والمشاعر التى يمكن أن تتضـح فى جيل لاحق فى شـكل وطنى وتعطى الحركات الوطنيـة قوة جديدة ، ولكن كان الاسـلام فى تصوره التقليـدى هو الذى يغلب على الدوافع التى تحث الناس على الحركة ، كما غلب على الرموز التى عبرت عن معنى تلك الحركات ، وما كان يطلق عليه « تقاليد » لم يكن ثابتا ، ولكن كان يأخذ مساره الخاص وايقاعه الخاص ٠

وقد فقد النظام القديم للمدارس بعضا من وضعه فى المجتمع ، ولم تعد الدراسة فيه تؤدى الى المناصب العليا فى الخدمة الحكومية ، ومع ادخال نظم جديدة للادارة ، أصبح هناك احتياجات لنوع جديد من الخبرات، والمعرفة باحدى اللغات الأوربية أصبح لا يمكن الاستغناء عنه ، وخريجوها لم يعودوا متحكمين فى النظامين القضائى والتشريعى ، وقد وجدت أعراف جنائية وتجارية جـديدة على النمط الغربى ، حـدت من المجال الفعال للشريعة ، كما أن القانون المدنى للامبراطورية العثمانية الذى تعتمد أسسه على الشريعة أيضا أعيدت صياغته ، ومع القوانين الجديدة ظهرت محاكم جديدة : محاكم قنصلية أو مختلطة للفصل فى النزاعات بين الأجانب ، وفى الجزائر ، ظهرت محاكم فرنسية لمعظم الحالات التى شملت الرعايا المحليين ، أما محاكم الشريعة فقد اقتصرت على الأحـوال الشخصية ، واحتاج الأمر لقضاة ومحامين من نوع جديد ، ودربوا أيضـا بطريقة جديدة ، وبذلت فى مصر والجزائر محاولة لتعليم الطلبة الذين تعلموا تعليما جديدا فى الموضوعات الحديثة ، ونشأت « المدارس » فى الجزائر ودار العلوم فى مصر ، الا أن أبناء العائلات البارزة الثرية كانوا يتعلمون فى مدارس من النوع الجديد ٠

ومع هذا ، استمرت المدارس القديمة وكذلك عمل الدارسون فى علوم الدين والفقه فى اطار التراث التراكمى للتعليم الاسلامى ، الا أن الطلبة النابهين كانوا قد جنحوا فى اظهار التمرد وعدم الرضا عن نوع التعليم الذى يتلقونه فيها ، ـ وكما كتب أحدهم كانت حياة الطالب تجرى على هذا النمط :

حياة مطردة متشابهة لا يجد فيها جديدا منذ يبدأ العام الدراسى الى أن ينتهى ··· وهو فى كل هذه الدروس يسمع كلاما معادا ، وأحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه ولا تغــذى عقــله ، ولا تضــيف الى علمه علمــا جديدا (٦) ·

وقد بذلت بعض المجهودات للاصلاح خاصة فى الأزهر بقيادة محمد عبده ، ولكن بلا نجاح يذكر ، الا أنه كان يتمتع بقوة كبيرة فى المجتمع ، كقناة يمكن للشباب الأذكياء المنحدرين من العائلات الريفية الفقيرة من خلاله أن يرفعوا مستواهم ، كما أنه ــ أى الأزهر ــ يشكل نوعا من الوعى الجمعى ، وتمتع شــيخ الأزهــر بسلطة أكبر مما كان عليه الحال على الأساتذة والطلاب ، ولكنه بدوره خضع بشكل صارم لسيطرة الخديو ، كما حاولت السلطات الفرنسية فى تونس اخضاع الزيتونة لسيطرتهم ·

وحتى ذلك الحين ، لم يكن هناك انحدار ملحوظ فى نفوذ وتأثير الطرق الصوفية ، وقد كان لمعارضة الوهابيين تأثير محدود خارج أواسط الجزيرة العربية وانتقد بعض المحدثين ما اعتبروه سوء استخدام الصوفية من حيث السلطة التى يمارسها أئمة الصوفية على مريديهم ، والاعتقــاد بالمعجزات التى تحدث بالاتصال (بأولياء الله) ، ولكن الأغلبية اعتقدت أن الصوفية النقية كانت ممكنة،وبالتأكيد ضرورية لصحة المجتمع وحيويته· وبشكل عام ، استمر الجزء الأكبر من السكان فى ممارسة نوع من التعاطف مع احدى الطرق ، وقد استمرت الطرق الصوفية القديمة مثل القادرية والشاذلية فى افراز الطرق الفرعية مثل التجانية (بتشديد مع فتح الجيم) والنقشبندية ، اللتين ركزتا على الالتزام بالشريعة وانتشرت بعض الطرق الجديدة ، وظهرت السنوسية التى أنشئت فى طرابلس فى الأربعينات من القرن التاسع عشر على أيدى جزائرى تلقى تعليمه فى فاس ومكة ·

وقد أدت الطرق الجــديدة للحفاظ على النظام فى الحضر بواسطة المسئولين والشرطة والحاميات (وكانت أجنبية فى مصر والمغرب) الى الحد من النفوذ الاجتماعى للطرق فى المدن ، كما أدت الى الحد من نفوذ كل

القوى التى يمكن أن تعبر عن السخط الشعبى ، وقد كانت أواخر القرن التاسع عشر فترة خلت تقريبا من أية فوضى فى المدن، بعد الحركات الكبرى فى الستينات والسبعينات من ذلك القرن والاضطرابات فى أوقات الاحتلال الأجنبى ، وفى الريف ظل المعلمون الذين كان لهم قدر من السلطة الروحية يمارسون نفس القوة ، كما كان الحال من قبل ، وفى عصور التوسع الامبراطورى العثمانى كان معظم الزعماء والقادة فى المقاومة الريفية من رجال الدين ، وفى الجزائر ، كان وضع عبد القادر فى الطريقة القادرية المحلية مركزا يمكن أن تتوسع منه قوته ، وفيما بعد حدثت ثورة الرحمانية عام١٨١٧،وقد لعبت الطريقة الرحمانية فيها دورا مهما،وبالمثل فى مصر وتونس ومراكش أمكن تعبئة المقاومة ضد تنامى النفوذ الأوربى باستخدام الشعارات الاسلامية ، كما أن المحاولة الايطالية لغزو ليبيا واجهت مقاومتها الرئيسية فى السنوسية ، التى كان لها فى ذلك الوقت شبكة من المراكز المحلية فى واحات الصحراء الليبية · الا أن بعض الطرق الصوفية لم تتبن المقاومة ، ففى الجزائر عقد شيوخ التجانية سلاما مع الفرنسية ، وفى مصر انحازت معظم الطرق لجانب الخديو فى أزمة ١٨٨٢·

وقد كان المثال الصارخ على القوة السياسية للزعيم الدينى هو ما حدث فى السودان فى تلك الحركة ، التى أنهت الحكم المصرى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وقد استمدت بعض قوتها من المعارضة للحكام الأجانب ، ولكن كان لها جذور أعمق ، وقد استمد محمد أحمد مؤسس الحركة المهمة من تدريبه الصوفى ، وكان أتباعه يعتبرونه المهدى الذى يرشده الله لاستعادة سيطرة العدل فى العالم ، وانتشرت حركته بسرعة فى دولة كانت سيطرة الحكومة فيها محدودة ، والمدن صغيرة ، وكان اسلام العلماء ضعيفا لا يستطيع معادلة تأثير المعلم الريفى ونفوذه ، وبعد انتهاء الحكم المصرى كان قادرا على انشاء دولة مبنية على تعاليم الاسلام حسب تصوره وبنيت بوعى على صورة المجتمع المثالى الفاضل للنبى عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وهذه الدولة استمرت على أيدى خلفائه بعد وفاته ، ولكن أنهاها الاحتلال الانجليزى المصرى بنهاية هذا القرن ·

وقد أثارت مثل هذه الحركات المخاوف من « ثورة اسلامية » كانت تشعر بها الحكومات الأجنبية والاصلاحية ، وأدت الى محاولات لمقاومتها ، أو على الأقل السيطرة عليها ، ففى مصر ، ومنذ عهد محمد على كانت هناك محاولة للسيطرة على الطرق الصوفية بتعيين كبير احدى العائلات المرتبطة بواحدة من هذه الطرق « الطريقة البكرية » ليكون زعيما لها جميعا ، وأصبحت سلطاته ووظائفه محددة رسميا فيما بعد ، كما أصبحت مشيخة الطريقة منصبا تعترف به الحكومة رسميا ، وقد أمكن من خلال هذه الزعامات ضبط بعض الاسراف فى الممارسات الشعبية ، وأمكن الحد منها · وفى الجزائر بعد ثورة ١٨٧١ ، كان الفرنسيون ينظرون بشك الى هذه الطرق ، وذلك بمحاولة قهر أولئك الذين ظهر عداؤهم ، كما حاولوا اكتساب الشيوخ الآخرين بمنحهم بعض الامتيازات ·

وفى الامبراطورية العثمانية ، كان السلطان فى وضع يمكنه من تحويل المشاعر الدينية الشعبية لمصالحه الخاصة ، ومن منتصف القرن التاسع عشر قامت الحكومة بمجهودات مكثفة للتركيز على دور السلطان كحام للدولة والذى كان آخر البقايا للسلطة السياسية للاسلام السنى ، ولم يعول كثيرا على الادعاء بأن السلطان خليفة عدا بالمعنى الذى يكون فيه كل حاكم مسلم قوى خليفة ، وبدءا من منتصف القرن التاسع عشر أصبح التركيز بشكل أكثر انتظاما ، على الدعوة للتنادى بين المسلمين فى الامبراطورية وخارجها للالتفاف حول العرش العثمانى ، وكتحذير للدول الأوربية التى بها الملايين من الرعايا المسلمين ، وقد استخدم السلطان عبد الحميد خلصاءه من الصوفية للتركيز على ادعاءاته الدينية ، وأنشأ سكك حديد الحجاز برأس مال اسلامى بغرض نقل الحجاج الى المدن المقدسة ، وكان ذلك تعبيرا عن نفس السياسة · وقد انتقد « المحدثون » الاسلاميون هذه السياسة على أساس أن نوع الاسلام الذى كان يشجعه لم يكن الاسلام الحقيقى ، كذلك نازعوا فى ادعائه بكونه الخليفة وأملوا أن تعود الخلافة للعرب · ولكن تلك السياسة أثارت مشاعر الولاء فى عالم الاسلام من العرب والترك وما وراءهما : بعد انتهاء حكم المغول تماما فى الهند بعد « التمرد الهندى » فى عام ١٨٥٧ ، وبعد أن دمر التوسع الروسى العروش القديمة فى القوقاز وآسيا الوسطى ، وبعد احكام السيطرة الانجليزية والفرنسية على شمال أفريقيا ··

الفصل التاسع عشر

ذروة القومية العربية

(١٩١٤ ـ ١٩٣٩)

سيادة تفوق بريطانيا العظمى وفرنسا

بحلول ١٩١٤ ، خرج التنافس بين القوى الأوروبية عن حدود الاحساس بالمصير المشترك · ومن ذكريات الحروب النابليونية ، كانت الامبراطورية العثمانية الموقع الذى انكبوا عليه ، وذلك لضعفها وأهمية المصالح الأوروبية فى ممتلكاتها ، وفى بعض الأجزاء أدى توزيع امتيازات السكك الحديدية الى خلق نوع من الانقسام بين دوائر المصالح المختلفة ، ولكن فى بعض المناطق الأخرى مثل بعض أجزاء من البلقان ، واسطنبول ، والمضايق ، وفلسطين ، تضاربت مصالح القوى الأوروبية بشكل مباشر ، وكان التنافس على البلقان من قبل النمسا وروسيا هو السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وعندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب فى نوفمبر الى جانب الألمان والنمسا ، وضد انجلترا وفرنسا وروسيا ، أصبحت أراضيها مسرحا للعمليات الحربية ، وكان على الجيش العثمانى مدعوما بحلفائه محاربة روسيا على حدوده الشمالية الشرقية ، ومحاربة قوة بريطانية فى أغلبها فى الأقاليم العربية ، وفى البداية هدد الجيش العثمانى الوضع البريطانى فى مصر ، ولكن فيما بعد زحفت جيوش بريطانيا وحلفائها الى داخل فلسطين ، وبنهاية الحرب احتلت سوريا بالكامل ، وفى نفس الوقت نزلت قوة أخرى بريطانية فى العراق على رأس الخليج ، وبنهاية الحرب كانت قد استولت على كل العراق ·

وبحلول عام ١٩١٨ ، وصلت سيطرة بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط والمغرب الى حد أكثر من أى وقت مضى ، ولكن الأهم من ذلك أن الحـــكومة الامبراطورية العثمانية العظيمة التى عاشت فى ظلها الدول العربية لقرون عديدة ، والتى كانت تمثل نوعا من الحماية فى مواجهة الحكم الأوروبى ، كانت آخـذة فى الأفول الى أن اختفت تماما ، لقـد فقدت الامبراطورية العثمـــانية أقاليمها العربية واقتصرت فقـــط على الأناضول ، وجزء صغير من أوروبا ، وكان السلطان تحت سيطرة القوات البحرية وممثلى الحلفاء فى عاصمته ، وكان مضطرا لتوقيع اتفاقية سلام ذات شروط مجحفة (معـاهدة سيفر) ، التى تفرض وصاية أجنبيـة شـــاملة على حكومته ، ولكن حركة التمرد التى قام بها الأتراك فى الأناضول والتى قادها ضباط فى الجيش ، وساندها تشجيع الحلفاء ، أدت باليونانيين الى احتــلال جزء من غـرب الأناضــول ، وقد نتج عن حركة الضباط هذه ظهور جمهورية تركية والغاء السلطنة ، وهذه التغيرات قبلها الحلفاء فى اتفاقية لوزان (١٩٢٣) ، التى يمكن اعتبارها نهاية رسمية للامبراطورية العثمانية .

وقد تفكك الهيكل السياسى الذى كان معظم العرب يعيشون فى ظله لقرون ، ولم تعد عاصمة الدول التركية الجديدة فى اسطنبول وانما فى أنقرة فى مرتفعات الأناضول ، وفقدت المدينة الكبرى التى كانت مقر السلطة لعهد طويل قوة جاذبيتها ، وأصبحت الأسرة الحاكمة ـ التى سواء قبلت ادعاءاتها أو رفضت فى الخلافة ، وكانت تعتبر الراعى لما تبقى من القوة والاستقلال للاسلام السنى ـ فى ذمة التاريخ ، وهذه التغيرات كان لها تأثير عميق على الطريقة التى كان العرب من ذوى الوعى السياسى يفكرون بها فى أنفسهم ، وحاولوا تعريف هويتهم السياسية ، وطرحت أسئلة حول الطريقة التى يجب أن يعيشوا بها معا فى مجتمع سياسى ، فالحرب عامل مساعد يحفر فى الوعى مشاعر غير مفصلة ، وتخلق توقعات التغير ، وقد وردت الفكرة عن عالم يعاد تشكيله على أسس من تقرير المصير ، وتأكيد الهوية الوطنيـــة ، فى تصريحات أدلى بها ويلســون رئيس الولايات المتحدة ، كما عبر عنها غيره من قواد الحلفاء ، وأثارت

أحداث الحرب الرغبة بين بعض الطبقات فى بعض الشعوب العربية فى التغيير فى وضعهم السياسى ، ففى المغرب كان يتوقع الجنود الجزائريون والتونسيون ، وكثير منهم من المتطوعين الذين حاربوا فى الجيش الفرنسى على الجبهة الغربية ـ التغيرات التى تعترف لهم بما قدموه ، والمصريون برغم أنهم لم يكونوا مقاتلين فى الحرب ، عانوا من الصعوبات من العمل بالسخرة ، وغلاء الأسعار ، ونقص المواد الغذائية ، ومذلة الاحتلال على ايدى جيش أجنبى ، وفى الأجزاء العربية من الامبراطورية العثمانية كان التغيير من نوع مختلف ، ففى عام ١٩١٦ ثار حسين ، شريف مكة الهاشمى رأس العائلة التى انتسبت اليه (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤) ضد السلطان العثمانى بقوة عربية مكونة جزئيا من بدو غرب الجزيرة ، والجزء الآخر من السجناء أو الفارين من الجيش العثمانى ، حاربوا الى جانب القوات المتحالفة وساعدوها فى احتلال فلسطين وسوريا ، وتلت هذه الحركة مراسلات بين البريطانيين وحسين (مراسلات ماكماهون ـ حسين ، ١٩١٥ ، ١٩١٦) الذى كان يمثل الوطنيين العرب ، وقد فسر ت٠١٠لورنس T. E. Laurance وهو رجل ارتبط اسمه بالثورة العربية الأسباب التى دعت بريطانيا الى مواقفها تلك : « فقد كنا نرى ضرورة تواجد عامل جديد فى الشرق ، نوع من القوة أو العرق الذى يرجح على الأتراك من حيث العدد والناتج والنشاط الذهنى ، ولم يسعفنا التاريخ فى تفكيرنا بان تلك الخصال تستورد جاهزة من أوروبا ٠٠ فقد كان من رأى بعضنا أن هناك ما يكفى من القوة الكامنة ويزيد فى الشعوب العربية (وهى المكون الأعظم للامبراطورية التركية) ، وهى تكتل سامى خصب القريحة ، ذو فكر دينى عظيم ، ويتمتعون بدأب معقول ، ولهم مهارة فى التجارة والسياسة ، ولكن طبائعهم تميل الى اذابة الغير فيهم أكثر من ميلهم الى السيادة » (١) ٠

ويقول الشريف حسين بشكل قد يكون ضخم من دوره : « كنت أقصد خلق دولة جديدة واستعادة نفوذ مفقود » (٢) ٠ وسواء أكان هناك وعد فعلى أم لا واذا كان الأمر كذلك وسواء لعبت ثورة الشريف دورا فعالا فى انتصار الحلفاء أم لم تفعل ، فهى مسائل ما زالت محل خلاف ، ولكن من

الواضح للمرة الأولى أن أولئك الذين يتحدثون العربية كانوا أمة ويجب أن تكون لهم دولتهم ، وكان ذلك مقبولا الى حد ما لدى القوى العظمى ٠

وقد اعترضت تلك الآمال والآلام والبحث عن هوية ، سياسات بريطانيا وفرنسا في سنوات ما بعد الحرب ، ففى الجزائر أجرت الحكومة الفرنسية بعض التغييرات كان على المسلمين بموجبها دفع نفس الضرائب التى يدفعها المستوطنون الأوروبيون ، وكان لهم ممثلون أكثر فى المجالس المحلية ، ولكن الحركة التى قام بها خلفاء عبد القادر الجزائرى قمعت بعد أن نادت بتمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسى بدون التخلى عن الشريعة الاسلامية للأحوال الشخصية ، وفى مراكش قامت حركة مسلحة لمقاومة الحكم الفرنسى والاسبانى قادها عبد الكريم الخطابى ــ وهو قاض سابق ــ فى المنطقة الاسبانية من شمال مراكش (١٨٨٢ ــ ١٩٦٣) ، فى جبال « ريف » فى الشمال ، هزمت فى عام ١٩٢٦ ، وقد اكتمل الغزو الفرنسى لكل البلاد بنهاية العشرينات من القرن العشرين ، وبالمثل امتد الحكم الايطالى من الساحل الليبى الى الصحراء فى عام ١٩٣٤ ، وفى مصر صدر اعلان بريطانى أنهى السيادة العثمانية فى عام ١٩١٤ ، ووضع البلاد تحت الوصاية البريطانية ، واكتسب الخديو لقب السلطان ، وفى عام ١٩١٩ أدى رفض الحكومة البريطانية السماح للحكومة المصرية بعرض قضية الاستقلال على مؤتمر السلام ، الى ثورة وطنية واسعة ذات تنظيم مركزى ودعم شعبى ، الا أنها كبحت ، لكنها أدت الى قيـام حزب وطنى « الوفد » بزعامة سعد زغلول (١٨٥٧ ــ ١٩٢٧) وبعدها الى اصدار البريطانيين فى عام ١٩٢٢ (اعلان الاستقلال) (*) ، الذى احتفظ بالسيطرة على المصالح الاستراتيجية والاقتصادية لبريطانيا بناء على اتفاقية بين البلدين ، وترتب على ذلك صدور الدستور المصرى ، وغير السلطان المصرى لقبه مرة ثانية وأصبح ملكا ، والى الجنوب فى السودان قامت حركة معارضة فى الجيش ، وطرد من السودان المسئولون والجنود المصريون الذين شاركوا البريطانيين فى حكم البلاد بموجب اتفاقية الحكم المشترك ٠

(**) المقصود تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى ألغى الحماية البريطانية على مصر لكنه وضع تحفظات جعلت مصر وكأنها بالفعل تحت الحماية ــ (المراجع) ٠

وكان الوضع فى الأقاليم العربية الأخرى للامبراطورية العثمانية أكثر تعقيدا ، فبينما اعترفت الاتفاقية الأنجلوفرنسية عام ١٩١٦ بمبدأ الاستقلال فى المراسلات مع الشريف حسين ، قسمت المنطقة الى مناطق نفوذ دائم ، (اتفاقية سايكس ـ بيكو ، مايو ١٩١٦) ، وصدرت وثيقة بريطانية عام ١٩١٧ هى وعد بلفور ونصت على أن الحكومة تنظر بعين العطف الى انشـــاء وطن قومى لليهـــود فى فلسطين ، على ألا يؤثر ذلك على الحقوق المدنية والدينية للسكان الآخرين للدولة ، وبعد نهاية الحرب نصت معاهدة فرساى على أن الدول العربية التى كانت تحت الحكم العثمانى يمكن اعتبارها مستقلة مبدئيا ، بشرط اتباع المساعدة والنصيحة من الدول الوصية عليها ، وهذه الوثائق ، والمصالح التى عبرت عنها ، هى التى حددت المصير السياسى لهذه البلاد ، وبموجب شروط هذه المراسيم التى أقرتها رسميا عصبة الأمم فى عام١٩٢٢ ، تكون بريطانيا مسئولة عن العراق وفلسطين ، وفرنسا عن سوريا ولبنان·وفى سوريا ظهرت محاولة قام بها أنصار ثورة الشريف حسين مع بعض الدعم المؤقت من البريطانيين لايجاد دولة مستقلة تحت قيادة فيصل بن حسين قمعها الفرنسيون ، وظهرت هويتان سياسيتان،دولة سوريا ودولة لبنان كتوسيع للمنطقة التى نشأت فى عام ١٨٦١ ، وفى عام ١٢٩٥ أدت توليفة من الاستنكار ضد الادارة الفرنسية فى المنطقة الدرزية فى سوريا ، صاحبتها معارضة وطنية للوجود الفرنسى،أدت الى الثورة التى قمعت بصعوبة ، والى الجنوب من منطقة الانتداب الفرنسية كانت فلســـطين والأراضى الواقعة شرقها تحت الانتداب البريطانى · وبسبب الالتزامات وفقا لاعلان بلفور ، والتى تقررت فى قرار الانتداب لتسهيل ايجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فقد حكم البريطانيون فلسطين بشكل مباشر ، ولكن الى الشرق منها تم انشاء امارة « شرق الأردن » وحكمها ابن آخر لحسين هو عبد الله (١٩٢١ ـ ١٩٥١) تحت الانتداب البريطانى ، ولكن بلا التزام منه تجاه انشاء وطن قومى لليهود ، وفى المنطقة الثالثة قامت فى العراق ثورة عـام ١٩٢٠ ضـد الاحتـلال العسكرى البريطـانى ، وتصـاعدت النبرة الوطنية أتبعتها محاولات لانشـــاء مؤسسات للحكم الذاتى تحت السيطرة البريطانية ، وأصبح فيصل الذى نفاه الفرنسيون من سوريا

ملكا للعراق (١٩٢١ ـ ١٩٣٣) تحت الاشراف البريطانى وفى اطار من نصوص قرار الانتداب عقدت المعاهدة الأنجلوعراقية ٠

من بين كل الدول العربية ظلت أجزاء من شبه الجزيرة العربية حرة بعيدة عن الحكم الأوربى ، وأصبحت اليمن بمجرد انتهاء الحكم العثمانى دولة مستقلة تحت حكم امام الزيديين يحيى ، وفى الحجاز نصب الشريف حسين نفسه ملكا ، وحكم لسنوات قلائل ، ولكن انتهى حكمه فى العشرينات ـ بعد أن أصبح غير فعال وفقد الدعم البريطانى ـ بفعل توسع الحاكم السعودى « عبد العزيز » (١٩٠٢ ـ ١٩٥٣) من أواسط الجزيرة العربية ، وأصبح ـ أى الحجاز ـ جزءا من المملكة الجديدة للعربية السعودية التى تمتد من الخليج الى البحر الأحمر ، وهنا أيضا كانت القوى البريطانية تحيط الدولة السعودية التى أنشأها عبد العزيز من الشرق والجنوب ٠ واستمرت الحماية على الدول الصغيرة بمنطقة الخليج ، فقد امتدت منطقة الحماية البريطانية من عدن شرقا ومن الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة بمساعدة بريطانية ، عملت على مد نفوذ سلطان عمان فى مسقط الى الداخل على حساب الامام الاباضى ٠

وقد استطاعت اليمن والعربية السعودية الاستقلال بلا موارد معروفة ، وبروابط قليلة مع العالم الخارجى ورغم احاطتهما من كل الجوانب بالقوة البريطانية ، فان استقلالهما كان محدودا ، ففى المناطق العثمانية السابقة كانت الدولة الوحيدة التى خرجت من الحرب مستقلة هى تركيا ، وقد بنيت فى اطار الادارة والجيش العثمانيين ، وحكمها حتى الممات زعيم بارز هو مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨) ، واتخذت تركيا مسارا أدى الى ابتعادها عن ماضيها ، وعن الدول العربية التى ارتبطت بها فى الماضى بشكل وثيق ، وكان ذلك طريق اعادة تشكيل

(★) النص :

. Under British mandate but with no obligation in regard to Creation of the Jewish national home.

وهى مسألة خلافية على اية حال ـ (المراجع) ٠

المجتمع على أساس من الوحدة الوطنية ، والفصـــل الحاسم بين الدين والدولة ، والمحاولة الدؤوب للابتعاد عن عالم الشرق الأوسط لتصبح جزءا من أوربا ، وانحل الرباط القديم بين الأتراك والعرب فى ظروف تركت بعض المرارة بين الجانبين ، وتفاقمت لبعض الوقت بالمنازعات حول الحدود مع العراق وسوريا ، رغم ذلك فان مثال أتاتورك الذى تحدى أوربا بالنجاح ووضع دولته على مسار جديد ، كانت له آثار ملحوظة على الحركات الوطنية فى العالم العربى ٠

اهمية المصالح البريطانية الفرنسية

وبمجرد اخماد حركات المعارضـــة فى العشرينات من هذا القرن ، لم تواجه بريطانيـا وفرنسـا تهديدا يذكر من الداخل لقوتهما فى الشرق الأوسط والمغرب ، ولعدة سنوات لم يكن هناك تهديد من الخارج أيضا ، والدول الأوربية الكبرى ــ الامبراطوريات الروسية والألمانية والمجرية النمساوية ــ انهارت أو انكفأت على نفسها بنهاية الحرب ، وكان معنى ذلك أن الشرق الأوسط الذى كان لوقت طويل ساحة للعمل المشترك أو التنافس والخصومة بين خمس أو ست قوى أوربية أصبح الآن منطقة نفوذ بريطانيا وفرنسا ، وان فاق نصيب بريطانيا نصيب فرنسا التى خرجت من الحرب منتصرة نظريا ، ولكنها خرجت منها منهكة ، وفى المغرب ظلت فرنسا هى القوة المسيطرة ٠

وقد كانت السيطرة على الدول العربية مهمة بالنسبة لبريطانيا وفرنسا ليس فقط بسبب مصالحهما فى المنطقة نفسها ، ولكن لأنها قوت وضعهما فى العالم ، وكانت لبريطانيا مصالح رئيسية فى الشرق الأوسط مثل زراعة القطن لمصانع لانكشاير والبترول فى ايران وبعدها العراق ، والاستثمارات فى مصر وغيرها ، وأسواق السلع المصنعة بالاضـافة الى ما اعتبرته التزاما بالمعاونة على انشاء وطن قومى لليهود٠وكانت هناك أيضا بعض المصالح الممتدة ، اذ ان وجود بريطانيا فى الشرق الأوسط ساعد على ترسيخ وضعها كقوة شرق أوسطية وقوة عالمية ، وكان الطريق

البحرى الى الهند والشرق الأقصى يمر من خـــلال قنـاة السويس ، ونشأت الخطوط الجوية عبر الشرق الأوسط خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن وكان بعضها يمر خلال مصر الى العراق والهند ، والآخر خلال مصر جنوبا الى أفريقيا ، وهذه المصالح كانت تحميها سلسلة من القواعد تتبادل الدعم مع قواعد أخرى فى حوض المتوسط والمحيط الهندى ، مثل ميناء الاسـكندرية وموانىء أخرى يمكن استخدامهـا ، والقواعد العسكرية فى مصر وفلسطين والقواعد الجوية فى تلك البلاد ، وكذلك فى العراق والخليج .

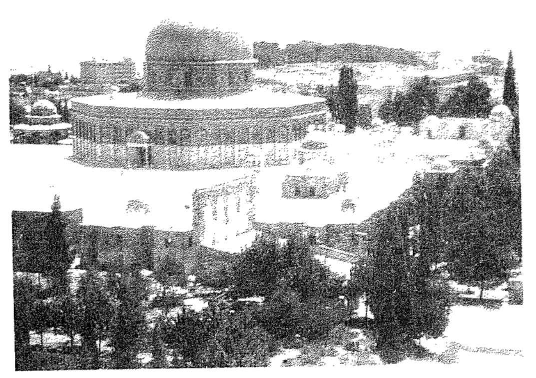
وبالمثل كان المغرب مهما لفرنسا ، ليس فقط فى حد ذاته ، ولكن لموقعه فى النظام الاستعمارى الفرنسى ، ولقد وفر المغرب اليد العـاملة للجيش ، والمعادن والمواد الأخرى للصناعة ، وكانت موقعا لاستثمارات هائلة ، وموطن أكثر من مليون مواطن فرنسى ، وتمر به الطرق البرية والبحرية والجوية للممتلكات الفرنسية فى أواسط أفريقيا ، وهذه المصالح كان يحميها الجيش الفرنسى المنتشر فى المغرب ، والبحرية فى بيزرطة **Bizerta** والدار البيضاء ، وفيما بعد فى المرسى الكبير ، وبالمقارنة بهذا ، كانت المصالح فى الشرق الأوسط محدودة ولكنها مهمة : الاستثمارات فى مصر ولبنـــان ، والبترول من العراق ، علاوة على ذلك كان الوجود العسكرى الفرنسى فى سوريا ولبنان ، يقوى من وضعها كقوة فى البحر المتوسط ، وكقوة عالمية ، وكان بامكان جيشها استخدام تلك الأراضى ، وبحريتها تلك الموانىء وموانيهـــا ، وكانت طريقـا جويا عسكريا الى الامبراطورية الفرنسية فى الهند الصينية .

وحتى أواخر الثلاثينات من القرن،مرت هذه الأوضاع بلا تغيير فعلى، وجاء أول تهديد خطير ــ وكان من الصعوبة القول بمدى خطورته ــ من ايطاليـا ، ففى عام ١٩١٨ كانت ايطاليـا تسيطر على جزر الدوديكانيز التى كانت قد اســـتولت عليهـــا من الامبراطـــورية العثمـــانية فى عام ١٩١٢ ، وكذلك الساحل الليبى ، وبحلول عام ١٩٣٩ احتلت كل ليبيا ، وألبانيا على البحر المتوسط ، واثيوبيا فى شرق أفريقيا ، ولهذا

فقد كان بامكانها تهديد الوضع الفرنسي فى تونس، حيث كان كثير من الرعايا الأوربيين من أصول ايطالية ، أو تهديد الأوضاع البريطانية فى مصر والسودان وفلسطين ، وقد سعت ايطاليا بنفوذها لانعاش بعض حركات المقاومة للحكم الفرنسى والبريطانى ، وكذلك فعلت ألمانيا فى عام ١٩٣٩، رغم أنه لم تكن قد ظهرت بعد أية علامات على التهديد الألمانى المباشر للمصالح البريطانية أو الفرنسية هناك . أما روسيا ، فلم تحاول فرض وجودها فى المنطقة منذ ثورة ١٩١٧ ، رغم أن المسئولين البريطانيين والفرنسيين كانوا يميلون الى تفسير مشاكلهم بالنفوذ الشيوعى .

وقد كان بامكان بريطانيا وفرنسا فى الفترة من ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ توسيع سيطرتهما على التجارة والانتاج فى المنطقة من مواقع قوتهما الراسخة ، وكان العالم العربى لا يزال مهما بشكل أساسى بالنسبة لأوربا كمصدر للمواد الخام ، كما أن كثيرا من الاستثمارات البريطانية والفرنسية كانت مخصصة للمنطقة حال خلق الظروف المناسبة لها ، وكانت هناك فترة من الندرة فى رؤوس الأموال فى كلا البلدين ، ولكن رأس المال الفرنسى وجه الى المغرب لتحسين البنية الأساسية للحياة الاقتصادية ولمشروعات الرى ، والسكك الحديدية ، والطرق ، وتوليد الكهرباء (من مساقط المياه حيثما أمكن أو من الفحم والبترول المستورد) واستغلال الموارد المعدنية وبخاصة الفوسفات والمنجنيز والتى أصبحت بلدان المغرب من كبار مصدريها ، وقد وسعت الاستثمارات البريطانية من زراعة القطن للتصدير فى مصر والأجزاء السودانية الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق، وطورت فى فلسطين ميناء حيفا وكان هناك جلب ضخم لرؤوس الأموال، على أيدى المؤسسات اليهودية المرتبطة ببناء الوطن القومى لليهود .

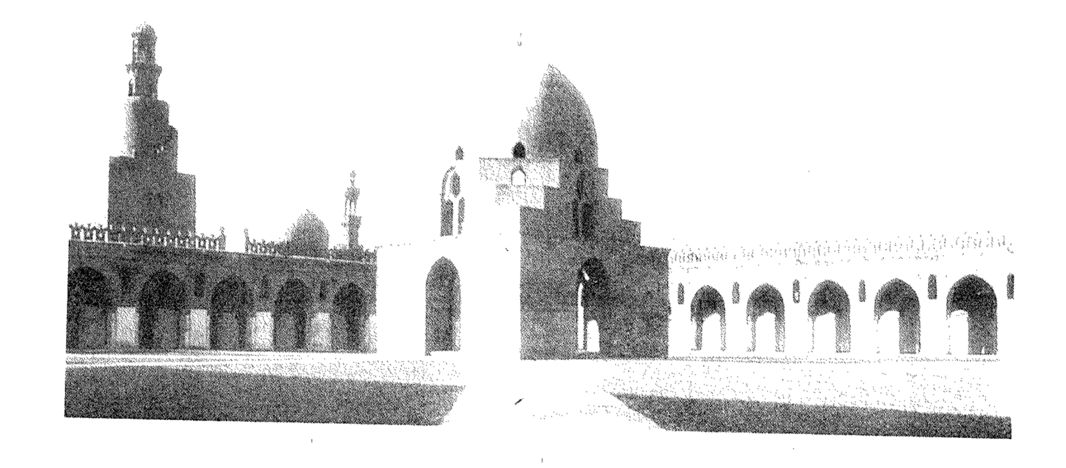
كان الاستثمار فى الصناعة قليلا بالمقارنة باستثمار رأس المال الأوربى فى الزراعة والتعدين،وكان موجها فى معظمه لمواد البناء وتصنيع الغذاء والمنسوجات ، وكان الاستثناء الرئيسى هو صناعة البترول ، وكان البترول يستخرج فى ايران وعلى نطاق ضيق فى مصر بحلول عام ١٩١٤ ، وفى ١٩٣٩ كان ينتج بكميات كبيرة فى العراق ويصدر الى البلدان الأوربية



قبة الصخرة فى القدس، بناها الأمويون فى ٦٩١ ــ ٦٩٢ هــ جددها العثمانيون فى النصف الأول من القرن السادس عشر واستبدلوا الزخارف الخارجية بقاشانى ملون ثالث المواقع المقدسة فى العالم الإسلامى، وكان بناؤها بين أماكن مقدسة مسيحية ويهودية تأكيداً بأن تميز الإسلام باق



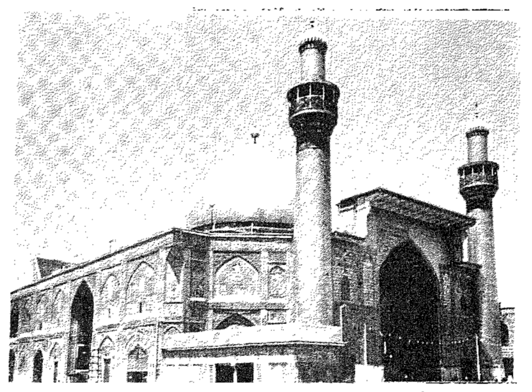
مسجد الخليفة العباسى المتوكل فى "سامراء" بالعراق. شيد علم ٨٤٧ هــ يبين عظمة الدولة العباسية. يمكن أن يستوعب بمساحته البالغة ٩,٤ أفدنة عشرات الآلاف من المصلين فى صلاة الجمعة.



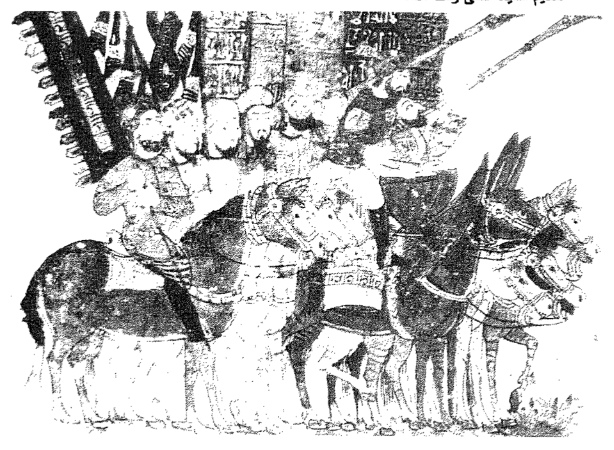
جامع ابن طولون بنى بالقرب من القاهرة المقبلة فى ٨٧٦ ــ ٨٧٩ وجدد بعد عام ١٢٩٦. ويبين التماثل والتشابه بينه وبين الجامع "المتوكلى" انتشار الطراز العباسى الإمبراطورى ومواطن تميز فن العمارة الإسلامى ــ الشرق أوسطى.



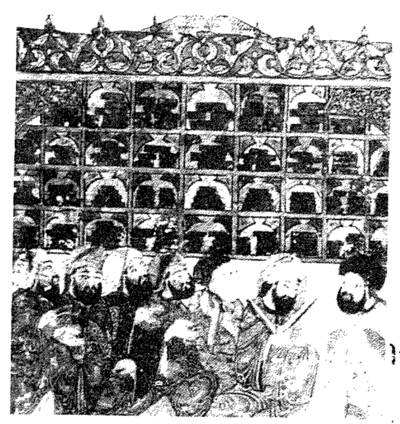
الجامع الكبير فى قرطبة بأسبانيا بدأ فى عام ٧٨٤ ــ ٧٨٦، وجرى توسيعه وتجديده فى ٩٦١ ــ ٩٦٦ و٩٨٧ ــ ٩٨٩ لاستيعاب التعداد المتزايد للسكان فى هذا الموقع التابع للخلافة الأندلسية.



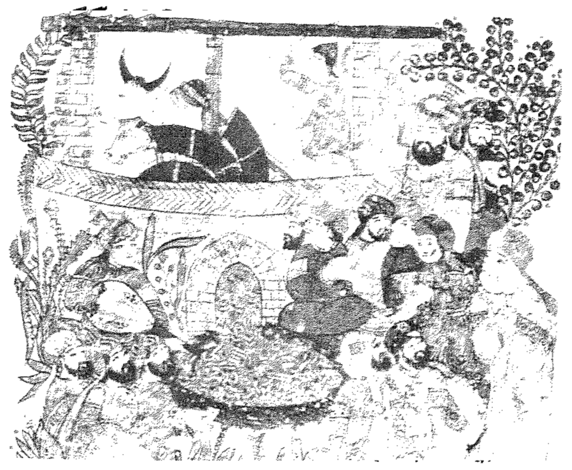
ضريح "على بن أبى طالب" فى النجف بجنوب العراق. وقد جعل التوقير العميق، الذى يكنه الشيعة له باعتباره خليفة النبى "محمد صلى الله عليه وسلم من هذه البقعة مزاراً ومركزاً لتعليم الشيعة حتى وقتنا هذا.



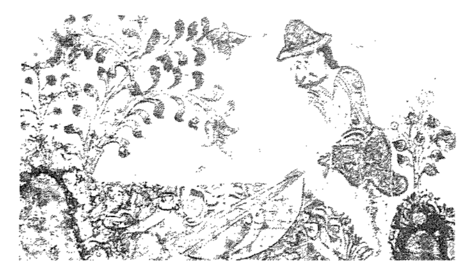
الاحتفال بنهاية شهر رمضان. على الأعلام نقوش دينية، وهى من مخطوطات مقامات الحريرى التى كتبت فى العراق عام ١٢٣٧.



مكتبة البصرة تتراص الكتب على جوانبها من نفس المخطوطة السابقة. الرجل العجوز الجالس فى الخلف هو عالم يصحح للقارئ أمامه.

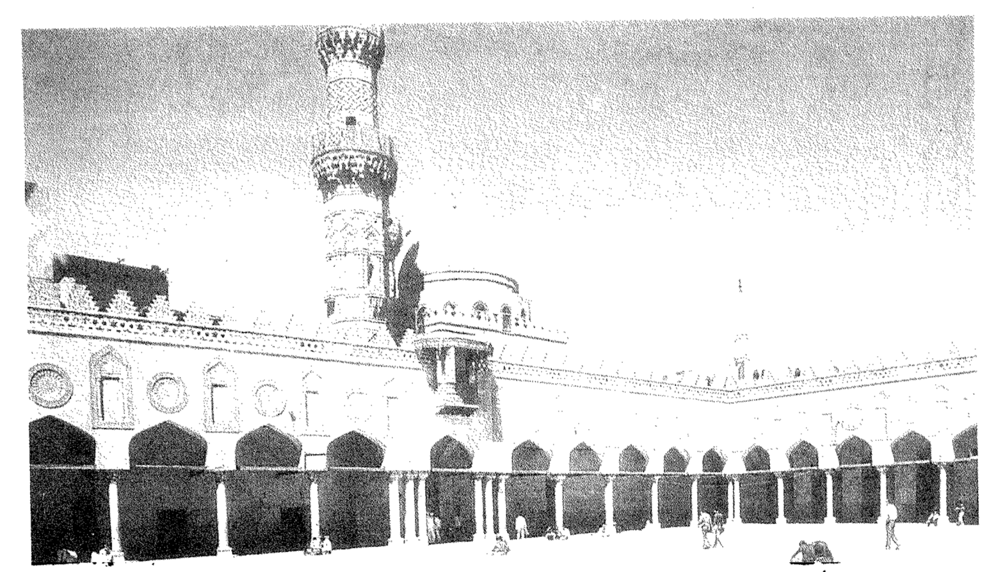


اجتماع لرجال الأدب فى الحديقة والماء يتدفق من الساقية. من نفس المخطوطة ويبين عازف العود الروابط الوثيقة بين الشعر العربى والموسيقى فى كل العصور.

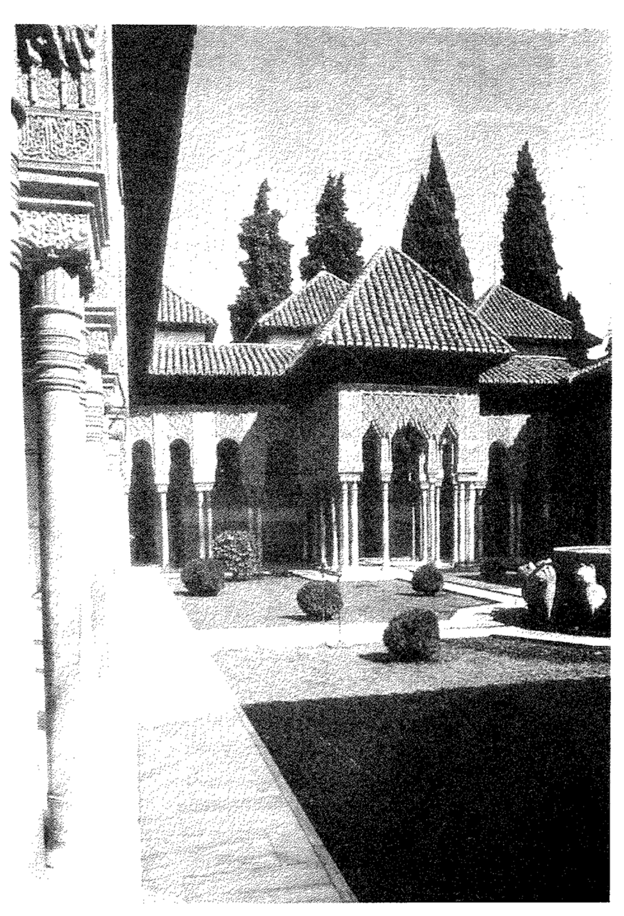


صياد سمك يطرح شباكه، من بدايات القرن الثالث عشر. من مخطوطة سورية "كليلة ودمنة" وهى ممتعة فى وصفها تفاصيل الحياة اليومية.

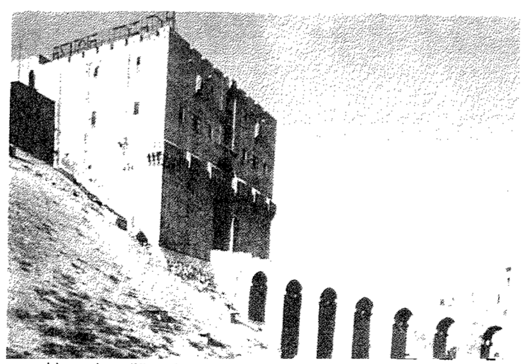
مصباح مسجد مصرى يعود لمنتصف القرن الرابع عشر، مكتوب عليه آية من سورة "النور" من القرآن الكريم، ويحمل رنك مملوكى، وهو مشابه لشعار النبالة فى أوروبا.



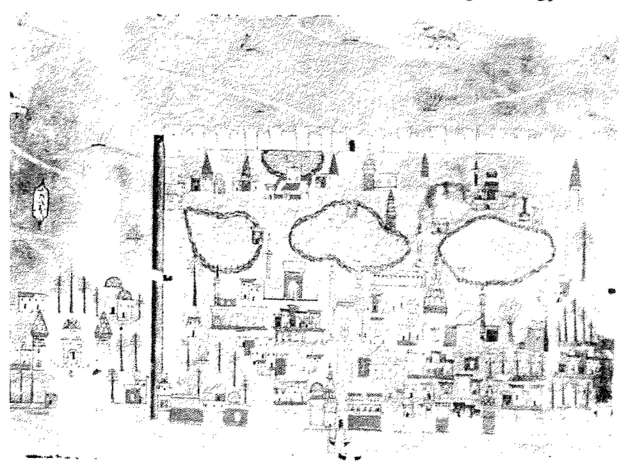
أقدم جامعة إسلامية فى القاهرة. تأسست عام ٩٧٠ على أيدى الفاطميين كمسجد ومركز للتعليم وظل كذلك حتى وقتنا الحالى، وتعود معظم الإنشاءات الحالية إلى العصر المملوكى عندما اكتسب الأزهر مكانته كمركز رائد لتعاليم السنة.



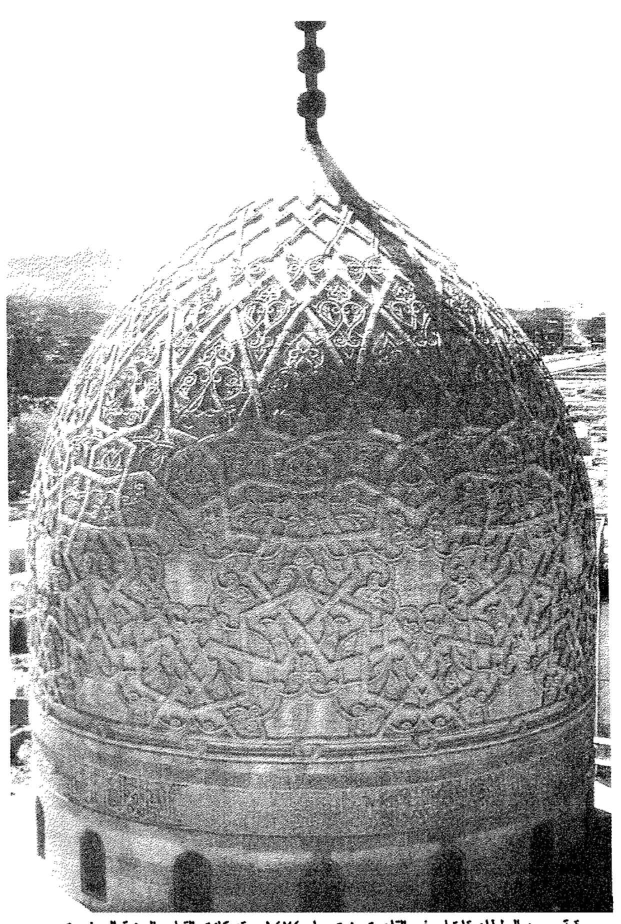
جانب اخر من قصر الأسود يواجه قاعة استقبال ذات قباب ثلاث، ويعطى هذا التصميم إحساساً بامتزاج الأجزاء الداخلية مع المساحة الخارجية كمثل القنوات التى تحمل الماء من الحوض إلى الغرف المجاورة.



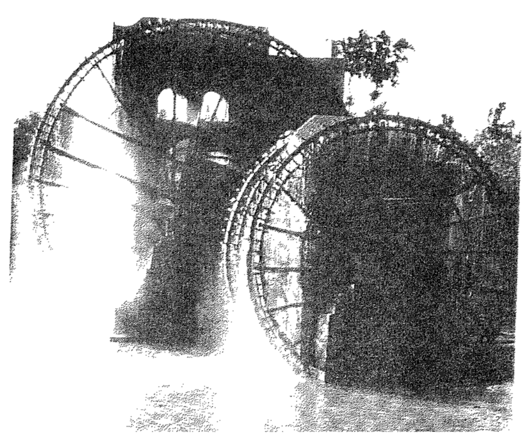
برج بوابة المدخل والجسر المؤدى لقلعة حلب، بنيت فى القرن الثانى عشر وبدايات القرن الثالث عشر.



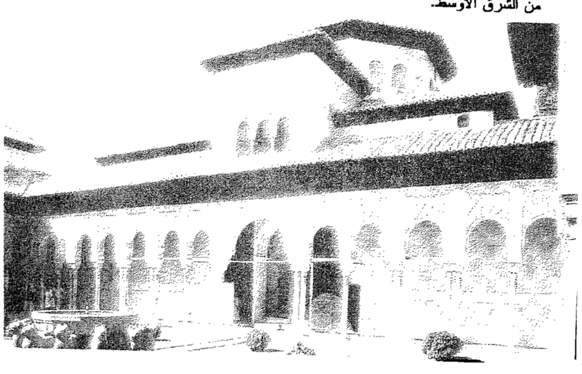
النصف الشرقى من بغداد القرن السادس عشر، وهى مخطوطة "لتراش" وتبين أحد حملات سليمان العظيم، وهى تبين الجسر القائم على نهر "دجلة" الذى يربط المدينة. خارج الأسوار مباشرة ضريح أبى حنيفة، الذى جدده العثمانيون.



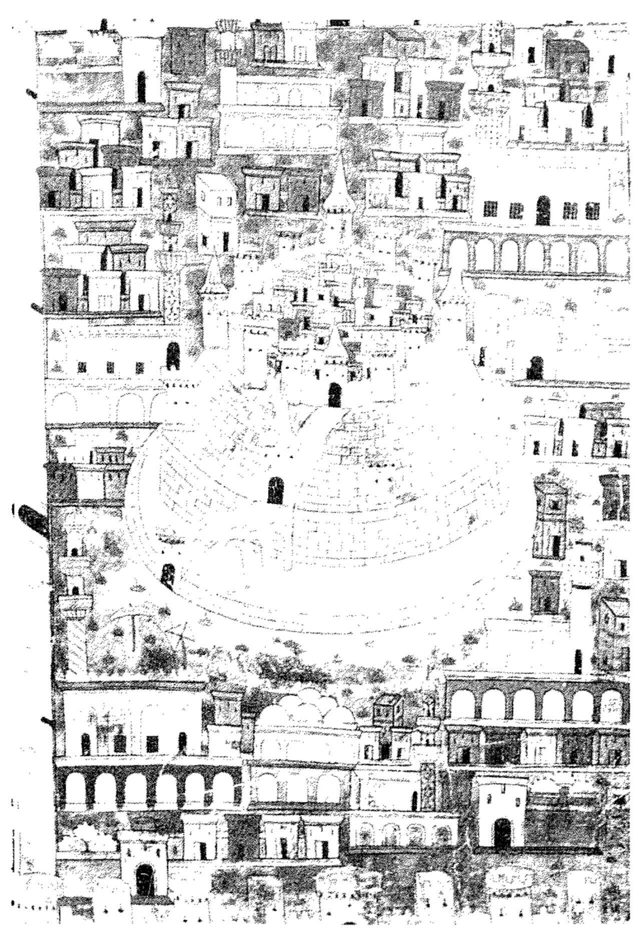
قبة مسجد السلطان قايتباى فى القاهرة، بنيت عام ١٤٧٤. وقد كانت القباب المبنية المحفورة والتكامل غير العادى بين الطراز العربى والزينة الهندسية من القدرات الخاصة للبنائين القاهريين، وكمثل الكثير من آثار الحكام المملوكيين فهى تضم مدرسة دائمة.



ساقية فى حماه (سوريا) وفيها سلسلة من الدلاء ترفع المياه من النهر إلى قنوات الرى فى السهل المجاور. وقد وصلت هذه التقنية الخاصة بالسواقى (وكذلك طواحين الهواء) للغرب من الشرق الأوسط.



فناء الأسود ــ الحمرا ــ غرناطة ــ أسبانيا، اكتمل فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر. الأسود الاثنىعشر والحوض تشابه الطراز السليمانى وكان منتشراً فى بناء القصور فى العالم الإسلامى.



حلب وحصونها فى شمال سوريا من نفس المخطوطة من القرن السادس عشر. كانت حلب مركزاً إدارياً هاماً تحت حكم العثمانيين.

(أساسا لفرنسا) خلال خط أنابيب ذى شعبتين ، وكان يصل الى ساحل المتوسط فى طرابلس لبنان ، وحيفا فى فلسطين ، وكان ينتج على نطاق ضيق فى العربية السعودية والبحرين أيضا،وكان أغلب ملاك هذه الشركات من البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين والهولنديين ، وكانت اتفاقاتهم مع الدول المنتجة ، تعكس توازنا غير متساو ، ليس فقط للقوة المالية ولكن السياسية أيضا ، حيث كانت القوة البريطانية تدعم وضع الشركات والامتيازات التى عملت فى ظلها وأعطتها السيطرة على التنقيب فى مناطق واسعة ، وعلى الانتاج والتكرير والتصدير ولفترات طويلة ، ودفع حقوق محدودة للحكومات المضيفة ، وتقديم كميات محدودة من البترول لاستخدام هذه الحكومات .

والى جانب هذا الاستثناء الوحيد ، كانت الدول العربية ما تزال معتمدة على أوربا فى معظم السلع المصنعة ، لا المنسوجات فقط ولكن أيضا الوقود والمعادن والآلات،وكان التصدير والاستيراد يتمان أساسا على سفن انجليزية وفرنسية ، واستطاعت مصر أن تفرض سيطرة أكبر على تعريفاتها ، وكذلك فى مراكش كانت فرنسا مرتبطة باتفاقية مع الدول الأوربية فى عام ١٩٠٦ للمحافظ على سياسة « الباب المفتوح » .

المهاجرون والأرض

فى البلاد التى هاجر الأوربيون اليها ، تحكموا على نطاق واسع فى المال والصناعة والتجارة الخارجية والى حد كبير فى الأراضى ، فكان المستوطنون فى الجزائر مستقرين تماما فى عام ١٩١٤ ، ولكن فى سنوات ما بعد الحرب حاولت الحكومة الفرنسية تشجيع المزيد من الهجرة والاستيطان فى تونس ومراكش ، ولما كانت مراكش تدخل تدريجيا تحت السيطرة الفرنسية فى العشرينات ، فقد طرحت أراضى الدولة وأراضى المراعى المشاع على المستوطنين . وقد كانت هذه المجهودات ناجحة من ناحية أنها أدت الى هجرة ملحوظة ، والى توسيع للرقعة المزروعة ، ومن حيث العائد من الانتاج ، ولكنها لم تنجح فى الابقاء على معظم المهاجرين على

الأراضى،ومنذ عام ١٩٢٩ وما بعده،كان المغرب متأثرا بالأزمة الاقتصادية العالمية التى خفضت من أسعار المواد الغذائية ، وقامت حكومات الدول الثلاث والمصارف الفرنسية بالترتيبات لزيادة قروض ملاك الأراضى ، ولكن فى الواقع كان كبار الملاك فقط هم القادرون على الاستفادة من تلك القروض ، وبحلول عام ١٩٣٩ كان نسق الاستيطان على شكل مزارع كبيرة تستخدم الجرارات والتقنيات الحديثة ، وتستخدم العمال الاسبان والبربر والعرب ، وتنتج الحبوب والنبيذ للسوق الفرنسية٠ورغم أن ما أطلق عليه أحد الكتاب « رمز البيت الريفى ذى السقف الأحمر » (٣) قد لعب دورا فى رسم الصورة الذاتية للسكان الأوربيين ، فان المهاجر النمطى لم يكن مزارعا صغيرا ولكنه كان مسئولا حكوميا ، أو موظفـا فى شركة ، أو صاحب حانوت أو ميكانيكيا ، وقد شكل الأوربيون أقل من ١٠٪ من اجمالى السكان (٥ر١ مليون تقريبا من ١٧ مليونا) ؛ ولكنهم سيطروا على المدن الكبيرة ، فالجزائر ووهران كانت بهما أغلبية أوربية ، كما شكل الأوربيون نصف سكان تونس وقرابة نصف سكان الدار البيضاء ٠

وفى بلدين آخرين كان استيلاء المهاجرين على الأراضى مهما ، خلال الفترة من ١٩١٨ الى ١٩٣٩ ٠ فى برقة Cyrenaica وهو الجزء الشرقى من ليبيا ، كان هناك استيطان رسمى على الأراضى التى صـودرت لهذا الغرض وجرى اعدادها بتمويل الحكومة الايطالية ، وهنا أيضا تكررت تجربة المناطق الأخرى من المغرب ، وبحلول ١٩٣٩ لم يبق الا ١٢٪ من السكان الايطاليين الذين كان عددهم قد بلغ ١١٠ آلاف،أما الايطالى النمطى فى ليبيا فكان من سكان طرابلس أو بعض المدن الساحلية الأخرى ٠

وفى فلسطين،استمر تمليك الأراضى للمهاجرين اليهود الأوربيين، والذى بدأ خـلال أواخر القرن التاسع عشر واستمر فى اطار النظـام الجديد للادارة الذى وضعه البريطانيون كحكومة انتداب ، وتم تشجيع هجرة اليهود فى حدود فرضتها الادارة بناء على تقديرها لعدد المهاجرين الذين تستطيع البلاد استيعابهم فى فترة معينة ، وبناء على الضغط الذى كان يمكن أن يفرضه الصهاينة أو العرب على الحكومة فى لندن ، وقد

تغير الهيكل السكانى للبلاد بشكل مؤثر خلال هذه الفترة ، وفى عام ١٩٢٢ كان اليهود يشكلون حوالى ١١٪ من اجمالى السكان البالغ عددهم ٣/٤ مليون · ومعظم الباقى ممن يتحدثون العربية من المسلمين والمسيحيين ، وبحلول عام ١٩٤٩ كانوا يشكلون أكثر من ٣٠٪ من الســـكان الذين تضاعفوا ، وفى هذا الوقت كان هناك استثمار ملحوظ سواء عن طريق الأفراد أو المؤسسات اليهودية التى قامت للمعاونة على ايجاد وطن قومى لليهود ، ذهب أكثرها للاحتياجات الفورية للهجرة ، وبعضها للمشروعات الصناعية : ادخاء الكهرباء (وأعطى هذا الامتياز لشركة يهوديه) ، ومواد البناء ، وتصنيع الغذاء ، وأنفق الكثير أيضا فى شراء الأراضى والمشروعات الزراعية ، وفى بداية الأربعينات من هذا القرن ، كان اليهود قد تملكوا قرابة ٢٠٪ من الأراضى الصـــالحة للزراعة ، وكان الجزء الأكبر مملوكا للصندوق القومى اليهودى الذى احتفظ بهـا كأملاك للشعب اليهودى لا يمكن التخلى عنها وعليها لا يمكن استخدام من ليس يهوديا ، وكذلك فى المغرب شملت الأراضى التى حازها واستزرعها المهاجرون نسبة كبيرة من أكثر المناطق انتاجية ، ولكن كما فى المغرب أيضا أصبح معظم السكان من اليهود حضريين ، وبحلول ١٩٣٩ عاش ١٠٪ من السكان اليهود على الأرض ؛ لأن الهجرة آنذاك كانت أكبر من أن تستوعبها الزراعة ، وكان اليهودى الفلسطينى النمطى من سكان المدن ، يعيش فى واحدة من ثلاث مدن كبيرة ، القدس وحيفا وتل أبيب ، وكان ذلك المزارع الذى يعيش فى المستوطنات الجماعية « الكيبوتز » رمزا مهما ·

نمو الصفوة الوطنية

بالنسبة لكل من مجتمعات المستوطنين والحكومات الأوربية ، كان استخدامهما للقوة للدفاع عن مصالحهما أمرا فائق الأهمية ، ولكن القوة لا تستقر ما لم تحول نفسها الى سلطة شرعية ، وقد شاعت بين الأوروبيين الذين كانوا يحكمون فى البلاد العربية أو يزاولون فيها أعمالا،فكرة تقول بأنهم هناك من أجل انجاز رسالة التحديث والمدنية ، وسواء عبرت هذه الفكرة عن مدنية متفوقة تحاول أن تجتذب إلى مستواها مدنية متخلفة عنها

أو محتضرة على وشك الموت ، أو أنها عبرت عن تأسيس العدالة والنظام والرفاهية ، أو نشر اللغة والثقافة التى تعبر عن هـذا كله ، ولما كان الاستنتاج المنطقى لهذه الأفكار هو الاستيعاب النهائى للعرب فى مستوى من المســاواة وفى عالم موحد جديد ، فقد عارض البعض هذه الأفكار بما لديهم من احساس بوجود فوارق لا تلتئم ، واحساس داخلى بالسيادة ، منحهم الحق فى الحكم ، كما ظهر أمر جديد بين المستوطنين ، فقد ظهر فى المغرب آنذاك ما يمكن أن نطلق عليه أمة منفصلة من المستوطنين ، قد تنتمى صفوتها العليا الى العاصمة الفرنسية اجتماعيا وثقافيا ، ولكن الأغلبية العظمى من (البيض الصغار) كانت مختلفة ، فقد كانت مكونة من أخلاط ايطالية واسبانية وفرنسية ، وولد معظمهم بالمغرب ويتحدثون لغة فرنسية خاصة بهم ، ولا يحسون بالمواطنة فى فرنسا ، ويشـعرون حولهم بعالم عدوانى غريب ، يجتذبهم حينا ويلفظهم حينا آخر ، وكانوا يتوجهون الى فرنسا لحماية مصالحهم ، التى قد تكون مختلفة عن مصالحها الكبرى ، وكذلك كانت فلسـطين ، حيث تنشـأ دولة يهودية ، واعيـة بالاختلاف عن تلك الدول التى أدارت لها ظهرها بالهجرة ، وتعيش فى وسط من اللغة العبرية التى عادت الى الظهور كلغة للحياة العـادية ، منفصلة عن السـكان العرب باختـلافات الثقـافة والعادات الاجتماعية ، وبالأمل فى خلق شىء يهودى صرف ، وباللهفة المتزايدة على مصير اليهود فى أوربا وبالتطلع الى انجلترا للدفاع عن مصالحها؛حتى يمكنهم الدفاع عنها بأنفسهم .

وقد قوت المصالح الرئيسية وكذا الضغط من المستوطنين من تصميم انجلترا وفرنســا أن يظلوا مسيطرين ، ولكن من ناحية أخرى أحاطت الشكوك بذلك التصميم ان لم يكن حول أخلاقيات الحكم الاستعمارى فعلى الأقل حول تكاليفه ، وقد كان الفرنسيون منذ البداية يشعرون بشكوك حول فوائد الانتداب على سوريا ، ولكن قليلا منهم تأمل فكرة أى نوع من الانسحاب من المغرب،وحتى الفرنسيون الشيوعيون كانوا يفكرون فى وسيلة أخرى لاستيعاب الجزائر فى فرنسا بصورة تحقق قدرا أكبر من المساواة ، رغم أنهم كانوا يأملون فى انشاء علاقة مختلفة مع المسلمين،

وأن يستخدموا ثقلهم للاحتجاجات حيال تصرفات رأوها ظالمة.وفي انجلترا، كان هناك اتجاه متزايد للبحث فى عدالة الحكم الاستعمارى وللنقاش حول المصـــالح البريطانية الأساسية وكيف يمكن حمايتها بطريقة أخرى ، وبالاتفاق مع العناصر فى الشعوب المحكومة التى كانت راغبة فى التوصل لحل وسط مع الحاكم الاستعمارى .

وقد كان الباعث للتغيير فى العلاقة أكبر بظهور أولئك الذين على الجـانب الآخر ، والذين كان بامكانهم جعل ذلك ممكنا ، أنهم أعضـاء الصفوة الجديدة الذين كانوا بحكم مصالحهم أو تركيبتهم العقلية ، متمسكين بنوع من التنظيم الاجتماعى والسياسى رأوا أنه كان ضروريا للحياة فى العالم الحديث ، والذين بامكانهم الحفاظ على المصالح الأساسية للقوى الامبراطورية .

وفى العشرينات من القرن ، كان هناك فى معظم البلاد العربية طبقة من ملاك الأراضى ممن كانت مصـــالحهم مرتبطة بانتـــاج المواد الخام للتصدير ، أو باستمرار الحكم الاستعمارى ، وبعض كبار الملاك فى الريف كانوا قادرين على التحول الى ملاك على النمط الحديث ، وكان ذلك يتم فى بعض الأحيان بمساعدة الحكام الأجانب الذين كانوا يلجأون اليهم طلبا للعون.وفي المغرب ، سهلت الطريقة التى امتدت بها السيطرة الفرنسية للداخل وطبيعة الريف من امكانية التوصل الى اتفاقيات مع بعض سادة أعالى جبال أطلس الأقوياء ، وخاصة تهامى الجلاوى وهو زعيم قبيلة من البربر سيطر على المنطقة الجبلية الى الشرق من مراكش ، وفى العراق استمرت على أيدى حكومة الانتداب البريطانى التى كان يتم بها تسجيل الأراضى القبلية المشاع كممتلكات للعائلات النافذة فى القبائل ، التى بدأت فى القرن التاسع عشر . وفى السودان ظلت الحكومة لعدة سنوات تتبع سياسة من الحكم « غير المباشر » فى السيطرة على الريف من خلال زعماء القبائل ، والذين كانت قوتهم تتعدل وتزيد بالمؤازرة الرسمية ، وفى مناطق أخرى كان ملاك الأراضى ينتمون غالبا لطبقة جديدة ظهرت نتيجة الظروف الجديدة للزراعة التجارية ، وقد كانت طبقة ملاك الأراضى ممن

يزرعون القطن فى مصر أول طبقة من هذا النوع ، وظلوا هم الأغنى والأكبر والأكثر نفوذا فى الحياة الوطنية ، وظهرت مجموعات مشابهة فى سوريا والعراق ، وحتى فى بلاد الاستيطان الأوربى فى المغرب ، حيث ظهرت طبقة جديدة من ملاك الأراضى المحليين ، من التونسيين ممن يزرعون الزيتون فى الساحل ، والجزائريين الذين يشترون الأراضى من المستعمرين الذين كانوا يرتحلون للمدن ليحققوا أحلامهم الاقتصادية التى تناسبهم •

وظلت غالبية التجارة الدولية فى أيدى الأوربيين أو أفراد الجماعات المسيحية واليهودية الذين كانوا على ارتباط وثيق بهم ، ولكن كان هناك بعض الاستثناءات من ملاك الأراضى المصريين الذين يعملون بتصدير الأقطان، وتجار فاس كان بعضهم آنذاك متمركزين فى الدار البيضاء ، وظلوا يستوردون المنسوجات من انجلترا ، وكان هناك أيضا بعض الاستثناءات للقاعدة العامة بأن الصناعة كانت فى أيدى الأوربيين ، وكانت مصر أكثرها أهمية حيث تأسس فى عام ١٩٢٠ بنك يهدف لتوفير التمويل للمشروعات الصناعية ، وكان رأس مال بنك مصر فى الأساس من كبار ملاك الأراضى الباحثين عن استثمارات أكثر ربحية مما يمكن أن تغل الزراعة ، وفى السنوات القليلة التالية استخدم لانشاء مجموعة من الشركات خاصة للشحن البرى ، وصناعة السينما وغزل ونسج الأقطان ، وبنشوئها كان ذلك علامة على بعض التغيرات : تراكم رأس المال الوطنى الباحث عن الاستثمار ، وتدنى العائد على الاستثمارات على الأراضى ، والرغبة فى تحقيق القوة الوطنية والاستقلال ، الا أن الظروف الجديدة كانت مزعزعة حتى ان مجموعة شركات بنك مصر واجهت صعوبات ، ولم ينقذها سوى التدخل الحكومى •

وقد ظهر أيضا نوع آخر من الصفوة لم يكن يقل أهمية : أولئك الذين تلقوا تعليما على الطراز الأوربى ، وكان التعليم فى تلك الفترة مقصورا على القادرين ، أو من لهم امتياز أو آخر ، وحتى فى حدود هذه المجموعة فقد ظل التعليم محدودا بحكم تردد المجتمع فى ارسال أبنائه لتلقى العلم (وأكثر ترددا فى حالة البنات) الى المدارس التى يمكن أن

تجعلهم غرباء عن عائلاتهم وتقاليدهم ، أو تردد الحكام الأجانب فى تعليم طبقة قد لا يمكن استيعابها فى الخدمة الحكومية ، ويمكن أن تنتهى فى المعارضة ، ورغم هذا انتشر التعليم بسرعات متفاوتة فى مختلف البلاد ٠

وفى مراكش ، كانت حركة انشاء المدارس الحديثة فى بدايتها وبدأ ذلك بانشاء عدد من المدارس الثانوية الاسـلامية التى تسير على النمط الغربى (الفرانكو ــ اسلامية) بالاضافة الى بعض المعاهد العليـــا فى الرباط ٠ وفى الجزائر ومع حلول عام ١٩٣٩ ، كان عدد الحاصلين على الشهادات الثانوية مازال بالمئات ، والحاصلين على المؤهل الجامعى أقل من ذلك ، وكانت جامعـة الجزائر احدى المؤسسات التعليمية الفرنسية البارزة ، وكانت أساسا للأوربيين ولكن عددا متزايدا من المسلمين كانوا يلتمسون طريقهم الى باريس وتونس أو القاهرة ، وفى تونس أيضـــا كان عدد أولئك الذين التحقوا بالليسيه على النظام الفرنسى للدراســة متزايدا ، والمجموعة التى أصبحت فيما بعد زعماء لبلادهم ، كانت تذهب الى فرنسا فى بعثات دراسية لمتابعة الدراسات العليا ٠ وفى مصر ، كان عدد الطـــلاب فى المدارس الثانوية قد تزايد من أقل من ١٠٠٠٠ عــام ١٩١٣ ــ ١٩١٤ لأكثر من ٦٠٠٠٠ بعد ذلك بثلاثين عاما . والجامعة الخاصة الصغيرة التى تأسست فى الأعوام الأولى من القرن اندمجت عام ١٩٢٥ فى الجامعة المصرية التى تنفق عليها الحكومة،وبها كليات الآداب والعلوم والقانون والطب والهندسة والتجارة ، وعندما سمحت التغيرات للحكومة المصرية بالتحكم بدرجة أكبر فى السياسة التعليمية ، توسعت المدارس على كل المستويات ، وكان هذا هو نفس ما حدث فى العراق رغم أن العملية بدأت من مستويات أدنى ٠

وقد كان معظم التعليم الثانوى والعالى فى مصر فى أيدى الهيئات التبشيرية الدينية أو الثقافية الأوربية الأمريكية ، وكان ذلك صحيحا أيضا فى سوريا ولبنان وفلسطين ، كانت هناك جامعة حكومية صغيرة فى دمشق ، وكلية لتدريب المعلمين فى القدس ، ولكن الجامعات الرئيسية كانت ملكية خاصة : فى بيروت الجامعة اليسوعية «سان جوزيف» المدعومة

من الحكومة الفرنسية ، والجامعة الأمريكية ، وفى القدس الجامعة العبرية التى كانت فى الأساس مركزا لانشاء ثقافة قومية جديدة باللغة العبرية، ولم تكن تجتذب الطلبة العرب الا نادرا فى ذلك الوقت ، فى هذه البلاد كان التعليم الثانوى أيضا فى غالبيته بين أيدى الأجانب والذين كانوا فى لبنان من الفرنسيين أساسا .

والحقيقة أن كثيرا من مؤسسات التعليم العالى كانت أجنبية ، وهو أمر له معان متعددة ، فأن يدرس الصبى أو الفتاة العربية فى احداها يعنى تغريبا اجتماعيا ونفسيا،وكان يعني الدراسة وفقا لطريقة مغايرة لتقاليد المجتمع الذى نشأ فيه ، والقيام بذلك من خلال وسيط من لغة أجنبية،التى أصبحت اللغة الأولى وربما اللغـة الوحيدة التى يفكر من خلالهـا فى موضوعات معينة ، وممارسة حرف معينة ، وهناك معان أخرى فى أن عدد الفتيات اللاتى تلقين تعليما ثانويا أو عاليا ، أكبر مما لو كانت المدارس الوحيدة المتاحة مدارس حكومية ، والقليل من الفتيات التحقن بالمدارس الحكومية فيما بعد المرحلة الابتدائيـة ، والكثير منهن التحقن بمدارس الراهبات الكاثوليك الفرنسيات أو البروتستانت الأمريكية ، وفى المغرب ، حيث كانت مدارس الارساليات أقل ، وعلى ارتباط وثيق بالسكان من المهاجرين،كان تعليم البنات فيما بعد المرحلة الابتدائية يكاد يبدأ فيها ، وفى الشرق العربى كانت البنات من المسيحيات واليهوديات أكثر من المسلمات التحاقا بالمدارس الأجنبيـة ، كما كن أكثر استيعابا للثقـافة الأجنبية وأكثر انفصالا عن تقاليد مجتمعهن .

وقد وجد خريجو المدارس الجديدة وظائف معينة شاغرة فى مجتمعاتهم المتغيرة ، ونادرا ما كانت النساء يجدن وظيفة عامة،عدا العمل بالتدريس أو التمريض ، ولكن كان بامكان الرجال العمل بالمحاماة أو الطب ، رغم محدودية المهندسين أو إلفنيين ، حيث كان التعليم العلمي والتقنى متخلفا ، وكان تعليم الفلاحين والحرفيين أكثر تدنيا ، وقبل كل شىء كانوا يأملون فى أن يصبحوا موظفى حكومة على مستويات اختلفت طبقا لدرجة وطبيعة السيطرة الأجنبية على المجتمع ، أكثرها فى مصر والعراق ، وأقلها فى

فلسطين والسودان ، حيث انه لأسباب مختلفة ظلت المناصب العليا بين أيدى البريطانيين ، وفى المغرب حيث سيطر المسئولون من فرنسا على المواقع الحاكمة ، أما المناصب الوسطى والأدنى فقد كانت فى أغلبها بين أيدى الأوربيين المحليين ٠

وقد كان ملاك الأراضى والتجار الوطنيون يحتاجون للسيطرة على آليات الحكومة لمصالحهم الخاصة ، وتطلع الشباب من المتعلمين الى أن يعملوا بالحكومة ، وقد أعطت هذه الطموحات قوة واتجاها لحركات المعارضة الوطنية للحكم الأجنبى الذى طبع هذه الفترة ، ولكن اندمج معها شىء آخر كان هو الرغبة والاحتياج الى المعيشة فى المجتمع بشكل جديد ٠

محاولات الاتفاق السياسى

وقد أراد الرجال والنساء المتعلمون المزيد من الفرص فى مجال الخدمة الحكومية المهنية ، كما أراد ملاك الأراضى والتجار تحقيق القدرة على السيطرة على الآلة الحكومية (الجهاز الادارى) ، وقد كانوا فى عدة أوقات قادرين على تعبئة الجماهير فى الحضر بالعزف على نغمة المصاعب العملية أو تعميق الاحساس بأن المجتمع فى خطر ، وكانت الوطنية من هذا النوع توفر أيضا للحكام الأجانب فرصا للحل الوسط وتعبئة التأييد الكافى لاجبار الجماهير على التفكير فى تلك الحلول ٠

وفى معظم البلاد لم يكن مستوى التنظيم السياسى عاليا ، اما لأن القوى الاستعمارية لم تكن لتسمح بالتهديدات الجادة لوضعهم ، أو لأن الأنماط التقليدية للسلوك السياسى ظلت مستمرة ، ففى مراكش وضعت مجموعة من الشباب المتعلم ، غالبيتهم ينحدرون من الطبقة البرجوازية فى فاس ، « خطة للاصلاح » فى عام ١٩٣٤ وبدءوا فى المطالبة باجراء التغيير فى المحمية الفرنسية ، وفى الجزائر تقدم بعض المهنيين من ذوى التعليم الفرنسى بمطالب لتحسين أوضاعهم فى الجزائر الفرنسية ، والحفاظ على ثقافتهم الخاصة ، وذلك عندما أحسوا أن الاستقلال أمل بعيد المنال ، وقد ساعدت الاحتفالات الشعبية عام ١٩٣٠

بالعيد المئوى للاحتلال الفرنسى للبلاد ، على اضفاء نوع من الاستعجال على مطالبهم (*) ، وفى سوريا وفلسطين والعراق تقدم المسئولون والضباط السابقون فى الخدمة العثمانية وبعضهم ينتمى للعائلات العريقة من كبار رجال الحضر ، وبعضهم ارتفع خلال الخدمة فى الجيش العثمانى يطلبون منحهم درجة أكبر من الحكم الذاتى ، وبحكم وضعهم كان من الصعوبة قبول مطالبهم لكونهم مستجدين فى النخبة الحاكمة ، وفى السودان بدأت مجموعة صغيرة من خريجى المدارس العليا فى عام ١٩٣٩ فى المطالبة بنصيب أكبر فى الادارة ٠

وفى غضون قرنين من الزمان ، كان القادة قادرين على تأسيس أحزاب سياسية ذات تنظيم عال ، وكان ذلك فى تونس ومصر ، وكان لكلتيهما هناك تراث طويل من سيطرة المدينة الكبيرة على الريف المستقر ، ففى تونس كان حزب الدستور من نفس النوع من القيادات المرنة،كما كان الحال فى الدول الأخرى ، وحل محله فى الثلاثينيات حزب من نوع آخر هو حزب الدستور الجديد الذى أسسه الحبيب بورقيبة (ولد فى ١٩٠٢) وأصبح تحت قيادة تونسية من الشباب الذين تلقوا تعليما فرنسيا عاليا ، ومع هذا فقد كان لهذا الحزب جذور ضاربة فى المدن الاقليمية،وفى السهل الساحلى الذى يزرع الزيتون ٠ ونفس الشىء انطبق على مصر ، حيث كان حزب الوفد الذى تشكل خلال الصراع ضد السياسة البريطانية بعد نهاية الحرب وأسس تنظيما دائما على طول البلاد وعرضها ، واستمد التأييد من الصفوة الحرفية المهنية وقطاعات أخرى من البورجوازية ، ومن بعض ملاك الأرض وليس كلهم ، كما أيده فى بعض أوقات الأزمات سكان الحضر بشكل عام ، وقد أعطت الجاذبية الشخصية لسعد زغلول الذى توفى سنة ١٩٢٨ ـ الوفد القدرة على التعبير عن الأمة حتى سنة ١٩٣٩ رغم الاختلافات بين زعاماته ٠

وأيا كانت الآمال العليا لمثل هذه الأحزاب والجماعات ، فقد كان هدفها المباشر تحقيق درجة أكبر من حكم الذات فى اطار النظام الاستعمارى

(*) لا يخفى أن وصف الاحتفال بالعيد المئوى للاحتلال الفرنسى للجزائر بأنه شعبى فيه مغالطة تاريخية ، فلم تكن التركيبة الاجتماعية فى الجزائر لتسمح بذلك ـ (المراجع) ٠

الذى لم يكونوا يحلمون بانهائه ، وفى بريطانيا أكثر من فرنسا ، تغير الاتجاه السياسى والرسمى تدريجيا نحو محاولة حماية المصالح البريطانية من خلال اتفاقيات مع مثل هذه الجماعات ، وبحيث تظل السيطرة النهائية بين أيدى البريطانيين ، ولكن مسئولية الحكم المحلى مع منح درجة محدودة من الحركة الدولية المستقلة للحكومات التى تمثل الرأى الوطنى ٠

وقد اتبعت هذه السياسة فى العراق ومصر ، ففى العراق كانت سلطة الانتداب البريطانى تمارس منذ البداية تقريبا من خلال الملك فيصل وحكومته ، وان اتسع مجال الحركة الحكومية فى عام ١٩٣٠ عن طريق اتفاقية عراقية انجليزية أعطيت العراق بمقتضاها الاستقلال الرسمى مقابل الموافقة على تنسيق سياستها الخارجية مع السياسة البريطانية ، والسماح لبريطانيا بقاعدتين جويتين ، واستخدام الاتصالات عند الحاجة ، وقبلت العراق كعضو فى عصبة الأمم كرمز للمساواة والسماح لها بالدخول فى المجتمع الدولى ٠ وفى مصر ، كان وجود حزب وطنى جيد التنظيم وتقف خلفه طبقة قوية من ملاك الأراضى ، وبرجوازية ليست راغبة فى التغيير العنيف من ناحية ومخاوف بريطانية من الطموح الايطالى من ناحية أخرى ، كل ذلك أدى الى التوصل لتسوية مماثلة من خلال اتفاقية أنجلومصرية عام ١٩٣٦ ٠ وقد أعلن عن نهاية الاحتلال العسكرى لمصر ، ولكن ظلت بريطانيا قادرة على ابقاء قوات مسلحة فى المنطقة حول قناة السويس ، وبعد ذلك مباشرة ألغيت شروط المعاهدة باتفاقية دولية، وانضمت مصر الى عصبة الأمم ، وفى كلا البلدين كان التوازن الذى تم التوصل اليه هشا ومزعزعا ، وكانت بريطانيا ترغب فى منح الحكم الذاتى فى اطار حدود أضيق مما يتقبله الوطنيون ٠ وفى العراق ، كانت النخبة الحاكمة صغيرة وغير مستقرة ، ولم تكن لها قاعدة صلبة من القوة الاجتماعية لترتكز عليها ٠ وفى مصر حلت الأربعينيات ، ولم يعد الوفد قادرا على السيطرة بشكل دائم على قيادة القوى السياسية فى البلاد ٠

وعلى النحو نفسه وجدنا أنه فى البلاد الواقعة تحت الحكم الفرنسى ـ لم يكن تآلف المصالح المفهومة أمرا ليصل الى الحد الذى يمكن

معه تحقيق ولو توازن هش ، ففرنسا كانت أضعف من بريطانيا على المستوى الدولى ، فبالنسبة لبريطانيا وجدنا أنه رغم تراخي قبضتها على كل من العراق ومصر ، فقد ظلتا ـ أى العراق ومصر ـ محاصرتين بالقوى البريطانية ،العسكرية والمالية ، وظلت الحياة الاقتصادية فى كل منهما تدور في فلك مدينة لندن ومصنعي القطن في لانكشير • ومن ناحية أخرى ، فان فرنسا لم تكن على يقين من قدرتها على الاحتفاظ بدول مستقلة فى دائرة نفوذها وذلك بسبب عدم استقرار العملة الفرنسية ، وما كان يعترى الاقتصاد الفرنسى من ركود ، وكذلك لتمركز قواتها المسلحة على الحدود الشرقية لفرنسا • وبالاضافة لهذا فقد كانت المصالح الفرنسية الأساسية فى المغرب مختلفة عن مصالح بريطانيا فى مصر ، ففى المغرب كان لسكان الأوربيين مطالب من الحكومة الفرنسية بدت ـ بسبب وضع هؤلاء السكان الأوربيين ـ معقولة : ففى الجزائر وتونس كان الأوربيون من كبار رجال الأعمال وملاك الأراضي يسيطرون على المجالس المحلية التى كانت تشير على الحكومة فى الميزانية وغيرها من الأمور المالية ، وفى باريس شكل ممثلو الفرنسيين الجزائريين (الفرنسيين المقيمين فى الجزائر) فى البرلمان الفرنسى ، وكذلك أصحاب المصالح المالية الكبرى المسيطرة على المصارف والصناعات ، بالاضافة للشركات التجارية فى المغرب ـ شكلوا جميعا جماعة ضغط Lobby ولم تكن الحكومات الفرنسية الضعيفة فى هذه الفترة بقادرة على مواجهتها . وقد ظهر هذا واضحا عندما حاولت حكومة الجبهة الشعبية فى عام ١٩٣٦ تقديم تنازلات بالسماح بتمثيل محدود للجزائريين المسلمين فى البرلمان الفرنسى وبدأت باجراء محادثات مع قادة الحركة الوطنية فى كل من تونس والمغرب الأقصى ، لكن معارضة جماعة الضغط (اللوبى الآنف ذكره) منعت أى تغيير فى الوضع ، وانتهت هذه الفترة بأن عم المغرب كله اضطراب وقمع •

وكان نفوذ جماعات الضغط القوية المعارضة للتغيير محسوسا أيضا فى سوريا ولبنان المنطقتين الواقعتين تحت الانتداب الفرنسى ، ففى عام ١٩٣٦ تفاوضت حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية مع كل من سوريا ولبنان حول اتفاقات مشابهة لتلك التى وقعتها بريطانيا مع العراق ، لتصبح سوريا ولبنان مستقلتين على أن يكون لفرنسا حق استخدام قاعدتين جويتين فى سوريا لمدة خمسة وعشرين عاما،وتسهيلات عسكرية فى لبنان ـ الأمر الذى كان مقبولا لدى تحالف زعماء الحركة الوطنية المهمين فى سوريا ، والصفوة السياسية بغالبيتها المسيحية فى لبنان ـ

لكن فرنسا لم تصدق على معاهدات من هذا النوع لسقوط حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية واستسلام الائتلاف الحاكم الضعيف الذى تبعها لضغوط جماعات الضغط المختلفة Lobbies فى باريس ٠

وقد تكرر فى فلسطين نفس هذا الغياب للتوازن المنظور فى المصالح منذ وقت مبكر ، بعد أن أصبح واضحا فى ادارة الانتداب البريطانى أنه سيكون من الصعب انشاء هيكل للحكومة المحلية لاستيعاب مصالح السكان العرب ومصالح الصهيونية ، وقد كانت النقطة المهمة للصهيونيين هى الحفاظ على الأبواب مفتوحة أمام الهجرة ، وكان ذلك بنفسه يعنى استمرار السيطرة البريطانية المباشرة حتى يصبح المجتمع اليهودى كبيرا ، الى الحد الذى يمكن معه السيطرة على الموارد الاقتصادية للبلاد ، ولرعاية مصالحه وبالنسبة للعرب كان منع الهجرة اليهودية على نطاق يمكن أن يعرض النمو الاقتصادى للخطر وتقرير المصير النهائى ، وقد كان هذان العاملان الضاغطان يتنازعان سياسة الحكومة البريطانية فى الحفاظ على السيطرة المباشرة ، والسماح بالهجرة فى حدود ، ومحاباه التنمية الاقتصادية اليهودية بشكل عام ، وتطمين العرب من وقت لآخر بأن ما يجرى لن يؤدى فى النهاية الى خضوعهم ، وكانت هذه السياسة أكثر ميلا لمصالح الصهيونية منها لمصالح العرب ، وبرغم كل هذه التطمينات والوعود التى بذلت للعرب ، فقد أدت الاجراءات الانجليزية الى اختصار الوقت بالنسبة لليهود، فاستطاعوا أن يملكوا زمام المبادرة وأن تصبح المسائل بأيديهم بسرعة ٠

وفى منتصف الثلاثينات ، أصبح الحفاظ على التوازن أكثر صعوبة بالنسبة لبريطانيا ، فقد أدى وصول النازى الى السلطة فى المانيا ، الى زيادة ضغط المجتمع اليهودى ومؤيديهم فى انجلترا للسماح بهجرة أكبر ، والهجرة بدورها غيرت التوازن السكانى وميزان القوى فى فلسطين ٠ فى عام ١٩٣٦ ، بدأت مقاومة العرب تأخذ شكلا مسلحا ، وقد كانت الزعامة السياسية فى يد جماعة من الوجهاء فى الحضر ، وكان أمين الحسينى مفتى القدس هو الشخصية البارزة ولكن بدأت زعامة عسكرية فى الظهور ، وكان لهذه الحركة تداعيات فى البلدان العربية المجاورة ٠ وفى اللحظة التى تعرضت فيها المصالح البريطانية للتهديد من قبل ايطاليا والمانيا ،

اندفعت بريطانيا الى الحفاظ على علاقات طيبة مع الدول العربية ، وفى مواجهة الموقف ، قامت الحكومة البريطانية بمحاولتين للحل ، ففى عام ١٩٣٧ تقدمت بخطة تفسيم فلسطين الى دولتين : فلسطينية ويهودية ، بعد بحث قامت به لجنة ملكية (لجنة بييل) ، وكان ذلك مقبولا لدى الصهيونية من حيث المبدأ ، ولم يكن كذلك بالنسبة للعرب ، وفى عام ١٩٣٩ وضعت « ورقة بيضاء » للتشكيل النهائى لحكومة ذات أغلبية عربية ، ووضعت حدود وضوابط على الهجرة اليهودية ، وشراء الأراضى ، وكان ذلك يمكن أن يكون مقبولا للعرب مع بعض التعديلات ، ولكن المجتمع اليهودى لم يكن ليقبل بحل يغلق أبواب فلسطين أمام معظم المهاجرين ، ويحول دون قيام الدولة اليهودية ، وكانت المقاومة اليهودية المسلحة قد بدأت فى الظهور ، وعند اندلاع الحرب الأوروبية الجديدة تجمدت الأنشطة السياسية الرسمية فى ذلك الوقت الى حين .

الفصل العشرون

الطرائق المتغيرة للحياة والفكر
(١٩١٤ ـ ١٩٣٩)

السكان والريف

لم يعد التفاهم بين القوى الاستعمارية والوطنيين المحليين ـ حتى فى أقوى وأنجح لحظاته ـ سوى التقاء محدود بين المصالح ، وقد حدثت تغيرات داخل المجتمعات العربية بدءاً من الثلاثينيـــات أدت فى أطوارها الى تغيير طبيعة العملية السياسية ٠

فقد حدثت هناك زيادة سريعـة فى السكان ، وربمــا كانت مصر أكثرها وأسهلها تقديرا يمكن الاعتماد عليه ، حيث تزايد الســكان من ١٢ر٧ مليونا فى عام ١٩١٧ الى ٩ر١٥ مليونا فى عام ١٩٣٧ بزيادة سنوية ١٢ فى الألف٠وبالتقدير التقريبى،كان اجمالى السكان فى البلدان العربية فى حدود ٥٥ ـ ٦٠ مليونا فى عام ١٩٣٩،وقد كان فى عام ١٩١٤ ما بين ٣٥ و ٤٠ مليونا ، وكان جزء بسيط من هذه الزيادة راجعــا لهجـرة الأوروبيين الى مراكش وليبيا ، واليهود فى فلسطين ، والأرمن المهاجرين من تركيا خلال الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها الى سوريا ولبنان ، وقد وازن تأثير ذلك الهجرة من المنطقة،حيث هاجر السوريون واللبنانيون الى غرب أفريقيا وأمريكا اللاتينية (لم تعد هناك هجرة بأعداد كبيرة الى الولايات المتحـدة كما كان الحال قبل عام ١٩١٤ ؛ بسبب قوانين الهجرة الأمريكية الجديدة) ، والعمال الجزائريون الذين كانوا يذهبون بشكل مؤقت الى فرنسا ، الا أن الزيادة الرئيسية كانت طبيعية ، ويبدو أن معدل المواليد

لم يكن يتناقص عددا بين قطاعات من البرجوازية التي مارست نوعا من تنظيم النسل ، وكان لها طموحات فى مستوى معيشة مرتفع ، وكان الانجاب بالنسبة لمعظم الناس ـ وانجاب الذكور بالتحديد ـ كان أمرا حتميا ، حيث ان وسائل ضبط النسل الفعالة لم تكن معروفة بشكل عام، كما أنها ـ أى زيادة الانجاب ـ كانت مصدرا للفخـر • وهذا الفخـر كان يعبر عن مصالح ، لأن الأطفال كان بامكانهم العمل فى الحقول منذ سن مبكرة ، وكان انجاب كثير من الأطفال يعد ضمانا ، خاصة فى مجتمع ينخفض فيه معـدل الأعمار ، ولم يكن هناك نظـام قومى للرعاية الاجتماعية ، بالاضافة للأمل فى أن يعيش بعضهم ليعتنى بوالديه عنـدما يتقدم بهما العمر ، وقبل كل ذلك كان هناك انخفاض فى معدل الوفيات نتيجة السيطرة على الأوبئة ، وتحسن الرعاية الطبية ، وقد نتج عنهما تزايد السكان ، وقد كان ذلك صحيحا فى كل قطاعات المجتمع ، وملحوظا وذا دلالة فى المدن بشكل خاص ، حيث لم تلعب الأوبئـة دورها التاريخى فى تشتيت الجمـوع فى الحضر من وقت لآخر •

كما اختلف التوازن بين قطاعات المجتمع نتيجة لتزايد السكان فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد شهدت حقبـة العشرينيات اختفاء الرعاة الرحل ، كما شهدت ظهور السكك الحديدية والسـيارات اللتين أضرتا بالنشاط الذى يعتمد عليه اقتصاد الرعى ، وهو تربية الابل للنقل ، وحتى فى المناطق التى مازال فيها الرعى هو الاستخدام الأمثل ـ أو الوحيد ـ للأعشاب والمياه الشحيحة ، فقد كانت حرية البدو فى الحركة قد قيدت ومالت للانضـباط بسبب القوات المسلحة المكونة بدورها من البـدو ، وظلت هناك سوق للأغنام ، ولكن فى مناطق تربية الأغنام على منحدرات الجبال ، أو على أطراف السهول على امتداد سيطرة الحكومات ، وكانت التغيرات فى الطلب من الحضر تدفع المجمـوعات البـدوية الى الحـركة لتقترب من أن تصبح مزارعين ، وهذا ما حدث فى منطقة الجزيرة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات •

وقد استخدمت فى هذه الفترة ، ربما للمرة الأخيرة ، القوات المسلحة للبدو الرحل فى الصراعات السياسية ، وذلك عندما ثار الشريف حسين

ضد الترك ، كانت قواته المسلحة قوامها من بدو غرب الجزيرة العربية لكن أى تحرك عسكرى فعال فى المراحل التالية من الحركة ، كان يعتمد على الضباط أو الذين خدموا فى الجيش العثمانى ، كما أن القوات التى قهر بها « عبد العزيز بن سعود » معظم الجزيرة العربية ، كانت أيضا من البدو الذين تحركت مشاعرهم بفعل مذهب دينى ، ولكن الرجل الذى قادهم كان ينتمى لعائلة من الحضر ، وكان الجزء الأساسى من سياسته اقناع البدو بالاستقرار • وفى العراق ، كان الصراع بين جماعات السياسيين فى الحضر فى الثلاثينات مايزال يمارس عن طريق اثارة القبائل البدوية فى وادى الفرات ، ولكن الحاكم كان قادرا على استخدام طريقة القصف الجوى الجديدة ضدهم •

وفى الريف المستقر ، لم تكن التغيرات قد حان وقتها بعد ــ كما كان الحال فى المناطق الرعوية ــ لاضعاف القواعد الاقتصادية التى بنى عليها اقتصاد الريف ، ففى معظم البلاد توسعت الرقعة الزراعية وتوسعت نظم الرى فى مراكش والجزائر ومصر والسودان والعراق • وفى مصر ، دخلت جميع مساحات الأراضى الخصبة فى الزراعة ، وكان التوسع باتجاه الأراضى الهامشية على الأطراف ، ولكن ذلك لم ينطبق على البلدان الأخرى ، فحيثما كان رأس المال متاحا ، كان من الممكن زيادة المحاصيل من الأراضى ، وحتى المساحات الممتدة من المناطق المنزرعة لم يكن بامكانها الوفاء باحتياجات سكان الريف فى بعض البلدان ، ولم يكن السكان يتزايدون فقط بحكم النمو الطبيعى ، ولكن أكثر الأراضى انتاجية لم تعد بحاجة لكل هذه العمالة ، وكان بامكان كبار ملاك الأراضى الحصول على الموارد الرأسمالية واستخدامها فى الميكنة ، وكان ذلك يعنى احتياجا أقل للعمال • وفى بعض الأماكن (مراكش وفلسطين) كان استيراد رأس المال مرتبطا باستيطان العمال الأجانب فى الأرض •

وقد حدثت عملية من الاستقطاب فى ريف عدد من البلدان ، فمن ناحية ، كانت هناك مزارع كبيرة من الأراضى الخصبة المروية تنتج للتصدير (القطن والحبوب والنبيذ وزيت الزيتون والبرتقال والتمر) ، وتستخدم

الجرارات والأسمدة عند الحاجة ، ويزرعها عمال يعملون مقابل أجـــر (أصبحت المشاركة فى المحصول أقل انتشارا) ٠ وكان يمتلك نسبة كبيرة منها شركات أجنبية أو أفراد أجانب ، وكان العمال من المهاجـــرين فى فلسطين وبدرجة أقل فى المغرب ٠ وعلى الجانب الآخر ، كانت الملكيات الصغيرة والأراضى المملوكة على المشاع للقرية ــ عادة ــ أقل خصوبة وغير مروية بشكل جيد ٠ وكان صغار المزارعين الأهليين بلا موارد رأسمالية وبلا امكانات فى الاقتراض ، يزرعون الحبوب والفواكه أو الخضراوات بطرائق أقل تقدما اما للاستهلاك أو للسوق المحلية ، وحيث سببت الزيادة فى السكان تدنيا فى نسبة الأرض الى الأيدى العاملة ، وهبوطا لمعدل الدخول ٠ وكان وضع هؤلاء المزارعين قد أصبح أكثر سوءا بسبب نظام الميراث الذى فتت الملكيات الصغيرة الى ملكيات أصغر ٠ وفى الثلاثينات ، زاد الضرر الواقع عليها بفعل الأزمة الاقتصادية العالمية ، التى أدت الى انخفاض أسعار المنتجات الزراعية ، وقد مس هذا كل المزارعين ، ولكن أولئك الذين كانوا فى موقف ضعيف هم الذين تأثروا بشكل أكثرة حدة، وخفت البنوك والحكومات لنجدة كبار الملاك الذين كان لهم نفوذ سياسى ، أو الذين كان انتاجهم مرتبطا بالاقتصاد العالمى ٠

وقد تحرك فائض السكان من الريف الى المدينة ، وهو ما كان يحدث دائما ، ولكنه حدث آنذاك بشكل أسرع ، وعلى نطاق أوســع ، وبنتائج مختلفة عن العصور السابقة ، فالقرى التى كان سكانها ينتقلون الى المدن ، كانت تعوض سكان الحضر الذين ضربتهم الأوبئة ٠ أما الآن ، فهجرة السكان من الريف أدت الى تضخم سكان الحضر الذين كانوا يتزايدون بالفعل بحكم التحسن فى الصحة العامة ٠ والمدن التى كانت بها فرص توظيف أكثر ، تنامت بشكل أسرع من الريف بشكل عام ، وزادت نسبة السكان الحضريين عما كانت ، فزادت القاهرة من ٨٠٠ ألف فى عام ١٩١٧ ، الى مدينة سكانها ١٣٠٠٠٠٠ عام ١٩٣٧ ، وفى عام ١٩٠٠ عاش أقل من ١٥٪ من سكان مصر فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠ الف نسمة ، وبحلول عام ١٩٣٧ زاد هذا الرقم بمقدار ٢٥٪ ، وبالمثل فى فلسطين تضاعف

السكان العرب فى المدن الخمس الكبرى على مدى عشرين عاما ، وفى المدن المختلطة فى المغرب أيضا تزايد العنصر العربى بشكل سريع •

الحياة فى المدن الجديدة

لقد حدث تغير فى طبيعة المدن وشكلها ، وقد بدأت تغيرات معينة قبل سنة ١٩١٤ واستمرت ـ بشكل أسرع ـ فيما بعد الحرب ، وقامت خارج المدن أحياء البرجوازية الجديدة ، ولم تكن هذه الأحياء تضم مساكن (فيلات) الأثرياء فقط ، وانما اشتملت أيضا على قصور وعمائر الشقق السكنية للطبقة المتوسطة المتنامية ، ومسئولى الحكومة والمعنيين وأعيان الريف • وقد كانت التغيرات فى بعض الأماكن مخططة وفى البعض الآخر عشوائية وعلى حساب تدمير القديم ، وقد أنجزت أعلى مستويات التخطيط فى مراكش ، حيث صمم « ليوتاى » Lyautey حيا سكنيا فرنسيا عاما بذوق متميز فى مدينة فاس الجديدة بعيداً عن فاس القديمة المحاطة بالأسوار ، وكان هدفه الحفاظ على حياة المدينة القديمة ، ولكن ما حدث فى النهاية لم يكن مخططا ، فالعائلات الموسرة ذات المكانة بدأت فى الانتقال من منازلها القديمة فى المدينة لمنازل أكثر اتساعا فى الأحياء الجديدة ، وحل محلهم المهاجرون من المناطق الريفية والفقراء ، وبدأ تدهور المظهر العام والحياة فى المدينة •

ولم يجد كل المهاجرين مأوى لهم فى المدينة ، فنشأت أيضا أحياء شعبية جديدة ، وكان معظم الذين استقروا فيها من العرب ، وفى المغرب من البربر ، ولكن كان هناك آخرون أيضا من (البيض الصغار) فى الجزائر من الذين ابتعدوا عن الأراضى التى لم يكن لديهم رؤوس الأموال لتنميتها ، وهناك المهاجرون الأرمن من تركيا فى حلب وبيروت ، وهناك المهاجرون اليهود فى فلسطين ، وبعض هذه الأحياء تنامت حول حدود المدن ، حيث كانت الورش والمصانع توفر فرص العمل • وفى القاهرة ، توسعت الأحياء البرجوازية غربا تجاه النيل وعلى ضفته الغربية ، قابلها التوسع فى الأحياء الفقيرة تجاه الشمال ، حيث كان يعيش أكثر من ثلث

السكان فى عام ١٩٣٧ ٠ وفى الدار البيضاء ، تنامت الأحياء الفقيرة حول المدينة ، وخاصة فى المناطق الصناعية ، ونشأت « مدن الصفيح » فى هذه المناطق وفى غيرها ، وهى قرى من البوص والصفيح كانت تظهر حيثما كانت هناك مساحة خالية ٠

وفى المدن ذات الجاليات الأجنبية الكبيرة ، انفصلت الأحياء الأوربية والأهلية رغم اقترابهما من بعضهما البعض ، فالدار البيضاء التى تحولت فى تلك الفترة من ميناء صغير الى كبرى المدن فى المغرب ، توسعت بانشاء مدينة أوربية حول المدينة القديمة ، ثم نشأت حولهما مدينة جديدة لها خصائص المدينة الاسلامية ، من أسواق ومساجد وقصر للحاكم وفيلات البرجوازية والاسكان الشعبى ٠ وفى مدن الشرق الأوسط ، لم يكن الانقسام أو الفصل كاملا تاما بهذا الشكل ، خاصة فى سوريا ولبنان حيث البرجوازية أساسا محلية ، والسكان من الأجانب قليلون ٠ ولكن فى فلسطين ، كان هناك فاصل حاد يقسم بين الأحياء العربية واليهودية ، وقد نشأت مدينة يهودية بالكامل هى تل أبيب جنبا الى جنب مع يافا العربية ٠

وقد كان المهاجرون الريفيون يميلون للاستقرار بين مواطنيهم ، على الأقل فى المراحل الأولى ، للحفاظ على حياتهم الاجتماعية ، وقد يتركون عائلاتهم خلفهم فى القرى فى البداية ، ولكنهم اذا أثروا بما يكفى لاحضار عائلاتهم ، فسوف تكون حياتهم فى المدينة استمرارا وامتدادا أو اعادة بناء لما تركوه هناك فى قراهم ، وقد جلبوا معهم حياة دلتا النيل الى القاهرة ، وحياة وادى دجلة الى بغداد ، وجبال قابيل الى الجزائر ، والشاوية وأطلس الصغرى الى الدار البيضاء ٠

وفى النهاية ينجذبون الى حياة مختلفة ، ليس فقط عن طريقة حياة القرية ، ولكنها أيضا مختلفة عن حياة المدينة ، وارتياد المحال ليس كالذهاب الى السوق ، رغم تفضيل المحال الصغيرة حيث يمكن انشاء العلاقات الشخصية ، كما وفرت المطاعم والمقاهى ودور السينما أنواعا

جديدة من الترويح ، وأماكن جديدة للتلاقى ، وأصبح بامكان النساء الخروج بشكل أكثر حرية ، والجيل الأصغر من النساء المسلمات المتعلمات بدأن فى الخروج بغير حجاب ، أو بوشاح ، وكانت رفاهية الحياة المنزلية أكبر من حيث توصيل المياه ، ونظم الصرف الصحي ، والكهرباء والتليفونات التى انتشرت فى العشرينات ، ودخل قبلها الغاز ، وتغيرت وسائل المواصلات ، وأدخلت شركة بلجيكية الترام فى بعض المدن الساحلية ، وبنهاية القرن التاسع عشر وبعدها ، ظهرت السيارة وشوهدت الأولى منها فى شوارع القاهرة سنة ١٩٠٣ ، وفى معظم المدن الأخرى بعد ذلك ، وبحلول الثلاثينات شاعت السيارات الخاصة والحافلات وسيارات الأجرة ، واختفت تقريبا المركبات التى تجرها الجياد فى كل هذه المدن ما عدا البلدان الصغيرة ، وتطلب المرور الميكانيكي طرقا وكبارى أفضل ، وتلك بدورها مكنت من توسيع مساحات المدن ، وتوسعت بغداد لأميال على طول ضفاف دجلة وامتدت القاهرة على جزيرتين فى النيل ، هما : الروضة والجزيرة ، وعبر الضفة الغربية للنهر .

وقد أدمجت وسائل الاتصال هذه من سكان الحضر بطرائق جديدة ، فلم يعد الرجال والنساء يعيشون بشكل كامل فى حى من الأحياء ، فقد يعيشون بعيدا عن أماكن عملهم ، والعائلات الممتدة يمكن أن تنتشر فى المدينة ، والناس من أصل عرقي واحد ، أو الجماعة الدينية يمكن أن يعيشوا فى نفس الأحياء مع غيرهم ، ومجالات الاختيار للزواج يمكن أن تتسع ، الا أن خطوطا غير منظورة للانقسام ظلت باقية ، فالتزاوج بين أديان مختلفة ظل صعبا ونادرا ، وفى المدن التى تحت الاحتلال الأجنبى ظهرت الحواجز ليس فقط بفعل الاختلافات القومية والدينية ، ولكن نتيجة الوعى بالقوة والعجز ، ومن بعض النواحى كانت الحواجز أعلى مما كانت من قبل ، فمع تنامى المجتمعات الأوروبية ، تزايدت احتمالات الحياة المنفصلة مثل حياتهم فى الوطن الأم ، وإذا تزايد عدد العرب الذين يتحدثون الانجليزية او الفرنسية ، فان القليلين من الأوروبيين تحدثوا العربية ، أو كان لهم أدنى اهتمام بالحضارة والثقافة الاسلامية ، وقد جلب كثير من طلاب العلم العرب

العائدين من دراستهم فى الخارج معهم زوجات أجنبيات ، لم يكن مقبولات تماما فى كلا المجتمعين •

كما أن البرجوازى لا يحتاج لأن يعيش فى حدود الحى الذى ينتمى اليه ، فلم يعد محدودا بمدينته كما كان الحال من قبل ، فالتغيرات فى النقل ربطت المدن والبلدان بطرق جديدة ، فتوسعت شبكة السكك الحديدية التى كانت موجودة بالفعل منذ عام ١٩١٤ فى بعض الدول ، كما ربطت طرق جيدة للمرة الأولى بين المدن الرئيسية فى معظم البلاد • وقد كان أعظم هذه التغيرات اقتحام الصحراء بالسيارة فى العشرينات من القرن العشرين ، عندما بدأ شقيقان استراليان اجتذبتهما أحوال الحرب الى الشرق الأوسط فى ادخال خدمة التاكسى المنتظمة ، وبعدها المركبات من ساحل المتوسط وعن طريق دمشق أو القدس الى بغداد ، والرحلة بين العراق وسوريا التى كانت تستغرق شهرا قبل الحرب ، أصبحت تستغرق أقل من يوم واحد ، والطالب الذى كان يسافر من شمال العراق الى الجامعة الأمريكية فى بيروت فى بداية العشرينات عن طريق الهند ، صار بامكانه الآن الوصول بشكل مباشر عن طريق البر ، وبنفس الطريق كانت الحافلات وسيارات النقل والشاحنات تعبر الصحارى قادمة من ساحل المتوسط •

ولم تعد الاتصالات أوسع من ذى قبل فقط ، ولكنها أصبحت أيضا ممكنة على مستويات أعمق ، وظهرت وسائط تعبير جديدة لتخلق عالما من الحوار ، وحد العرب المتعلمين أكثر مما استطاعت الهجرة وأسفار طلاب العلم الباحثين عن التعليم ، وتضاعفت الصحف وأصبحت جرائد القاهرة تقرأ خارج مصر ، واستمرت الدوريات الثقافية القديمة فى مصر ، وظهرت أخرى ، وخاصة الأدبية منها مثل « الرسالة والثقافة » التى نشرت أعمال الشعراء والنقاد ، وأنتجت دور النشر فى القاهرة وبيروت كتبا تعليمية لأعداد متزايدة من الطلاب ، كما نشرت أشعارا وروايات وبعض أعمال العلوم المبسطة والتاريخ ، التى وزعت حيثما قرئت العربية •

وبحلول عام ١٩١٤ ، كانت هناك بالفعل دور سينما فى القاهرة وبعض المدن الأخرى ، وأنتج فى عام ١٩٢٥ أول فيلم مصرى أصيل وكان من المناسب أن يكون عن أول عمل روائى مصرى أصيل هو رواية « زينب » ، وفى عام ١٩٣٢ أنتج أول فيلم ناطق فى القاهرة ، وفى عام ١٩٣٩ كانت الأفلام المصرية تشاهد فى كل العالم العربى ، وفى نفس الوقت كان هناك أيضا محطات راديو محلية تذيع الأحاديث والموسيقى والأخبار ، وكانت بعض الدول الأوروبية تذيع للعالم العربى وتتنافس فيما بينها .

وقد ساعدت الأسفار والتعليم ووسائط الاعلام الجديدة على ايجاد عالم مشترك من التذوق والأفكار المشتركة . وشاعت ظاهرة ازدواجية اللغة على الأقل فى البلاد على ساحل المتوسط ، واستخدمت الانجليزية والفرنسية فى الأعمال والأنشطة الاقتصادية وفى البيوت ، وفى حالة النساء اللائى تعلمن فى مدارس الأديرة الفرنسية ، قد تحل الفرنسية محل العربية فى بيوتهن كلغة أولى ، وأنباء العالم ترى فى الصحف والاذاعات الأجنبية ، وكان العلماء والمثقفون فى احتياج لقراءة المزيد باللغة الانجليزية أو الفرنسية أكثر من العربية ، وتفشت عادة الذهاب الى أوروبا لقضاء عطلة الصيف ، خاصة بين المصريين الأغنياء الذين يمكن أن يقضوا عدة أشهر هناك ، ونشأ المصريون والجزائريون والفلسطينيون وقد اعتادوا رؤية السائحين من الأمريكيين والأوروبيين والالتقاء بهم .

وقد أدت هذه التحركات والاتصالات الى تغيرات فى المزاج والميول ليست سهلة الوصف فى غالب الأحيان ، مثل طريقة فرش الأثاث وتعليق الصور على الجدران ، والأكل على الطاولة ، واستقبال الأصدقاء ، كما ظهرت أنماط مختلفة من اللباس ، خاصة بالنسبة للنساء اللاتى كانت ملابسهن انعكاسا للمودة فى باريس ، ونشأت وسائل ترفيه وترويح مختلفة بالمدن الكبيرة ، مثل ميادين سباق الخيل وكانت بمعنى ما شكلا جديدا من الاستمتاع برياضة قديمة ، ولكن التنس وهو رياضة برجوازية وكرة القدم التى يستمتع بها الجميع ويمارسها كثير منهم كانتا مستحدثتين .

وقد غير النموذج الأوروبى ووسائط الاعلام الجديدة من التعبير الفنى ، فالفنون المرئية بشكل عام كانت فى مرحلة وسيطة بين الجديد والقديم ، وكان هناك تدهور فى مستويات الحرفة بسبب المنافسة من السلع المستوردة من انتاج المصانع الضخمة ، وأيضا لأسباب داخلية مثل استخدام المواد الخام المحسنة والاحتياج لمراعاة الأذواق الجديدة ، وتشمل أذواق السائحين ، وبدأ بعض الرسامين والنحاتين فى العمل على نمط غربى ، ولكنهم لم ينتجوا شيئا ذا قيمة كبيرة للعالم الخارجى ، ولم يكن هناك عمليا أية قاعات فنية أو معارض حيث يمكن أن تتشكل الأذواق ، ولم تكن كتب التصوير منتشرة كما أصبحت فيما بعد ، كما أن الانجازات المعمارية الكبرى لمبانى الحكومة أسندت معظمها للمعماريين من الانجليز والفرنسيين ، وبعضهم (خاصة الفرنسيين فى المغرب) صمم زخارف شرقية ملصقة (باستيش) تبعث على السرور ، وبعض المعماريين العرب الذين تعلموا فى الخارج بدءوا فى بناء فيلات على نمط البحر المتوسط (أرت نوفو) Art nouveau فى جاردن سيتى بالقاهرة ، فيما عرف آنذاك بالمدرسة « الحديثة » .

وقد أنتجت تسجيلات الجرامافون الأولى للموسيقى العربية فى مصر فى البدايات الأولى للقرن ، كما أحدثت احتياجات الاذاعة والأفلام الموسيقية تدريجيا ، تغيرا فى الحفلات الموسيقية من الأداء المرتجل الى المكتوب ، والأداء الذى تجرى عليه البروفات والتدريبات تحولت من المؤدى الذى يكتسب حماسة والهاما من المشاهدين والسامعين الذين يحيونه ويشجعونه ، الى صمت الاستوديوهات ، وغنى المطربون بمصاحبة الأوركسترا : الفرقة الموسيقية التى جمعت بين الآلات الغربية والتقليدية ، وأصبحت بعض المقطوعات التى أدوها بحلول الثلاثينات أقرب الى موسيقات المقاهى الفرنسية والايطالية منها الى الموسيقى التقليدية ، الا أن التقاليد القديمة استمرت باقية وكانت هناك محاولات لدراستها فى القاهرة وتونس وبغداد ، وظهرت أم كلثوم ، مطربة عظيمة على الطريقة التقليدية ، رتلت القرآن وغنت أشعارا كتبها شوقى وغيره من الشعراء ، وجعلتها وسائط الاعلام الجديدة مشهورة من أقصى العالم العربى الى أقصاه .

ولقد كان الأدب أكثر المجالات نجاحا فى صـــهر العناصر الغربيـة والتقليدية ، وانتشر فى الصحف والراديو والأفلام نموذج حديث ومبسط من الآداب العربية فى أنحاء العـــالم العربى ، ويعود الفضـــل فى ذلك للأصـــوات واللهجات المصرية التى أصبحت مألوفة فى كل مكان ، وقد تأسست ثلاثة مجامع فى بغداد ودمشق والقاهرة للاشراف على التراث اللغوى ، ومع بعض الاستثناءات لم يكن هناك تهديد لسيادة اللغة الفصحى ولكن الكتاب كانوا يستخدمونها بأشكال جديدة ، وقد ظهرت مدرسة من الشعراء المصريين من مواليد التسعينيات من القـــرن التاسـع عشر هى جماعة « أبوللو » واستخدمت اللغة والأوزان التقليدية ؛ ولكنها حاولت التعبير عن المشاعر الشخصية بطريقة تعطى وحدة للقصيدة بكاملها ، وكان من أعظمهم زكى أبو شادى (١٨٩٢ ــ ١٩٥٥) وكان تأثير الشعر الانجليزى والفرنسى واضحا فى أعمالهم ، وكذلك فى أعمال مجموعة الرومانسيين من الجيل التالى : الذين آمنوا بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا أمينا عن المشاعر ، مع التركيز على العالم الطبيعى وهو ما لم يكن تقليديا فى الشعر العربى ، والذى أصبح بأوزانه وقوافيه حنينا الى عالم مفقود فى أعمال الشعراء اللبنانيين الذين هاجروا الى أمريكا الشمالية أو الجنوبية ، وكانوا رومانسيين أيضا فى نظرتهم للشـــاعر الذى اعتبروه صاحب ارهاص ، ملما بجوهر الأشياء مستلهما معرفته من وحى خارجى ٠ وقد وصلت الثورة ضد الماضى الى حد الرفض التـــام فى كتابات الشـــاعر التونسى أبى القاسم الشابى (١٩٠٩ ــ ١٩٣٤) ، وهو أكثرهم أصالة ، فيقول : « ان كل ما أنتجه العقل العـــربى طوال تاريخه ممل ويفتقد الالهـــام الشعرى » (١) ٠

وقد كان الانفصال عن الماضى ظاهرا أيضا فى تطور أشكال معينة من الأدب كانت غير معروفة فى الأدب الكلاسيكى ٠ فقد كتبت مسرحيات فى القرن التاسع عشر كما كتبت بعضها فى هذه الفترة ٠ ولكن المسارح اللازمة لعرضها كانت ما تزال نادرة ، فيما عدا ظهور نجيب الريحانى فى

مصر ومسرح النقد الاجتماعى الساخر ، وشخصية كشكش بك التى اخترعها ، وكان تطور الرواية والقصة القصيرة فى مصر عميق الدلالة ، حيث ظهر عدة كتاب ولدوا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر أو الأول من القرن العشرين ، أنشأوا وسطا جديدا لتمثيل ونقد المجتمع والأفراد ، وفى قصصهم صوروا الفقر والقهر فى القرية والمدينة ، وصراع الأفراد ليحققوا ذواتهم فى مجتمع حاول احتواءهم ، والصراع بين الأجيال ، والتاثيرات المزعجة لطرائق الحياة والقيم الغربية ، وكان من بينهم محمود تيمور (١٨٩٤ ــ ١٩٧٣) ويحيى حقى (المولود فى ١٩٠٥) ٠

وقد كان أفضل من عبر عن مشكلات وآمال جيله هو طه حسين (١٨٩٤ ــ ١٩٧٣) المصرى ، ولم يكن الممثل الوحيد لذلك الجيل ، ولكن كان أكثرهم صدقا ، وهو كاتب أحد الكتب التى من المتوقع أن تظل باقية كجزء من الأدب العالمى ، وهى سيرته الذاتية « الأيام » ، وهى تقص كيف أصبح طفل أعمى واعيا بنفسه وبعالمه ، وتشمل كتاباته الروايات والمقالات والأعمال التاريخية والنقد الأدبى ، وعملا مهما هو « مستقبل الثقافة فى مصر » ، وهى تبين فى هذه الفترة محاولات دؤوبة للحفاظ على توازن ثلاثة عناصر جوهرية كما يراها فى الثقافة المصرية المميزة : العنصر العربى وقبل كل شىء اللغة العربية الفصحى والعناصر المستجلبة من الخارج فى عصور مختلفة وعلى رأسها العقلانية اليونانية ، والعنصر المصرى الأساسى المستمر على مدى التاريخ :

عناصر ثلاثة تكون منها الروح الأدبى المصرى ، منذ استعربت مصر ، أولها العنصر المصرى الخالص الذى ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم ، وعلى تأثرهم بالمؤثرات المختلفة التى خضعت لها حياتهم ، والذى نستمده دائما من أرض مصر وسمائها ، ومن نيل مصر وصحرائها ، والعنصر الآخر هو العنصر العربى الذى يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة والذى مهما نفعل فلن نستطيع أن نتخلص منه ، ولا أن نضعفه ، ولا أن نخفف تأثيره فى حياتنا ، لأنه قد امتزج بهذه الحياة امتزاجا مكونا لها ، مقوما بشخصيتها ، فكل افساد له افساد لهذه الحياة ، ولا تقل انه

عنصر أجنبى ، فليست اللغة العربية فينا لغة أجنبية ، وانما هى لغتنا ، وهى أقرب الينا ألف مرة ومرة من لغـــة المصريين القدماء ، أما العنصر الثالث ، فهو هذا العنصر الأجنبى الذى أثر فى الحياة المصرية دائما ، والذى سيؤثر فيها دائما ، والذى لا سبيل لمصر أن تتخلص منه ، ولا خير لها أن تتخلص منه ، لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه ، وهو الذى يأتيهـــا من اتصالها بالأمم المتحضرة فى الشرق والغرب ، جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقين فى العصر القديم ، وجاءها من العرب والأتراك والفرنجة فى القرون الوسطى ، ويجيئها من أوروبا وأمريكا فى العصر الحديث ، فانى أحب أن يقوم التعليم المصرى على شىء واضح من الملاءمة بين هذه العناصر الثلاثة (٢)(*) ٠

وقد أثار تأكيده بأن مصر كانت جزءا من عالم الثقافة الذى شكله الفكر اليونانى اهتماما كبيرا فى ذلك الوقت ، ولكن اســـهامه الذى ظل باقيا كان فى اهتمامه وحرصه على اللغة العربية ، وبرهنته على أن بالامكان استخدامها للتعبير عن كل دقائق الأحاسيس والأفكار الحديثة ٠

وقد كتب أيضا عن الاسلام ، ولكن ما كتبه فى العشرينات والثلاثينات كان على شكل اعادة خلق تخيلى لحياة النبى ﷺ بطريقة يمكن أن ترضى مشاعر العامة ، وبعدها كتب بشكل مختلف ، ولكن فى تلك الفترة لم يكن المبدأ الموحد لفكره هو الاسلام بقدر ما كان الهوية الشاملة للأمة المصرية ٠ وقد أصبح ذلك من خصائص المتعلمين العرب من جيله بشكل أو بآخر ، وكانت الفكرة المحورية هى فكرة الأمة ، ليس فقط كيف تصبح مستقلة ، ولكن كيف يمكنها اكتساب القوة والعافية للازدهار فى العالم الحديث ، وقد يختلف تعريف الأمة حيث كان كل بلد عربى يواجه مشكلة مختلفة متعلقة بحكامه الأوربيين ، كان هناك ميل على الأقل بين القادة السياسيين لتطوير حركة قومية منفصلة فى كل منها ، وأيديولوجية لتبريرها ، وقد كان ذلك صحيحا بشكل خاص فى مصر التى كان لها قدرها السياسى الخاص منذ عصر محمد على ، وفى بعض الحالات كانت فكرة الوجود المنفصل

(*) تمت الترجمة من النص الانجليزى ، لا بالرجوع لأسلوب طه حسين نفسه — (المراجع) ٠

تكتسب شرعية نظرية تاريخية ، وقد كانت الحركات القومية توازن ضد الواقع الحاضر والماضي القريب ، وكان يجتذبهـا لذكرى الماضي البعيد فيما قبل الاسلام ما جسدته اكتشافات الآثار وافتتاح المتاحف ، وقد أثار اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في علم ١٩٢٢ اهتماما بالغا ، وشجعت المصريين على تأكيد استمرارية الحياة المصرية منذ عصر الفراعنة .

وقد ظهر أحمد شوقي شاعر البلاط المصري في العشرينات كمتحدث عن الوطنية المصرية ، التي استمدت الهامها وآمالها من آثار الماضي السحيق لمصر ، وفي احـدى قصائده بمناسبة الاحتفال بوضع أحـد الآثار في أحد الحدائق العامة في مصر ، يصف أبا الهول ينظر في ثبات الى التاريخ المصري كله .

وقد كان العنصر العربي عميق الجذور في مثل هذه الحركات سواء أكان صريحا أم لا ، حيث كان الهدف من حركات القوميين هو خلق حكم ذاتي ، ومجتمع حديث مزدهر ، فقد كان احياء اللغة العربيـة كوسيط للتعبير الحديث ورابطة للوحدة موضوعا محوريا .

ولنفس السبب ، كانت هناك حتمية لوجود العنصر الاسلامي في القومية . وقد مال ذلك الوجـود لأن يكون ضمنيا ودفينـا بين الطبقات المتعلمة في تلك الفترة بسبب انفصـال الدين عن الحياة السياسية ، كما لو كان ذلك الانفصال سببا لنجاح القومية في العالم الحديث ، وأيضا لأن بعض دول المشرق العربي مثل سوريا وفلسطين ومصر ، عاش فيها المسيحيون والمسلمون جنبـا الى جنب ، ولذا كان التركيز على الروابط الوطنية المشتركة (كانت لبنان استثناء جزئيا من ذلك فلبنان الكبير الذي أوجده الفرنسيون كان يضـم مسلمين أكثر مما كانت تضـمه المنطقة العثمانية المتميزة ، لذلك شعر معظم المسلمين المنتمين له أنه لابد أن ينضم الى هوية عربية او سورية أكبر ، وبالنسبة لمعظم المسيحيين كان لبنـان أساسا دولة مسيحية ، وقرب نهاية الثلاثينات بدأت فكرة أن تكون هناك دولة قائمة على اتفاق بين المجتمعات المسيحية والاسلامية تكتسب قوة) .

وفكرة أن مجموعة من الناس تكون دولة ، وأن تلك الدولة يجب أن تكون مستقلة ، هي فكرة بسيطة ، أبسط من أن توفر في حد ذاتها دليلا على الطريقة التى تنظم بها الحياة الاجتماعية ، وفي تلك الفترة كانت تلك الفكرة بؤرة لمجموعة من الأفكار الأخرى ، وقد كانت القومية بشكل عام في تلك الفترة علمانية تؤمن برابطة يمكن أن تضم الناس من ديانات مختلفة ، وسياسة مبنية على مصالح الدولة والمجتمع ، وكانت دستورية بما يعنى أن ارادة الأمة يجب أن يعبر عنها حكومات منتخبة مسئولة أمام مجالس منتخبة ، وكان التركيز على الاحتياج للتعليم الشعبى الذى يمكن من المشاركة بشكل أكبر في حياتها الشاملة ، ودافعت أيضا عن تنمية الصناعات الوطنية ، حيث كان التصنيع يبدو مصدرا للقوة ٠

وفكرة أوربا كمثال للمدنية الحديثة التى أحيتها الحكومات الاصلاحية للقرن السابق ، كانت فكرة قوية في هذه الحركات القومية،فأن تكون مستقلا هو أن تكون مقبولا لدى الدول الأوربية على مستوى من المساواة ، فكان يلزم الغاء الامتيازات الأجنبية والامتيازات القانونية للمواطنين الأجانب ليسمح لك بالانضمام الى عصبة الأمم ، وأن تكون عصريا هى أن تكون لك حياة سياسية واجتماعية مماثلة لتلك التى في بلدان غرب أوربا ٠

ويستحق أحد المكونات الأخرى لهذه المجموعة من الأفكار أكثر من ذكر عابر ، فقد أعطت القومية قوة دافعة لحركة تحرير المرأة ، وافتتاح المدارس للفتيات من جهة الحكومات ، والبعثات الأجنبية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد وفرت زخما لهذه الفكرة ، وقد شجع أيضا عليها السفر ، والصحافة الأوربية ونموذج المرأة الأوربية ، كما وجدت مبررا نظريا في كتابات بعض الكتاب المرتبطين بحركات الاصلاح الاسلامية (ولكن ليس كلهم بحال من الأحوال) ٠

وتطرح السيرة الذاتية لأحد أفراد عائلة سنية بارزة من بيروت بعض الأفكار عن تخمرات التغير ، وقد ولدت « عنبره سلام » في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ونشأت في دفء الحياة العائلية

التقليدية ، تلبس الخمار فى الأماكن العامة حتى أواخر العشرينات من عمرها ، وتلقت تعليما عصريا كاملا ، كانت أمها وجدتها متعلمتين وتقرآن كتب الدين والتاريخ ، وقد أرسلت الى المدرسة الكاثوليكية ومنها احتفظت بذكريات دائمة عن تواضع الراهبات ورقتهن،وبعدها الى مدرسة أنشأتها مؤسسة خيرية اسلامية ، وتلقت أيضا دروسا فى العربية من أحد أبـرز علماء ذلك الوقت ، وكشفت زيارتها للقاهرة عام ١٩١٢ عن بعض عجائب المدنية الحديثة : الأضواء الكهربائية ، والمصاعد ، والسيارات ، والسينما ، والمسارح ذات المقصورات الخاصة للنساء ، وقبل أن تجتـاز سن المراهقة كانت قد بدأت فى الكتابة للصحافة ، والتحدث فى الاجتماعات النسائية وفى تكوين أفكار جديدة عن الاستقلال الشخصى ، ورفضت أن تخطب لأحد أقاربها فى سن مبكرة ، وقررت أنها لا تستطيع الزواج من شخص لا تعرفه ، وعندما تزوجت كان ذلك من أحد أفراد العائلات البارزة فى القدس هو أحمد سميح الخالدى ، أحد الرواد فى تطوير التعليم العربى، وشاركته مصاعب حياة العرب الفلسطينيين بينما كانت تلعب دورها فى تحرير المرأة العربية (٤) ٠

وقد أخفت الرغبة فى توليد كل القوة الكامنة فى الأمة معنى جديدا على تحرير المرأة ، فكيف يمكن للأمة أن تزدهر بينما نصف قوتها خاملة معطلة ، وكيف يمكن أن تكون مجتمعا حرا طالما اختـل تساوى الحقوق والواجبات ؟ وقد ولدت ثورة وفوران النشـاط القومى نوعا جديدا من الشجاعة ، فعندما وصلت زعيمة حركة تحرير المرأة فى مصر هدى شعراوى (١٨٧٨ ــ ١٩٤٧) الى محطة القطار الرئيسية فى القاهرة عند عودتها من مؤتمر نسائى فى روما عام ١٩٢٣ ، نزلت على سلم القطار ورفعت الحجاب عن وجهها ، ويقال ان النساء اللاتى حضرن هذا الموقف اندفعن فى التصفيق وبعضهن حذا حذوها ، وأيضا بعض أفراد جيلها ، ولكن النساء من الجيل التالى لم يضعن الحجاب اطلاقا ٠

وفى عام ١٩٣٩ لم تكن التغييرات قد تعمقت ، وكانت هناك فتيات فى المدارس وقليل منهن فى الجامعـات ، وتوسعت الحرية فى التفاعل

الاجتماعى ، ولكن لم تكن هنــاك تغيرات فعليــة فى الوضع القانونى للنساء ، وشاركت بعض النساء فى الأنشطة السياســية كحركة الوفد فى مصر ، والمقاومة السياسية للبريطانيين فى فلسطين ، ولكن قليلا من المهن كانت مفتوحة أمامهن ، وقطعت مصر ولبنان وفلسطين شوطا أطول على هذا الطريق من بعض البلاد الأخرى ، مثل : مراكش والســودان وبلاد شبه الجزيرة العربية حيث لم يحدث تغير ملحوظ •

اسلام الصفوة واسلام العامة

لقد تشكل الســكان المستقرون فى المدن ـ أيا كانت مستويات دخولهم ـ من تجربة التعايش جنبــا الى جنب فى مجتمع حضرى ، وقد ربطهم ببعضهم بعضا نظام من العادات المشتركة ، والشعور بالملكية العامة لأشياء مقدسة ، خاصة الأعيان الذين يعيشون بين رجال الحرف وأصحاب المحال ، لرعاية انتاجهم ، والدفاع عن مصالحهم وقد ربط الدين بين المدينة والريف رغم اختلافهما ، بالالتزام الجماعى بالصلاة وصيام رمضان والحج ، وكان معظم العلماء فى الحضر ينتمون الى طريقة أو أخرى من الطرق الصوفية ، التى انتشرت تعاليمها فى أرجاء الريف ، ورغم أن القرويين كانوا يعيشون حسب أعرافهم ، الا أنهم كانوا يحترمون الشريعة من حيث المبدأ ، وقد يلجأ الى تعاليمها فى بلورة الاتفاقيات المهمة والمسئوليات المشتركة ، الا أن هذين العالمين من الفكر والممارسة قد أصبحا أكثر تباعدا عن أحدهمـا الآخر ، بعد أن أصبح الانفصال العضوى فى مدن من نوع جديد ، علامة على انفصال أعمق فى المواقف والمزاج والعادات والايمان •

وبحلول الثلاثينات ، لم يعد جزء كبير من الصفوة المتعلمة يعيش فى اطار الشريعة ، ففى الجمهورية التركية الجديدة ألغيت الشريعة رسميا وحلت محلها القوانين الوضعية المستمدة من النماذج الأوربية ، ولم تصل أية دولة عربية أو سلطة أوربية تحكم العرب الى هذا المدى ، ولكن فى البلدان التى تأثرت باصــلاحات القرن التاســع عشر سواء أدخلهــا الأوتوقراطيون المصــلحون أم الحكام الأجانب ، فقد تميزت بازدواجية

النظم القضائية التى أصبحت راسخة فى ذلك الوقت ، فكان يفصل فى القضايا الجنائية والمدنية والتجارية وفقا للنصوص والقوانين الأوربية ، أما سلطة الشريعة ـ والقضاة الذين كانوا يطبقونها ـ فقد كانت قاصرة على مسائل الأحوال الشخصية ، وكان الاستثناء الرئيسى فى الجزيرة العربية : حيث كانت الصيغة الحنبلية للشريعة هى الصيغة الوحيـــدة المعتمدة ، وفرضت الالتزامات الدينية الخاصة بالصلاة والصـيام بالقوة على أيدى مسئولى الدولة ، أما فى الدول التى تميزت بمعدل أسرع فى التغيير ، فلم تعد الشريعة تراعى بنفس الشمول الذى كانت عليه من قبل ، رغم أنها ظلت تحكم اللحظات المهمة فى حياة الناس ، فى الميلاد والختان وعقود الزواج والموت والمواريث ، ولكن كانت طقوس الصلوات اليومية الخمس التى يعلنها الأذان على المآذن أقل أهمية كمقياس للوقت والحياة ، وربما فى الأحياء البرجوازية الجديدة قل الالتزام الكامل برمضان عما كان فى الماضى ، عندما تحررت الحياة من الضغوط الاجتماعية للمدينة التقليدية ، حيث يراقب كل انسان جيرانه ، وزاد انتشار المشروبات الكحولية ، وتزايدت أعداد أولئك الذين اعتبروا الاسلام ثقافة موروثة أكثر من كونه قاعدة للحيـــــاة •

وقد مال البعض من بين الصفوة المتعلمة ـ أولئك الذين ظل الاسلام بالنسبة لهم ايمانا حيا ـ الى تفسيره بشكل جديد ، فقد تغير وضع العلماء فى المستويات العليا من المجتمع الحضرى ، فلم يعودوا يشغلون المواقع المهمة فى الحكومة ، وحل محلهم زعماء الأحزاب السياسية الذين يعبرون عن طموحات الطبقة البرجوازية ، ولم يعد التعليم الدينى يجذب الشباب والطامحين ، الذين كانت امكانات الاختيار مفتوحة أمامهم ، ولم يعد ذلك التعليم يؤدى الى التقدم والترقى فى الوظائف الحكومية ، ولم يعد يؤدى الى المعاونة على تفهم أو على استيعاب العالم الحديث ، وقد أصبح الشبان (والى حد ما الشابات) من الأسر الكبرى فى ســـوريا ولبنان وفى مصر وتونس يلتحقون بالمدارس الثـــانوية العصرية ، حكومية أو أجنبيـــة ، والجامعات فى القاهرة أو بيروت أو فرنسا أو انجلترا أو الولايات المتحدة ،

وحتى فى مراكش ، التى كان التغير فيها بطيئا ، كانت المدرسة الفرنسية الجديدة التى أنشأها الفرنسيون فى فاس وكلية مولاى ادريس ، تجتذب الطلبة بعيدا عن جامعة القرويين ٠

ولم يعد اسلام الذين تعلموا بالطرائق الجديدة كاسلام أولئك المتعلمين فى الأزهر أو الزيتونة ، ولكنه أصبح اسلام المصلحين من مدرسة « محمد عبده » وأولئك الذين فسروا أفكاره فى اتجاه الانفصال الواقعى بين دائرتى الدين والحياة الاجتماعية ، وقد وجدوا موضوعا جديدا للمناقشة فى العشرينات بعد الغاء الخلافة العثمانية وظهور الجمهورية التركية الجديدة حول طبيعة السلطة السياسية ٠ وأحد تلاميذ الامام محمد عبده كان « الشيخ على عبد الرازق » ، الذى وضع كتابا شهيرا عن « الاسلام وأصول الحكم » قال فيه ، ان الخلافة ليست مقدسة ، وان النبى ﷺ لم يبعث لتأسيس دولة ، ولم يفعل ذلك فى واقع الأمر :

والحق ، ان الدين الاسلامى برىء من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون ، وبرىء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة ، ومن عز وقوة ، والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة ، وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها ، وانما تركها لنا ، لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة (٥) ٠ وقد استقبلت أفكاره بشكل سيىء ، من المحافظين،ولكن آثارها من ناحية عدم وجوب استعادة الخلافة كانت مقبولة بشكل عام ٠

وقد كان الخط الآخر من الفكر المستمد من الامام « محمد عبده » هو تأكيد الحاجة للعودة الى أصول الدين ، لاستنباط مسئولية أخلاقية للمجتمع تكون مقبولة فى العصر الحديث ، وقد كان لهذه النوعية من الاصلاح تأثير كبير فى المغرب ، واتخذ فى النهاية شكلا سياسيا ، وقد تأسست فى الجزائر جمعية العلماء الجزائريين فى عام ١٩٣١ ، على أيدى

محمد بن باديس بهدف احياء القيم الأخلاقية للاسلام ، واحياء اللغة العربية ، بين شعب اقتلعه من جذوره قرن من الحكم الفرنسى ، وقد استلزمت هذه المحاولة وضع تفسير للاسلام ، مبنى على القرآن والحديث ، ويميل لكسر حواجز الاختلافات بين الفرقاء ومدارس الفقه وانشاء مدارس غير حكومية تدرس باللغة العربية ، والعمل على تحرير المؤسسات الاسلامية من سيطرة الدولة ، وأثار عملها حفيظة أقطاب الصوفية وشكوك الحكومة الفرنسية ، وبحلول عام ١٩٣٩ أصبحت أكثر اندماجا فى الحياة السياسية وتوحدت مع المطالب القومية بأن تكون للمسلمين حقوق ، تتساوى مع حقوق الفرنسيين تحت النظام الفرنسى ، بدون التخلى عن قوانينهم المتميزة وأخلاقياتهم الاجتماعية ٠

وفى مراكش أيضا ، تجذرت تعاليم الاصلاحيين فى العشرينات من هذا القرن ، وكانت لها نتائج مماثلة ، وقد دعت الى محاولة تطهير الاسلام فى مراكش من فساد العصور الماضية ، وهاجمت وضعية أئمة الصوفية التى اكتسبوها فى المجتمع المراكشى ، والدعوة الى انشاء مجتمع ودولة مبنيين على أسس الشريعة مما كان من شأنه معارضة حكم المحتلين الأجانب للبلاد ، وقد منحت هذه التعاليم الطريق الى العمل السياسى ، وعندما ظهرت حركة قومية كانت بقيادة أحد تلاميذ المصلحين هو « علال الفاسى » (١٩١٠ ــ ١٩٧٤) ، وقد حانت لحظة العمل فى عام ١٩٣٠ عندما حاول الفرنسيون احلال القانون العرفى محل الشريعة فى مناطق البربر ، والتى فسرها القوميون بأنها محاولة لاحداث انشقاق بين العرب والبربر كما أمدتهم بقضية يمكن تعبئة الرأى العام الحضرى حولها ٠

وقد كانت تلك الحركات محدودة بين الصفوة المتعلمة ، ولكن الجماهير فى الحضر والريف ظلت متمسكة بطرائقها التقليدية ومعتقداتها وسلوكها ، وبالرغم من أن الصلاة والصيام والحج قد منحت شكلا لمسار الأيام والسنين ، فان الواعظ فى المسجد يوم الجمعة ، والمعلم الصوفى القائم على ضريح الولى : ظلوا هم الذين يشكلون الرأى الشعبى ويعبرون عن تساؤلات قضايا ذلك العصر ، وقد ظلت الطرق الصوفية واسعة الانتشار

بين الجماهير فى المدينة والريف ، ولكن طبيعتها ودورها تغيرا ، ولم ينضم الى هذه الطرق الا عدد قليل من العلماء والطبقة المتعلمة بسبب تأثير الاصلاح والوهابية • ولم تعد أفكار الصوفية وممارساتها تزاول فى اطار ثقافة الحضر الراقية ، وعندما سيطرت الحكومة على الريف بقوة أصبح الدور السياسى لأئمة الصوفية محدودا عن ذى قبل ، ولكن حيثما ضعفت هذه السيطرة الحكومية أو غابت ، يمكن أن يصبح هؤلاء القادة زعماء لحركة سياسية ، وقد قام شيوخ الطرق السنوسية خلال الغزو الايطالى لليبيا بزعامة المقاومة فى المنطقة الشرقية •

وقد انتشرت الاتجاهات السياسية النشطة فى عالم الاسـلام الشعبى ، فقد قامت بين العمال الجزائريين فى فرنسا والجزائر ، حركة شعبية انتشرت فى الثلاثينات ، أطلقت على نفسها « نجمة شمال أفريقيا » بقيادة « مصالى الحاج » ، وهى حركة قومية بشكل أكثر صراحة وجاذبية من حركات الصفوة ذات التعليم الفرنسى ، وتخاطب المشاعر الاسلامية بشكل أكثر وضوحا • ولكن الحركة الأعظم دلالة قامت فى مصر ، وأصبحت نموذجا للمجموعات المشابهة فى البلدان الاسلامية الأخـرى : وهى جمعية الاخـوان المسلمين ، التى تأسست عام ١٩٢٨ على أيدى مدرس بالمدارس الابتدائية هو حسن البنا (١٨٤٣ ـ ١٩٠٦) ، ولم تكن تلك الجمعية قاصرة على السياسة كما عبر عن ذلك مرشدها العام فى احدى خطبه بما معناه :

« لستم جمعية خيرية ، ولا أنتم بحزب سياسى ، ولا أنتم منظمة محلية ذات أغراض محددة ، ولكنكم روح جديدة فى قلب هـذه الأمة لتهبوها حياة القرآن ، وحين تسألون عما تدعون اليه ، فأجيبوا بأنكم تدعون الى الاسلام ، الى رسالة محمد ، الى الدين الذى يشمل الحكومة ، وتشكل الحرية أحد التزاماته ، واذا قيل لكم انكم سياسيون ، فأجيبوا بأن الاسلام لا يسمح بذلك الفصل ، واذا اتهمتم بالثورية قولوا : « نحن صوت الحق والسلام الذى نؤمن به ونفخـر به واذا عن لكم أن تقاومونا فالله يقيننا على الدفاع عن أنفسنا من ظلمكم » (٦) •

وقد بدأت حركة الاخوان كحركة لاصلاح أخلاقيات الأفراد والمجتمع ، مبنية على تحليل أوجه الخطأ فى المجتمعات الاسلاميـــة ، وهو اتجـــاه مماثل للسلفية ومستمد منها ، وقد آمنت الحركة أن الاسلام قد تدهور نتيجة لسيادة روح التقليد الأعمى ، وظهور التطرف الصوفى ، بالاضافة الى تأثير الغرب ، الذى جلب برغم فضائله الاجتماعية قيما غريبة أجنبية ، وفساد الأخلاق والأنشطة التبشيرية ، والسيطرة الامبريالية ، وأن بداية العلاج للمسلمين هى الرجوع الى الاسلام الحقيقى ، اســـلام القرآن كما يفسره الاجتهاد الأصولى الصادق ، ومحاولة اتباع تعاليمه فى كل نواحى الحياة ، وأنه يجب أن تكون مصر دولة اسلامية على أسس من الشريعـــة وأن تسيطر على كل نواحى الحياة ، ويجب أن تتعلم النساء ويسمح لهن بالعمل مع مراعاة الفصل بينهن وبين الرجال ، ويجب أن يكون التعليم مبنيا على الدين ، واصلاح الاقتصاد فى ضوء المبادىء المستمدة من القرآن ٠

وقد كان لهذه التعاليم آثارها الســـياسية ، رغـــم أن الاخـوان لم يطالبوا فى البداية بأن يحكموا بأنفسهم ، ولكنهم سيعترفون بحكام يحكمون طبقا للشريعة ويعارضون الحكم الأجنبى الذى كان يهدد الشريعة وأمة المؤمنين ، وكانوا مهتمين فى المقام الأول بمصر ، ولكن نظرتهم امتدت لكل العالم الاسلامى ، وكان اشتراكهم الفعل الأول فى السياسة مع ثورة العرب الفلسطينيين فى أواخر الثلاثينات ، وبنهـاية العقد كانوا قـوة سياسية معترفا بها ، وينتشرون بين سكان الحضر ، لا بين الفقراء أو ذوى التعليم العالى ، ولكن بين ذوى الوضعية المتوسطة من الحرفيين وصـــغار التجار والمدرسين والمهنيين ٠

وقد آمنت هذه الحركات مثل الاخوان المسلمين ، بأن مذاهب وفقه الاسلام يمكن أن توفر قواعد للمجتمع فى العالم المعاصر ، وقد شـــجعها ظهور دولة على هذه الأسس هى العربية السعودية ، وقد أصبح لمحاولات الملك عبد العزيز واعوانه من الوهابيين للحفاظ على سيادة الشريعة بصيغتها

الحنبلية فى مواجهة العادات القبلية من ناحية ، والتحديات من الغرب من ناحية أخرى ، أصبح لها تأثير كبير فيما بعد عندما احتلت المملكة وضعية أكثر أهمية فى العالم ، ولكن حتى فى هذه الفترة (أى قبل ظهور البترول) ، كان للسعودية صدى معين رغم فقرها وتخلفها ؛ نظرا لأنها كانت تضم المدن المقدسة فى الاسلام .

الفصل الحادى والعشرون

نهاية الامبراطوريات (١٩٣٩ ، ١٩٦٢)

الحرب العالمية الثانية

جاءت الحرب العالمية الثانية على عالم عربى يرزح تحت ثقل النظم الاستعمارية الفرنسية والبريطانية ، وكان القوميون يأملون فى تحقيق وضعية متميزة فى اطار تلك النظم ، ولكن الصعود العسكرى والاقتصادى والثقافى الانجليزى والفرنسى ، بدا كما لو كان ثابتا لا يتزعزع ولم يكن للولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفيتى سوى اهتمام محدود بالشرق الأوسط أو المغرب ، الا أن القوى الايطالية والألمانية ودعاياتها كان لهما بعض التأثير على جيل الشباب ، ولكن ، وحتى اندلاع الحرب بدا ذلك الهيكل المستقر كما لو كان قادرا على مقاومة التحدى ، ومرة أخرى ، كانت الحرب عاملا مساعدا جلب تغيرات سريعة فى القوة والحياة الاجتماعية وفى أفكار أولئك الذين تأثروا بها وآمالهم ٠

وطوال الشهور القليلة الأولى ، كانت الحرب تجرى فى شمال أوروبا ، وقد ظلت الجيوش الفرنسية فى المغرب والبريطانية والفرنسية فى الشرق الأوسط فى حالة طوارىء ، ولكن بلا قتال ٠ وتغير الموقف فى عام ١٩٤٠ عندما انهزمت فرنسا وانسحبت من الحرب ، ودخلتها ايطاليا ، وهددت الجيوش الايطالية وضع بريطانيا فى صحراء مصر الغربية وفى اثيوبيا ، وفى الأشهر الأولى من عام ١٩٤١ ، أثار الاحتلال الألمانى ليوجوسلافيا واليونان المخاوف من تقدم ألمانيا الى الشرق تجاه سوريا ولبنان ، اللتين كانتا تحكمهما ادارة فرنسية تتلقى أوامرها من فرنسا ، أو باتجاه العراق ، حيث أصبحت السلطة فى أيدى مجموعة

من ضباط الجيش والسياسيين بقيادة رشيد عالى الكيلانى (١٨٩٢ ـ ١٩٦٥) وكانوا على عـلاقة بالمانيـا · وفى مايو ١٩٤١ ، احتلت القوات البريطانية العراق واعادت الى الحكم الحكومة التى تفضلها بريطانيـا ، وفى يونيو غزت سوريا قوات استعمارية بريطانية مع قوات فرنسية مشكلة ممن استجابوا لنـداء الجنرال ديجول بأن فرنسـا لم تخسر الحرب ، وأن على الفرنسيين الاستمرار فى القتال ·

ومنذ منتصف عام ١٩٤١ ، أصبحت الحرب بين الدول الأوروبية حربا عالمية ، وقد فتح الغزو الألمانى احتمالات تقدم الألمان باتجاه الشرق الأوسط عبر القوقاز وتركيـا ، كمـا أدت الرغبة فى ارسال الامدادات البريطانيـة والأمريكيـة لروسـيا الى احتـلال مشترك من الجيوش السوفيتية والبريطانية لايران · وفى نهاية العام ، أدى الهجوم اليابانى على البحرية الأمريكية الى دخول الولايات المتحدة الحرب ضـد ألمانيـا وايطاليـا واليابان ، وكان عاما ٤٢ ـ ١٩٤٣ نقطـة تحول فى الشرق الأوسط ، فقد دعم جيش ألمانى القوة الايطالية فى ليبيا ، وتقدموا فى يوليو عام ١٩٤٢ نحو مصر ووصلوا بالقرب من الاسكندرية ، ولكن قبل نهاية العام وصلت القوات البريطانية فى هجوم خاطف من الغرب الى قلب ليبيا ، وفى نفس الوقت ، فى نوفمبر ، دخلت الجيوش الأنجلوأمريكية المغرب واحتلت الجزائر ومراكش بسرعة ، وعاد الألمان الى آخر نقاطهم الحصينة فى تونس ، ولكنهم أجلوا عنها فى النهاية تحت ضغط الهجوم من الغرب والشرق فى مايو ١٩٤٣ ·

وانتهت الحرب الفعليـة تقريبا فيما يتعلق بالبلاد العربية ، وبدا كما لو أنها انتهت بتأكيد السيادة البريطانية والفرنسية ، وظلت كل البلدان التى كانت تحت الاحتلال البريطانى كما هى ، كمـا انتشرت الجيوش البريطانية فى ليبيا وسوريا ولبنان ، وظل الحكم الفرنسى رسميا فى سوريا ولبنان والمغرب ، حيث كان الجيش الفرنسى يعاد تشـكيله ليكون له دور فاعل فى آخر مراحل الحرب فى أوروبا ·

الا أن أسس القوة البريطـــانية والفرنسية اهتزت فى الواقع ؛ وأضعف سقوط فرنسا عام ١٩٤٠ من موقفها فى أعين الذين احتلتهـم ، ورغم أنها خرجت فى جـانب المنتصرين ، وبوضـع رسمى كقوة عظمى ، فان مشاكل اعادة خلق حياة قومية مستقرة واحياء اقتصاد محطم ، جعل من الصعوبة عليها الاحتفاظ بامبراطورية تمتد من مراكش حتى الهند الصينية ، وفى بريطانيا أدت جهود الحرب الى أزمات اقتصـــادية أمكن التغلب عليها تدريجيـــا بمساعدة الولايات المتحدة ، وقد أدى الارهاق والوعى بالاعتماد على الغير ، الى نمو الشــكوك حول ما اذا كان ممكنـا السيطرة على والتحكم فى مثل هـذه الامبراطورية الشاسعة بنفس الوضع السابق ، وقد غطى سطوع القوتين الكبريين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (السابق) على بريطانيا وفرنسا بعد أن ظهرت امكاناتهما الفعلية فى الحرب ، وبما لديهما من موراد اقتصادية وبشرية تفوق جميع الدول الأخرى،وتمكنتا من فرض وجودهما على مناطق عدة فى العالم خلال مسار الحرب • وعليه ، أصبحتا فى موضع يسمح لهما بالادعاء بأن مصالحهما يجب أن تؤخذ فى الاعتبار فى كل مكان•وقد وفر الاعتماد الأوربى على العون الأمريكى للولايات المتحدة ، وسائل ضغط فعالة على حلفائها الأوروبيين•

ازدهرت آمال الشعوب العربية فى أعقـاب أحداث الحرب فى حياة جـديدة ، بعد تحركات الجيـوش (خاصـــة السريعة والمكثفـة فى الصحراء) ، والمخاوف والتوقعات بين الاحتلال والتحرر ، والاحتمالات التى نشرتها الدعايات المتنافسة ، ومشهد أوروبا وهى تنهش بعضـــها البعض ، واعلان المبادىء العليا للتحالف الانجلو أمريكى المنتصر ، وظهور روسيا الشيوعية كقوة عالمية ، كل هذا شجع على الاعتقاد بأن الحيـــاة قد تمسى مختلفة •

وقد قوت ظروف الحرب ــ بين تغيرات كثيرة أخرى ــ من فكرة امكان تحقيق وحـــدة أعمق بين البـــلاد العربية ، وكانت القاهرة هى

المركز الرئيسى الذى أدار منه البريطانيون الصراع فى الشرق الأوسط وكذلك الحياة الاقتصادية فيه ، وقد أدى الاحتياج الى المحافظة على الملاحة الى انشاء مركز تموين الشرق الأوسط (والذى بدأ بريطانيا ثم أنجلوأمريكى فيما بعد) ، وأصبح أكثر من مجرد مركز لتنظيم الواردات ولتشجيع التغيرات فى الزراعة والصناعة التى يمكن أن تجعل الشرق الأوسط أكثر اعتمادا على الذات ٠ ولما كانت القاهرة مركز اتخاذ القرار العسكرى والاقتصادى ، فقد أتاح ذلك الفرصة للحكومة المصرية (بتشجيع مبهم من بريطانيا) لأخذ زمام المبادرة فى تحقيق روابط أوثق بين الدول العربية ، وفى بداية عام ١٩٤٢ وجهت بريطانيا انذارا للملك حتى يطلب من الوفد تشكيل حكومة ، ففى هذه المرحلة الحرجة من الحرب كانت بريطانيا ترغب فى حكومة مصرية يمكنها السيطرة على البلاد ، وتكون أكثر استعدادا للتعاون مع بريطانيا من الملك ومن حوله ، والسلطة التى خولتها هذه المناورة للحكومة مكنتها من القيام بمباحثات مع الدول العربية الأخرى ، حول امكانات قيام وحدة أوثق وأكثر رسمية فيما بينها ، وكانت هناك خلافات فى المشاعر والمصالح بين سوريا والعراق ، حيث كان الحكام متأثرين بذكريات الوحدة المفقودة للامبراطورية العثمانية ، وكانوا يأملون فى قيام روابط أكثر قربا فيما بينهم ، وكان لبنان مزعزعا بين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم عربا ، وكانوا أساسا من المسلمين ، وبين المسيحيين الذين كانوا يرون لبنان دولة منفصلة ، على رباط أوثق بأوروبا الغربية ، وقد كان لدى حكومات مصر والسعودية واليمن احساس بالوحدة العربية ، مع وعى قوى بمصالحهم الوطنية وكانوا جميعا يرغبون فى تحقيق دعم فعال لعرب فلسطين ٠ وعقد مؤتمران ، فى الاسكندرية فى عام ١٩٤٤ ، والقاهرة فى ١٩٤٥ ، تمخض عنهما قيام جامعة الدول العربية ، وضمت سبع دول عربية ، وهى التى كان لها بعض الحرية فى الحركة ، (مصر وسوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق والسعودية واليمن) ، بالاضافة الى ممثل الفلسطينيين العرب ، وترك الباب مفتوحا لانضمام الدول العربية الأخرى حال استقلالها ، ونص اعلان الجامعة على عدم التدخل فى سيادة أية دولة عربية ، وكان للمأمول أن تعمل معا فى المسائل ذات الأهميه المشتركة ،

خاصة الدفاع عن العرب فى فلسطين والمغرب ، وفى كل من المحافل الدولية زادت بعد الحرب . وعندما قامت الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٥ ، أصبحت الدول العربية المستقلة أعضاء فيها .

الاستقلال الوطنى (١٩٤٥ ـ ١٩٦٥)

بعد نهاية الحرب ، أصبح الشرق الأوسط والمغرب ـ والتى ظلت المجال المطلق طوال جيل كامل لنفوذ الدولتين الأوروبيتين مسرحا لأربع قوى أو أكثر تمارس نفوذها ، ولم تكن العلاقات بينها مستقرة كما كانت فى فترة عصر الوفاق الأوروبى ، فى هذه الظروف ، كان بامكان الأحزاب القومية والمصالح المحلية التى تمثلها أن تضغط باتجاه تغيير الأوضاع فى البلاد .

كانت فرنسا فى وضع أضعف من بريطانيا ، وكان الضغط الواقع عليها أكبر ، وبنهاية الحرب كان باستطاعتها استعادة وضعها فى الهند الصينية والمغرب بعد قمع شديد للاضطرابات فى شرق الجزائر عام ١٩٤٥ ، ولكنها أجبرت على ترك سوريا ولبنان ، فعندما احتلت القوات الفرنسية والبريطانية البلاد فى عام ١٩٤١ ، وضعت اتفاقية كان لفرنسا بموجبها السلطة الادارية واحتفظت بريطانيا بالسيطرة الاستراتيجية ، واعترفت بوضع فرنسا كقوة أوروبية عالمية بشرط منح الاستقلال للبلدين . وكانت احتمالات التضارب فى المصالح كبيرة ، فلم تكن جبهة الفرنسيين الأحرار راغبة فى منح الحكم الذاتى فورا ، حيث لم يكن ادعاؤهم بتمثيل فرنسا الحقيقية ليلقى تأييدا فى أعين الفرنسيين اذا هم أسلموا منطقة فرنسية لا لقاطنيها ، ولكن الى دائرة النفوذ البريطانى . ومن ناحية أخرى ، فان الوفاء بالتعهد بالاستقلال يصبح لمصلحتهم بين القوميين العرب المعادين لسياستهم فى فلسطين ، وقد تمكن السياسيون فى بيروت ودمشق من الاستفادة من هذا الاختلاف للحصول على الاستقلال قبل نهاية الحرب ، وقبل أن يتحركوا وحيدين تحت رحمة حكم الفرنسيين . وقد كانت هناك أزمتان احداهما عام ١٩٤٣ ، عندما

حاولت الحكومة اللبنانية الحد من السلطة الفرنسية ، والثانية عام ١٩٤٥ ، عندما أدت محاولة مماثلة قام بها السوريون الى قصف دمشق والتدخـــل البريطاني ، ومفاوضات أدت الى قرار انسحاب بريطانيا وفرنسا فى وقت واحد وبشكل كامل بنهاية عام ١٩٤٥ ؛ ولهذا حصلت سوريا ولبنان على استقلالهما الكامل ، بدون الضوابط التى نصت عليها الاتفاقيات البريطانية مع مصر والعراق ، ولهذا فقد كان من الصعب لأى حزب قومى ان يرضى بأقل من ذلك •

وقد بدا الوضع البريطانى فى الشرق الأوسط كما لو كان ثابتا ، بل زاد بشكل ما مع نهاية الحرب ، بعد أن أخضعت الحملات فى الصحراء بلدا جديدا (ليبيا) تحت الحكم البريطانى ، كما بدا أن الولايات المتحدة لا ترغب فى الحلول محل بريطانيا كقوة عظمى فى الأجزاء العربيـــة من الشرق الأوسط ، ورغم أنه كانت هناك نبرات عاليـــة من المنافســة حول الأسواق والسيطرة على انتاج البترول ، فان بداية الحرب أدت الى المزيد من التدخل الأمريكى ، ففى عام ١٩٧٤ ، أصبحت الولايات المتحدة مسئولة عن الدفاع عن اليونان وتركيا ضد أى تهديد روسى محتمل،وكانت تداعيات ذلك فى الجنوب فى الدول العربية ، أن تكون بريطانيا مسئولة أساسا عن حماية المصالح السياسية والاستراتيجية الغربية ، فى الحقبة الجديدة من الحرب الباردة •

وقد ظل هذا المفهوم الضمنى باقيا لعشر سنوات أو نحوها وخلال النصف الأول من تلك الفترة ، كانت هناك جهود مستمرة من حكومة العمال فى بريطانيا لصياغة علاقاتها مع الدول العربية على أسس جديدة ، ويبدو أن الانسحاب البريطانى عام ١٩٤٧ من الهنـد قد قلل من أهمية بقائها فى الشرق الأوسط عن ذى قبل ، ولكن ذلك لم يكن وجهـــة نظـر الحكومة ،فكانت تضع فى اعتبارها الاستثمارات والبترول والأســـواق والاتصالات والمصالح الاستراتيجية للحلفـــاء الغربيين ، والاحســـاس بأن الشرق الأوسط وأفريقيا هما الأجزاء الوحيدة المتبقية من العـــالم ، حيث يمكن لبريطانيا اتخاذ زمام المبادرة ، كل ذلك جعل البقاء هناك أكثر أهمية ولكن على أسس جديدة •

وقد كان الخط العام للسياسة البريطانية هو دعم الاستقلال العربى ، وتحقيق درجة أكبر من الوحدة ، مع الحفاظ على المصالح الاستراتيجية الأساسية باتفاقيات الصداقة ، وكذلك فى المعاونة فى التنمية الاقتصادية واكتساب المهارات التقنية الى الحد الذى يمكن الحكومات العربية من القيام بمسئولياتها الدفاعية • وقد قامت هذه السياسة على فرضيتين ، أولاهما أن تعتبر الدول العربية مصالحها متطابقة مع المصالح البريطانية والتحالف الغربى ، وثانيتهما أن المصالح الأمريكية والبريطانية متفقتان الى درجة أن الجانب الأقوى سوف يقوم بالدفاع عن مصالح الطرف الأضعف ، وقد ثبت خلال السنوات العشر التالية عدم صحة هاتين الفرضيتين •

وقد كان البلد الأول الذى كان يجب اتخاذ قرار بشأنه هو ليبيا ، ففى نهاية الحرب كانت هناك ادارة بريطانية عسكرية فى منطقتى بنى غازى وطرابلس وادارة فرنسية فى المنطقة الثالثة ، فزان فى المنطقة الشرقية • وكانت القوات الموالية لشيخ الطائفة السنوسية قد ساعدت فى الغزو وحصلت على وعود مستقبلية ، وكانت المناقشات التى تجرى بين القوى العظمى والجهات الأخرى التى لها مصالح فى الأمم المتحدة ، تدور حول الفكرة السائدة أن ليبيا هى الدولة التى يمكن فيها تطبيق المفهوم الجديدة عن « الوصاية المشتركة » للدول « الأكثر تقدما » • وقد عبرت نتيجة الاقتراع عن أول حدث تتصدى فيه الأمم المتحدة للاستعمار ، منذ رفض أغلبية الأعضاء السماح لبريطانيا أو فرنسا بالبقاء فى ليبيا ، أو فى عودة ايطاليا كوصية عليها ، وطالبت جماعات محلية مختلفة بالاستقلال رغم اختلافها حول العلاقة المستقبلية بين الأقاليم الثلاثة•وفى عام ١٩٤٩، صدر قرار الأمم المتحدة بالاستقلال ، وشكلت لجنة دولية للاشراف على انتقال السلطة ، وفى عام ١٩٥١ أصبحت الدولة مستقلة وعلى رأسها الملك ادريس السنوسى ، ولكن احتفظت الولايات المتحدة وبريطانيا لعدة سنوات بقواعد عسكرية بها •

وفى بلد آخر هو فلسطين ، استحال التوفيق بين المصالح المتعارضة ، مما من شأنه اصابة العلاقات بين الشعوب العربية والقوى

الغربية بأضرار دائمة • وخلال الحرب ، كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين مستحيلة ، كما أن الأنشطة السياسية تجمــدت معظم الوقت • وباقتراب نهاية الحرب،أصبح واضحا أن العلاقات بين القوى قد تغيرت، وأصبح العرب فى فلسطين أقل قدره على تشكيل جبهــة موحــدة بسبب نفى بعض الزعماء أو سجنهم خلال ثورة (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩) وبعدها ، وبسبب التوتر والعداوات التى تمخضت عنها حركات العنف،ثم جاء تكوين الجامعة العربية والتزاماتها بدعم الفلسطينيين ؛ مما أعطاهم قوة تحولت فى النهاية لتصبح وهمية • وكان اليهــود من ناحيتهم موحدين فى اطار مؤسسات اجتماعية قوية ، وكان للكثير منهم خبرة ومران عســكرى فى القوات البريطانية خلال الحرب ، وكانوا يتمتعون بتأييــد ودعم أوسع وأكثر عزما وتصميما من اليهود فى البلاد الأخرى•وقد أذكى ذلك المذابح التى تعرض لها اليهود فى أوروبا ، وصمموا على انشاء مأوى لأولئك الذين نجوا ، وموقع قوة يكون من شأنه منع تكرار ذلك فى المستقبل ، وقد كانت الحـكومة البريطــانية واعية بكل من الأسباب المطروحة لتأييد الهجــرة الواسعة السريعة لليهود • كما كانت واعية أيضا بأن ذلك سوف يؤدى الى المطالبة باقامة دولة يهودية ، وأن ذلك سوف يثير معارضة قوية من العرب الذين كانوا متخوفين من اخضاعهم أو نزع ملكيتهم ، ومن ناحية لم تعد الدول العربية حـــرة فى التصرف كمــا كانت فى ١٩٣٩ بسبب علاقاتها مع الولايات المتحدة ، واعتمادها الاقتصادى عليها ، والحكومة الأمريكية من جانبها كانت لها فى ذلك الحين مصالح قليلة فى الشرق الأوسط ، وكانت معرضة للضغط من الجمــاعات اليهــودية القوية الناشــطة سياسيا ، كما كانت مضطرة لاستخدام نفوذها لمصلحة المطالب الصهيونية فى الهجــرة وانشــاء الدولة ، وأصبحت القضــية الفلسطينية آنذاك موضوعا مهما فى العلاقات الأنجلوأمريكية ، ولم تصل المحاولات للاتفاق على سياسة مشــتركة بتكوين لجنــة الأنجلوأمريكية ، لتقصى الحقائق (١٩٤٥ ــ ١٩٦٠) ؛ ولكنها مباحثات ثنائية لم تؤد الى نتيجة ، لأن كافة السياسات المقترحة لم تظفر بموافقة العرب واليهود ، ولم تكن الحكومة البريطانية راغبة فى تنفيذ سياسة لا تحظى بموافقة الطرفين ، وتزايد

الضغط الأمريكى على بريطانيا ، ووصلت الهجمات اليهودية على المسئولين والمنشآت البريطانية فى فلسطين الى حد يقارب الثورة العلنية ٠

وفى عام ١٩٤٧ ، قررت بريطانيا أن تسلم الأمر الى الأمم المتحدة ، التى بعثت لجنة خاصة من الأمم المتحدة لدراسة المشكلة ، ووضعت خطة للتقسيم على أسس تحابى فيها الصـهيونية أكثر مما كانت عليه خطـة ١٩٣٧ ، ووافقت عليها الجمعية العـامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ بمعاونة نشطة من الولايات المتحدة وروسيا التى كانت ترغب فى انسحاب بريطانيا من فلسطين ، ولكن الأعضاء العـرب فى الولايـات المتحـدة والفلسطينيين العرب رفضوها ، وأصبحت بريطانيـا فى مواجهة نفس الموقف مرة أخرى ، حيث استحال طرح سياسة يقبلها الطرفان العـرب والصهاينة ، وقررت بريطانيا الانسحاب من فلسطين فى موعـد محـدد هو ١٤ مايو ١٩٤٨ ٠ ويبدو أنها كانت تأمل،كما كان الحال فى الهند قبل ذلك بفترة قصيرة ، بأن الانسحاب الوشيك قد يدفع الطرفين لنوع من الاتفاق ، وباقتراب تاريخ الانســحاب كان لابد من تناقص القوات البريطانية ، وتزايد العنف ، واندلع الاقتتال ، ومال ميزانه سريعـا لصالح اليهود ، وهذا بدوره أدى الى قرار من الدول العربيـة المجاورة بالتدخل ، وهكذا أدت سلسلة من الصراعات المحلية الى الحرب ، وفى ١٤ مايو أعلنت الجماعة اليهودية استقلالها فى دولة اسرائيل ، واعترفت الولايات المتحـدة وروسيا بهذا الوضع فورا ، ودخلت القوات المصرية والأردنية والعراقية والسورية واللبنانية الى الأجزاء العربية الرئيسية من البلاد ، وفى موقف لم يكن فيه حدود ثابتة او تقسيمات واضحة بين السكان ، اندلع القتال بين الجيش الاسرائيلى الجديد وجيوش الدول العربية ، واستطاعت اسرائيل فى أربع حملات تخللها وقف اطلاق النار احتلال الجزء الأكبر من البلاد ، وترك ما يقرب من ثلثى السكان العرب ديارهم وتحولوا الى لاجئين بسبب الذعـر والسياسة المتعمدة للجيش الاسرائيلى ، وفى بداية عام ١٩٤٩ عقدت عدة هدنات بين اسرائيل وجيرانها العرب تحت اشراف الأمم المتحدة ، ونشأت حدود ثابتة ، ضمت ما يقرب من ٧٥٪ من فلسطين فى حدود اسرائيل ، وأسـند شريط من الأراضى

على الساحل الجنوبي يمتد من غزة حتى الحدود المصريه الى الادارة المصرية ، والباقي ألحق بالمملكة الأردنية الهاشمية (الاسم الذى اتخذه شرق الأردن عام ١٩٤٦ بعد اتفاقية مع بريطانيا أعادت صياغة العلاقات بين البلدين) ، وقسمت القدس بين الأردن وأسرائيل ، رغم أن بلادا كثيرة لم تعترف بذلك التقسيم ٠

وقد تأثر الرأى العام فى البلاد العربية تأثرا عميقا بهذه الأحداث ، واعتبرت هزيمة للحكومة العربية ، وأدى ذلك الى عدة قلاقل فى السنوات القليلة اللاحقة ، وكذلك اعتبرت هزيمة للبريطانيين الذين نجحوا فى سحب مسئوليهم وعسكرهم من البلاد بلا خسائر ، ولكن فى ظروف أثارت الشكوك والعداوة على الجانبين ٠ وفى البلاد العربية ، كان الرأى السائد هو أن السياسة البريطانية قد ساعدت الصهاينة فى واقع الأمر ، فقد شجعت الهجرة الصهيونية ولم تكن الحكومة مستعدة لتقبل تداعياتها بالنسبة للعرب ، وكان عليها ايقافها قبل أن تؤدى الى اخضاعهم ونزع ملكيتهم ، أو على الأقل أن تحاول الحد من الضرر الذى يمكن أن تسببه ، وتصرفت الولايات المتحدة من ناحيتها دائما لدعم الصهاينة ٠

ورغم ذلك ظل الموقف الأمريكي والبريطاني قويين ، ورفضت الحكومة الإسرائيلية التى كان الشخصية المسيطرة فيها دافيد بن جوريون (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣) ، قبول عودة أى عدد ذى وزن من اللاجئين العرب،ولكن كان من المفهوم بشكل عام لدى الحكومات الأمريكية والبريطانية والاسرائيلية أنهم سيمتصون فى سكان البلاد العربية التى هاجروا اليها ، واذا لم يتحقق السلام فسوف تتحقق على الأقل حالة من التعايش بين اسرائيل وجيرانها ، وفى نفس الوقت فان الطاقات الرئيسية للحكومة الاسرائيلية وجهت لاستيعاب أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود ، ليس فقط من شرق أوربا ولكن ايضا من الدول العربية ، وغير هذا من هيكل التركيبة السكانية فبحلول ١٩٥٦ ، بلغ تعداد العرب المسلمين والمسيحيين ٢٠٠ الف نسبة من اجمالى ١ر٦ مليونا أو حوالى ١٢ر٥ ٪ ٠ صودرت معظم الأراضى التى كانت مملوكة للعرب لصالح المستوطنات

اليهودية ، ورغم أن المواطنين العرب فى اسرائيل كانت لهم حقوق سياسية وقانونية ، فلم يكونوا منتمين بشكل كامل للمجتمع الوطنى الذى كان آخذا فى التشكل ، وقد كان لتحرك السكان داخل اسرائيل تأثيرات فى البلاد العربية أيضا ، وفى الجيل التالى لعام ١٩٤٨ اختفت أحياء اليهود القديمة فى البلاد العربية ، فهاجر يهود اليمن والعراق أساسا الى اسرائيل ، ويهود سوريا ومصر والمغرب الى أوربا وأمريكا الشمالية وأيضا الى اسرائيل ، وقد ظلت الجالية اليهودية فى مراكش الوحيدة التى ظل لها حجم ملحوظ ٠

وفى السنوات القليلة التالية ، انتقل مركز الصراع السياسى والمفاوضات من الصراع العربى الاسرائيلى الى بلاد أخرى ، ظل لبريطانيا فيها وضع خاص ، وهى مصر وايران وراء المحيط الشرقى للعالم العربى، حيث تسببت تأميمات شركات البترول البريطانية فى أزمة دولية ، وكان مازال لبريطانيا فى هذين البلدين حرية كبيرة للحركة ، واختلفت سياستها الى حد كبير عنها فى فلسطين ، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة فى اضعاف وضع بريطانيا كراعية للمصالح الغربية فى أجزاء أخرى من العالم العربى، رغم أن الاستثمار الأمريكى فى حقول بترول السعودية أدى الى حلول النفوذ الأمريكى محل النفوذ البريطانى ٠ والاتحاد السوفيتى من جانبه كان مشغولا أكثر من اللازم بمناطق أخرى ؛ مما لم يمكنه من اتخاذ سياسة فعالة فى البلدان العربية ، التى كانت ــ رغم التزامها بالدفاع عن مصالح الفلسطينيين ــ مشغولة بمشاكلها الخاصة ٠

وقد كان الحضور العسكرى البريطانى فى مصر هو أساس القوة البريطانية فى الشرق الأوسط،وهناك وجدت بريطانيا نفسها فى مواجهة أكثر المشاكل الحاحا ، وبمجرد انتهاء الحرب ، طالبت الحكومة المصرية بتعديل معاهدة ١٩٣٦ ، وكانت المفاوضات بين الحكومتين قد بدأت فى ١٩٤٦ وما بعدها ، ولكنها فشلت فى نقطتين ، الأولى كانت المطالبة المصرية بالسيادة على السودان ، وهو ما لم تقبله الحكومة البريطانية لاعتقادها أن معظم السودانيين لم يكونوا ليقبلوا ذلك ، وأن هناك التزاما بريطانيا

تجاهم ، وثانيا ، مسألة الوضع الاستراتيجى البريطانى فى البلاد • ففى أعقاب اتفاقية ١٩٣٦ ، انسحبت القوات البريطانية من القاهرة والدلتا ولكن تجمد الموقف فيما يتعلق بمنطقة القنــاة ، وقد كان رجال الدولة والاستراتيجيون البريطانيون يعتقدون أن بقاء قواتهم هناك ضرورى من أجل الدفاع عن المصالح الغربية فى الشرق الأوسط ، ومن أجل المصالح البريطانية فى شرق المتوسط وأفريقيا • وفى عام ١٩٥١ ، اندلع قتال خطــير بين القوات البريطــانية والمليشيات المصرية • وفى يناير ١٥٩٢ ، أشعل القتال حركة شعبية فى القاهرة دمرت فيها المنشآت المرتبطة بالوجود البريطانى ، كما أدى انهيار النظام بدوره الى اتاحة الفرصة لجماعة سرية من الضباط المصريين من الرتب المتوسطة لتولى السلطة ، وقد كان لها فى البداية قيادة جماعية ثم انتقلت القيـــادة الى جمــــال عبد الناصر (١٩١٨ ــ ١٩٧٠) ، والميل الى الانفصال عن الماضى الذى ظهر فى عدة مجالات ، تجسد فى التخلص من الملك وباعلان مصر النظام الجمهورى •

ونتيجة احكام قبضة الحكام العسكريين على البلاد أكثر من الحكومات السابقة ، فقد أصبح باستطاعتهم مواصلة المفاوضات مع البريطانيين ، وانتهت المشكلة السودانية ــ وهى احدى المشكلتين الأساسيتين ــ عندما توصلت الحكومة المصرية الى اتفاقية مباشرة مع الأحزاب السودانية فى عام ١٩٥٣ ، بعد أن أصبحت الحركات السياسية فى السودان قادرة على التعبير عن نفسها بشكل أكثر حــرية ، وبعدما أنشىء مجلس تشريعى منتخب فى عام ١٩٤٧ ، وظهرت ثلاث قوى رئيسية هى : الذين يرغبون فى الاستقلال والابقاء على الصلة مع بريطانيا ، وأولئك الراغبون فى الاستقلال واقامة علاقات وثيقة مع مصر ، وأولئك المتحررون عن غـــير المخلصين وغير النوبة فى الجنوب ، وكانت الاتفاقية مع مصر تتضمن مطالب المجموعتين الأوليين ، وكانت مقبولة لدى البريطانيين وان شابها بعض الاحجام ، وكان من المتفق عليه أن ينتقل الحكم من السلطة الانجلو مصرية المشتركة الى السودانيين تحت اشراف دولى وتجرى الانتخابات فى نفس العام • • وبحلول عام ١٩٥٥ ، كانت الادارة بين أيدى السودانيين وانسحبت القوات المسلحة البريطانية والمصرية ، وكانت المخاوف التى القت بظلالها على

المستقبل هى بداية التمرد وحرب العصابات فى الأقاليم الجنوبية ، حيث السكان من غير المسلمين وغير العرب المتخوفين من نتائج الانتقال من الحكم البريطاني الى الحكم العربى •

وبحل المشكلة السودانية بدأت المفاوضات حول القضية الأخرى ، وهى الوضـــع الاستراتيجى البريطـــانى ، وتوصـــل الطرفان الى اتفـــاق عام ١٩٥٤ ، وكان على القوات البريطانية أن تنسحب من منطقة القناة ، وتنهى فترة دامت أكثر من سبعين عاما من الاحتلال البريطانى ، ولكن كان من المتفق أيضا عليه أن تعود بريطانيا لاستخدام القاعدة اذا ما تعرضت مصر أو دولة عربية أخرى أو تركيا لهجوم عسكرى • وقد كان ضم تركيا فى المعاهدة تعبيرا عن الاهتمام البريطانى والأمريكى بالدفاع عن المصالح الغربية فى الشرق الأوسط ضد أى تهديد محتمل من روسيا ، ونوقشت خطط مختلفة لانشـــاء حلف الدفاع الشرق أوسطى ، وكان استعداد مصر لمناقشة دخول تركيا فى هذه الاتفاقيـــة مؤشرا على رغبتهـــا فى الانضمام اليها •

وقد جعلت نهاية الاحتلال فى سوريا ، ولبنان ، ومصر ، والسودان من الصعب على العراق والأردن أن تقبلا بأقل من ذلك ، وقد كان النظام الذى أعاده التدخل البريطانى فى العراق فى عام ١٩٤١ ، مهتما بالحفاظ على رابطة استراتيجية مع القوى الغربية ، كما كان أكثر وعيـــا بقـــرب العراق من روسيا أكثر من الدول العربية الأخرى•وفى عام ١٩٤٨ ، بذلت محاولة لاعادة مناقشـــة الاتفاقية الأنجلوعراقيـــة لعـــام ١٩٣٠ على هذه الأسس ، ولكن هذه المحاولة فشلت بسبب معارضة الذين كانوا يرغبون فى أن يقل الالتزام بالتحالف الغربى•وفى عام ١٩٥٥ ، توصلت الحكومة الى اتفاقية مع تركيا لانشاء دفاع مشترك واتفاقية اقتصادية (حلف بغداد) وانضم اليه باكستان وايران وبريطانيا ، وفيما بعد بدأت الولايات المتحدة فى المشاركة فى أعماله ، وبموجب هذه الاتفاقية اتفق الطرفان على تسليم القاعدتين البريطانيتين الجويتين للعراق ، ولكن بريطانيـــا وافقت على

الاشتراك فى الدفاع اذا ما تعرض العراق لهجوم أو تهديد ، واذا ما طلبت العراق العون ٠

وفى الأردن كان هنـــاك وضع مماثل ، حيث يقوم نظام يتطلع الى تلقى العون ضد المخاطر الخارجية ، من البلدان العربية المجاورة ، وأيضا من اسرائيل ولكنه معرض لضغط الرأى العام الوطنى٠وبعد عام ١٩٤٨، كان بالبلاد أغلبية فلسطينية ، ممن كانوا يعتبرون اسرائيـــل العدو الرئيسى ، وكانوا يترقبون أية علامة على تقديم النظام لأى تنازلات لها ٠ وفى عام ١٩٥١ ، اغتيل الملك عبد الله كعلامة على الشك القومى فى أنه كان متساهلا حيال اسرائيل وحلفائهـا الغربيين أكثـــر مما يجب ، وقد مال التوازن غير المستقر لفترة فى صالح الاستقلال الكامل٠وفى عام ١٩٥٧، انتهت الاتفاقيـة مع بريطانيـــا باتفـــاق الطرفين ، وانسحبت القوات البريطانية من القواعد التى كانت تحتلها ، لكنها كانت علامة على الوضع المزعزع للاردن والنظام الهاشمى ، لدرجـــة أن الحكومتين الأمريكيـــة والبريطانية أعلنتا فى نفس العام ، أن استقلال البلاد وسيادتها يعتبران من المصالح الحيوية لهما ٠

وفى المغرب،كان من الصعب على فرنسا أن تتقبل مطالب الاستقلال، ولم يكن الوجود الفرنسى هناك مجـــرد وجود عسكرى ، أو للسيطرة على المصالح الاقتصادية فى الحضر ، ولكن الجاليـات الفرنسية الكبيرة التى عاشت هناك كانت تسيطر على القطاعات الاقتصادية المربحة ، كما تولى أعضاؤها أغلب المناصب الحكومية فى كل المستويات عدا المتدنية منها ، وكان التوصل الى تغير فى العلاقات بين الفرنسيين والعرب يعنى جهدا كبيرا فى مواجهة معارضــــة قوية ، وقد بدأت هذه المجهودات فى تونس ومراكش بمجرد انتهاء الحرب ، ففى تونس كان حزب الدستور الجديد يحظى بميزة أن زعيمه بورقيبة قد التزم بالتأييد المطلق للفرنسيين الأحرار وحلفائهم عندما كان فى المنفى خلال الحرب ، والقوة الناشئة من الحزب عن التحامه بالنقـــابات العمـــالية ، عنـدما سمح للتونسيين بالانضمام لاتحادات العمال للمرة الأولى ٠ وفى مراكش ، كانت القوة مزيجا من عدة

معاصر . فالجماعات الوطنية القومية الصغيرة التى ظهرت فى الثلاثينات نظمت أنفسها فى حزب الاستقلال ، وأقامت علاقات بالسلطان محمد الخامس (١٩٢٧ - ١٩٦٢) ، الذى بدأ مباشرة فى المطالبة بنهاية الحماية الفرنسية ، وقد بدأت فكرة الاستقلال تمس طبقة أوسع من المجتمع ، وأنشئ اتحاد نقابات العمال واستطاع حزب الاستقلال فرض السيطرة عليه ، وأنشأت الهجرة الريفية الى الدار البيضاء والمدن الصغيرة الأخرى ، علاقات أقوى بين الحضر والريف ، وشجعت على انتشار الأفكار القومية . كما أن وجود مصالح تجارية أجنبية تحميها اتفاقية دولية منذ بداية القرن ، وقيام مصالح استراتيجية أمريكية ، أعطت القوميين بعض الأمل فى اجتلاب درجة من التعاطف من الخارج .

ولم تكن الحكومة الفرنسية الضعيفة ، التى كانت تعتمد على تحالفات سريعة التحول فى سنوات ما بعد الحرب ومتنبهة الى الرأى العام الذى لم يستعد عافيته من مرارة الهزيمة ، لم تكن قادرة على تقديم أكثر من اللجوء للقمع أو « السيادة المشتركة » ، التى كانت تعنى أن يكون للجالية الأوربيـــة نفس الوزن النسبى للسكان الأهليين فى المؤسسات المحلية ، وأن يظل الرأى النهائى للحكومة الفرنســـية فى العاصـــمة الفرنسية . وفى عام ١٩٥٢ ، قبض على بورقيبة وآخرين فى تونس ، وبدأت حركة من المقاومة النشطة ، التى أذكت حركات مضـــادة من العنف بين المستـــوطنين الأوربيين . وفى السنة التالية ، وصلت الأمور الى أزمة فى مراكش ، وتوثقت الاتصالات بين القصر وحزب الاســـتقلال ، وطالـــب السلطان بالسيادة الكاملة ، وفى المقابـــل ، لجأت الحكومة الفرنســـية وللمرة الأخيرة الى حركة سياسية تقليدية ، فاجتذبوا اليهم زعماء القبائل فى الريف ، من الذين ساعدوهم من قبل على بناء قوتهم ، وكان نفوذهم مهددا من القوة المركزية الأقوى التى كانت كامنة فى الرؤية القوميـــة للمستقبل . وفى عام ١٩٥٣ ، خلع السلطان من عرشه ونفى ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رمزا موحدا لغالبية المراكشيين ، وتحول الغليان الى عصيان مسلح .

وفى عام ١٩٥٤، تغيرت السياسة الفرنسية، بعد أن تعرض موقف فرنسا فى الهند الصينية لتهديد شديد من نوع جديد من حركة القوميين الشعبيين المسلحة. وفى الجزائر ، بدأت حركة مماثلة فى الظهور ، وجاءت حكومة فرنسية جديدة أكثر حسما ، وبدأت المفاوضات مع حزب الدستور الجديد ومع سلطان مراكش الذى أعيد من المنفى ، وحصـل البلدان على استقلالهما فى عـام ١٩٥٦ . وفى مراكش ، ضمت المنطقـة الاسبانية مدينة طنجة الدولية الى الدولة المستقلة ، وقد أطلق الاستقلال يد السلطان (الذى أصبح ملكا فى عام ١٩٥٧) ، ولكن فى تونس خلع الباى الذى لعب دورا سطحيا فى العملية السياسية ، وأصبح بورقيبة رئيسا للجمهورية ، وفى البلدين ظل الاســتقلال والعلاقات مع فرنســا مزعزعين لسنوات عديدة ، وكانت الجزائر فى ذلك الوقت مشغولة فى حرب الاستقلال التى أطلقت الرصاصات الأولى فيها فى نوفمبر ١٩٥٤ ، وانتشرت تداعياتها بسرعة في المغرب العربى .

أزمة السويس

بحلول منتصف الخمسينيات ، أصبحت معظم البلاد العربية التى كانت تحت الحكم البريطاني مستقلة رسميا ، وقد بقيت القواعد العسكرية الأجنبية فى بعضها وان أخليت بعد فترة قصيرة ، وظل الحكم الفرنسى فقط في الجزائر، حيث تعرض لتحد نشط علي يد ثورة وطنية شعبية. وقد بقي الحكم البريطانى أو الحماية في الأطراف الشرقية والجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، ولم تكن الدولة الرئيسية فيها - العربية السعودية - قد خضعت لحكم الأجنبي ، ولكن النفوذ البريطاني فيها كان حسيا . وقد أدي اكتشاف البترول واستغلاله الى احلال النفوذ الأمريكي محل النفوذ البريطانى ؛ وكذلك أيضا أتاح نظام الحكم الأبوى للعائلة السعودية أن يبدأ التحول الى نظام حكم أكثر تطورا ، وعندما مات الملك عبد العزيز فى عـام ١٩٥٣ ، كانت الدولة التي أنشأها قد أصبحت أكثر مركزية وأهمية في الحياة السياسية للمنطقة، وظلت اليمن من ناحية أخرى معزولة عن

البلدان الأخرى تحت حكم الامام ، رغم أنها أصبحت عضــوا فى الجامعة العربيـــة .

وقد تمثل ازدواج السياسة فى العراق والأردن فى الغربة فى انهاء الوجود البريطانى ، وفى نفس الوقت ، الرغبــة فى اقامة علاقة عسكرية مع القوى الغربية ، مما كان من شأنه أن يثبت أن الانسحاب العسكرى فى حد ذاته لم يؤد الى انشاء علاقة جديدة مع الحكم الاستعمارى السابق ، ولكنه وضــع مشــكلة الاستقلال فى منظور مختلف . وقد وجدت الدول العربيــة نفســـها فى مواجهـــة قوة ونفوذ متعاظمين من كل النواحى الاقتصادية أو السياسية من دولة غربية أخرى هى الولايات المتحدة،التى آمنت فى فترة الحرب البــاردة والتوسع الاقتصــادى أن مصالحها فى الشرق الأوسط يمكن حمايتها فقط بانشاء علاقات وثيقة مع الحكومات المحلية التى كان حكامها على استعداد لربط سياستهم بسياسه الحلفاء الغربيين ، ، الا أن كثيرا من السياسيين والجماعات السياسية رأت أن الضمان الوحيد للاستقلال فى عالم ما بعد الاستعمار هو فى الحفاظ على الحياد بين القوتين العسكريتين . ولأن المعسكر الغــــربى ظــل مرتبطا بذكريات الحكم الاستعمارى ، وكذلك ظلت مشاكل فلسطين والجزائر مخيمة ، ولأنه من ناحية أخرى كان الضغط الرئيسى لوضــــع اتفاقيات دفاع عســكرية يأتى من ذلك الجانب الغربى ، فقد حملت الرغبــة فى الحياد فى طياتها ميلا للاتجاه الى المعسكر الآخر .

وقد أدى استقطاب الكتلتين الشرقية والغربية وصراع السياسات بين الحياد والتحالف الغربى،الى ظهور بعد جديد فى العلاقات بين الدول العربية ، وقد أصبحت الرغبة فى اتحاد أوثق بينهــا جزءا من اللغـــة المشتركة للسياسات العربية ، أما الكيفية التى يلزم التوصل بها الى تلك الوحدة اما فى اطار اتفاقيات وثيقة مع القوى الغربية واما بالاســـتقلال عنها ، فقد أصبحت قضية خلافية .

وقد أصبح مستقبل العلاقة بين الدول العربية واسرائيل مرتبطـــا بالقضية الكلية للانحياز ، وفى الخمسينات ناقشة الحكومتان الأمريكية

والبريطانية خططا لحل هذه المشكلة ، على أن تكون هناك بعض التعديلات في حدود ١٩٤٩ لصالح العرب ، وعودة بعض اللاجئين الى ديارهم ، واستيعاب أغلبهم في البلدان العربية المحيطة ، واذا كانت الدول العربية على علاقة وثيقة بالقوى الغربية ، فان هذا يعني قبولا لمثل هذا الحل ، ونوعا من الاعتراف بوجود اسرائيل • ومن ناحية أخرى ، فان تشكيل المجموعة المحايدة من البلاد العربية التي كان لها علاقات ايجابية بالكتلتين الشرقية والغربية، يمكن أن يستخدم لزيادة الثقل السياسي للبلاد العربية، وتقوية قواتها المسلحة مما يحدث تغييرا جذريا في الوضع الذي أقرته اتفاقيات الهدنة لعام ١٩٤٩ •

ومع ازدياد حدة اختلاف السياسات والمواقف ، ارتبطت هذه الاختلافات بشخصية جمال عبد الناصر، زعيم المجموعة العسكرية التي حكمت مصر ، ولم يتمخض توقيع اتفاقية انسحاب القوات البريطانية عن دخول مصر الى نظام الدفاع الغربي ، بل على العكس ، أعطى مصر الحرية في اتخاذ سياسة عدم الانحياز ، وفي أن تشكل حولها كتلة من الدول العربية غير المنحازة ، التي كان على العالم الخارجي أن يتعامل معها ككتلة واحدة ، وقد كانت العلاقة الوثيقة التي نشأت مع أهم المتحمسين لفكرة عدم الانحياز ، وهما الهند ويوغوسلافيا ، تعبيرا أشد وقعا لهذه الأسباب ، وكانت الاتفاقية الموقعة في عام ١٩٥٥ لتزويد مصر بالأسلحة من الاتحاد السوفيتي وحلفائه ، وهي الاتفاقية التي كسرت السيطرة على الأسلحة التي تورد لاسرائيل وجيرانها العرب ، والتي حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا المحافظة عليها •

وقد كان محتما لهذه السياسة الحيادية أن تضع مصر وحلفاءها في موقف العداء مع أولئك الذين يمكن أن تتأثر مصالحهم بذلك ، فالقوى الغربية على الأقل كان عليها أن تتوقع المعوقات والمحددات في السعي وراء مصالحها السياسية والاقتصادية ، ولم يعد باستطاعتهم السيطرة على تطور مشكلة اسرائيل أو المشاكل الأخرى كما كانوا يأملون ، فقد كان رفض الانضمام الى التحالف الغربي في فترة الحرب الباردة في الشرق الأوسط

بالنسبة للولايات المتحدة بمثابة الانضمام الى الكتلة الشرقية •
وقد كان لجاذبية الحياد والوحدة الوثيقة تحت الزعامة المصرية التى كان جمال عبد الناصر يوجهها للشعوب العربية من فوق رؤوس حكوماتها يمثل تهديدا لهذه الأنظمة العربية التى تتبنى سياسات مختلفة ، وبشكل خاص ، العراق ، والتى صارت بعد حلف بغداد المثل الرئيسى للتحالف الغربى ، وقد كانت حياتها السياسية فى تلك الفترة خاضعة لنوري السعيد (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨) ، الذى لعب دورا مهما فى السياسات القومية العربية منذ الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانت اسرائيل تعتبر ظهور حكومة مصرية قوية لها مصدرها الخاص للسلاح وتسيطر بقوة على مشاعر الفلسطينيين والعرب الآخرين تهديدا لوضعها ، وقد أدت هذه المناورات المحلية بدورها الى تعميق العداوة للقوى الغربية والولايات المتحدة؛ بسبب علاقاتها مع اسرائيل ومع بريطانيا بحكم عضويتها فى حلف بغداد ، ومع فرنسا بحكم التأييد والمعاونة اللتين كانت تعتقد أن مصر تقدمهما للثورة الجزائرية ، بحكم رؤيتها للاستقلال وعالم عربى غير منحاز •

وبين عامى ١٩٥٥ و١٩٦١ ، كانت هناك سلسلة من الأزمات تضمنت كل هذه العوامل ، ففي عام ١٩٥٦ سحبت الولايات المتحدة عرضها فجأة بتمويل السد العالى فى أسوان•وبشكل لا يقل فجائية ، أممت الحكومة المصرية شركة قناة السويس ، وتولت ادارة القناة ، مما أشعر مستخدمى القناة بالخطر من مخاوف حول حرية استخدام القناة ، وقد اعتبرت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ذلك عملا عدائيا؛ بسبب أنصبة الحكومتين فى الشركة التى قامت ببناء القناة وتملكتها ، ولأن ذلك قوى من مركز عبد الناصر فى العالم العربي•ووجد الاسرائيليون في ذلك فرصة لاضعاف دولة عربية معادية ومتعاظمة القوة والتى كانت الحدود معها مضطربة لفترة من الزمن ، وكانت النتيجة اتفاقية سرية بين فرنسا وبريطانيا واسرائيل لمهاجمة مصر واسقاط حكم عبد الناصر •

وهاجمت القوات الاسرائيلية مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ ، واتجهت الى قناة السويس ، ووفقا لاتفاقهم السابق حددت بريطانيا وفرنسا مهلة

زمنية لكل من مصر واسرائيل بالانسحاب من منطقة القناة ، وأعطاهما رفض عبد الناصر للانذار الذريعة لهجوم القوات البريطانية والفرنسية واحتلال جزء من المنطقة ، ولم يكن ذلك العمل تهديداً لمصر والدول العربية التى تعاونها فقط ، ولكن للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أيضا ، واللتين بحكم وضعهما كقوتين عظميين ، لم تتقبلا أن تتخذ مثل هذه الخطوات فى منطقة لهما فيها مصالح بدون أخذ هذه المصالح فى الاعتبار ٠ وانسحبت القوات الثـــلاث تحت الضغط الأمريكى والسوفيتى ، وفى مواجهـــة أستنكار عالمى ، ومخاطر انهيار مالى ، وكانت تلك احدى الحلقات النادرة التى تكشف فيها هيكل القوى العالمى ، فالعداوات بين القوى المحليـــة جذبت اليها القوى العالمية من الدرجة الثانية بحثا عن مصالحها الخاصة ، ولكنها اصطدمت بشكل حاد بحدود قوتها فى مواجهـــة مصالح القوى العظمى ٠

وقد كان من نتائج هذه الأزمة تعزيز موقف عبد الناصر فى البلدان العربية المحيطة ، لأن المعتقـد بشكل عام أنه خـــرج من الأزمة منتصرا سياسيا ، وكذلك عمقت الخلاف بين أنصاره وأولئك الذين كانوا يعتبرون سياساته خطيرة ، وقد أصبح هذا الانقسام عاملا فعالا فى الشئون الداخلية فى البلدان العربية الأخرى ٠ ففى عام ١٩٥٨ ، تضافر مع الصراعات المحلية لتسبب اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان ، وفى نفس العام تفجـر الصراع على السلطة بين الجماعات السياسية فى سوريا ، وأدت بواحد منهم الى اتخاذ المبادرة فى المطالبة بالوحدة مع مصر ، وتمت الوحدة فعلا فى شـــهر فبراير ، واندمج البلدان فى الجمهورية العربية المتحـدة ، كما اندمجت المملكتان الهاشمية والأردن والعراق فى اتحاد منافس،ولكن فيما بعد وفى نفس العام فى يوليو ، أدت نفس التوليفة من السخط الداخلى بالإضافة الى الآمال التى أنعشتها الزعامة المصرية فى عالم عربى جديد،الى الاستيلاء على السلطة فى العراق على يد مجموعة من ضباط الجيش ، وقتل الملك ومعظـــم أفراد عائلته ، وكذلك نورى السعيد ، وصارت العراق جمهورية ، ولم يعد بإمكان السلالة الهاشـــمية أن تأمل فى لعب الدور الرئيسى فى السياسات العربية ، (رغم أن الفرع الثانى منها ظل يحكم

في الأردن) وقد أدت أنباء الثورة الى ارسال قوات أمريكية الى لبنان ، وأخرى بريطانية الى الأردن ، للتهدئة في موقف غير واضح ، ولكنهـا انسحبت بعد قليل . وفيما يتعلق ببريطانيا ، كان ذلك نهاية دورها النشط والرئيسى في السياسات العربية .

وكان يبدو فى البداية أن الثورة قد طرحت احتمال انضـــمام العراق لاتحاد مصر وسوريا ، ولكن سرعان ما ظهر اختلاف المصالح بين بغداد والقاهرة ، كما أدى اختلاف المصالح داخـل الجمهورية العربيـــة المتحدة بين القاهرة ودمشق عام ١٩٦١ ، الى انقلاب عسكرى فى سوريا ، وانفراط الوحدة ، وبرغم هذه النكسات ظل عبد الناصر فى عيون العرب ومعظم العالم الخارجى ، رمزا لحركة الشعوب العربية تجاه وحدة أكبر واستقلال حقيقى .

الحرب الجزائرية

وقد كانت سنوات الأزمة فى الشرق الأوســـط هى أيضا سنوات الأزمة النهائية للحكم الاستعمارى فى المغرب ، اذ حـارب عرب الجزائر معركة طويلة نجحت فى النهاية بحصولهم على الاستقلال من فرنسا .

وقد واجه الجزائريون صعوبات أكبر مما واجهته معظم الشعوب العربية فى كفاحهم من أجل الاستقلال ، ولم تكن بلادهم تعتبر مستعمرة، ولكنها كانت جزءا متكاملا من فرنسا الكبرى . لقـد طالبت الجزائر بانفصالهما عن أولئك الذين اعتبروا أرض فرنسا غير قابلة للانقسام ، وكان المستوطنون الأوربيون قد أصبحوا آنئذ دولة قائمة بذاتها ، متجذرة فى الجزائر حيث ولد ٨٠٪ منهم ، ولم يكونوا مستعدين للتخلى عن موقع القوة ، وكانوا مسيطرين على معظم الأراضى الخصبة ، وغالب الزراعة المنتجة التى حسنتها الميكنة وظلت تتوسع ، والمدن الرئيسية ، الجزائر ووهران كانت فرنسية أكثر منها جزائرية مسلمة ، وقد احتلوا الغالبيـة العظمى من المناصب فى الحكومة والمهن . وكان من شأن نفوذهم القوى والمستمر على الادارة المحلية والحكومة فى باريس،أن يمنع أى تغيرات قد تكون فى

غير صالحهم • وقد أصدر مجموعة من الجزائريين المتعلمين اعلانا فى عام ١٩٤٣ ، مطالبين بدولة ذات حكم ذاتى ، ترتبط بفرنسا ، ولم يجدوا استجابة الا فى الغاء بعض المساوىء القانونية ، ثم تفجرت حركة أكثر عنفا عام ١٩٤٥ قمعت بلا رحمة ، وتمت آنئذ بعض التغييرات ، وأصبح من حق المسلمين الجزائريين التمثيل النيابى فى البرلمان الفرنسى ، وأن يكون لهم عدد مساو من الأعضاء كالأوربيين فى المجلس النيابى الجزائرى ، ولكن الادارة الفرنسية كانت تدير انتخابات المجلس النيابى لفوز أغلبية مستأنسة •

وقد كان المجتمع الجزائرى يتغير تحت السطح من السيطرة الفرنسية التى لا تتزعزع ، فقد كان السكان المسلمون يتزايدون بمعدلات عالية ، وبحلول عام ١٩٥٤ بلغ تعدادهم حوالى ٩ ملايين ، أكثر من نصفهم أقل من سن العشرين ، وكان السكان الأوربيون حوالى مليون واحد ، وقد كان الجزء الأكبر من السكان المسلمين متركزين فى الجزء الأقل انتاجا من البلاد ، وبلا رأسمال لتطويره وتسهيلات محدودة فى الاقتراض، برغم المحاولات الصغيرة والمتأخرة التى قامت بها الحكومة لتوفير تلك التسهيلات ، وكنتيجة لذلك ، كانت مستويات المعيشة منخفضة ، ومعدل البطالة فى الريف مرتفعا ، وكانت هناك هجرة متزايدة من الفلاحين من الريف التعيس المزدحم بالسكان الى السهول ، للعمل كعمال فى مزارع الأوربيين ، والى مدن الساحل حيث كونوا بروليتاريا عاطلة غير ماهرة • وبحلول عام ١٩٥٤ ، أصبح خمس المسلمين من سكان المدن فى الجزائر وسافر حوالى ٣٠٠ ألف الى فرنسا ، وأصبحت فرص التعليم أكثر مما كانت عليه ولكنها ظلت محدودة ، فقد كان ٩٠٪ من السكان أميين ، ولم ينتقل سوى بضع آلاف من المدارس الابتدائية الى الثانوية ، وبضع عشرات الى التعليم العالى • وفى عام ١٩٥٤ ، كان هناك أقل من مائتى طبيب وصيدلى مسلم وعدد أقل من المهندسين •

وقد كان من بين المهاجرين الذين يعيشون بعيدا عن عائلاتهم فى مدن غربية ، جنود فى الجيش الفرنسى ، وطلاب أمامهم فرص محدودة ،

وكان هناك وعي بالتغيرات الكبيرة في العالم ، الهزائم الفرنسية في الحرب وفي الهند الصينية ، واستقلال البلدان الأفريقية والأسيوية ، والتغيرات في الأفكار حول الحكم الاستعماري ، وبدأ الاستقلال يبدو ممكنا ، ولكن لقاء ثمن فادح ، فقد أثبت قمع الاضطرابات عام ١٩٤٥ أن الاستقلال لن ينال بسهولة ، وفقد حزب الجماعة الذي كان على استعداد لقبول وضع أفضل في اطار النظام السياسي الفرنسي ، كثيرا من نفوذهم فيما تلا عام ١٩٤٥ ، وتكون في الحزب الوطني تدريجيا جماعة ثورية كان معظمهم من ذوي التعليم المحدود ، ولكن كانت لهم خبرة عسكرية في الجيش الفرنسي ، وقد تمكنوا فيما بعد من اجتذاب أعضاء من الصفوة المتعلمة ، وفي عام ١٩٥٤ ، شكلوا جبهة التحرير الوطنية ، وفي نوفمبر من ذلك العام ، انطلقت الرصاصات الأولى في تلك الثورة ٠

وقد كانت تلك الحركة ذات بداية محدودة ، وفرص نجاحها مشكوك فيه ، ولكن الدفع الذاتي للثورة وتصرفات الحكومة الفرنسية حولتها الى حركة وطنية وانتشر تأييدها في العالم بالتدريج ٠ وقد كان أول رد فعل للحكومة هو القمع العسكري ، وعندما تولت السلطة حكومة أكثر ميلا الى اليسار ، بدا أنها على استعداد لتقديم تنازلات ، ولكنها استسلمت للمعارضة من الجيش والأوربيين في الجزائر ، وفي نهاية عام ١٩٥٦ ، قامت بمحاولة للتوصل الى تسوية من خلال التفاوض، بمساعدة من مراكش وتونس ولكنها لم تصل الى شيء ٠ وعندما تحول مسار الطائرة التي تقل مجموعة من الزعماء الجزائريين المسافرين من الرباط الى تونس ، الى الجزائر حيث ألقي القبض عليهم ، وافقت الحكومة الفرنسية على عمل بدا كما لو كان مبادرة محلية ٠

عندئذ ، كانت القوة الفعلية قد انتقلت من الحكومة في باريس الى الجيش والأوربيين في الجزائر ، ومن الناحية الأخرى كان الجزء الأكبر من السكان الجزائريين المسلمين قد التفوا حول جبهة التحرير الوطنية٠وقد لاحظ أحد الدارسين الفرنسيين المتعاطفين أنه « بعد سنتين من الحرب تقريبا وجد معظم المجتمع المسلم نفسه مؤيدا بقوة وفعالية بهيكل تنظيمي خفي ، وانضم قادة هذه الحركة إلى صفوف الثوريين ،

الذين كانوا يمثلون الصفوة الجزائرية بالكامل » (۱) ۰ وبدأت تظهر الخطوط العامة للدولة الجزائرية المستقلة بفعل الحرارة والحماس اللذين ولدتهما الثورة المتوجهة نحو المساواة الاجتماعية واعادة توزيع الأراضى. وبلغت الحرب ذروتها العسكرية فى عام ١٩٥٧ عندما كان هناك صراع طويل حاد للسيطرة على مدينة الجزائر ، وأعاد الجيش فرض سيطرته على العاصمة ، واتبع فى الريف سياسة تشتيت السكان على مستوى واسع ، وتغيرت طبيعة هذا الصراع تدريجيا ، وأعلنت جبهة التحرير الوطنيــة العاملة من مراكش وتونس والقـاهرة نفسها الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية فى عام ١٩٥٨ ، وتلقت الدعم وقامت بالمفاوضـات فى كل أنحاء العالم ، وبتشجيع أيضا من بعض العناصر الراديكالية فى فرنسا ، وأوقفت أمريكا وبعض الاعتراضات الأخرى محاولة من الجيش الفرنسى لتوسيع الحرب الى تونس خشية الضغط العالمى الذى قد يسيطر على حكومة ما بعد الحرب الضعيفة فى فرنسا ، حتى الجيش والأوروبيين والمتعاطفين معهما فى فرنسا ، فرضوا تغييرا فعليا فى النظام ، وانتهت الجمهورية الرابعة ۰ وفى عام ١٩٥٨ ، عاد ديجول الى السلطة مع دستور جديد يعطى لرئيس الجمهورية صلاحيات أوسع ۰

وقد كان الذين أعادوا ديجول للسلطة يأملون أنه سـوف يستخدم نفوذه فى تقوية قبضة فرنسا على الجزائر ، ولكن سرعان ما أصبح واضحا أنه كان يتحرك بطرائق خفية وغير مباشرة نحو عقد تسوية مع الجزائريين، رغم أنه لم يكن مؤكدا أنه كان يرى منذ البداية منح الجزائر الاستقلال التام ، وفى المرحلة الأولى ، كانت سياساته تتجه نحو استمرار الاجراءات العسـكرية لقهر الثورة ، ولكن فى التحرك بشـكل مستقل عن الجيش والأوربيين فى الجزائر لتحسين أحوال المسلمين ، وأعلنت خطـة للتنمية الاقتصادية لتشجيع الصناعة واعادة توزيع الأرض ، وأعلن عن اجـــراء الانتخابات للبرلمان الجزائرى ، وكان من المأمول أن تفـــرز قيادة بديلة تستطيع فرنسا أن تتفاوض معها بدون الحاجة للاتفاق مع جبهة التحرير الوطنيـــة ، وذهبت هذه الآمال أدراج الرياح ، ولم يكن هنـــاك بديل عن التفاوض مع جبهة التحرير الوطنية ، وأجريت المفاوضات الأولى عام ١٩٦٠

ولم تصل الى نتيجة · وفى العام التالى ، أصبح لديجول حرية أكبر للمناورة ، فأجرى استفتاء فى فرنسا أظهر أن هناك أغلبية تؤيد حق تقرير المصير للجزائر ، وقمعت محاولة قام بها الجيش فى الجزائر للقيام بانقلاب ضد ديجول ، وعادت المفاوضات ، وكانت هناك مشكلتان عصيتان على الحل ، الأولى خاصة بالجالية الأوروبية والأخرى خاصة بالصحارى الجزائرية التى كانت فرنسا تريد الاحتفاظ بها ، حيث اكتشفت بها موارد من البترول والغاز الطبيعى وكانت تستغلها شركة فرنسية · وفى النهاية ، تخلى الفرنسيون عن النقطتين ، بحيث يصبح الأوربيون أحرارا فى البقاء أو الرحيل من الجزائر مع ممتلكاتهم ، وأن تصبح الجزائر بالكامل ــ بما فيها الصحارى ــ دولة مستقلة تتلقى العون من فرنسا ، ووقعت اتفاقية فى مارس ١٩٦٢ ، وأصبح الاستقلال حقيقة واقعة ولكن بتكاليف بشرية هائلة من الجانبين ، وتشرد جزء كبير من السكان المسلمين وقتل ما يربو على ٣٠٠ ألف وقتل عدة آلاف ممن كانوا الى جانب الفرنسيين ، أو أجبروا على الهجرة فى أعقاب الاستقلال ، وفقد الفرنسيون قرابة ٢٠ ألف قتيل · ورغم الضمانات ، غادرت الغالبية العظمى من السكان المستوطنين البلاد ، وسالت دماء أكثر مما يمكن أن تنسى ، ولجأت جماعة نشطة بين المستوطنين الى العنف فى المراحل الأخيرة من الحرب ، وهو ما أدى الى زعزعة موقف الأوربيين ·

الفصل الثاني والعشرون

المجتمعات المتغيرة (الأربعينات والخمسينات)

السكان والتنمية الاقتصادية

كانت الأربعينات والخمسينات هي سنوات الضغط السياسي وزمن تغيرت فيه المجتمعات بشكل سريع ، وفي مقدمة هذه التغيرات نمو السكان وما يؤدى اليه من ضغط على وسائل المعيشة ، وهو ما كان ملحوظا في كل مكان وأصبح معروفا بأنه مصدر أنواع عديدة من المشاكل ٠

وفي مصر ، ظل التزايد في السكان مستمرا لأكثر من قرن ، وبمعدل متصاعد ، وبينما كان معدل الزيادة في الثلاثينات أكثر قليلا من ١٪ سنويا ، أصبح بحلول الستينات بين ٥ر٢٪ الى ٣٪ ، وتزايد اجمالى السكان من ١٦ مليونا في عام ١٩٣٧ الى ٢٦ مليونا عام ١٩٦٠ ، وكان التغير راجعا أساسا للانخفاض في معدل الوفيات من ٢٧ من الألف عام ١٩٣٩ الى ١٨ في الألف عام ١٩٦٠ ، وتدنت الوفيات في المواليد بنوع خاص من ١٦٠ الى ١٠٩ في الألف في نفس الفترة ، مقارنة بذلك ، كان هناك تغير بسيط في معدل الانجاب ، وكانت المعدلات مشابهة أيضا في الدول الأخرى في وقت لاحق لما حدث في مصر ، ففي مراكش كانت هناك زيادة طبيعية طفيفة قبل ١٩٤٠ ، ولكن في السنوات العشرين التالية تزايد السكان من ٧ الى ٥ر١١ مليون ، وفي تونس كانت الزيادة في هذه السنوات من ٦ر٢ الى ٨ر٣ مليونا ، وفي سوريا من ٥ر٢ الى ٥ر٤ مليون، وفي العراق من ٥ر٣ الى ٧ ملايين نسمة ٠

وكان من نتائج مثل هذه الزيادة السريعة ، أن تغير التوزيع العمرى للسكان ، ففي عام ١٩٦٠ كان أكثر من نصف السكان في معظم البلاد

تحت سن العشرين ، وكانت هناك تغيرات أخرى أيضـــا فى التركيبة السكانية ، فالعنصر الأجنبى الذى لعب دورا كبيرا فى القطاع الاقتصادى الحـديث ، تقلص بانكماش الامتيـازات الاقتصـادية وتغير الظـروف السياسية ، ونقص عدد المقيمين من الأجانب فى مصر من ٢٥٠٠٠٠ عام ١٩٣٧ الى ١٤٠٠٠٠ بحلول عام ١٩٦٠ ، وفى ليبيـا من ١٠٠٠٠٠ الى نصفهم فى نفس الفترة ، وفى تونس من ٢٠٠٠٠٠ الى أقل من النصف ، وفى مراكش من ٣٥٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ فقط ، وفى الجزائر من قرابة المليـون الى أقل من ١٠٠٠٠٠ فرد ، فى مقابل ذلك كانت هناك حركة كبيرة لليهود من كل من أوروبا وبلاد الشرق الأوسط والمغرب الى دولة اسرائيل الجديدة ، والتى تزايد فيها السكان اليهود من ٧٥٠٠٠٠ عام ١٩٤٨ الى ١٫٩ مليونا عام ١٩٦٠ ، وتناقصت المجتمعات اليهودية القديمة فى البلدان العربية بنفس الدرجة . من خلال الهجرة الى اسرائيل وأوروبا وأمريكا ٠

وقد كان التغير الأعمق دلالة هو هجرة السكان بعيدا عن أراضيهم؛ وقد كان ذلك فى الأساس نتيجة للزيادة فى سكان الريف بما يفوق طاقة الأرض على اطعامهم ، ولكنها فى بعض المناطق كانت بسبب التغيرات فى تقنية وأسـاليب الزراعة ، فقد كان استخدام الجرارات الميكانيكية فى زراعة الأراضى المنتجة للحبوب ، يعنى انخفاض الطلب على الأيدى العاملة ، كما كان ملاك الأراضى التى تزرع بكثافة لأغراض تجارية ، يفضـــلون استخدام العمال المهرة على المزارعين بالمشاركة،وفى فلسطين كان النزوع نتيجة مباشرة للتغيرات السياسية ٠ وبحلول عام ١٩٤٨ ، أصبح الريف المتخم بالسكان العرب ملحوظا فى القرى العربية ، ولكن أحداث ذلك العام أدت الى طرد أكثر من نصف هؤلاء القرويين وأصبح معظمهم بلا أرض ، لاجئين فى المخيمات أو الأحياء الفقيرة فى الأردن وسوريا ولبنان وفى مصر بالطبع ٠

أما الفلاحون الذين لم يستطيعوا البقاء فى القرى ، فقد اجتذبتهم مراكز المناطق والتجارة للعمل فى القطاعات الصناعية والخدمية المختلفة؛

من الاقتصاد وأملا فى مستوى معيشى أرقى وفرص تعليم أفضل لأبنائهم ، وقد نزح عدة آلاف من الفلاحين من « كابيليا » Kabylia فى الجزائر ومن مراكش وتونس الى المدن الكبرى فى فرنسا ، وبدرجة أقل الى ألمانيا، وبحلول عام ١٩٦٠ ، كان هناك قرابة نصف مليون شمال افريقى فى فرنسا ، الا أن معظم المهاجرين من الريف ، اتجهوا الى المدن الكبيرة فى بلادهم أو البلدان المجاورة ، وتوسعت الدار البيضاء فى مراكش ، بسرعة أكبر من المدن الأخرى ، من مدينة تضم ٢٥٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٣٦ الى مليون فى عام ١٩٦٠ ، وزاد سكان القاهرة من ١ر٣ مليونا فى عام ١٩٣٧ ، الى ٣ر٣ مليونا عام ١٩٦٠ ، ولد أكثر من نصفهم خارج المدينة ، وتزيد سكان بغداد من نصف مليون فى الأربعينات الى ٥ر١ مليون فى الستينات، وكانت الزيادات فى عمان بالأردن من ٠٠٠ر٣٠ نسمة عام ١٩٤٨ الى ٠٠٠ر٢٥٠ عام ١٩٦٠ ، وكان معظم هذه الزيادة راجعا لحركة اللاجئين من فلسطين •

وتغيرت معظم البلاد العربية ، بسبب هذه الهجرات الداخلية ، من مجتمعات ريفية أساسا الى مجتمعات تتركز أعداد كبيرة متزايدة منها فى بضع مدن كبيرة ، ففى مصر عاش قرابة ٤٠٪ من السكان فى المدن بحلول عام ١٩٦٠ ، و ١٣٪ تقريبا فى القاهرة (وأكثر من ذلك اذا ما أضفنا الجيزة التى تتبعها اداريا بالفعل) ، والدار البيضاء كان بها ٢٠٪ من سكان مراكش ، وبغداد تضم ٢٠٪ من كل العراقيين •

وقد كان من الضرورى لاطعام السكان المتزايدين وتحسين مستويات المعيشة ، تنمية الانتاج فى الريف والمدن ، وقد أدى هذا الى الاحتياج الى فكرة التنمية الاقتصادية • وفى المرحلة الأخيرة من الحكم الاستعمارى ، بدأت بريطانيا وفرنسا فى السعى الى تنمية اقتصادية سريعة ، كطريقة لايجاد مصالح مشتركة بين الحكام والمحكومين ، وعندما تولت الحكومات الوطنية السلطة اهتمت أيضا بالتنمية الاقتصادية كطريقة وحيدة لتحقيق القوة والاكتفاء الذاتى ، فبدونهما لا يمكن أن تستقل الدول حقا •

وقد كانت تلك فترة تدخلت فيها الحكومات بشكل أكثر قوة فى العملية الاقتصادية لتشجيع التنمية ، وتميزت تلك الحقبة فى الريف بمشروعات الرى على نطاق واسع فى عدد من البلدان : مراكش والجزائر وتونس وسوريا وقبلها جميعا مصر والعراق ، ففى مصر ، استمرت التغيرات فى نظام الرى لأكثر من قرن ، ووصلت الى قمتها فى الخمسينات عندما بدأ العمل فى السد العالى فى أسوان ، بدعم مالى وفنى من الاتحاد السوفيتى الذى تقدم عندما تراجعت الولايات المتحدة عن تنفيذ المشروع ، وقد كانت مشروعات الرى السابقة فى وادى النيل تهدف الى الحد من الفيضان السنوى وتوزيع المياه بشكل يسمح برى مساحة كبيرة من الأراضى على مدار السنة ، لزراعة أكثر من محصول واحد على مدار العام ، ولكن السد العالى كان يحقق أكثر من ذلك ، فقد كان الهدف من بنائه تخزين الفيضانات المتتالية فى بحيرة ضخمة ثم تصريف المياه عند الاحتياج اليها ، وبهذه الطريقة تكون التقلبات فى حجم المياه من عام لآخر قليلة لا تذكر ، وللمرة الأولى فى تاريخ الطويل للحياة المستقرة فى وادى النيل ، لم يعد فيضان النيل السنوى مناسبة مهمة ، وكان من المأمول بهذه الطريقة زيادة المساحة المنزرعة بمقدار مليون فدان ، والمساحة المنتجة بمقدار أكبر من ذلك بفضل التوسع فى الرى السنوى للأراضى المنزرعة بالفعل ، كما كان يمكن أن يستغل السد أيضا فى توليد الطاقة الكهربائية ، وكانت هناك امكانيـة لتطوير المزارع السمكية فى البحيرة ، وأما من الناحية السلبية ، فقد يتزايد معدل البخر والتغير فى المناخ ، كما أن تخزين المياه فى البحيرة يعنى أن الطمى سيظل بها ، وألا ينتقل للأجزاء الشمالية من البلاد •

وفى العراق ، أدت الزيادة فى الايرادات الحكومية ، بفضل الانتاج المتزايد للنفط ، الى امكان تنفيذ أعمال الرى والتحكم فى الفيضان على نطاق واسع وطبقا لخطة موضوعة ، وأنشىء عام ١٩٥٠ مجلس للتطوير يسيطر على الجزء الأكبر من عائدات البترول ، وقام بتخطيط وتنفيذ مشروعات كبيرة للتحكم فى الفيضان فى كل من دجلة والفرات ، وبناء سدود على روافد دجلة الشمالية •

كانت تلك أيضا فترة استخدمت فيها الجرارات لأول مرة على نطاق واسع ، وان كانت مستخدمة بالفعل في عام ١٩٣٩ في الأراضي المملوكة للأوربيين في المغرب وللبهود في فلسطين ، ولكن فيما عدا ذلك كان استخدامها نادرا . وقد بدأ استيرادها آنئذ في العراق وسوريا والأردن ومصر ، وبلغ عددها أكثر من ١٠٠٠٠ وحدة عام ١٩٥٩ ، ولم يكن استخدام المخصبات والأسمدة الكيماوية أو السلالات والبذور المحسنة ، واسع الانتشار في تلك الفترة عدا في مصر ولبنان وسوريا .

ونتيجة لهذه التغيرات ، توسعت المساحة المزروعة في بضعة بلاد وزادت كثية المحاصيل ومساحتها في كل مكان . وفي معظم الأماكن تغير نمط انتاج الحبوب للاستهلاك المحلي الى المحاصيل النقدية في المدن أو للتصدير . وفي مراكش قامت السلطات الفرنسية في المراحل الأخيرة من حكمها بمجهودات منتظمة لتحديث الفلاحة ، وكانت تقوم بتدريب المزارعين الوطنيين المتجمعين في مناطق كبيرة على طرائق انتاج المحاصيل النقدية ، وتزويدهم بوسائل تعاونية للائتمان والتسويق . وفي سوريا وشمال العراق ، كانت هذه التغيرات تجرى على أيدى القطاع الخاص ، وفي المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات ، بدأ التجار ممن لديهم رؤوس الأموال ، في استئجار الأراضي من شيوخ القبائل وزراعة الحنطة باستخدام الجرارات ، وللمرة الأولى في تاريخ هذه المنطقة التي تعتمد الزراعة فيها على الأمطار غير المنتظمة ، أمكن زراعتها على نطاق واسع بأيد عاملة وبشكل اقتصادي لتصبح العملية مربحة ، وكانت النتيجة هي الميل تجاه الزراعة المستقرة مع تربية الماشية باعتبارها احسن طرائق استغلال الأراضي وأكثرها ربحية ، ففي سوريا تضاعفت المساحة المزروعة حنطة خلال عشرين عاما من ٧٤٨٠٠٠ هكتار في عام ١٩٣٤ الى ١٫٨٩٠٠٠٠ في عام ١٩٥٤ ، وفي وادى الفرات وغيره في سوريا توسعت زراعة القطن أيضا .

ورغم أهمية التوسع في الزراعة ، فلم يكن له الأولوية لدى معظم الحكومات فيما يتعلق باستثمار الموارد ، وبدا كما لو أن التنمية الصناعية

أكثر أهمية ولشد الحاجة ، فأعطت معظم الحكومات الأولوية لانشاء البنية الأساسية التى لا يمكن بدونها للصناعة أن تنمو : الطرق ، والسكك الحديدية ، والموانى ، والاتصالات والقوى الهيدروكهربية ، وفى بلدان المغرب الثلاثة ، قام الفرنسيون بمجهود منظم لتحسين المواصلات ، وطرق النقل وتوليد الطاقة الكهربية وأعمال الرى .

وقد أدت الاستثمارات الحكومية بالاضافة للاستثمار الخاص على نحو ما ، (وبنسبة أقل من نسبة الاستثمار الحكومى) أساسا الى التوسع فى الصناعة ، وكانت صناعات استهلاكية فى معظمها : الصناعات الغذائية ، ومواد البناء والمنسوجات خاصــــة فى مصر وسوريا اللتين كانت لهما مصادرهما الخاصة من القطن ، وأصبحت المناجم مهمة فى البلدان ذات الموارد المعدنية ، خاصة الفوسفات فى الأردن ومراكش وتونس .

ومن عدة نواح زاد النمو الاقتصادى من اعتماد معظم البلدان العربية على البلدان الصناعية ، ولم يكن تراكم رأس المال الوطنى للاستثمار كافيا للوفاء باحتياجاتها ، لذا اعتمدت التنمية على الاستثمار والدعم من الخارج ، وفى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية أمكن لبعض الدول الانفاق ، من احتياطيات الاسترلينى المتراكمة ، على الجيوش خلال الحرب ، وكانت لدى دول المغرب أموال وفــرتها الحكومة الفرنسـية من الدعـم الممنوح لفرنسا وفقا لمشروع مارشال ، وكان هناك استثمار أجنبى ضئيل ، ما عدا فى مراكش ،التى اجتذبت رؤوس الأموال الفرنسية خلال سنوات ما بعد الحرب ، بسبب الخوف مما يمكن حدوثه فى فرنسا ، وفيما بعد أعطيت القروض الأمريكية للبلدان التى تتفق سياســـاتها مع سياسة الولايات المتحدة ، وبنهاية الخمسينات منحت القروض السوفيتية لمصر وسوريا .

وكان الدعم الأجنبى يقدم جزئيا على الأقل ، لأسباب سياسية ، ولذ لم يخصص لتعزيز القدرة العســكرية للبلدان المستقلة حديثا ، والتى وجدت نفسها متورطة فى علاقــات معقدة ، وغالبــا عدائية ، مع بعضها البعض ، واستخدم أساسا فى تمويل استيراد السلع الرأسمالية أو المواد

المطلوبة لتحسين البنية الأساسية أو تنمية الصناعة ، وكانت النتيجة ، مزيداً من الاعتماد على الدول المانحة للمعونات ، وظلت الدول التي حصلت على المعونة مدينة لتلك التي أعطتها الدعم ، وظلت علاقاتها التجارية الرئيسية قائمة مع الدول الصناعية الأوروبية ، وبدرجة متزايدة مع الولايات المتحدة ، الاستثناء الوحيد كان مصر ، التي كانت بنهاية الخمسينات تصدر أكثر من ٥٠٪ من صادراتها الى بلدان الكتلة الشرقية ، وتستورد منها ٣٠٪ من وارداتها ، الا أن نسق التبادل ظل كما كان من قبل ، فى حدود تصدير الموارد الخام واستيراد السلع المصنعة ، وكان هناك تغيران ذوا دلالة ، كان أولهما أن أصبح استيراد المنسوجات أقل أهمية ، بعد أن قامت المصانع المحلية ، وكان ثانيهما ان تزايد استيراد القمح ؛ لأن الانتاج المحلي لم يعد كافيا لاطعام السكان المتزايدين فى المدن .

وتزايدت أهمية نوع واحد من الصادرات بشكل سريع فى تلك السنوات ، هو تصدير البترول ، وكان يمثل أكثر الأمثلة أهمية على الاعتماد الاقتصادى المتبادل بين الدول التي تمتلك البترول والعالم الصناعى . فقد ثبت ، بعد بدايات متواضعة قبل الحرب العالمية الثانية ، أن موارد البترول في دول الشرق الأوسط والمغرب من بين أهم الموارد فى العالم ، فبحلول عام ١٩٦٠ ، كانت هذه البلدان تنتج ٢٥٪ من انتاج العالم من النفط الخام ، وبسبب صغر حجم السوق المحلية ، كانت هذه الموارد مجتمعة تشكل أضخم حجم تصديرى للبترول فى العالم ، وكان الانتاج الأكبر موزعا بين ايران وبين الدول العربية فى العراق والكويت والمملكة العربية السعودية ، ولكن كان هناك أيضا انتاج فى بلاد أخرى من الخليج ومصر ، وفى عام ١٩٦٠ اكتشفت أيضاً احتياطيات كبيرة فى ليبيا والجزائر ، وبدا كما لو أن بترول الشرق الأوسط سوف يزداد أهمية فى المستقبل ، ففى عام ١٩٦٠ قدرت الاحتياطيات بحوالى ٦٠٪ من الاحتياطيات المعروفة فى العالم .

ومنحت امتيازات التنقيب عن البترول واستخراجه وتصديره للشركات الغربية ، ومعظمها كان فى أيدى عدد صغير من الشركات الكبرى

التى احتكرت فيما بينها هذه الصناعة ، وكان التنقيب فى العراق موكلا لشركة مشتركة بريطانية فرنسية هولندية أمريكية ، وفى السعودية لشركة أمريكية ، وفى الكويت بريطانية أمريكية ، وفى ليبيا فى أيدى عدد كبير من الشركات ، وفى الجزائر شركة فرنسية تستثمر فيها أموال حكومية ، وكان رأس المال فى معظم الحالات من أفراد مستثمرين غربيين ، وكان بالفعل أهم أمثلة عن الإستثمار الغربى الخاص فى البلدان العربية خلال تلك الفترة ، وتوفرت التكنولوجيا المتقدمة على أيدى الخبراء الأوروبيين والأمريكيين ، وكان الجزء الأكبر من النفط يصدر للبلدان الغربية ، وبخلاف النفط نفسه ، كان اسهام الدول المضيفة يتمثل فى تقديم العمالة ذات المستوى المنخفض ، ماهرة وغير ماهرة ، وكان ذلك محدودا حيث ان استخراج البترول وتكريره لم يكن يتطلب عمالة كبيرة ٠

ومع بداية الستينات ، تغير الموقف ، وبدأ استخدام عدد أكبر من العمالة المحلية فى الأعمال التى تتطلب مهارة عالية ، ورغم أن حجم القوى العاملة ككل لم يكن كبيرا ، الا أن العديد من الكوادر المحلية التى نشأت فى قطاع البترول ، بدأت فى الانتقال الى قطاعات أخرى ٠ والأهم من ذلك أن تقسيم الأرباح بين الشركات والدول المضيفة بدأ يتغير ، ففى عام ١٩٤٨ كانت نسبة ٦٥٪ من اجمالى عائدات الصناعة للشركات ، ونصيب الدول كان منحصرا فى « حق الملكية » وهى نسبة مئوية ضئيلة من السعر الذى تحدده تلك الشركات ، ومنذ عام ١٩٥٠ بدأت الضغوط من جانب البلدان المنتجة تحقق تغييرات فى الاتفاقيات ، حتى وصل نصيبها الى ٥٠٪ من صافى دخل الشركات ، وفى عام ١٩٦٠ تجمعت الدول الرئيسية المنتجة (ليس فقط فى الشرق الأوسط) فيما بينها فى منظمة الدول المصدرة للبترول (الأوبك) ، وهو تحالف يهدف الى تشكيل جبهة موحدة فى المفاوضات مع شركات البترول الكبرى ، التى كانت بدورها تعمل بالتنسيق فيما بينها وبهذا انفتح الطريق أمام تحرك جديد ، ينتهى بأن تتولى الدول المضيفة فى النهاية مهام هذه الشركات :

مكاسب التنمية : التجار وملاك الأراضي

فيما بعد الاستقلال ، تمكن التجار من أهل البلاد وملاك الأراضي من الحصول على نصيب أكبر من أرباح النمو الاقتصادى ، وأصبح باستطاعتهم الافادة من التغلغل في حكومات ما بعد الاستقلال للحصول على نصيب أكبر من تجارة الصادرات والواردات ، وحتى في تجارة القطن المصرية التي ظلت لوقت طويل في أيدى الشركات الأجنبية والمصارف ، لعبت بعض الشركات المصرية الكبيرة التي تعمل بالتعاون الوثيق مع السياسيين دورا مهما ، وفي العراق هاجرت معظم البرجوازيه اليهودية التي كانت بارزة في التجارة مع انجلترا والهند ، بعد أن أصبح وضعها صعبا بعد ظهور دولة اسرائيل ، واحتل مكانها في الغالب التجار الشيعة من العراقيين ، كما كانت معظم الصناعات الجديدة بين أيد أهلية نتيجة تراكم معين لرأس المال لدى التجار وملاك الأراضي ، وأيضا نتيجة لاحتياج الصناعات الوليدة لتحقيق اتصال بالحكومة ، وفي بعض البلدان كان التعاون بين رأس المال المحلي والأجنبي موجودا • كان ذلك صحيحا في مراكش ، حيث ظلت الشركات الفرنسية المراكشية المختلطة مهمة حتى بعد الاستقلال ، كما تحقق ذلك الى حد معين في مصر أيضا ، وصارت البنوك الأهلية المشتركة مهمة في تملك واستثمار حقوق الملكية والامتيازات وأرباح صناعة البترول ، وكان أغلبها في أيدى بنوك يديرها اللبنانيون والفلسطينيون في بيروت •

وفي معظم المناطق ، كان التوسع في الزراعة في سنوات ما بعد الحرب لصالح أولئك الذين تملكوا وسيطروا على الأراضي في الأساس ، وخاصة كبار الملاك الذين كانت القروض متاحة لهم من المصارف وشركات الائتمان ، وكان بامكانهم مراكمة رؤوس الأموال للاستثمار في مراكش وتونس • وأما الأراضي التي كانت بين أيدى الملاك الأجانب ، فقد اشتراها بعد الاستقلال اما أصحاب رؤوس أموال أهلية أو الحكومة ، وفي مصر ظل وضع كبار ملاك الأراضي قويا حتى عام ١٩٥٢ ، وكان الأربعمائة فرد البارزون من العائلة المالكة مجتمعين ، هم أكبر ملاك للأراضي ، وحولهم

ما يقرب من ٢٥٠٠ من العائلات المصرية والشركات ، وحوالى ٢٠٠ شركة أجنبية تمتلك كل منها أكثر من ١٠٠ فدان ، وفيما بينهم تملك كبار ملاك الأراضى ٢٧٪ من الأراضى المزروعة ، وكانوا يتحكمون فعليا فى الحكومة ، فمنهم فى المتوسط نصف عدد الوزراء ، والشيوخ المنتخبون ينتمون الى هذه الطبقة ، وبهذا كانوا قادرين على الحصول على امتيازات فى الرى ، والابقاء على نظام الضرائب فى صالحهم ، وبفضل رؤوس أموالهم المجمعة وامكانات الائتمان كانوا قادرين على شراء الأراضى المتاحة ، وسيطرتهم على أفضل الأراضى جعلت بامكانهم فرض ايجارات مرتفعة على المستأجرين الذين كانوا يستزرعون معظم هذه الأراضى ، وقد كان بعض الاقتصاديين يطالبون باصلاحات فى نظام ملكية الأراضى ، وكان لدى المزارعين شعور بالظلم قوى ، ولكن فيما قبل عام ١٩٥٢ ، نادرا ما ارتفع صوت ينادى بالاصلاح فى المجالس النيابية للبلاد ٠

وقد تزايدت أيضا قوة ملاك الأراضى فى سوريا والعراق فى نفس الفترة ، ففى سوريا كانت السهول الكبرى المخصصة لزراعة الحنطة ، دائما فى حوزة كبار العائلات فى المدن ، وتضخمت آنئذ طبقة كبار الملاك بانضمام زراع القطن فى الأراضى المروية فى وادى الفرات ، وأولئك (سواء أكانوا من الملاك أم المستأجرين) كانوا يزرعون الحنطة فى الجزيرة ٠ وفى العراق ، نشأت معظم طبقة كبار ملاك الأراضى نتيجة التغيرات التى حدثت منذ أواخر القرن التاسع عشر، من زيادة الرقعة الزراعية باستخدام الجرارات الميكانيكية ، والطلمبات ومشروعات الرى ، والتحول الى الزراعة المستقرة ، وتسجيل حجج ملكية الأراضى ، وقد عملت سياسة حكومات الانتداب البريطانى وبعدها حكومة الاستقلال لصـــالح ملاك الأراضى ، وخاصة شيوخ القبائل الذين كان بامكانهم استغلال نفوذهـم فى خدمة بريطانيا والملكية ٠ وفى عام ١٩٥٨ ، كان أكثر من ٦٠٪ من أراضى الملكية الخاصة بين أيدى أولئك الذين يمتلكون أكثر من ١٠٠٠ دونم ، وتملكت ٤٩ عائلة أكثر من ٣٠٠٠٠ دونم لكل منها (الدونم العراقى يعادل تقريبا ٢٥ر٠ هكتارا أو ٦ر٠ من الفدان الانجليزى) ، وقد كانت الملكيات أكبر من مثيلاتهـا فى مصر حيث كانت الزراعة من النوع الكثيف ، كما أن

هذه الأراضى الواسعة كانت تستهلكها الملوحة الزائدة بسرعة ، وبخلاف شيوخ القبائل ، تضمنت طبقة الملاك ، العائلات الحضرية البارزة ، الذين حصلوا على الأراضى من خلال الخدمة فى الحكومة أو المكانة الدينية ، وبالاضافة الى التجار المسلمين ممن لديهم رؤوس الأموال للاستثمار ، وكمثل الحال فى مصر ، كان لملاك الأراضى وضع سياسى قوى ، نتيجة توليهم عضوية الوزارة والمجالس النيابية ؛ ولأن الملك والجماعة الحاكمة كانوا باحتياج اليهم ٠

وبرغم مطالبة بعض الاقتصاديين باصلاحات فى نظام ملكية الأراضى والشعور المتعاظم لدى المزارعين بالظلم ، فانه نادرا ما ارتفع صـــوت ينادى بالاصلاح ٠٠٠

قوة الدولة

لقد بدا انتصار الحركة الوطنية فى البداية كما لو كان انتصـارا للطبقات المالكة الوطنية ، ولكن ذلك لم يدم طويلا فى معظم البلاد ، وكان المنتصر فى النهاية هو الدولة نفسها ، من خلال أولئك الذين سيطروا على الحكومة ، وهؤلاء الذين كانوا فى الخدمة العسكرية والمدنية ، والذين كانت الدولة تمارس سلطاتها من خلالهم ، واكتملت العملية الاجتماعية الأساسية، التى فرضت الحكومة بها سيطرتها فى معظم البلاد بخروج الحكام الأجانب، وحتى فى بلد مثل مراكش ، التى كانت سـلطة الحكومة الحضرية فيها ضعيفة حتى ذلك الوقت ، فقد ورثت الحكومات وسائل السيطرة : الجيش وقوات الشرطة والبيروقراطيـة ، وفى العربية السعودية أيضـا تولت الحكومة القوية المنظمة التى أورثها الملك عبد العزيز لأولاده السيطرة على عدد من المناطق المختلفة فى مجتمع متوحد سياسيا ، الا أن تلك العملية ظلت غير مكتملة على الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة ، فلم يكن حكم الامام فى اليمن يغطى الدولة بكاملها ، وكانت الادارة البريطانية فى عدن قد أوجدت جماعـات متفرقـة غير مترابطة من زعماء القبائل تحت الحماية البريطانية فى الريف ، ولكنها لم تحكمها بشكل مباشر ، وفى عمان أيضا

كانت قوة الحاكم تعتمد على انبريطانيين ، ولم تغط سلطته كامل البلاد من الداخل من عاصمته في مسقط على الساحل .

وبدأت أنشطة الحكومات في التوسع لتشمل ما هو أكثر من حفظ القانون والنظام وجمع الضرائب وتوفير بعض الخدمات الأساسية ، فأصبحت الخدمات العامة ملكية عامة ، سواء أكانت المصارف التى تصدر أوراق النقد ، أم السكك الحديدية والتليفونات ومياه الشرب والغاز والكهرباء ، وكان هذا متفقا مع ما كان يحدث في كل العالم ، ولكن كان له سبب خاص في البلاد العربية : ففي معظمها كانت الخدمات العامة ملكا للشركات الأجنبية ، وكان التأميم يعنى نقلها من الملكية الخاصة الى العامة ، ومن الأجنبية الى الأهلية ...

وكان لحركة التأميم زخمها الذاتي ، فقد تخوفت الحكومات الجديدة من استمرارية أو تنامي مراكز القوة الاقتصادية المستقلة التي يمكن أن تولد قوة سياسية ، أو أن ترتبط بعلاقات بالحكام السابقين ، كما أن التصنيع المتسارع يصبح صعبا وبطيئا اذا ما ترك للاستثمار الخاص ، وكان تراكم رأس المال الخاص للاستثمار محدودا تحت الحكم الأجنبي وظل غير كاف ، وكان توجيهه للاستثمار الانتاجي صعبا ، وما لم تكن هناك سوق مال منظمة ، فقد يتردد في توجيه أموالهم لصناعات جديدة غير مجربة ، بدلا من العقارات في الحضر أو الأراضي ، وحتى ان فعلوا ذلك ، فقد لا تحظى مصانعهم بأولوية في الخطة القومية .

كانت تلك هي القضايا المثارة حيال تدخل الحكومة في العملية الاقتصادية ، وهو ما أصبح ممكنا بعد أن جمعت كل الموارد في يدها ، وقد كان انسحاب الحكام الأجانب يعنى أن الايرادات من الضرائب أصبحت تحت السيطرة الكاملة للحكومات وتزايدت الإيرادات بشكل كبير ؛ بسبب الغاء الامتيازات المالية التي كانت تتمتع بها الاستثمارات الأجنبية، وفي بعض البلدان ، توافرت حينئذ موارد للاستثمار من العائدات المتزايدة من البترول ، وحتى تلك البلدان التي لم يتوافر بها البترول أمكنها

الاستفادة من مدفوعات الشركات لحقوق الترانزيت أو من القروض أو الهبات التى وفرتها الدول الغنية ، وفى عام ١٩٦٠ كانت ٦١٪ من العائدات الحكومية فى العراق من البترول ، و ٨١٪ من السعودية وقرابة ١٠٠٪ فى الدول الصغيرة فى الخليج ، وفى سوريا ٢٥٪ من الواردات كانت فى خط الأنابيب الذى كان يحمل بترول العراق والسعودية لساحل البحر المتوسط ، وفى الأردن كانت ١٥٪ من القروض من أجل التنمية من الدول الصناعية ومن الوكالات الدولية ٠

وحتى فيما قبل الاستقلال ، أخضعت بعض الأنشطة الاقتصادية للسيطرة الحكومية ، فاستخراج الفوسفات فى مراكش كانت تحت سيطرة وكالة حكومية منذ أن ظهرت أهميته ، وفى السودان انتهت الامتيازات الممنوحة للشركات البريطانية لزراعة القطن فى منطقة الجزيرة عام١٩٥١٠ وتسارعت العملية بعد الاستقلال ، فتولت تونس صناعة الفوسفات ، وفى الأردن ، شاركت الحكومة فى شركة الفوسفات بدرجة كبيرة ، وفى مصر ، كانت سياسة الحكومة العسكرية التى تولت السلطة عام ١٩٥٢ موجهة بشكل متزايد نحو تأميم المصانع ، قد بلغت ذروتها عام ١٩٦١ بتأميم المصارف وشركات التأمين وكل الشركات الصناعية الكبيرة تقريبا ، وفى العام السابق ، وضعت أول خطة خمسية بهدف التنمية الصناعية والزراعية تحت السيطرة الحكومية ، وكان الاستثناء الرئيسى من هذا الاتجاه مراكش ، فقد كان هناك خيار واضح بين الاقتصاد الموجه مع التصنيع السريع والضوابط على الاستهلاك ، وبين اقتصاد يعتمد على الاستثمار والمشروعات الخاصة عام ١٩٦٠ ، تضمن هذا الخيار صراعا على السلطة بين الحزب القومى الذى يضغط باتجاه التغيير السريع ، وبين القوى المحافظة الملتفة حول الملك ، وانتهى الأمر بتولى الملك السلطة الفعلية ، وأن يستقر الخيار فى صالح الاستثمار الخاص ٠

ولم يكن أكثر الأمثلة اثارة فى تدخل الدولة فى العملية الاقتصادية فى الصناعة بقدر ما كان فى اصلاح نظام ملكية الأراضى ، وكان لذلك أهمية سياسية واجتماعية كبرى ، حيث ان معظم السكان فى البلدان

الغربية كانوا يعيشون فى الريف ، وأيضا ـ لأن كبار ملاك الأراضى كانوا يشكلون أقوى طبقة ، ولها أكبر قدر من نفوذ على الحكومة ، كما كانت تسيطر على معظم رأس المال ، وكان ضرب أملاكها ومصالحها يعنى تدمير القوة التى يمكن أن تسيطر على الحكومة ، واطلاق رأس المال للاستثمار فى مختلف المجالات .

وقد كان أكبر خطط الاصلاح الزراعى تأثيرا هو ذلك الذى أعلنت عنه الحكومة العسكرية الجديدة فى مصر فى أعقاب توليها السلطة عام ١٩٥٢ ، فقد كان رسم تلك الخطة المفصلة ووضعها بهذه السرعة عقب تولى السلطة ، رغم أن الموضوع لم يكن ليبحث فى الحكومات السابقة أو البرلمان ، علامة على استقلالية قوة الحكومة وأيضا على ظهور مجموعة حاكمة جديدة بأفكار مختلفة الى حد كبير عن أفكار أولئك الذين سبقوهم فى السلطة ، وأبرز أجزاء الخطة كان تحديد الحد الأقصى للملكية بـ ١٠٠ فدان عام ١٩٦١ ثم بـ ٥٠ فدانا عام ١٩٦٩ ، وتشترى الحكومة ما يزيد عن الحد الأقصى بسعر محدد بسندات حكومية وتوزعه على صغار المزارعين ، اضافة لذلك صودرت الأراضى التى امتلكتها العائلة الملكية بلا تعويض ، وحددت القيمة الايجارية ، ومدة عقد الايجار لا تقل عن ثلاث سنوات ، على أن يحصل المستأجرون وصغار الملاك على القروض وتسويق منتجاتهم من خلال التعاونيات التى أنشأتها الحكومة ، وفى العقد التالى اشترت الحكومة ـ بشكل اجبارى ـ حوالى نصف مليون فدان وزع جزء منها ، وقد كان لذلك آثار بعيدة المدى ، غير متوقعة أحيانا ، فمن الناحية السياسية تحطمت قوى كبار ملاك الأراضى والعائلة المالكة ، ومن الناحية الاقتصادية أعيد توزيع الدخل من كبار الملاك لصغارهم والمزارعين المستأجرين ، ولم تمس تقريبا الطبقة الوسطى ذات الملكيات المتوسطة .

واتخذت فى سوريا اجراءات مشابهة عام ١٩٥٨ ، وحدد الحد الأقصى للملكيات ، وأعيدت صياغة العقود الزراعية لصالح المزارعين أو المستأجرين ووضع حد أدنى لأجور العمالة الزراعية ، وفى العام الأول لم يكن تطبيقه بنفس الفعالية كما كان فى مصر ، لأن الأجهزة الحكومية لم تكن مؤهلة

للمهمة ، ولم يكن هناك مسح كامل للملكيـات الزراعية ، وكان النفوذ السياسي للملاك قد تحطم تماما ، وفي العراق أيضـــا طبقت اجراءات مشابهة بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٥٨ ، ولكن قبل أن تتبلور من الثورة جماعة حاكمة مستقرة بأفكار واضحة متفق عليها ، خاصة حول كيفية تنظيم المجتمع ، وقد استمر عدم الاتفاق طوال السنوات الأولى بين الحكام حول الأراضي التي صادرتها الدولة ، وهل يجب الاحتفاظ بها وتنميتها عن طريق الدولة نفسها أو توزيعها على صغار الملاك ٠

الأغنياء والفقراء في المدن

أثر تزايد حجم السكان ، والهجرة من الريف الى المدينة ، فقـد تزايدت أعداد وقوة البرجوازية من ملاك الأراضي ، والتجار ، وأصحاب ومديري المصانع ، وموظفي الخدمة المدنية ، وضباط الجيش ، وكان لهذا أثره على طبيعة الحيـاة في الحضر من عـدة نواح ، فقد انتقلت الطبقة الوسطى من الأهالي الى أحياء كان يشغلها الأوربيون ، وانتقل المهاجرون من الريف الى الأحياء التي هجروها ، أو الى أحياء جديدة ، وفي كل هذه الحالات كان هناك تغير في العادات وطرائق الحياة ، ومالت الطبقة المتوسطة الى نمط المعيشة الذي كان يعيشه الأوربيون من قبل ، وعاش الريفيون على نمط فقراء الحضر ٠

ففي المغرب ، بدأت عملية حلول الطبقات ذات التعليم الحديث في قلب المدن محل الأجانب في الأربعينات أو الخمسينات ما قبل الاستقلال ٠ وانتهت سياسة التفرقة الحضرية التي كان يتبعها الانتداب الفرنسي في مراكش ، والتي كانت موجودة أيضا في الجزائر والى حد أقل في تونس ، وقد شجع الاستقلال هذه العملية الى أبعد حد ، وغادر الأوربيون ومعهم رؤوس أموالهم ، وحل محلهم الحكام الجدد والمسئولون وطبقة ملاك الأراضي والتجار المرتبطون ولم يكن الفصل أبدا تاما في القاهرة والاسكندرية وتغيرت طبيعة الأحياء وكان بعضها أوربيا أكثر منه مصريا ، وكان فتح نادي الجزيرة الرياضي لانضمام المصريين ، واحراق مبان معينة ، مرتبطة

بالأجانب ، خلال شغب ١٩٥٢ فى القاهرة ، رموزا للتغيير الاجتماعى ؛ وفى لبنان وسوريا والعراق لم تكن المستوطنات (الأحياء الخاصة بالأجانب) كبيرة بهذا الشكل أو مقتصرة عليهم الى هذا الحد ، ولكن مصادرة أملاك معظم السكان العرب فى فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، كانت تعنى أن المدن التى كانت مختلطة أصبح سكانها أساسا يهودا من أصول أوربية ، واستقر المهاجرون اليهود من البلدان العربية غالبا فى المدن أو القرى الجديدة ، وفى القدس التى أصبحت مقسمة بين اسرائيل والأردن ، كان النصف الأردنى الذى يضم المدينة القديمة عربيا بالكامل ، ولكن جزءا كبيرا من البرجوازية العربية فى القدس وحيفا ويافا ، استقروا فى مدن خارج فلسطين ، وكانت رؤوس أموالهم وطاقاتهم هما السبب الرئيسى لازدهار « عمان » السريع •

وقد عاشت البرجوازية فى أحيائها الجديدة كما عاش الأوربيون ؛ فى نفس المنازل ، ويرتدون نفس الملابس ، رغم أن هناك حلا وسطا بين طرائق الحياة الجديدة والقديمة ، فقد يرتدى المراكشى فى الدار البيضاء ملابس أوربية أثناء العمل ، ولكنه يرتدى الملابس التقليدية (الجلباب) فى المسجد يوم الجمعة ، وقد يضم منزله الحديث غرفة على الطراز الشرقى ، ذات أرائك منخفضة ، وصوان نحاسية وسجاجيد معلقة على الحوائط ، وفى بعض الأحياء الجديدة ، اختلطت المجتمعات الدينية المختلفة معا أكثر مما كان عليه الحال فى المدينة القديمة ، فقد عاشوا فى نفس البنايات السكنية والشوارع وأدخلوا أبناءهم نفس المدارس ، وقد ظل التزاوج بين المسلمين والمسيحيين واليهود نادرا ، ولكنه كان أقل ندرة مما مضى •

وكان الثراء باديا بشكل أكثر وضوحا فى الأحياء الجديدة المتفتحة ؛ حيث أدى الخوف ، من الحاكم أو الجيران ، بالشعب الى اخفاء مظاهر الثراء ، واكتسبت المنازل واجهة واضحة تطل على الشارع ، وفرشت الغرف بفخامة ، واستعرضت المجوهرات بشكل واضح ، واكتسب رمز معين أهمية فى الوضعية الاجتماعية فى تلك الفترة ، وهو السيارة الخاصة ،

وكانت نادرة نسبيا قبل الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت الآن أكثر شيوعا ، ففي القاهرة تضاعف العدد تقريبا بين عامي ١٩٤٥ وعام ١٩٦٠ ، والزيادة في أعداد السيارات والشاحنات والحافلات تطلبت طرقا جديدة أكثر اتساعا ، وأصبح ركوب السيارة في طريق واسع رمزا للحداثة والاستقلال ، وكان أولها في السبعينيات من القرن الماضي عندما أنشأ اسماعيل باشا شارع محمد على ، وتكرر آنئذ في أكثر من موضع في الشرق الأوسط ، وان لم يكن في المغرب سيارات على الاطلاق ، وقد غيرت السيارات الخاصة والطرق التي أنشئت من أجلها من طريقة حياة الأغنياء ولم تعد حياتهم مقصورة على أحيائهم ، فقد أصبحوا يمتلكون في كل المدينة ، ومناطق الريف المحيطة بها ، وقد يعيشون بعيدا عن أماكن عملهم •

وبدأت الهجرة من الريف تحتل الأحياء التي هجرتها البرجوازية ، وقد كان بعضهم يذهب الى المدينة لزيارة ضريح مقدس أو مسجد شهير ، أو يجتذبه توافر المساكن ووسائل الاقامة ، وفي المدن المختلطة استقر البعض فيما كان يعرف فيما قبل بأحياء البرجوازية الأوربية الصغيرة ، مثل شبرا في القاهرة ، وفي بعض المدن تضخمت مدن الصفيح التي كانت موجودة بالفعل ، وتكاثرت أينما كانت هناك أراض خالية ، ولكن ذلك لم يحدث في القاهرة حيث كانت الجبانة الشرقية أو ما يعرف في الغرب « بمدينة الأموات » الشاسعة خارج المدينة القديمة ، وأدت نفس أغراض احتواء فائض السكان ، وقد نقلت السلطات مدن الصفيح من مكان لآخر ، ولكن مع مرور الوقت اكتسب بعضها مباني دائمة ومرافق الحضر ، فقد أصبحت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين على مشارف مدن بيروت ودمشق وعمان من أحياء هذه المدن فعليا ، وفي بعض البلدان بدأت الحكومات برامج لانشاء مساكن منخفضة التكاليف للاسكان الشعبي على المحيط الخارجي للمدينة ، أو بقرب المناطق الصناعية ، وفي العقد الأخير من الحكم الفرنسي في مراكش حاول أحد الموهوبين من مصممي المدن وضع برنامج من هذا النوع ، وقد أعلنت في مصر خطة خمسية للاسكان عام ١٩٦٠ ، وتضمنت انشاء مدينة تابعة بالقرب من القاهرة ، هي مدينة نصر ، وفي تلك السنوات تساءل معماري مصري هو حسن فتحي (١٩٠٠ ــ ١٩٨٩)

تنســاؤلات مهمة حول الطرائق التى يجب أن تتبع لتصميم مثل هذه المشروعات وتنفيذها ، واقترح بدلا من تبنى الطرائق السائدة وأنماط العمارة الغربية ، أنه بالامكان تعلم الكثير من تخطيط المدن والبناء الاسلامى التقليدى ٠

وانتشرت فى القاهرة وبيروت وبضع مدن أخرى تلك الأمور التى تميز « الحداثة » بما فى ذلك الدخل الضرورى لتحقيقها ، وانتشرت بشكل أوسع من مجرد طبقة صغيرة ، ونشأ « حزام انتقالى » فى الأحياء الغنية والفقيرة ، تتطلع منه بروجوازية صغيرة من الموظفين والعمال المهرة وأصحاب المحال الى أساليب حياة الطبقة الوسطى ، وقد كانت هناك فجوة بين الأغنياء والفقراء فى معظم المدن ، وكان المهاجرون من الريف يميلون الى تبنى عادات أهل الحضر ، فى الوقت الذى كان أهل الحضر يتخلون فيه عنها ولهذا ظلت الطرائق التقليدية للحياة دائمة ، فالسيدات اللاتى كن يعملن بلا خمار فى الحقول أو يرفعن المياه من الآبار ، تحجبن الآن وتخفين عن الأعين ، كما حدثت تغيرات فى المستوى الأعلى ، فتعدد الزوجات الذى كان شائعا الى حد ما فى بعض الطبقات الاجتماعية ، أصبح نادرا بسبب صعوبات الحياة فى شقق صغيرة ، أو المفاهيم المستجدة للحياة العائلية ، وكان معدل الطـلاق عاليا والأرجح أنه انخفض ، وانخفضت أيضـا نسبة المواليد فى المدينة عن الريف ، لأن الفتيات اللائى دخلن المدارس ملن للزواج المتأخر ، وكان على الرجال تأمين وظيفة دائمة وادخار قدر من المال قبل الزواج ، وأيضا بسبب انتشار وسائل تحديد النسل ، وفى مصر فى أواخر الخمسينيات كان أكثر من ٥٠٪ من ذوى التعليم العالى و ١٠٪ من فقراء الحضر يمارسونه ، ولكن لم يمارسه (تحديد النسل) أحد من فقراء الريف ، وفى ذلك الوقت كانت مشاكل تضخم السكان معلومة ومطروحة للنقاش فى مصر ، وأعلن بعض علماء الدين أن تحديد النسل جائز شرعا ٠

وقد ظلت الحياة قاسية بين فقراء الحضر ، فنسبة كبيرة منهم كانوا عاطلين ، وقد قدر عمال الصناعة عام ١٩٦٠ بنسبة ٥ر٧٪ ، ونسبة ٢٣٪ فى الخدمات ونسبة ٦٦٪ من بين سكان القاهرة بلا عمل دائم أو منظم

من بين سكان القاهرة يعيش معظمهم فى مساكنهم المكتظة وأكواخهم ، وبالرغم من اختفاء الأمراض والأوبئة مثل الطاعون والكوليرا التى أهلكت مدنا فى العصور السابقة ، فان السل والتيفود والملاريا وأمراض العيون كانت شائعة ، وكانت وفيات الأطفال عالية عام ١٩٥٦ وبلغت ٣٤ فى كل ألف حالة حمل .

الا أن هناك بعض الدلائل على تحسن ظروف المعيشة على الأقل بين بعض الفقراء ، فالشاى والسكر اللذان كانا خارج قدرتهم الشرائية أصبحا من عمد الحياة اليومية فى مراكش والعراق ، كما ارتفع استهلاك الغذاء فى مصر من متوسط مقداره ٢٣٠٠ سعر حرارى يوميا فى بداية الخمسينات ليصبح ٢٥٠٠ سعر خلال عشر سنوات ، وتوسعت الخدمات الاجتماعية ، وتوافرت عيادات الخدمات الصحية ، وقلل تحسن مياه الشرب من حالات الاصابة ببعض الأمراض ، وفى بعض المدن تطور النقل العام ، ودخلت نسبة كبيرة من الأطفال الى المدارس الابتدائية وتزايدت حملات محو الأمية ، ودخل المزيد من النساء سوق العمل ، أساسا كخدم فى المنازل أو فى المصانع ، كان معظمهن من الصغيرات غير المتزوجات ومازلن يعشن فى بيوت أهلهن ، وحقيقة أنهن يعملن خارج هذه المنازل ويكسبن قوتهن لم تحدث تغييرا كبيرا فى هيكل العائلة ، فقد زدن من دخل عائلاتهن ولكن ذلك لم يعن بالضرورة أن تكون النساء أنفسهن أكثر رفاهية أو استقلالية .

وقد أثرت مثل هذه التغيرات على بعض الطبقات من السكان أكثر من البعض الآخر ، فقد اتسعت الفجوة بين العمال الصناعيين وعمال اليومية غير المهرة وبدأت الحكومات فى التدخل بشكل أكثر فعالية فى الصناعة لتنظيم ظروف العمل ، ففى مصر صدر قانون يضع حدا أقصى للعمل اليومى والأسبوعى ، وفى معظم البلدان سمح بقيام نقابات عمال ، وقد حدث هذا التغير فى معظمه فى الأربعينات بتأثير الحرب العالمية الثانية ، وبعدها بتأثير الحكومة العمالية فى بريطانيا والأحزاب اليسارية فى حكومات الائتلاف الفرنسية ، وزاد عدد العمال المسجلين فى النقابات بتوسع الصناعة ، وفى مراكش وتونس شكلت النقابات جزءا متكاملا من

الحركة الوطنية ، وفى مصر أيضا كانت المنظمات العمالية نشطة فى معارضة السيطرة البريطانية بعد عام ١٩٤٥ ، وبمجرد الحصول على الاستقلال حاولت الحكومة الحد من الأنشطة السياسية للنقابات ، ولكن فى بعض المناطق كانت هذه النقابات فعالة فى تحقيق ظروف عمل أفضل لأعضائها ٠

وقد كان التفاوت الاجتماعى وعدم المساواة بين أهل المدينة وأهل الريف ، واضحا وضوحا يفوق التفاوت وعدم المساواة فيما بين أهل المدن أنفسهم ٠ فقد استفادت كل الطبقات الحضرية الى حد كبير من الظروف المتغيرة للحياة فى الحضر ، ولكن هذا التحسن كان جديدا وفى بدايته بحيث لم يؤثر فى الحيـاة فى القرية ، وعاش معظم القرويين فى معظم البلدان كما كانوا يعيشون دائما ، من انجاب الكثير من الأطفال ، لكى يموت معظمهم فى سن الطفولة أو الشباب بلا رعاية طبية ، وبتعليم أولى فقط ، وبلا كهرباء ، وقد اقتصرت حركتهم داخل نظـام زراعى ، حيث يحصل ملاك الأراضى ومحصلو الضرائب على الفائض منه ، وفى ظروف تزايد السكان مما يحرمهم من موقف المتفاوض القوى ، وقد بذلت بعض الحكومات جهودا فى الأربعينيات لتحسين الظروف بلا تغيير فى نسـق العلاقات الاجتماعية ، وخاصة نظام الوحدات الريفية الصحية المجمعة فى مصر ، التى وفرت الخدمات الصحية وغيرها فى مجموعات من القرى ، ولكن أول المحاولات الجادة لتغيير العلاقات بين الطبقات الريفية واعادة توزيع الدخل من الزراعة كانت عند تنفيذ الاصلاح الزراعى ٠ وفى بعض المدن خلال الخمسينيات كان هناك العديد من التغيرات ، فكان المهاجرون الى المدن يرسلون أموالا الى أهليهم ، واتسعت آفاق الحياة الريفية بالانتقال الى المدن ، كما تم توسيع الطرق لاستيعاب السيارات والشـاحنات ، بالاضافة الى زيادة الصحف وانتشار الاذاعة والمدارس الابتدائية ٠

الفصل الثالث والعشرون

الثقافة الوطنية (الأربعينات والخمسينات)

قضايا التعليم

أدت التغيرات فى المجتمع بالاضافة الى وصول مجموعات من الصفوة الوطنية للحكم ، الى انتشار سريع للتعليم · كما جعلت مقتضيات الحياة فى المدن ، من الالمام بالقراءة والكتابة واكتساب المهارات ضرورات أكثر الحاحا ، وكان التزام الحكومات الوطنية بانشاء دولة قوية يعنى ضرورة استغلال كل الطاقات البشرية ، وكانت هذه الحكومات المركزية الحديثة بحاجة الى الاتصال برعاياها بشكل أكثر اكتمالا مما كان ضروريا فى الماضى ·

وخلق نخبة متعلمة نتيجة التعليم العالى ، كان بالطبع عملية بدأت قبل ذلك بوقت طويل فى بعض البلدان العربية ، ولكن المعدل تزايد مع تحقيق الاستقلال ، فكان هناك عام ١٩٣٩ ست جامعات أغلبها صغير ويسيطر عليها الأجانب ، وفى عام ١٩٦٠ أصبح هناك أكثر من عشرين جامعة كاملة ثلاثة أرباعها وطنية ، اضافة لبضع مؤسسات أخرى للتعليم العالى ، وبلغ عدد طلاب الجامعات ١٠٠ ألف طالب ، ولا يشمل ذلك الدارسين فى أوربا أو أمريكا ، وكان العدد الأكبر منهم فى مصر ، وبعدها سوريا ولبنان والعراق ، وقد كانت الزيادة أقل فى المغرب ، فعندما غادر الفرنسيون تونس كان فيها ١٤٣ طبيبا وطنيا و ٤١ مهندسا ، وفى المغرب لم يكن هناك سوى ١٩ طبيبا مسلما و ١٧ طبيبا مراكشيا يهوديا و ١٥ مهندساً مسلماً و ١٥ مهندسا يهوديا ، ولكن عدد المسلمين كان أكثر بكثير فى حالة المحامين والمدرسين والموظفين ، لذا وجب أن يبدأ تعليم النخبة من البدايات وأنشئت المدارس لهذا الغرض ·

وقد أدى منطق الوطنية الى ما هو أكثر من مجرد تكون النخبة ، بل وتجاوزه الى تعليم الشعب كله ، فالتعليم الشعبى العام كان أحد المهام الأولى التي التزمت بها الحكومات وخصصت لها نسبا كبيرة من ايراداتها ، وكان فتح المدارس على نطاق واسع فى كل مكان فى الأحياء الفقيرة فى المدن وفى القرى ، وفى مصر عام ١٩٦٠ كان ٦٥٪ من الأطفال فى سن التعليم الابتدائى يذهبون للمدارس ، وبلغ عدد التلاميذ فيها ٣ ملايين كان من بينهم ٢٠٠٠٠٠ فى المرحلة الثانوية ، وفى مراكش عام ١٩٥٤ ، ورغم المجهودات التى بذلها الفرنسيون خلال السنوات الأخيرة من الانتداب، بلغت نسبة التلاميذ المسلمين ١٢٪ فقط فى سن التعليم الابتدائى • وبحلول عام ١٩٦٣ ، ارتفع هذا الرقم الى ٦٠٪ والى قرابة ١٠٠٪ بين الأطفال فى سن السابعة ، وفى تونس وصلت الزيادة فى نفس الفترة من ١١٪ الى ٦٥٪ وقد أدت هذه الزيادة فى عدد التلاميذ مع المجهودات المبذولة لتعليم الكبار الى اقتراب بعض البلدان من هدف محو الأمية الكامل ، الا أنها ظلت بعيدة عن تحقيقه • ففى مصر عام ١٩٣٧ كان ٧٦٪ أميين ، وبحلول عام ١٩٦٠ انخفض المعدل الى ٥٦٪ ، أما فى بلدان شبه الجزيرة العربية ، فكان التغير أبطأ من ذلك ، فالأنظمة المحافظة التى تعتمد على نـوع من القداسة الدينية فى العربية السعودية واليمن ، كانت أكثر حرصا من الآخرين تجاه افتتاح مدارس من نوع جديد وما يعنيه من تعرض الطلاب لرياح أفكار جديدة • وبخلاف المدن المقدسة مكة والمدينة ، لم تكن هناك أى مراكز اشعاع للثقافة تصل الى الريف ، وفى البلدان التى كانت تحت الحماية البريطانية على أطـراف الجزيرة ، كانت الموارد قليلة ، ولم يكن لدى البريطانيين ولا الحكام الرغبة الصادقة فى التغيير السريع بكل ما يحمله من مشاكل ، وكان الاستثناء هو الكويت حيث كانت الموارد المتزايدة من تصدير البترول تستخدم لخلق مجتمع حديث •

وقد كانت نسبة النساء غير المتعلمات والأميات أعلى بكثير منهـا بين الرجال ، فبلغت فى مصر ٩٤٪ فى عام ١٩٣٧ ، وأصبحت ٨٣٪ عام ١٩٦٠ ، وفى معظم البـلدان كان المعـدل أكبر من ذلك ، وكان هدف الحكومات الوطنية تعليم البنات كالذكور لأنه بغير ذلك تضيع نصف قوة

الأمة العاملة ، وفى مصر ، بلغت نسبة التلميذات من البنات فى سن المدارس ٥٠٪ ، وبحلول عام ١٩٦٠ بلغت النسبة فى تونس قرابة ٣٠٪ ، وقد كانت نسبة البنات فى التعليم الثانوى أو العالى أقل ، ولكنها كانت متزايدة ، ففى جامعة بغداد عام ١٩٦١/٦٠ كان ٢٢٪ من الدارسين من الفتيات ، وفى الرباط ١٤٪ ، وفى تونس ٢٣٪ ، وفى السودان ، حيث بدأ تعليم الاناث متأخرا ، أنشئت كلية خاصة للبنات ، وكان فى جامعة الخرطوم بضع فتيات عام ١٩٦٠/٥٩ ٠

وكانت بعض مشاكل التوسع السريع فى التعليم هى نفسها ذات المشاكل الشائعة فى كل البلاد فى نفس المرحلة من التغيير والتنمية ، فكان النمو السريع فى السكان يعنى ــ حتى اذا تزايد عدد التلاميذ من سن التعليم فى المدارس بالفعل ــ الا أن ذلك لم يعن بالضرورة تناقص نسبة من هم خارج المدارس من هذه الشريحة العمرية ٠ وافتتحت المدارس بشكل عاجل لاحتواء أكبر عدد ممكن ، وكانت فصولهـــا كثيفة العدد بما يستحيل معه تحقيق تعليم فعال ، ولم يكن المدرسون على دربة تمكنهم من أداء عملهم ، وكانت النتيجة ملحوظة على كل المستويات ، وخاصـــة التعليم العربى الذى أصبح غير واف ولا كاف فى المستوى الثانوى ، ولم يكن الطلاب الذين التحقوا بالجامعة مؤهلين بشكل عام ، وكان هناك ميل للتركيز على التعليم الأكاديمى (النظرى) الذى يؤدى الى الخدمة الحكومية أو المهن الحرة بدلا من التدريب التقنى أو الحرفى فاستعمال الأيدى بالاضافة الى الذهن ، كان غريبـا على مفهوم التعليم فى الثقافة الاســـلامية وغيرها من الثقافات ما قبل الحديثة ، الا أن تنـامى صناعة البترول أدى الى بعض الاختلاف ، فالعمال العرب اكتسبوا منها المهارة والمعرفة التى استطاعوا استخدامها فى قطاعات أخرى من الاقتصاد ٠

وقد ظهرت بعض المشـــاكل التى أوضـــحت خصوصية التجارب التاريخية للمجتمعات العربية ، فعندما استقلت تلك المجتمعات ورثت مدارس مختلفة بعضها أهلية ، وبعضها خاص ، وبعضها حديث ، وبعضها اسلامى تقليدى ، بعضها يدرس باللغة العربية وبعضها بلغـات أوربية

(عادة الانجليزية أو الفرنسية) وكانت الحكومات المستقلة ميالة لتوحيد الأنظمة واخضاعها جميعا لسيطرة الدولة ، فالمدارس الاسلامية التقليدية ألغيت أو أخضعت لنظام الدولة ، فالجامع الأزهر فى القاهرة أصبح جزءا من جامعة على النظام الحديث ، وأصبح جامع الزيتونة كلية للشريعة فى جامعة تونس ، وأما جامع القيروان فى فاس فلم يعد له وجود كمؤسسة تعليمية ، ولكن المدارس فى المدينة بالحجاز ، وكذلك فى مدن الأضرحة الشيعية فى العراق ، استمرت بلا تغيير يذكر ٠

وفى بعض البلدان ، أخضعت المدارس الأجنبية لسيطرة الدولة ، وقامت بالتعليم طبقا لبرنامج المدارس الوطنية ، ولكن كانت هناك استثناءات : ففى لبنان استمرت الجامعتان الأجنبيتان الأمريكية والفرنسية مزدهرتين ، ونشأت بجانبهما جامعة تابعة للدولة ، وفى مصر كانت الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، وكانت مدارس الارساليات الكاثوليكية ، التى كانت لها حماية دبلوماسية من الفاتيكان ، قادرة على الحفاظ على استقلالها ، وكان الاتجاه الرئيسى هو تعريب المدارس التى تدرس باللغات الأجنبية ، وأصبح استخدام اللغة العربية على نطاق أوسع ، قاعدة للتعليم الابتدائى ، وفى سوريا تم ذلك بحيث لم تعد هناك لغة أجنبية تدرس قبل الحادية عشرة ، مما كان له نتائج على المدارس الثانوية والتعليم العالى ، أما فى المغرب ، فكانت الحكومات المستقلة التى تؤكد على أهمية اللغة العربية ترى فى نفس الوقت أن ازدواجية اللغة هى جزء من رأسمالها الثقافى ، حيث أدى وجود جالية أجنبية كبيرة مسيطرة على الحكومة والاقتصاد ، الى تغلغل اللغه الفرنسيو الى المستويات الأدنى من المجتمع بخلاف الحال فى مجتمعات الشرق العربى ، وبذلت جهود فى بعض الجامعات لتدريس كل المواضيع باللغة العربية بما فيها العلوم الطبيعية ولكن بافتراض امكان طبع الكتب الدراسية باللغة العربية ، فان الطالب الذى لا يستطيع قراءة الأعمال العلمية أو الدراسية باللغات الرئيسية للتعليم العالى ، وجد نفسه فى موقف سيىء ٠ وكانت الحكومة تبعث الى

الخارج بضعة آلاف من الطلاب بمنح دراسية ، وكانوا فى حاجة لاتقان لغة أجنبية بها ، وكما كان الحال فى كل المجتمعات ، أمكن لمن لهم حظ من ثراء أو سلطة أو تراث ثقافى عالمى التغلب على هذه المشكلات أو تفاديها · وبشكل عام ، كانت هناك مدارس أفضل من سواها وهى تلك التى أدارتها مؤسسات أجنبية أو خاصة ، ذات فصول أصغر ، ومدرسين أفضل ، مثل الليسية فى المغرب ومصر ولبنان ، والتى وفرت الحكومة الفرنسية لها المدرسين ، وتعلم طـلاب مثل هذه المدارس بنجاح بالخارج اما بأموال خاصة أو حكومية ، واتسعت الفجوة بين الثقافتين ، ولكن بشكل مختلف الى حد كبير عما كان موجودا من قبل ، فلم تكن الصفوة تعيش كما عاش الجيل الســابق لهـا فى وسط من الثقافة الانجليزية أو الأمريكية أو الفرنسية ، ولكن فى وسط من ثقافة انجلوعربية أو فرانكوعربية ويجيدون لغتين أو ثلاثا ، ويتحدثون فى المنازل بالعربية ، ولكنهم يكتسبون ثقافتهم العالية ومعارفهم عن العالم من خلال الانجليزية أو الفرنسية (بالانجليزية بشكل متزايد ما عدا فى المغرب) ؛ ولكن الطبقات الأعرض كانت تتحدث العربية فى البيوت واستمدت معارفها عن سياسات العالم وأفكارها عن المجتمع وفهمها للعلوم من الكتب والصحف والاذاعات العربية ·

اللغـة والتعبير عن الذات

تراكم فى هذه الفترة كم هائل متزايد من المعارف ، غذى عقول أولئك الذين كانوا يرون العالم من خلال اللغة العربية · وقد كان معظم هذه المادة مشتركا بين كل الدول العربية ·

كان ذلك هو العصر الذهبى للسينما ، وفى أوائل الستينات كانت بدايات التليفزيون فى البلدان العربية ، ولكن دور السينما كانت منتشرة بشكل هائل ، فكان فى مصر ١٩٤ دارا للسينما فى عام ١٩٤٩ ، وأصبحت ٣٧٥ دارا بحلول عام ١٩٦١ ، وكانت الزيادة فى معظم البلدان الأخرى بنفس المعدل تقريبا ، وكانت الأفلام الأمريكية شائعة ومحبوبة كما كان

الحال فى أنحاء العالم ، وشاعت الأفلام الفرنسية فى المغرب، ولكن الأفلام المنتجة فى مصر كانت منتشرة أيضا بشكل واسع ، وقد أنتجت القاهرة ٦٠ فيلما عام ١٩٥٩ معظمها عاطفى موسيقى من النوع الذى كان ينتج فى بداية صناعة السينما فى مصر ، ولكن كانت هناك بضعة أفلام جادة من الواقعية الاجتماعية زادت من الوعى العام للعرب ، ونشرت فى كل مكان رصيدا من الصور ، ومن اللهجة العامية المصرية والألفة مع الأصوات المصرية ، والموسيقى المصرية التى حلت محل الموسيقى الأندلسية فى المغرب ٠

وقد كان ذلك عصر الراديو أيضا ، فاستوردت أجهزة المذياع على نطاق واسع فى الأربعينات والخمسينات ، وفى عام ١٩٥٩ كان هنــاك ٨٥٠ر٠٠٠ مذياع فى مصر ، ونصف مليون فى مراكش ، يستمع لكل منها عشرات من الناس فى المقاهى وساحات القرى ، ويتلقون أحداث الحرب ، وأنباء فترة ما بعد الحرب من الانتصــارات والهزائم والوعود والآمال والمخاوف ، أصبحت جميعها معروفة بشــكل أوسع عن ذى قبــل ، وكان لكل حكومة محطة اذاعتها ، كما أن القوى العظمى ذات المصالح فى البلاد العربية كان لها ارسال على الموجة القصيرة باللغة العربية ، ونسبة كبيرة من البرامج التى كانت تبثهــا كل المحطات من الأحاديث والتمثيليــات والموسيقى نشأت أصلا فى القاهرة ، ونشرت هذه بدورها المعارف عن مصر وطرائق الحديث فيها ٠ وكانت أكثر المحطات نفوذا فى تلك الفترة « صوت العرب » التى تبثها مصر للدول المحيطة ، معبرة فى نبرة حماسية عن آمال العرب وطموحاتهم كما تراها مصر ، وأصبحت أصوات مصرية معينة معروفة فى كل مكان ، صوت حاكم مصر جمال عبد الناصر، وأصوات معظم مشاهير المطربين المصريين ، فحين تغنى أم كلثوم ، يستمع لها العالم العربى كله ٠

وبانتشار التعليم والاهتمام بالقضايا العامة ، ارتفع توزيع الصحف ، وأصبحت أكثر أهمية فى تشكيل الرأى العام ، ومرة أخرى أيضا كانت

صحف القاهرة أكثرها انتشارا وتأثيرا ، وظلت الأهرام أكثرها شهرة ، يصل توزيعها الى مئات الآلاف ، وكانت الصحافة المصرية حرة نسبيا حتى وصول السياسيين العسكريين الى السلطة عام ١٩٥٢ ، ولكنها أصبحت بعد ذلك تحت سيطرة الدولة ثم تم تأميمها عام ١٩٦٠ شأنها شأن المشروعات الكبرى الأخرى ، وحتى فيما بعد ظلت الصحف المصرية واسعة الانتشار لأنها كانت تعبر عن وجهة نظر حكام البلاد ، وكانت مقالات محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام تعد من الأحداث السياسية المهمة · وفى معظم البلدان الأخرى أيضا كانت الصحف تحت السيطرة الصارمة فيما يتعلق بالأحداث والآراء ، ولكن كان هناك القليل الذى يورد الأخبار ويعبر عن الآراء من مختلف الأنواع بحرية ، وكانت أكثر الصحف حرية هى صحف بيروت التى كان جمهورها الكبير متعلما ومتنوعا ، وينتمى بعضهم لبلدان أخرى خلاف لبنان · أما التوازن الدقيق بين القوى السياسية ، فقد جعل من ظهور حكومة قوية جائرة أمرا مستحيلا ، وكانت صحف ودوريات بيروت مقروءة خارج حدودها كمثيلاتها القاهريات ·

كانت القاهرة وبيروت هما المركزان الرئيسيان لنشر الكتب للدول العربية ، وفيهما تزايدت أعداد الكتب وكميات النسخ المطبوعة بشكل هائل لتغذية أعداد الطلبة المتزايدين وعامة القراء ، وبحلول الستينات كان هناك حوالى ٣٠ر٠٠٠ كتاب تنشر سنويا فى القاهرة ، وكانت هناك كتب من كل الأنواع ، كتب مدرسية على كل المستويات ، الأعمال الأدبية والعلمية الجماهيرية ، وبدايات أدب خاص للأطفال أصبح مفهوما فى عالم الطفل ·

ومما كان له مغزى عميق ، تلك الكتب التى استكشف فيها الكتاب العرب علاقاتهم بمجتمعهم وماضيه ، وأصبح هناك تقليد راسخ من البحث التاريخى فى بعض الجامعات فى تونس والقاهرة والجامعة الأمريكية فى بيروت ، وظهرت بعض التفسيرات الأصيلة للتاريخ العربى والاسلامى مثل كتاب عبد العزيز الدروى (ولد سنة ١٩١١) « نشأة علم التاريخ عند

العرب » ، وكتاب عبد الله لاروى (ولد سنة ١٩٣٣) « تاريخ المغرب » ، في محاولة منه لانقاذ تفسير التاريخ المغربى من الكتاب الفرنسيين الذين فشلوا فى استيعاب جوهره حسب وجهة نظره : « ونحن نستطيع تمييز فترة طويلة ظل فيها المغرب مجرد موضوع لا ينظر اليه سوى بعيون المنتصرين الأجانب ·· ولا يعد تاريخ هذه الفترة سوى تاريخ الأجانب على الأرض الأفريقية·· وقد توقفت الآليات الاجتماعية فى المغرب فى عدة مناسبات ، كما لو أن الأفراد والجماعات قد عقدوا صلحا منفردا مع القدر ، فماذا نستطيع أن نفعل لنمنع ذلك من الحدوث مرة أخرى ، حيث ان نهاية الاستعمار تقدم فرصة بداية جديدة ؟ ··· وما يريد كل منا أن يعرف اليوم هو كيف نخرج من أنفسنا ، وكيف نهرب من جبالنا وكثباننا ، وكيف نعرف أنفسنا من واقع أنفسنا ، وليس من واقع آخرين ، وكيف نهجر ذلك المنفى الروحى الذى نحيا فيه » (١) ·

وقد ظلت الرواية والقصة القصيرة الشكلين الرئيسيين ، اللذين استكشف فيهما الكتاب العرب علاقاتهم بالمجتمع ، وأضيفت روايات التحليل الاجتماعى والنقد الضمنى الى الروايات ، التى عبرت عن الأفكار الوطنية وأزمة المتعلمين العرب الممزقين بين ثقافاتهم الموروثة والثقافة الأوربية ، وكما كان الحال من قبل فان أهم الأعمال الروائية صدرت من القاهرة ، وقد صور نجيب محفوظ (م ١٩١١) فى سلسلة من الروايات عن الحياة فى المدن فى الأربعينات والخمسينات ، صورا من حياة البرجوازية الصغيرة المصرية بحيرتها واضطرابها فى عالم أصبح غريبا عليها ، وقد حصل محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ · وكذلك وصف عبد الرحمن الشرقاوى (م ١٩٢٠) حياة فقراء الريف فى روايته «الأرض» ، وساعدت هذه الأعمال ــ بشكل ضمنى على الأقل ــ فى تفسير اغتراب المجتمع عن حكامه ، واغتراب الفرد عن مجتمعه · وبزغ أيضا صوت جديد مع ظهور عدد من الأديبات اللائى كانت كتاباتهن عن جهود النساء من أجل حياة أكثر حرية ، وقد كان عنوان الكتاب الأول لليلى بعلبكى « أنا أحيا » رمزا لأهدافهن ، وكان ملحوظا ظهور نوع من التمرد لدى بعض الكتاب حيال الحاضر الواقع ، باسم ماض « أصيل »

كان واقعا قبل أن تقتلعه تغيرات الحياة الحديثة ، وكان الكتاب من هذا النوع ينظرون للدين بشكل مختلف ، فالاسلام الذى كانوا يعبرون عنه لم يكن اسلام المحدثين ، كما لم يكن أيضا اسلام عصور النقاء الأولى الحقيقية أو المتخيلة ولكن ذلك الاسلام الذى تطور فى الواقع ، من عقيدة وساطة الأولياء وزيارة أضرحتهم والممارسات الصوفية فى القرى ٠

كانت مثل هذه الأفكار واضحة فى مصر ، وبدرجة أقل فى دول أخرى حيث ظهر وسيط جديد نسبيا هو الدراما ، وأصبحت المسرحيات شكلا محبوبا من التسلية بعد أن عودت السينما والراديو المشاهدين على سماع ورؤية التوتر فى العلاقات الانسانية بالكلمات والايماءات ، وكانت أيضا ملجأ لابداع كتاب المسرح ، وظلت الدراما الشعرية تكتب باللغة الفصحى الراقية ، وكانت موضوعة أصلا للقراءة أكثر منها للتمثيل ، على سبيل المثال توفيق الحكيم (١٨٩٩ ـ ١٩٨٧) ، والى جانب ذلك ظهرت دراما المجتمع الحديث المكتوبة أساسا لتمثل وتؤدى فى المسارح الصغيرة بالقاهرة والمدن أخرى ، وكانت باللغة الدارجة العامية أو بلغة قريبة منها ، وقد شرح أحد دارسى الآداب ، الأسباب فى ذلك موضحا أن اللغة الفصحى تعبر عن الخطاب والاطناب الاستاتيكى أكثر من الفعل الدرامى ، وهى لغة عامة ولا يمكن أن تصبح صوتا للمشاعر الفردية بسهولة ، كما انها تجريدية تفتقد الارتباط بالبيئة ، أما اللغة الدارجة ـ من ناحية أخرى ـ فقد يعوزها الرنين الضرورى للوصول الى ذروة اللحظة الدرامية أو التراجيدية ٠

وقد ظهر فى شعر هذه الفترة شىء من جمود الفصحى وميلها للتجريد ، كما ظهرت بعض التعبيرات التقليدية المرتبطة بها ، ومنذ أواخر الأربعينات كانت هناك ثورة شعرية بين شباب الشعراء فى لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ، والذين يعيشون أساسا فى بغداد وبيروت ، ولسان حالهم ، مجلة «الشعر» ٠ كانوا يأملون فى تحقيق تغير متعدد الأوجه ، فى أغراض الشعر ومحتواه ٠ وقد حاول رومانسيو الجيل السابق تحرير

الشعر من الروح الخطابية ، كما حاولوا عدم قصره على المناسبات ، وحاولوا أن يجعلوا الشعر معبرا عن المشاعر الفردية الشخصية وكانوا ينظرون للعالم الطبيعي كتعبيرات خارجية عن تلك المشاعر ، وحاول الشعراء الجدد الابتعاد عن ذاتية الرومانسية ،مع المحافظة على شيء تعلموه منهم ، فكان على الشعر عندهم أن يعبر عن حقيقة الأشياء ، ولكن الحقيقة لا يمكن تعلمها بالعقل فقط ، وانما بذوبان ذات الشاعر كاملة فيها ، بخياله وعقله معا ، وقد اختلف الشعراء من ناحية تركيزهم على المواضيع المختلفة للحقيقة المتعددة الجوانب ، فبعضهم كان معنيا بمشاكل هويتهم في عصر من القلق ، والآخرون يستمدون من المناقشات الأدبية الفرنسية في الخمسينات فكرة أن الكاتب يجب أن يكون « ملتزما » ، وكانوا مهتمين بموضوع الأمة العربية ومواطن ضعفها ، وكان هناك احتياج الى ظهور أمة عربية جديدة وانسان عربي جديد ، والى أن يكون الشاعر « الخالق لعالم جديد » وكان أحد الشعراء البارزين من هذه المجموعة ، الشاعر السوري أحمد سعيد (م ١٩٢٩) الذي كان يكتب باسم أدونيس قال : « ان الشعر يجب أن يكون تغييرا لنظام الأشياء » (٢) .

وقد أصبحت القرية العراقية في شعر بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤) رمزا للحياة ليس الحياة الفردية فقط ، وانما أيضا لحياة الشعب العربي محوطا بشوارع المدينة السجن العقيم للروح الانسانية :

دروب تقول الأساطير عنها

على موقد نام : ما عاد منها

ولا عاد من ضفة الموت سار ،

فمن يفجر الماء فيها عيونا لتبنى قرانا عليها ؟

....

وجيكور ، من غلق الدور فيها - وجاء ابنه يطرق الباب - دونه ؟

ومن حول الدرب عنها .. فمن حيث دار اشرأبت اليه المدينة ؟

وجيكور خضراء مس الأصيل ذرى النخل فيها بشمس حزينة

...

ودربى اليها كومض البروق ، ... (٣) .

وكان العالم الجديد محتاجا للغة جديدة ، وحاول هؤلاء الشعراء الابتعاد عن الآراء السائدة حول ما ينبغى أن يكون عليه الشعر ، فالوحدة الأساسية للقصيدة لا يحتم أن تكون البيت الذى يتكون من عدد محدد من التفعيلات كما يجب التخلى عن نظام القافية السائد ، بل والقافية ذاتها ، وبهذا نتجنب تلك العلاقات التركيبية الصارمة بين الكلمات ونتجه الى صياغات أكثر تحررا ، كما يجب استبدال الكلمات والصور التى أفرغها التكرار من معانيها بغيرها ، وابتداع نظام رمزى جديد ، وقد كان بعض تلك الرموز المطروحة خاصا ، والبعض الآخر مستمدا من الرصيد المشترك الشائع للرموز فى الشعر الفرنسى والانجليزى الحديث .

أحد العلامات الواضحة المميزة لهذه المجموعة هو مدى تأثرهم واحساسهم بالشعر الأوربى ، وقد حاولوا زيادة الوعى الشعرى للقارىء العربى ليشمل التراث الثقافى العالمى ، صور الخصوبة المستمدة من قصيدة « الأرض الخراب » ل «اليوت» ، وصور موت «تموز» واعادة بعثه ل « أدونيس » ، والمأخوذة من الأساطير الكلاسيكية ، التى كان لها صدى محلى لارتباطها بالريف السورى (كما أن اتخاذ أحمد سعيد لاسم أدونيس فى كتاباته كان له دلالات) .

وفى المغرب ، ظهرت فى ذلك الوقت مجموعة من الكتاب ينشرون الروايات والمسرحيات والأشعار باللغة الفرنسية ، ولكنهم يعبرون عن حساسية معينة ونمط من الفكر ، وفى الجزائر ظهر كتاب جيل ١٩٥٢ مثل « كاتب ياسين » (١٩٢٩ ــ ١٩٨٩) ، « ومولود فرعون » (١٩١٣ ــ ١٩٦٢) ، « ومولود معمرى » (١٩١٧ ــ ١٩٨٨) ، الذين استخدموا تمكنهم من اللغة الفرنسية فى استكشاف مشاكل التحرر الشخصى والهوية القومية ، ولم تكن كتابتهم بالفرنسية تعنى فقدان اتصالهم بجذورهم، بل كانت نتيجة لتعليمهم ووضعية مجتمعاتهم ، وبعض الجزائريين من البربر

من « قبيليا » كانوا أكثر ألفة للفرنسية منهم للعربية ، وشارك بعضهم في الصراع الوطني ، وكلهم تأثر به وأكثرهم شهرة في فرنسا هو « كاتب ياسين » ، الذي ترك الكتابة بالفرنسية بعد ١٩٧٠ وكرس نفسه لكتابة الدراما بالعربية الدارجة .

الحركات الاسلامية

كان الشعر الحديث مكتوبا ليقرأ ويبعث على التأمل ، وكان مختلفا في دلالته عن الشعر المكتوب ليتلى على السامعين في المهرجانات الشعرية التي كانت مناسبات متميزة في تلك الفترة ، وكانت تقرؤه القلة التي يمكنها فهم اشاراته ، ولكنه رغم ذلك عبر عن السخط العربي العام على أنفسهم وعلى عالمهم .

كانت هذه المشاعر مع الرغبة في التغيير ، متفشية في قطاع أعرض من السكان في كلمات وصور مرتبطة بالاسلام بشكل أو بآخر من أشكاله المتعددة ، وكانت محاولات الحداثيين لاعادة صياغة الاسلام بشكل يجعله استجابة واعيـة لمتطلبـات الحياة الحديثـة ، وقد ظلت أكثر الأشـكال انتشارا بين النخب المتعلمة التي قادت الحركات الوطنية أو القومية ، والتي سـيطرت آنئذ على الحـكومات الجديدة ، وقد عبر بعض الكتاب المشـهورين الذين يقرأ لهم جمهور كبير بشـكل متميز ، مثل الكاتب المصري خالد محمد خالد (م ١٩٣٠) الذي بلورت كتـاباته رفضـا جادا لأسلوب التلقين التقليـدي في تعليم الدين ورأى في ذلك جمودا يقيد حـرية العقل الانسـاني ويدعم مصـالح الأقوياء والأغنيـاء ، ويبرر الفقر ، في حين أن الدين الحقيقي عقلاني انساني ديمقراطي يحض على التقدم الاقتصادي ، وأن الحكومة الشرعية ليست حكومة دينيـة ، ولكنها قائمة على الوحدة الوطنية ، وتهدف الى العدل والرفاهية .. وقد بدأ بعض الكتاب البارزين في تلك الفترة في الكتابة بمصطلح اسلامي أكثر تركيزا عن العدالة الاجتماعية ، فكان الخليفة الاسلامي عمر بن الخطاب مصلحا اجتماعيـا عند طه حسين وكانت أفـكاره مماثلة لأفكار العصر الحديث .

وقد اختلطت فى تلك الآونة هذه الأصوات مع أصوات أخرى ، تعلن أن العدالة الاجتماعية يمكن تحقيقها فقط تحت قيادة حكومة يكون الاسلام أساسا فى سياستها وقوانينها ، وبعد الحرب أصبحت حركة الاخوان المسلمين عنصرا سياسيا رئيسيا فى مصر ، وعاملا ملحوظا فى سوريا وبعض البلاد الأخرى ، وخلال السنوات ما بين ٤٥ و ١٩٥٢ ، وهى السنوات التى شهدت تفكك النظام السياسى المصرى ، كان يبدو أن تعاليم الاخوان التى كانت أساسا للعمل المشترك ضد البريطانيين وضد الفساد ، يمكن أن تتحقق بالثقة والوحدة ، وبعد تولى الضباط السلطة عام ١٩٥٢ ، كانت لبعض الضباط علاقات وثيقة بهم ، ويبدو أنهم كانوا يمثلون الهدف الذى يجب أن توجه اليه سياسات الحكومة الجديدة ، وكانوا التنظيم السياسى الوحيد المستثنى من قرار حل الأحزاب السياسية ، وسرعان ما أصبحت العلاقات عدائية بعد محاولة لاغتيال عبد الناصر عام ١٩٥٤ ، وأعدم بعض قادة الاخوان ، وبعدها شكلوا أكبر القنوات السرية المعارضة ، وظلوا يمثلون نموذجا بديلا لمجتمع العدل ٠

واغتيل مؤسس الحركة حسن البنا فى سنوات الاضطراب بعد الحرب ، ولكن بعض الكتاب الآخرين المرتبطين بالحركة أصبحوا يعبرون عن فكرة مجتمع اسلامى عادل،وتميز بينهم مصطفى السباعى فى سوريا، وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) فى مصر ، الذى قدم تفسيرا قويا فى كتاب شهير « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » فلم يكن هناك فجوة فى الاسلام بين الايمان والحياة ، كما كان الحال بالنسبة للمسيحيين ، وأن كل الأعمال الانسانية ما هى الا عبادة ، وأن القرآن والحديث هما المبادىء التى يتحدد الفعل فى ضوئها ، ويكون الانسان حرا فقط اذا تحرر من الخضوع لكل القوى ما عدا قوة الله ، سواء كانت قوة الكهنوت أو الخوف أو سيطرة القيم الاجتماعية ، أو الرغبات والشهوات الانسانية ٠

ومن بين المبادىء التى يمكن استنباطها من القرآن ، أكد سيد قطب على المسئولية المتبادلة بين الناس فى المجتمع ، ورغم أن الناس متساوون أساسا أمام الله ، الا أن عليهم واجبات مختلفة مرتبطة بوضعهم المختلف

فى المجتمع ، فالرجل والمرأة متساويان من حيث الروح ولكنهما مختلفان فى الوظائف والالتزامات ، وعلى الحكام أيضا مسئوليات اجتماعية من حفظ القانون الذى يجب تطبيقه بصرامة للحفاظ على الحقوق والأرواح ، وفرض الأخلاق ، واقامة المجتمع العادل ، وتضمن هذا الحفاظ على حق الملكية مع ضمان استخدامها لصالح المجتمع ، والثروة لا يجب أن تستخدم فى الرفاهية أو الربا أو تجمع بوسـائل غير أمينة ، ويجب أن تخضـع للضرائب لصالح المجتمع ، وأن ضرورات الحياة الاجتماعية يجب ألا تكون بين أيدى الأفراد ، ولكن ملكا مشتركا للجميع طالما حافظوا على نسيج المجتمع العادل ، ويجب طاعة الحكام ولكن اذا كفوا عن ذلك سقط واجب الطاعة ، وأن عصر العدالة الاسلامية العظيمة فى العصور الأولى ، وبعد ذلك جاء الحكام الذين لم يبايعهم الشعب ، وجلبوا كوارث متتابعة على المجتمع المسلم ، وأن المجتمع الاسلامى الحق يمكن أن يقوم فقط بتربية عقلية جديدة بواسطة التعليم الصحيح ٠

وقد كان قادة مثل هذه الحركات فى مصر وبلاد أخرى من الذين تلقوا تعليما عاليا ، وحظوا بسمعة اجتماعية طيبة ، ولكن أتباعهم كانوا فى معظمهم من الشرائح الأدنى للمجتمع ، ومن الذين تلقوا تعليما عربيـا خالصا وليس فرنسيا أو انجليزيا ، ومن ذوى الوظائف المتوسـطة فى المجتمع الحضرى ، الذين أغلقت دونهم الوظائف العليـا ، وكانت هذه الحركات بالنسبة لهم أساسـا أخلاقيـا معنويا ممكنا للحياة فى العـالم الحديث ، اذ انها تقدم نظاما من المبادىء مرتبطا بالمشاكل الاجتماعية ، ومتاحا لكل الرجال والنساء ، ومتميزا عن اسلام الأولياء والأضرحة والذى كان بطبيعته مرتبطا بأماكن معينة ومجموعات محددة ، لهذا كانت مناسبة للمجتمع الذى فيه الفعل السياسى والاجتماعى ليشمل المجتمع بأكمله ، ويمكنه أيضا أن يأمل فى تخطى الحدود الوطنيـة ، وأن يمتد الى عالم الاسلام كله ٠

وظلت هناك طبقة عريضـة من المجتمع لم تندمج فى الحياة الجديدة على مستوى واسع ، فبالنسبة للقرويين والبروليتاريا الجديدة فى الحضر،

من المهاجرين من الريف ، ظلت الأضرحة على وضعها تجسيدا للتأكيد بأن للحياة معنى ، وكانت المزارات الكبرى لدى مهاجرى الريف الى المدن هى : مولاى ادريس فى فاس ، والسيدة زينب فى القاهرة ، وابن عربى فى دمشق ، علامات مألوفة فى عالم أجنبى مختلف • وفقد خادم الضريح بعضا من وظائفه الاجتماعية ليتولاها الطبيب أو الشرطى أو المسئولون الحكوميون ، ولكنه ظل وسيطا فعالا فى مشاكل الحياة اليومية ، يواسى الذين صادفهم حظ عاثر ، والنساء العاقرات ، وضحايا السرقة أو ازدراء الجيران ، ويمكن أن تنشأ طريقة صوفية جديدة من ذكرى رجل صالح لم يمض وقت طويل على موته ، وأن تتسع دائرتها باستخدام الطرائق الحديثة لتنتظم فى ثنايا مجتمع برجوازية الحضر •

الفصل الرابع والعشرون

(الخمسينات والستينات)

القومية بمفهومها الشعبي

سيظل العنصر الاسلامى بشكل خاص مهما فى تلك التوليفة الفكرية التى شكلت القومية بمفهومها الشعبى فى هذا العصر ، اذ تجاوز هذا البعد الاسلامى النخبة المتعلمة تعليما عاليا ليشمل اهتمامات المتعلمين عامة ، الذين كان اهم دور فى الحياة السياسية بفعل وسائل الاعلام ونتيجة لما حصلوه من تعليم ، وغالبية هؤلاء من الحضر ، سواء أكان اسلامهم من النوع العصرى المرن أم من نوع اسلام الاخوان المسلمين، ففى كل الأحوال ظل هذا العنصر (الاسلامى) بشكل عام عاملا ثانويا (اضافيا) فى تكوين النظام • أما العناصر الرئيسية التى شكلت نبرة القومية الشعبية ، فأتت من مصادر أخرى ، فتلك كانت هى الفترة التى تزايدت فيها أهمية فكرة « العالم الثالث » ،وقد تبلورت حول فرضية تكوين جبهة مشتركة من البلاد التى كانت تحكمها الامبراطوريات الاستعمارية ، تظل على الحياد بين الكتلة الغربية والشرقية الشيوعية ، وتمارس نوعا من القوة الجماعية من خلال العمل المشترك • وخاصة وأنها تمثل الأغلبية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكان العنصر الثانى هو فكرة الوحدة العربية ، وتتلخص فى أن البلاد العربية المستقلة حديثا ، بينها الكثير من الثقافة المشتركة والتجربة التاريخية وأيضا من المصالح المشتركة ، مما يجعل بالامكان أن يتحدوا

بشكل وثيق ، وهذه الوحدة سوف تمنحهم المزيد من القوة ، فضلا عن أنها ستحقق الوحدة المعنوية بين الشعب والحكومة : مما يجعل الحكومة شرعية ومستقرة .

أضيف الى هذه العناصر آنئذ عنصر جديد هو الاشتراكية ، وهى فكرة سيطرة الحكومة على الموارد لصالح المجتمع ، وملكية الدولة وتوجيه الانتاج ، والتوزيع العادل للدخل من خلال الضرائب (التصاعدية) ، وتوفير الخدمات الاجتماعية ، وقد كانت القوة المتزايدة لهذه الفكرة ، الى حد ما ، انعكاسا لما كان يجرى فى أماكن أخرى من العالم : قوة الاشتراكيين والشيوعيين والأحزاب الشيوعية فى أوربا الغربية ، والنفوذ المتزايد للاتحاد السوفيتي وحلفائه ، ووصول الحزب الشيوعى للسلطة فى الصين ، وتوليفة الأفكار الوطنية والاشتراكية فى برامج بعض الأحزاب التى تولت السلطة فى البلدان المستقلة حديثا فى آسيا ، وقد كانت هذه التوجهات ظاهرة بشكل خاص فى تفصيل الأفكار الماركسية باللغة العربية ، ومرة أخرى ، كانت مصر مركزا لهذا النشاط ، حيث بدأ المؤرخون فى تفسير التاريخ المصرى بمفردات ماركسية ، بحيث تبدو الحركات الوطنية كما لو كانت حركات طبقات معينة تسعى من أجل مصالحها الخاصة ، وقد كتب محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس دراسة نقدية اشتراكية للثقافة المصرية ، عن أن الثقافة يجب أن تعكس الطبيعة الكلية ووضع المجتمع ، والأدب يجب أن يحاول اظهار علاقة الفرد بتجربة مجتمعه ، والأدب الذى يهرب من التجربة هو أدب فارغ ، ولهذا فان الكتابات التى عبرت عن القومية الوطنية البرجوازية قد أصبحت فارغة من المعنى ، وأن الكتابة الجديدة يجب أن تقيم من منظور مدى مناسبة تعبيرها عن الصراع مع « الأخطبوط الامبريالى » ، وهو الحقيقة الأساسية فى الحياة المصرية ، ومدى تعبيرها عن حياة الطبقة العاملة . وفى هذا السياق ، يصبح السؤال حول أشكال التعبير مهما ، فالفجوة بين الشكل والمضمون هى علامة على البعد عن الحقيقة ، فكانوا يرون أن نجيب محفوظ فى كتاباته عن الحياة الشعبية متفاديا اللغة العربية الدارجة ، هو يعبر عن نوع من التغريب عن الحياة الواقعية .

وقد تباينت الطريقة التى تتكامل بهـا هذه العناصر المختلفة فى حركات شعبية من بلد لآخر ، ففى المغرب أدت ظروف الصراع ضد الحكم الفرنسى الى ظهور حركات وطنية لها تأييد شعبى واسع وتنظيم أفضل من مثيلاتها فى الشرق ، ولم يكن الفرنسيون مجرد حكومة أجنبية ، ولكن مجموعة متميزة من المستوطنين الذين يسيطرون على الموارد الانتاجية ، وكانت الطريقة الوحيدة لمقاومتهم بنجاح هى ثورة شعبية حسنة التنظيم ، تنتشر الى الريف فيما وراء المدن ، وفى تونس ، تحقق الاستقلال ، وسيطر على الحكومة الجديدة ائتلاف من النقابات وحزب الدستور الجديد ، تقوده نخبة متعلمة جاء معظمها من مدن وقرى صغيرة فى الساحل ، ولها أيضا فروع فى انحاء البلاد ، وكان الحال فى الجزائر مماثلا فالتنظيم الذى قام بالثورة ضد الحكم الفرنسى عام ١٩٥٤ وهو جبهة التحرير الوطنية بقيادة رجال من أصول متواضعة ، ولكن على تدريب عسكرى . وتحت ضغط الحرب وبالتدريج ، اكتسبت دعما واسعا بين كل طبقات المجتمع ، وعندما تحولت من قوة ثورية الى حكومة ، أصبحت خليطا من القيادة العسكرية التاريخية للثورة والتكنوقراط ذوى التعليم العالى ، والذين بدونهم لا يمكن تحقيق حكومة حديثة ، واستمدت قوتها من شبكة من فروع الحزب فى أنحاء البلاد لعب فيها صغار التجار وملاك الأراضى والمدرسون دورا مهما ، وفى مراكش كان هناك تحالف مماثل من المصالح ، بين الملك وحزب الاستقلال والنقابات التجارية توصلت للاستقلال ، ولكنها لم تحقق استقرارا ووحدة فيما بينها مثل بلاد المغرب الأخرى ، فكان الملك يعلن فى مواجهة حزب الاستقلال أنه التجسيد الحقيقى للمجتمع الوطنى ، كما استطاع فرض سيطرته على الجيش الجديد . ولفقدان حزب الاستقلال التأييد الشعبى المستمد من القبول العام لدعواه بتمثيل الارادة الوطنية انقسم الى فرقاء ، وظهرت منه حركة جديدة هى الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية ، بقيادة زعماء من الريف والجبال بدعوى التعبير عن مصالح البروليتاريا فى المدن .

وقد تحقق الاستقلال فى معظم بلدان الشرق الأوسط بمناورات القوى السياسية الداخلية والخارجية ، وبالمفاوضات السلمية نسبيا ، ورغم

فترات القلاقل الشعبية ، كانت السلطة فى البلاد المستقلة حديثا فى البداية فى أيدى العائلات الحاكمة أو النخبة المتعلمة ، الذين كانت لهم الوضعية الاجتماعية الخاصة والمهارات السياسية اللازمة خلال فترة انتقال السلطة ، وبشكل عام لم يكن لهذه الجماعات المهارة والجاذبية الضروريتان لتعبئة التأييد الشعبى فى ظروف الاستقلال المستجدة ، أو تحقيق دولة بالمعنى الكامل ، ولم تكن لهم نفس اللغة السياسية ، وكانت مصالحهم تكمن فى الحفاظ على النسيج الاجتماعى الراهن وتوزيع الثروة ، أكثر منها فى تغيير الاتجاه نحو عدالة اجتماعية أكبر ، وفى هذه البلدان غالبا ما تفككت الحركات السياسية بعد الاستقلال ، وأصبح الطريق ممهدا أمام حركات وأفكار سياسية جديدة يمكن أن تصهر عناصر الوطنية والدين والعدالة الاجتماعية معا بشكل أكثر جاذبية ، وقد كانت جماعة الاخوان المسلمين هى التى حققت هذه الأفكار خاصة فى مصر والسودان وسوريا ، كما لعبت الجماعات الاشتراكية والشيوعية دورا ملحوظا فى مقاومة كل من الحكم الاستعمارى فى مراحله الأخيرة ، والحكومات الجديدة التى حلت محله ٠

كانت الحركة الشيوعية فى مصر منقسمة الى جماعات صغيرة ، واستطاعت أن تلعب دورا فى لحظات معينة من الأزمات ، خاصة خلال المواجهة مع البريطانيين فى سنوات ما بعد الحرب ، وقد لعبت لجان العمال والطلبة ، التى تحكم فيها الشيوعيون ، دور الزعامة والتوجيه للقوى الشعبية التى كانت سببا فى ايقاظها ٠ وفى العراق لعب الشيوعيون دورا مشابها فى الحركة التى أجبرت الحكومة على الانسحاب من اتفاقية الدفاع التى وقعتها مع بريطانيا فى عام ١٩٤٨ ، وقد لقيت الاتفاقية تأييد معظم القادة السياسيين الراسخين ، حيث أعطت العراق بعض المزايا مثل توفير السلاح للجيش ، وامكانية الدعم البريطانى فى الصراع (الذى كان فى بداياته فى فلسطين) ، ولكنها كانت تعنى ضمنا رباطا دائما بين العراق وبريطانيا ، وكانت فى النهاية تفرض تبعية دائمة من العراق للمصالح البريطانية ٠ وقد شكلت المعارضة لها بؤرة التف

حولها عدد من المصالح المختلفة ، وامتزجت معارضة الفلاحين الساخطين على شيوخهم الذين أصبحوا ملاكا للأراضى مع معارضة البروليتاريا فى المدن التى تشكو من ارتفاع أسعار الطعام ، مع معارضة الطلبة والزعماء الوطنيين على ألوانهم المختلفة ، وفى هذا الموقف ، لعب الحزب الشيوعى دورا مهما فى الربط بين الجماعات المختلفة • وفى السودان ، كانت الجماعة الحاكمة التى ورثت الحكم البريطانى مرتبطة بحزبين ، كل منهما مرتبط بزعامة دينية تقليدية ، وكانا متماثلين فى التركيبة الاجتماعية رغم اختلافهما حول مدى ارتباط السودان بمصر ، وكان هناك دور شعبى لا يمكنهما أداؤه وهو الذى حاول أن يلعبه الحزب الشيوعى ، المكون غالبا من الطلبة الذين درسوا فى القاهرة •

وفى مواجهة هذا التفرق للقوى السياسية ، كانت هناك محاولات عديدة لايجاد حركات من نوع جديد يمكنها استيعاب العناصر المهمة على الساحة السياسية ، ونشأت محاولتان كان لهما أهمية خاصة خلال الخمسينات والستينات • الأولى كانت حزب البعث الذى نشأ فى سوريا ، وكان حزبا يمثل تحديا لسيطرة عدد قليل من كبار عائلات الحضر والأحزاب والروابط المفككة بين الزعماء ، التى تعبر عن مصالحهم الخاصة وتأثيرها على السياسة السورية ، واجتذب الحزب الطبقة المتعلمة الجديدة التى أفرزها التزايد السريع فى التعليم ، وهى من الطبقات الأقل نفوذا فى المجتمع ، وأغلبها من جماعات الأقليات خارج الأغلبية المسلمة السنية من العلويين والدروز والمسيحيين ، وكانت جذورها كامنة فى الجدل الثقافى حول الهوية الوطنية للسوريين ، وعلاقاتهم بالمجتمعات العربية الأخرى ، وقد كان ذلك الجدل أكثر الحاحا فى سوريا منه فى البلاد الأخرى ؛ بسبب الحدود التى رسمتها بريطانيا وفرنسا وفقا لمصالحهما الخاصة ، ولم يكن لها أى ارتباط ، كمعظم بلدان الشرق الأوسط ، بالفواصل الطبيعية أو التاريخية •

وقد أجاب ميشيل عفلق (١٩١٠ ـ ١٩٨٩) المنظر الرئيسى لحزب البعث ـ وهو مسيحى من دمشق ، على تلك القضية بمفاهيم عربية صرفة :

« هناك أمة عربية واحدة ، لها الحق فى أن تعيش كدولة موحدة شكلتها تجربة تاريخية عظيمة ، هى ظهور الاسلام على يد النبى محمد ﷺ والمجتمع الذى جسده ، وهذه التجربة ليست ملكا للعرب المسلمين فقط ، ولكن لكل العرب الذين استوعبوها باعتبارها ملكا لهم ، وأساسا لاعلانهم بأن لهم رسالة خاصة فى العالم ، وبحقهم فى الاستقلال والوحدة • ويمكن تحقيق هذه الأهداف فقط بتحول مزدوج ، أولا بتحول العقل والروح ، وهو استيعاب لفكرة الأمة العربية من خلال الفهم والحب ـ وثانيا بالتحول فى النظام الاجتماعى والسياسى » •

وقد كانت عناصر الاصلاح الاجتماعى والاشتراكية قليلة الأهمية فى أول الأمر ، ولكن فى منتصف الخمسينات أصبح حزب البعث حزبا أكثر اشتراكية ، وانتشر نفوذه فى سوريا والبلدان المحيطة ، لبنان والأردن والعراق ، وأيضا بلاد شبه الجزيرة العربية ، وامتدت جاذبيته لأكثر من الطلبة والمثقفين الذين حيرهم السؤال حول الهوية ، وكان الحزب نافذا بشكل خاص أيضا بين جيل من ضباط الجيش المنحدرين من أصول اقليمية متواضعة ، والطبقة العاملة فى المدن من المهاجرين من الريف • وفى الخمسينات،حدثت تقلبات بين حكم عسكرى وحكم برلمانى فى سوريا، وفى ظروف تفتت السلطة ، يمكن لحزب لديه السياسة الواضحة والتأييد الشعبى أن يلعب دورا يفوق حجم أفراده ، وكان البعث مؤثرا فى كل من الحركة التى أدت الى قيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ ثم فى انفصالها عام ١٩٦١ ، وبشكل مماثل اكتسب نفوذا متزايدا فى العراق فى أعقاب ثورة ١٩٥٨ •

كان البعث أيديولوجية تحولت الى قوة سياسية ، ولكن الحركة المهمة الثانية فى تلك الفترة كانت نظاما حاكما ، طور بالتدريج نظاما فكريا يمكن به ادعاء الشرعية ويبرر به شرعيته ، وهم ضباط الجيش المصرى الذين تولوا السلطة عام ١٩٥٢ ، والذين برز من بينهم جمال عبد الناصر كقائد بلا منازع فى البداية ، كان لديهم برنامج سياسى محدود ، سياسيا ، ولم تكن بينهم أيديولوجية مشتركة بخلاف

المناداة بالمصالح الوطنية كموقف يعلو على مصالح الأحزاب والفرقاء ، واحساس بالتضامن مع جماهير الفلاحين الذين ينتمى معظمهم اليها ، وبمرور الوقت اكتسبوا صفات أيديولوجية ارتبطت بشكل عام بشخصية عبد الناصر • فى هذه الأيديولوجية الناصرية ، كان هناك عدد من العناصر التى كانت فى ذلك الوقت قادرة على تحويل الآراء ، وكانت لغة الاسلام اللغة الطبيعية التى استخدمها القادة فى نداءاتهم للجماهير ، وكانوا بشكل عام يمثلون طبقة اصلاحية فى نطاق الاسلام والتى لم تعارض ، بل على العكس ، عضدت أشكال الحداثة والتغيير العلمانى والتحديثى التى أدخلوها ، وفى تلك الفترة ، أصبح الأزهر تحت السيطرة الحكومية بشكل صارم •

وكان التركيز على جاذبية الاسلام بشكل عام ، أقل من التركيز على جاذبية القومية والوحدة العربية ، وكانت الوحدة العربية مقبولة لدى الحكومات المصرية السابقة للثورة لدعم السياسة الخارجية ، ولكن التطور التاريخى المنفصل لمصر ، والثقافة والحضارة المتميزة التى تنامت فى وادى النيل ، جعلتها متباعدة بمشاعرها عن جاراتها ، وبدأ نظام عبد الناصر ينظر لبلده كجزء من العالم العربى ، بل وزعيمه الطبيعى • وكان نظام عبد الناصر ينظر لمصر باعتبارها جزءا من العالم العربى وزعيمة له • كما آمنوا بوجوب توظيف هذه الريادة باتجاه الثورة الاجتماعية ، وملكية الدولة والسيطرة على وسائل الانتاج واعادة توزيع الدخل وكلها كانت أساسية لتعظيم القوة الوطنية ، ولاذكاء الدعم الشعبى للنظام •

وقد جرى تسويغ الاصلاح الاجتماعى بمصطلحات « الاشتراكية العربية » وهى نظام وسط بين الماركسية التى تؤيد صراع الطبقات ، والرأسمالية التى تعنى سيادة المصالح الفردية وسيطرة الطبقات التى تمتلك وسائل الانتاج ، أما فى الاشتراكية العربية فان المجتمع بكامله يلتف حول حكومة تعمل من أجل الصالح العام • وقد طرحت هذه الفكرة فى الميثاق الوطنى عام ١٩٦٢ :

« فالثورة هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الأغلال التى كبلتها ، والوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذى فرض عليها نتيجة طبيعية للقهر والاستغلال ، فان وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على أن تطوى مسافة التخلف الذى طال مداه بين الأمة العربية وبين غيرها من الأمم السابقة فى التقدم ، والثورة بعد ذلك هى الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدى الكبير الذى ينتظر الأمة العربية وغيرها من الأمم التى لم تستكمل نموها ، ذلك التحدى الذى تسببه الاكتشافات العلمية الهائلة الى تساعد على مضاعفة الفوارق ما بين التقدم والتخلف ، بل ان طول المعاناة من أجل هذه الأهداف كاد أن يفصل مضمونها ويرسم حدودها ، لقد أصبحت الحرية الآن تعنى حرية الوطن وحرية المواطن ، وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية هى الكفاية والعدل . وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية للعودة الى الأمر الطبيعى ـ أمة واحدة » (١) .

وفى الميثاق أن الديمقراطية السياسية مستحيلة بلا ديمقراطية اجتماعية ، بما يعنى الملكية العامة لوسائط الاتصالات والخدمات العامة الأخرى ، والمصارف ، وشركات التأمين ، والصناعة الثقيلة والمتوسطة ، والأكثر أهمية التجارة الخارجية ، ويجب أن يكون هناك تكافؤ فى الفرص ، والرعاية الصحية والتعليم للجميع رجالا ونساء على السواء ، وتشجيع تنظيم الأسرة ، وتذويب الفوارق بين الطبقات بالوحدة الوطنية ، وكذلك الانقسامات بين الدول العربية ، وأن مصر يجب أن تنادى بالوحدة العربية ورفض الادعاء بأن هذا يعد تدخلا فى شئون الدول الأخرى . وفى السنوات القليلة التى تلت ذلك ، نفذت اجراءات الاصلاح الاجتماعى بصرامة ، وتضمنت تحديد ساعات العمل ، والحد الأدنى للأجور ، وتوسيع مظلة الخدمات الصحية ، وتوزيع نسبة من أرباح الصناعة على التأمين الاجتماعى ، والخدمات الاجتماعية ، وقد أمكن تحقيق هذه الاجراءات بالنمو السريع الذى تحقق لمصر فى بداية الستينات ، وبحلول ١٩٦٤ ، توقف النمو ، ولم يعد معدل الاستهلاك الفردى فى تزايد .

وحتى فى ذروة نفوذه ، لم ينجح نظام عبد الناصر فى استيعاب كل القوى السياسية للشعب المصرى ، فقد كانت حركته السياسية الرئيسية « الاتحاد الاشتراكى العربى » قناة لنقل نوايا الحكومة الى الشعب ، بدلا من التعبير عن الرغبــات الشعبية والمقترحات والشكاوى ، واتهمهـــا الاخوان المسلمون باستغلال مفردات الاسلام كغطاء ســياسى لسياستها العلمانية ، وانتقد الماركسيون « الاشتراكية العربية » ؛ باعتبارها مختلفة عن « الاشــتراكية العلمية » ، القائمة على الاعتراف باختلاف الطبقات وصراعهــا .

الا أن الناصرية لاقت فى البلدان العربية الأخرى قبولا شعبيا هائلا ومستمرا ، وقد شجعت شخصية عبد الناصر ، ونجاح نظامه ، والانتصار السياسى فى أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، وبناء السد العالى ، واجــراءات الاصلاح الاجتماعى ، والتطلع الى قيادة قوية للدفاع عن القضية الفلسطينية كلها ساعدت على تقوية الأمل فى تحقيق عالم مختلف ، وأمة عربية موحدة مرتبطة بالثورة الاجتماعية الحقة ، لتتبوأ موقعها المناسب فى العالم ، وكان مما أنعش هــذه الآمال الاستخدام الحاذق للصــحافة والاذاعة ، التى خاطبت الشــعوب العربية من فوق رأس حــكوماتها ، وقد عمقت هذه النداءات من الخلافات بين الحكومات العربية ، ولكن الناصرية ظلت رمزا للوحدة والثورة ، وجسدت نفسهــا فى حركات ســياسية ذات منظور واسع ، كحركة القوميين العرب التى تأسست فى بيروت ، وكان لها صدى واسع بين اللاجئين الفلسطينيين .

صـعود الناصرية

على مدى الستينات ، ظلت الحياة العامة للبلدان العربيــة خاضعة لتلك الفكرة عن شكل اشتراكى محايد من القومية العربية وعبد الناصر زعيمها ورمزها ، وبتحقيق الاستقلال فى الجزائر عام ١٩٦٢ انتهى فعليا عصر الامبراطوريات الأوربية ، وان ظلت بعض المناطق من الشرق الأوسط

تحت السيطرة البريطانية ، التى تجسدت فى أشكال من الحكومات قائمة على أساس احتمال امكانية استخدام القوة المسلحة ، وفى عدن و « المحميات » من حولها كانت المصالح البريطانية ملحوظة فى الخمسينات ، وكان معمل تكرير البترول فى عدن مهما وكذلك القاعدة البحرية ، بسبب الخوف من سيطرة أسطول الاتحاد السوفيتى على القرن الأفريقى فى الساحل المقابل من البحر الأحمر ، وتحولت الحماية المتسيبة على البلدان المحيطة الى نظام شكلى للسيطرة •

انتعاش الوعى السياسى فى عدن والمعزز بصعود الناصرية مع تغيرات معينة كانت تجرى حينذاك فى اليمن ، كلها فرضت على البريطانيين رفع درجة المشاركة المحلية فى الحكم ، وتشكل مجلس تشريعى فى عدن ، واتحدت المحميات المحيطة فى فيدرالية انضمت اليها عدن نفسها ، وقد جلبت بعض التنازلات المحدودة مطالب جديدة من الطبقة المتعلمة الصغيرة بين العمال فى عدن ، وأيضا من بين أولئك الذين عارضوا سيطرة الحكام فى الاتحاد الفيدرالى وبتشجيع من مصر ، واندلعت الاضطرابات • وفى عام ١٩٦٦ ، قررت الحكومة البريطانية الانسحاب ، وعندها انقسمت المعارضة الى مجموعتين ، وعندما تم الانسحاب فى ٦٧ ، كانت الجماعة ذات الميول الماركسية فى الحضر هى التى تمكنت من الوصول للسلطة •

وفى الخليج ، لم يكن الضغط هو الذى أدى للانسحاب بمقدار ما كان المفهوم المتغير لوضع بريطانيا العالمى ، وفى عام ١٩٦١ حصلت الكويت على الاستقلال ، وتمكنت الطبقة الحاكمة المستقرة ، من عائلات كبار التجار ، والملتفة حول العائلة الحاكمة ، من ايجاد نوع جديد من الحكومة والمجتمع بالاستفادة من البترول ، والى الجنوب فى الخليج أدت اعادة نظر بريطانيا لاستراتيجيتها ولمواردها ، الى قرار حكومتها عام ١٩٦٨ بسحب قواتها المسلحة ، وبهذا انتهت سيطرتها السياسية على كامل منطقة المحيط الهندى بحلول عام ١٩٧١ ، وقد كان هذا القرار بشكل ما مناقضا للمصالح البريطانية فى المنطقة ، وأدى اكتشاف البترول فى أجزاء مختلفة من الخليج واستغلاله على نطاق واسع فى (أبو ظبى) ، الى اضفاء أهمية كبيرة على

منطقة كانت فى الماضى شديدة الفقر ، وأدى ذلك الى امتداد السيطرة البريطانية من الموانىء الصغيرة على الساحل الى الداخل ، حيث أصبح الترسيم الدقيق للحدود أمرا مهما · ومن خلال النفوذ البريطانى ، نشأ اتحاد هش بين امارات الخليج السبع (الامارات العربية المتحدة) للقيام بالدور التوحيدى الذى مارسه البريطانيون · وتكون من : أبو ظبى ودبى والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة ، ولم تنضم اليه قطر أو البحرين،وظل استقلال البحرين مهددا لفترة ما بادعاءات الايرانيين بالسيادة عليهـا بنـاء على مجادلات تاريخية ، ولكنهـا عادت فسحبتها عام ١٩٧٠ ·

ولقد كان الجزء الوحيد الذى ظل فيه الوجود البريطانى ، هو منطقة لم يكن لها فيها أى وجود رسمى من قبـل ، فقد كان حاكم عمـان لوقت طويل تحت السيطرة الفعلية لمجموعة صغيرة من المسئولين البريطانيين . ونادرا ما امتد حكمه للداخل ، حيث كانت القوة الفعلية فى أيدى امام « الطائفة الاباضية » ، وقد أدت احتمالات العثور على البترول فى الداخل فى الخمسينات الى توسع سلطة السلطان بدعم من بريطانيا ، وأدى هذا بدوره الى قيام ثورة محلية بدعم من السعودية التى كانت لهـا مطالباتها الاقليمية ، وراء ذلك الصراع،وكانت المصالح المتضاربة لشركات البترول البريطانية والأمريكية ، غير بعيدة عن المشهد ، وقمعت هذه الثورة بمعونة بريطانية ، وانتهت الامامة ، ولكن فى عام ١٩٦٥ اندلعت ثورة أكثر خطورة فى الجزء الغربى من البلاد « ظفـار » واسـتمرت بدعم خارجى حتى السبعينات ، ولم يكن السلطان راغبا فى تقديم أى تنازلات بالتغيير ، وفى عام ١٩٧٠ خلع السلطان بايعاز من البريطانيين لصالح ابنه ·

بحلول الستينات ، لم يكن الشاغل الرئيسى لأولئك المهتمين بظهور القومية العربية منصبا على بقايا الحكم الاسـتعمارى ، ولكن على نوعين آخرين من الصراع بين القوتين العظميين ، وصراع بين الدول التى تحكمها مجموعات ملتزمة بالتغيير السريع أو الثورة على النسق الناصرى بشكل عام ، وبين دول تحكمها عائلات حاكمة أو جماعات محافظة تجاه التغيير السياسى الاجتماعى ، ومعادية لانتشار نفوذ الناصرية · وفى سوريا ، كانت

السلطة فى يد حزب البعث عام ١٩٦٣ ، تولاها زعماؤه المدنيون بادىء الأمر ومن بعدهم ضباط الجيش المرتبطون به ، وفى العراق عام ١٩٩٣ ، أسقطت ثورة أخرى أكثر ميلا للبعث والناصرية ، حكومة الضباط التى شكلتها الثورة عام ١٩٥٨ ، ولكن النقاش حول الوحدة بين العراق وسوريا ومصر أظهر الخلافات فى المصالح والأفكار بين ثلاثتهم • وفى السودان ، قامت ثورة عسكرية عام ١٩٥٨ ، واتخذت الحكومة التى أعقبتها سياسة الحياد والتنمية الاقتصادية ، حتى استعيد الحكم البرلمانى عام ١٩٦٤ بضغط شعبى • وفى الجزائر ، قامت الحكومة الأولى التى تشكلت بعد الاستقلال برئاسة أحمد بن بيلا ، وخلفتها عام ١٩٦٥ حكومة أخرى أكثر التزاما بالاشتراكية والحياد برئاسة الهوارى بومدين ، وعلى الجانب الآخر كانت هناك ملكيات فى مراكش وليبيا والأردن والعربية السعودية ، وكان لتونس وضع غامض ، حيث كان يحكمها بورقيبة كزعيم لحزب الجماهير الوطنى الملتزم بالاصلاحات الواسعة ، ولكنه كان مناهضا لتوسع النفوذ المصرى ولمعظم الأفكار السائدة عن القومية العربية •

وفى تلك الفترة تعاظم الشعور ، بأمة فى مرحلة التكوين ، بالثروة الجديدة والتغيرات الأخرى الناتجة عن استغلال البترول ، فقد أصبحت الموارد البترولية للعرب وبلدان الشرق الأوسط الأخرى آنئذ ، مهمة بالفعل فى عالم الاقتصاد وكان لذلك تأثير عظيم على مجتمعات الدول المنتجة للبترول ، العراق والكويت والسعودية وليبيا والجزائر • كانت عائداتهم تصل الى ٢ بليون دولار سنويا واستخدمت بشكل مسئول فى العراق والكويت وليبيا والجزائر وبشكل أقل مسئولية فى العربية السعودية ، حتى قامت ثورة عائلية خلعت سعود الابن الأكبر لعبد العزيز الذى أصبح ملكا بمجرد وفاة أبيه ، ونصب الأخ الأقدر فيصل (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥) ، الذى أوجد البنية الأساسية للمجتمع الحديث فقد وسع من الخدمات الاجتماعية ، ووضع هياكل متقنة متطورة للادارة ولقوات الأمن والدفاع التى بنيت على أساسها •

وقد بدأت هذه التطورات فى تغيير مكانة الجزيرة العربية فى العالم العربى بطريقتين مختلفتين ، فمن ناحية استطاع حكام السعودية وبلدان الخليج استخدام ثرواتهم لتحقيق وضعية أكثر نفوذا فى الشئون العربية ، وبدءوا أيضا فى هذه الفترة فى تقديم العون على نطاق واسع للدول الأكثر فقرا ، ومن ناحية أخرى كانت مجتمعاتهم المتغيرة بشكل سريع قد بدأت فى اجتذاب أعداد كبيرة من المهاجرين من البلدان العربية الأخرى ، وكان ذلك بشكل أقل فى الجزائر والعراق اللتين تتمتعان بتعداد كبير ، وكان بامكانهما ايجاد العمال المهرة المتعلمين من بين أبنائهما ، ولكن فى السعودية والكويت وبلدان الخليج الأخرى وليبيا ، كان التعداد صغيرا بما لا يفى باحتياجات تنمية الموارد ، وكانت الطبقات المتعلمة قليلة ، والمهاجـرون معظمهم من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين ما عدا فى ليبيا ، حيث عمل عدد قليل من المصريين ، اذ كانت مصر فى احتيـاج لجيش عامل كبير بالاضافة الى تنامى الاقتصاد الذى تسيطر عليه الدولة ، مما جعـل الحكومة مترددة فى السـماح بالهجرة على نطاق واسـع • وفى بداية السبعينات ، كانت هناك قرابة نصف المليون مهاجر ، معظمهم من العمال المتعلمين ، حملوا معهم الأفكار السائدة فى البلدان التى أتوا منها : أفكار الثورة الناصرية أو القوميـة البعثية وحنين الفلسطينيين الذى لاينتهى للعودة الى وطنهم ، وكانت أفكارهم وآمالهم تميل الى مساندة مصـالح مصر عبد الناصر فى استخدام ثروة دول النفط كوسيلة لتحقيق كتلة قوية من الدول العربية تحت القيادة المصرية •

أزمة ١٩٦٧

كانت هناك بالفعـل خلال الستينات علامات بأن دعاوى الناصرية وادعاءاتها قد ذهبت الى أبعد من امكاناتها ، وقد أوضح انهيار الاتحاد بين سوريا ومصر فى ١٩٦١ ، وفشل المباحثات اللاحقة حول الوحدة ـ حدود زعامة عبد الناصر وحدود المصـالح المشتركة للبلدان العربية ، وكانت الأحداث فى اليمن أكثر دلالة ، ففى عام ١٩٦٢ توفى الامام الزيدى حاكم البلاد وخلع خليفته بشكل شبه فورى على يد حركة قام بها الليبراليون

المتعلمون فى المنفى ، بالاشتراك مع ضباط الجيش النظامى · وبدعم محدود من القبائل · وأصبحت الامامة العتيقة ، الجمهورية العربية اليمنية (وتعرف باليمن الشمالى للتفرقة بينها وبين الدولة التى تأسست بعد الانسحاب البريطانى وأطلق عليها اليمن الجنوبى) ، وقد طالبت المجموعة التى تولت السلطة بالدعم المصرى مباشرة ، وأرسلت بالفعل وحدات من الجيش المصرى ، ورغم هذا الدعم كانت مهمة حكم البلاد أكبر من قدرة الحكومة الجديدة · فتلك البلاد كان الامام يحكمها بشكل مباشر ، وكانت متماسكة بفضل المهارات والخبرة المتراكمة للامام واتصالاته ، وقد تمردت بعض أجزاء من الريف ، وهى التى دانت بالولاء للامام ، أو التى تعارض نوعية السيطرة التى حاولت الحكومة فرضها ـ بدعم من السعودية ، وتلا ذلك سنوات من الحرب الأهلية كان الصراع فيها مختلطا بين الجماعات المحلية ، وأيضا بين مصر والملكيات التقليدية ، ولم يكن أى من الجانبين قادرا على هزيمة الطرف الآخر ، وتمكن الذين يتلقون الدعم المصرى من السيطرة على المدن الرئيسية والطرق التى تربطها فقط · ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على معظم الريف ، وتورط جيش مصرى كبير ظل يحارب لمدة سنوات فى ظروف غير عادية ·

وقد بانت حدود القوة المصرية والعربية بشكل أكثر تحديدا فى أزمة أكبر وهى تلك التى حدثت عام ١٩٦٧ ، والتى جرت مصر ودولا عربية أخرى لمواجهة مأساوية مباشرة مع اسرائيل ، كان من المحتم أن تدفع ديناميكيات السياسة الناصرية بعبد الناصر الى وضع البطل القائد للعرب فيما كان يعتبره معظمهم القضية المركزية أو المحورية ، وهى علاقاتهم باسرائيل · وفى عام ١٩٥٥ كانت الحكومة العسكرية المصرية قد بدأت فى تأكيد قيادتها ، كما أدت أحداث ١٩٥٦ والسنوات التى تلتها الى تحويل عبد الناصر الى رمز للقومية العربية ، ولكن فيما وراء ذلك ، كان هناك اتجاه معين فى السياسة المصرية لجعل مصر زعيمة لكتلة عربية مرتبطة بشكل وثيق ، الى الحد الذى يدفع العالم الخارجى للتعامل معها فقط من خلال الاتفاق مع القاهرة ، وقد كان للأعباء المترتبة على القضية الفلسطينية

والتحدث باسمها خطرهما الواضح ، وحتى عام ١٩٦٤ ظلت مصر تؤدى ذلك الدور بحذر ، ففى ذلك العام رفضت مصر أن تجر الى المواجهة مع اسرائيل حول خطط اسرائيل لاستغلال مياه نهر الأردن في الرى ، ومنذ ذلك الوقت تعرض عبد الناصر لضغوط من جهات مختلفة ، فالنظم المحافظة التى كان بالفعل فى صراع معها بسبب الحرب الأهلية فى اليمن ، أكدت أن حذره علامة على عدم ايمانه الحقيقى بالقضية التى يدعى تبنيها • وفى سوريا ، كانت السلطة قد أصبحت بين أيدى مجموعة من البعثيين الذين آمنوا بأنه لا يمكن حل القضية الفلسطينية ، سوى من خلال الثورة الاجتماعية والمواجهة المباشرة مع اسرائيل ، وخلق أمة عربية جديدة •

وفى قلب العلاقات العربية ـ العربية بدأ يتشكل نسيج جديد ، فمنذ عام ١٩٤٨ والفلسطينيون أنفسهم لم يكونوا قادرين على القيام بدور مستقل فى المفاوضات حول مصيرهم ، وانهارت قيادتهم ، وكانوا متفرقين بين عدد من الدول ، وكان على الذين فقدوا بيوتهم وأعمالهم بناء حياة جديدة لأنفسهم ، ولم يكن بامكانهم لعب أى دور الا تحت سيطرة البلدان العربية وبموافقتها • وفى عام ١٩٦٤ ، أوجدت الجامعة العربية هوية خاصة بهم (منظمة التحرير الفلسطينية) ولكنها كانت تحت سيطرة مصر ، والقوات المسلحة التابعة لها كانت جزءا من الجيوش المصرية والسورية والأردنية والعراقية ، فى ذلك الوقت تنامى جيل جديد من الفلسطينيين فى المنفى لهم ذكريات عن فلسطين ، وتعلموا فى القاهرة أو بيروت ، وتاثروا بالتيارات الفكرية هناك ، وظهرت تدريجيا فى أواخر الخمسينات حركة سياسية من نوعين ، منظمة فتح الملتزمة بأن تظل كاملة الاستقلال عن النظم العربية والتى لم تكن مصالحها هى مصالح الفلسطينيين ، وأيضا ملتزمة بالمواجهة المسلحة المباشرة مع اسرائيل ، وعدد من الحركات الأصغر التى خرجت من الناصريين والقوميين العرب فى بيروت ، وتحركت تدريجيا باتجاه التحليل الماركسى للمجتمع ، والعمل الاجتماعى والايمان بأن الطريق لاستعادة فلسطين يكمن في الثورة الشاملة فى البلدان العربية •

- وفى عام ١٩٦٥ ، بدأت هذه الجماعات فى القيام بعمليات مباشرة داخل اسرائيل ، وبدأ الاسرائيليون فى القصاص ، لا ضد البعث السورى الذى كان يدعم الفلسطينيين ، ولكن ضـــد الأردن ، ولم تكن هذه الأعمال الاسرائيلية مجرد رد على ما كان يقوم به الفلسطينيون ، وانما كانت نابعة من ديناميات السياسة الاسرائيلية ، فقد استمر سكان اسرائيل فى التزايد أساسا بفعل الهجرة ، وفى عام ١٩٦٧ بلغ تعدادهم حوالى ٢ر٣ مليونا ، شكل العرب من بينهم قرابة ١٣٪ ، وتزايدت قوتهم الاقتصادية بفضل المعونات من الولايات المتحدة ومن اليهود فى العالم الخارجى ، والتعويضات من ألمانيا الغربية،وكانت أيضا تعزز قوة قواتها المسلحة وخبراتها ، وخاصة فى السلاح الجوى ، وكانت اسرائيل تعلم انها أقوى عسكريا وسياسيا من جيرانها العرب ، وفى مواجهة التهديدات من أولئك الجيران ، رأت أنه من الأفضل أن تظهر قوتها ، فقد يؤدى ذلك الى اتفاق أكثر استقرارا مما أمكن تحقيقه ، ولكن فيما وراء ذلك ، كانت آمالها تقوى فى غزو بقية فلسطين وانهاء الحرب التى لم تنته فى ١٩٤٨ .

وتجمعت كل هذه الخطوط فى عام ١٩٦٧ ، ففى مواجهة أعمال الردع الاسرائيلية ضد الدول العربية ، والتقارير التى قد لا يكون لها أساس عن هجوم اسرائيلى وشيك على ســـوريا ، طلب عبد الناصر من الأمم المتحدة سحب قواتها المتمركزة على الحـدود المصرية مع اسرائيل منـــذ حـرب الســويس ١٩٥٦ ، وعنـدما تم ذلك أغلق مضيق العقبـة أمـام الملاحة الاسرائيلية ، ويبدو أنه تصور أن ليس لديه ما يخسره ، فاما أن تتدخل الولايات المتحدة فى اللحظة الأخيرة للتفاوض حول تسوية ســياسية ، مما يمكن أن يصبح نصرا له ، أو اذا كانت الحرب ، فان قواته المسلحة والمدربة بمعونة الاتحاد السوفيتى سوف تكون قادرة على الانتصار ، وكان يمكن أن تكون نظرته صائبة لو كان للولايات المتحدة السيطرة الكاملة على سياسة اسرائيل ، حيث كان هناك تيار داخل الحكومة الأمريكية يميل الى حل المشكلة سلميا ، فالعلاقات بين القوى الأعظم وعملائها ليست بسيطة على الاطلاق ، ولكن الاسرائيليين لم يكونوا على استعداد لاعطاء مصر انتصارا

سياســـيا لايعكس موازين القوى بينهما ، وبدورهم لم يكن لديهـــم ما يخسرونه ، فكانوا يتوقعون انهم أقوى عسكريا ، واذا لم تجر الأمور لصالحهم على غير المتوقع فبامكانهم دائما الاعتماد على العون الأمريكى . ومع ارتفاع التوتر ، وقعت الأردن وسوريا اتفاقيات عسكرية مع مصر ، وفى ٥ يونيو هاجمت اسرائيل مصر ودمرت قواتها الجوية ، وفى الأيام القليلة التى تلت ذلك من القتـــال ، احتل الاسرائيليون ســيناء حتى قنـــاة السويس ، والقدس ، والجزء الفلسطينى من الأردن وجزءا من جنوب سوريا هو مرتفعات الجولان ، قبل التوصل الى الاتفاق على وقف اطلاق النار فى الأمم المتحدة الذى أنهى القتال .

كانت الحرب نقطة تحول من عدة نواح مختلفة ، فالاحتلال الاسرائيلى للقدس وواقع أن الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين أصبحت الآن تحت السيطرة اليهودية ، أضـــاف بعدا جديدا للصراع ، وغيرت الحرب من موازين القوى فى الشرق الأوسط ، وأصبح واضحا أن اسرائيل أقوى عسكريا من الدول العربية مجتمعة ، وغير ذلك من علاقة كل منها (الدول العربية) مع العالم الخارجى ، وما كان يعتبر ـ صوابا أو خطأ ـ تهديدا لوجود اسرائيل آثار تعاطفا فى أوروبا وأمريكا ، حيث كانت ذكريات مصير اليهود خـــلال الحرب العالمية الثـانية ما زالت ماثلة ، كما ان النصر الاسرائيلى السريع أيضا قد زاد من جاذبيتها كحليف فى نظر الأمريكيين . وبالنسبة للدول العربية ، خاصة مصر ، كان ما حدث بكل المقاييس هزيمة كشفت حدود قدراتها السياسية والعسكرية ، وبالنسبة للاتحاد السوفيتى كانت أيضا نوعا من الهزيمة ، ولكنها جعلتها أكثر تصميما على التعرض لهزيمة أخرى بنفس الجسامة . وتركت الحرب آثارها بشكل عميق على كل الأفراد فى العالم عربا كانوا أم يهودا ، وما كان صراعا محليا أصبح الآن صراعا عالميا .

وأهم النتائج على المدى الطويل ، كان احتلال اسرائيل لما تبقى من فلسطين العربية ، القدس وغزة والجزء الغربى من الأردن (يعرف عادة

بالضفة الغربية) ، وأصبح المزيد من الفلسطينيين لاجئين خاضعين للاحتلال الاسرائيلي ، وزاد ذلك من الاحساس بالهوية الفلسطينية ، والقناعة بينهم بأنه فى النهاية لا مناص من الاعتماد على أنفسهم فقط ، وظهرت أيضا مشكلة أمام اسرائيل والبلاد العربية والدول العظمى ، فهل تظل اسرائيل على احتلالها لما غنمته من الأراضى ؟ أم تتنازل عن الأرض مقابل تسوية سلمية مع الدول العربية ؟ وهل يجب أن يكون هناك نوع من الهوية السياسية للفلسطينيين ؟ وكيف يمكن للبلاد العربية أن تستعيد الأرض التى فقدتها ؟ وكيف يمكن للقوى الكبرى أن تتوصل لتسوية تمنع حدوث حرب أخرى قد يدفعون للدخول فيها ؟ ٠

وكان من الممكن أن يتقدم المنتصرون بنوع من المبادرة تفتح الطريق أمام اجابة ما عن هذه الأسئلة ، ولكن هذه المبادرة لم تتحقق ، ربما لأن الاسرائيليين قد احتاجوا لوقت طويل لهضم نتائج مثل هذا النصر السريع الكامل واستيعابه ٠ وتمترست كل الأطراف فى مواقع جديدة ، فوجد الفلسطينيون أنفسهم موحدين تحت الحكم الاسرائيلى ، وطالبوا بحقهم فى وطن مستقل منفصل ، وبدأ الاسرائيليون فى ادارة الأراضى المحتلة كجزء من اسرائيل ، ونجح مجلس الأمن فى الأمم المتحدة أخيرا فى الاتفاق على القرار ٢٤٢ ، ويسود بمقتضاه السلام فى حدود آمنة ومعترف بها ، وتنسحب اسرائيل من أراض احتلتها ، وتؤدى التعويضات للاجئين ، وكان هناك عدم اتفاق حول تفسير ذلك ، هل تنسحب اسرائيل من كل المناطق أو بعضها،وهل يعتبر الفلسطينيون دولة أو جمهرة من المهاجرين الأفراد ؟ وتبنى الزعماء العرب قراراتهم الخاصة فى مؤتمر عقد فى الخرطوم فى سبتمبر ١٩٦٧ ، وقرروا عدم الاعتراف بالاحتلال الاسرائيلى ورفضوا مبدأ المفاوضات . وهنا أيضا كان هناك اختلاف فى التفسيرات المختلفة بالنسبة لمصر والأردن على الأقل ، وظل الطريق مفتوحا أمام التسوية السلمية ٠

الفصل الخامس والعشرون

توحد العرب وتفرقهم (بعد ١٩٦٧)

الأزمة ١٩٧٣

عاش عبد الناصر ثلاث سنوات بعد هزيمته ، ولكن وضعه الدولى اهتز بشدة : فقد تأثرت علاقاته ببريطانيا وأمريكا باتهاماته لهما ، واعتقاده بأنهما عاونتا اسرائيل عسكريا خلال حرب ١٩٦٧ ، علاوة على اصرار أمريكا على عدم انسحاب اسرائيل الا مقابل السلام،وبضعف موقفه حيال الحكام العرب بانكشاف حدود قدراته . وقد كان أحد نتائج حرب ١٩٦٧ أن أوقف الخسائر فى اليمن ، وانسحبت قواته منها بمقتضى اتفاقية مع العربية السعودية .

أما داخل مصر ، فقد ظل وضعه قويا ، وفى نهاية ذلك الأسبوع المصيرى من يونيو ١٩٦٧ أعلن تنحيه ، ولكن ذلك حرك احتجاجا شعبيا فى مصر وبعض الدول العربية الأخرى ، ربما كان ذلك راجعا لبراعة التنظيم ، وربما أيضا بسبب الاحساس بأن استقالته سوف تكون أعمق من الهزيمة ، فقد ظلت سيطرته على المشاعر الشعبية فى الدول العربية الأخرى قوية تقديرا لشخصه ولقدر مصر المعترف بها لديهم ، كما كان أيضا الوسيط الذى لا يمكن الاستغناء عنه بين الفلسطينيين ومن آواهم . وفى سنوات ما بعد ١٩٦٧ ، تنامى الشعور الوطنى الفلسطينى ، وتزايدت قوة « فتح » وسيطرت منذ عام ١٩٦٩ على منظمة التحرير الفلسطينية ، وأدى ذلك الى عدد من الأعمال الفدائية ضد اسرائيل ، وانصبت أعمال الردع الاسرائيلية على الأراضى التى كان للفلسطينيين فيها بعض من حرية الحركة . وفى عام ١٩٦٩ ، تمكنت مصر من التدخل لعقد اتفاقية

بين الحكومة اللبنانية والمنظمة ، تحددت بموجبها الضوابط التى يمكن للمنظمة أن تعمل من خلالها بحرية فى جنوب لبنان ، وفى العام التالى ١٩٧٠ ، اندلع قتال عنيف فى الأردن بين الجيش وجماعات الميليشيات الفلسطينية التى بدا أنها توشك أن تتولى السلطة فى البلاد • واستطاعت الحكومة الأردنية فرض سيطرتها وانتهت حرية حركة الجماعات الفلسطينية ، ومرة أخرى كانت وساطة عبد الناصر هى التى أعادت السلام بين الطرفين •

توفى عبد الناصر فورا بعد ذلك ، ولابد أن المشهد غير العادى فى جنازته ، للملايين يبكون فى الطرقات كان يعنى شيئا بالتأكيد ، وعلى الأقل ، كان من الصعب تصور مصر أو العالم العربى بدونه فى تلك اللحظات ، وكان موته نهاية لحقبة الأمل فى عالم عربى موحد يخلق من جديد •

وخلف عبد الناصر رفيقه لفترة طويلة أنور السادات (١٩١٨ ـ ١٩٨١) ، وبدا للوهلة الأولى أن مصر ستمضى على نفس المسار ، وفى البلدان العربية الأخرى أيضا توالت التغييرات حتى عامى (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) حين تولى الحكم أشخاص بدا كما لو كانوا سينتهجون سياسة مشابهة للناصرية أو على الأقل منسجمة معها ، ولم تكن هناك تغييرات أساسية فى ذلك الوقت فى مراكش أو تونس فقد ظل الملك « الحسن » ومن حوله فى الحكم ، وبورقيبة وحزب « الدستور الجديد » فى تونس ، وفى الجزائر تحقق التغيير فى الجماعة الحاكمة قبل ذلك بسنوات قليلة ، والى الشرق حكم فيصل فى السعودية ، والملك حسين فى الأردن ، والعائلات الحاكمة فى دول الخليج ، أما فى ليبيا ، فقد أطاحت تركيبة مألوفة من ضباط الجيش والمثقفين الراديكاليين بالملكية عام ١٩٦٩ ، وبعد فترة برز من بين المجموعة الحاكمة رمز مسيطر على الضباط ، هو معمر القذافى ، وفى السودان قامت جماعة مشابهة بقيادة جعفر النميرى ، أسقطت النظام الدستورى فى عام ١٩٦٩ ، وفى سوريا كان النظام البعثى متورطا بعمق فى هزيمة ١٩٦٧ ، فحلت محله فى عام ١٩٧٠ جماعة من الضباط بقيادة

حافظ الأسد ، الذى ينتمى أيضا للبعث ولكنه أكثر حذرا فى سياسته ٠ وفى العراق أيضا ، انتهت فترة من الحكم المهتز ، من ائتلاف بين ضباط الجيش والمدنيين ، بتولى جماعة أكثر تماسكا ، ومرتبطة بالبعث ، للسلطة عام ١٩٦٨ ، وظهر على الفور صدام حسين بصفته أقوى أفرادها ٠ وفى اليمن الجنوبية ، كان عام ١٩٦٩ عاما حرجا ، سقط فيه تحالف القوى الذى استولى على السلطة مع الاستقلال ، وحلت محله جماعة أكثر ماركسية ، وفى شمال اليمن لم تحدث فى تلك السنوات تغييرات حاسمة ، فقد جلبت نهاية الحرب الأهلية الى السلطة تحالفا من عناصر من الجانبين ، وظلت علاقة كل منها بالآخر فى حاجة الى التعريف ، وفى عام ٧٤ تأسس نظام أقل استقرارا بدعم من الجيش وبعض زعماء القبائل الأقوياء ٠

فى عام ١٩٧٣ ، وقعت أحداث لا تقل درامية عن أحداث عام ١٩٦٧ ، وكانت علامة على مرحلة جديدة من مسيرة الوحدة العربية واعادة تأكيد الاستقلال فى وجه القوتين العظميين ، ومرة أخرى كانت هناك مواجهة مع اسرائيـل : كانت الرغبـة فى تعويض هزيمة ١٩٦٧ قائمة قبل وفاة عبد الناصر ، وتجلت فى (حرب الاستنزاف) على طول قناة السويس ، واعادة تسليح الجيش المصرى والسورى من قبل السوفيت ، وفى بداية السبعينيات ، كان رئيس مصر الجديد « السادات » ، قد أجرى تغيرات معينة فى السياسة عندما طلب سحب الخبراء والفنيين السوفيت ، ولكن الجيش ظل قائما على التسليح والتدريب السوفيتى ، وفى أكتوبر ١٩٧٣ شن هجوما مفاجئا على القوات الاسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة ، وفى نفس اللحظة وبالاتفاق المسبق هاجم الجيش السورى الإسرائيليين فى الجولان ٠

فى الاندفاعة الأولى من القتال ، نجح الجيش المصرى فى عبور القناة وبناء الجسور ، واحتل السوريون جزءا من الجولان ومكنتهم الأسلحة التى وفرها الروس من تحييد سلاح الجو الاسرائيلى الذى حقق النصر فى عام ١٩٦٧ ، وفى الأيام القليلة التالية انعكس المد العسكرى ، وعبرت القوات الاسرائيلية باتجاه دمشق ، وكان نجاحهم راجعا للمعدات التى أرسلتها الولايات المتحدة على عجل ، إضافة الى المهارات العسكرية ، وكذا جزئيا

للخلافات السياسية بين مصر وسوريا (*) ، التى سرعان ما كشفت عن نفسها ، وأظهرت العمليــــات العســكرية مرة أخرى التفوق العســكرى الاسرائيلى ، ولكن الحرب لم تكن هزيمة للعرب لا فى أعين العرب ولا فى أعين العالم ، اذ أظهرت الهجمات تخطيطا دقيقا وتصميما جادا ، واكتسبت التعاطف والدعم المالى والعسكرى من البلدان العربية الأخرى ، وانتهت بايقاف اطلاق النار الذى فرضه نفوذ القوى العظمى ، الذى أظهر أن الولايات المتحدة لن تقبل الهزيمة لاسرائيل، كما لن يقبل السوفيت بهزيمة مصر ، وأنهما غير راغبتين فى السماح بتصاعد الحرب بطريقة قد تجرهما اليهـــا ٠

وقد كان جانب من أسباب تدخل القوى العظمى القوى هو قيام العرب باستخدام أمضى أسلحتهم ، وهو القدرة على فرض حظر على صـــادرات النفط ٠ فللمرة الأولى ، وربما الأخيرة استخدم هذا السلاح بنجاح ، فقد قررت البلدان العربية ، المنتجة للنفط تخفيض انتاجها طالما ظلت اسرائيل على احتلالها للأراضى العربية ، وفرضت السعودية حظرا كاملا على الصادرات للولايات المتحدة وهولندا ، وهما الأكثر تعاطفا مع اسرائيل من بين الدول الأوربية ، وكانتا أيضا مركز السوق الحرة للبترول ٠

كانت آثار هذه القرارات قاسية ؛ لأنها واكبت تغييرا آخر اتجهت الدول المصدرة للبترول (أوبك) اليه منذ زمن ، فقد ارتفع الطلب على

(*) التزامنا عبارات المؤلف حرصا على الأمانة العلمية ، ولكننا نرى أنه جانب الصواب فى حديثه عن التفوق الاسرائيلى لأمرين أولهما أن العرب لم يكونوا يحاربون اسرائيل ، بل ترسانة الجيش الأمريكى بأكملها ، والثانى أن اسرائيل لم تستطع أن تزحزح الجيش المصرى من مواقعه ، وفشلت فى انتزاع مدينة السويس ٠ ولولا الخسائر الفادحة التى منيت بها لم سارعت بتوقيع اتفاقية فض الاشتباك ثم قبول اخلاء سيناء بأكملها ٠ وأخيرا فالانتصار فى الحرب لا يقيم بالعمليات العسكرية ، بل بالنتائج السياسية والاقتصادية التى تحققها العمليات العسكرية ، وهذا ما حدث بالضبط فى حرب أكتوبر ، ولو انصت العرب آنذاك لنصيحة القيادة المصرية ، لكانت دولة فلسطين قائمة الآن فى قطاع غزة والضفة الغربية بأكملها ، ولكانت الجولان قد عادت الى سوريا بأكملها ، ولكانت اسرائيل وجدت نفسها رغما عن ارادتها تذوب فى المحيط العربى وتعود لفلسطين عروبتها تدريجيا بحكم التفوق العددى للعرب المقيمين هناك ، والذين من المقدر أن يزيد عددهم على عدد الاسرائيليين بحكم الفارق فى معـدل المواليد — (المحرر) ٠

بترول الشرق الأوسط بتزايد احتياجات الدول الصناعية للانتاج وازدادت الأوبك قوة وتصميما على زيادة حصتها من الأرباح ، التى كانت أقل من المقدار المدفوع كضرائب على استهلاكه فى البلدان المستوردة للبترول ، وبنهاية عام ١٩٧٣ ، قررت الأوبك رفع أسعار البيع بمقدار ٣٠٠٪ ، وكانت ايران والدول العربية المحرك الرئيسى وراء هذا القرار بالزيادة (كانت الزيادة فى سعر المستهلك أقل من ذلك ؛ لأن الضرائب والتكاليف الأخرى لم ترتفع بنفس المقدار) ٠

هيمنة النفوذ الأمريكى

فى غضون بضع سنين ، أصبح واضحا أن ما كان يبدو فى البداية اعلانا عن الاستقلال السياسى والاقتصادى ، كان فى الواقع الخطوة الأولى باتجاه المزيد من الاعتماد على الولايات المتحدة ، وقد بدأ هذا الاتجاه فى مصر كما هو الحال فى كافة المشروعات العربية فى العشرين عاما الأخيرة تقريبا ، فبالنسبة للسادات لم تكن حرب ١٩٧٣ ضرورية لتحقيق انتصار عسكرى ، وانما لصدمة القوتين العظميين لكى تتقدما باتجاه المفاوضات لتحقيق تسوية ما للمشاكل بين العرب واسرائيل ، ولمنع المزيد من الأزمات التى قد تؤدى الى مواجهة خطيرة ، وهو ما حدث بالفعل ، ولكن بشكل زاد من قوة ونفوذ ومشاركة احدى القوتين العظميين ، وهى الولايات المتحدة، فقد تدخلت أمريكا بحزم فى الحرب ، فى البداية لتزويد اسرائيل بالأسلحة لمنع هزيمتها ، وبعدها لتحقيق توازن فى القوى يؤدى الى التسوية ، وفى العامين التاليين أدت الوساطة الأمريكية الى اتفاق سورى اسرائيلى تنسحب اسرائيل بمقتضاه من بعض المناطق السورية التى احتلت فى ١٩٦٧ ، و ١٩٧٣ ، واتفاقيتين مماثلتين مع مصر ، وكانت هناك محاولة قصيرة مجهضة لجمع القوى العظمى واسرائيل والدول العربية فى مؤتمر عام تحت رعاية الأمم المتحدة ، ولكن الخط الأساسى للسياسة الأمريكية حتى تلك اللحظة كان ابعاد روسيا عن الشرق الأوسط ، ودعم اسرائيل ماديا وسياسيا وعسكريا لجرها للمفاوضات مع الدول العربية تنسحب بمقتضاها من مناطق محتلة فى مقابل السلام ، مع ابقاء منظمة التحرير الفلسطينية خارج المفاوضات اكراما لاسرائيل ، ما لم تعترف المنظمة باسرائيل ٠

وتغيرت السياسة لفترة قصيرة عام ١٩٧٧ ، حين حاول رئيس أمريكي جديد (جيمي كارتر) صياغة منهج مشترك للمشكلة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وايجاد طريقة لجلب الفلسطينيين الى عملية المفاوضات ، ولم تسفر هذه المجهودات عن شيء لسببين : كان أولهما المعارضة الاسرائيلية التي تزايدت عندما تولت السلطة حكومة وطنية ، أكثر تشددا برئاسة مناحم بيجين ، وقرار السادات المفاجيء في نوفمبر ١٩٧٧ بالذهاب للقدس واعطاء اسرائيل فرصة للسلام من خلال التفاوض المباشر ٠

وقد كان واضحا في ذهن السادات الرغبة في وضع نهاية للحروب المتتابعة التي لن يستطيع العرب الانتصار فيها ، ومنظور أوسع لمفاوضات مباشرة ترعاها الولايات المتحدة ، وتستبعد الاتحاد السوفيتي كعامل فعال في الشرق الأوسط ، وبمجرد أن يسود السلام بين مصر واسرائيل ، تصبح مصر حليفا أكثر أهمية لأمريكا ، وتداعيات ما يعقب ذلك في مجال الدعم الاقتصادي ثم تحقيق موقف أمريكي أكثر تفهما لمطالب العرب الفلسطينيين ، أما في ذهن الحكومة الاسرائيلية في ذلك الوقت ، فقد كان الهدف مختلفا : تحقيق السلام مع أقوى وأعظم أعدائها وان أدى الأمر الى الانسحاب من سيناء ، وعليه تصبح يدها طليقة في تحقيق الهدف الأساسي لسياستها ، زرع المستوطنات في الضفة الغربية المحتلة توطئة لضمها تدريجيا ، ولتصبح قادرة على التعامل بشكل ايجابي حيال أية خصومة مع سوريا أو منظمة التحرير الفلسطينية ٠ وفي المفاوضات التي تلت رحلة السادات ، كان السؤال المحوري حول العلاقة التي يتعين تحقيقها بالسلام المصري الاسرائيلي ومستقبل وضع الضفة الغربية ، وعندما تم التوصل الى اتفاق في النهاية بمعونة الوساطة الأمريكية عام ١٩٧٨ في « كامب ديفيد » ، وضحت سيادة الرأي الاسرائيلي على الرأي المصري ، والى حد ما أيضا على الموقف الأمريكي حول هذه المسألة الأساسية ، فطبقا للاتفاقية ، يكون هناك سلام رسمي بين مصر واسرائيل ، ونوع من الحكم الذاتي للضفة الغربية وغزة ، يؤدي بعد خمس سنوات الى مفاوضات حول الوضع النهائي ، ولكن بلا رباط رسمي بين المسألتين ، وفي المفاوضات التالية

حول الحكم الذاتى سرعان ما اتضح أن أفكار اسرائيل كانت مختلفة بشكل كبير عن الأفكار المصرية أو الأمريكية ، ورفضت اسرائيل تجميد سياستها الاستيطانية فى المناطق المحتلة (*) ٠

واغتيل الرئيس الســـادات عام ١٩٨١ على أيدى أفراد جماعة من المعارضين لسياسته ، كانوا يهدفون لاستعادة الأسس الاسلامية للمجتمع المصرى ، ولكن الخطوط الرئيسية لسياسته استمرت فى عهـد خليفته حسنى مبارك ، وعلى مدار السنوات القليلة التالية ازداد التقارب مع الولايات المتحدة ، وتلقت مصر كميات كبيرة من الدعم المالى والعسكرى وأعلن الفلسطينيون ومعظم البلدان العربية رفضهم لتلك الاتفاقية مع اسرائيل بدرجات متفاوتة ، واستبعدت مصر رسميا من الجامعة العربية التى نقلت مقر رئاستها من القاهرة الى تونس ، ورغم ذلك كانت الميزة المكتسبة من التقارب مع أمريكا من الضخامة والوضوح؛لدرجة أن عددا من البلاد العربية اختطت لنفسها ذات الاتجاه : مراكش وتونس والأردن وبشكل خاص الدول المنتجة للبترول فى شبه الجزيرة العربية ، وبعد ذروة نفوذهم فى ١٩٧٣ ، سرعان ما أصبح واضحا أن الثروة التى تأتى من البترول يمكن أن تولد ضعفا لا قوة ٠

وبكل المقاييس كانت تلك الثروة ضخمة بالتأكيد ، ففيما بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٨ تنامت عائدات البترول السنوية للبلدان العربية الرئيسية بشــكل هائل ، فالسعودية من ٣٥ر٤ الى ٣٦ بليون دولار ، والكويت من ٧ر١ الى ٢ر٩ بليون دولار ، والعراق من ٨ر١ الى ٦ر٢٣ بليون دولار ، وليبيا من ٢ر٢ الى ٨ر٨ بليون دولار وبعض البلدان الأخرى زادت من انتاجها بشكل كبير،خاصة قطر وأبو ظبى ودبى وتوسعت سيطرة الدول على مواردهـــا ، وبحلول عام ١٩٨٠ كانت كل الدول المنتجة الرئيسية

(★) يغفل الكاتب هنا بعض الحقائق الهامة ، وهى أن كامب ديفيد أعادت لمصر سيناء ، وكان من الممكن أن يعيد لسوريا الجولان ، وأنها كان من الممكن أن توفر للفلسطينيين اعترافا بشرعية سلطتهم وحكما ذاتيا فى جميع أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو ما يسعون له الآن بعد أكثر من عشرين عاما على تلك الاتفاقية التى لم يستطع الكثير من القدرة العرب آنذاك أن يدركوا أهميتها وقيمتها الكبرى ـ (المحرر) ٠

اما قد أممت انتاج البترول ، أو شاركت بنصيب أكبر في رأسمال الشركات العاملة ، وان ظل للشركات المتعددة الجنسيات وضع قوى فى النقل والبيع ، وأدت الزيادة في الثروة الى المزيد من الاعتماد على الدول الصناعية ، فهم العملاء الرئيسيون فى سوق البترول٠وفى خلال السبعينيات،توقفت ظاهرة تزايد الطلب عن الكم المعروض بسبب الكساد الاقتصـــــادى ، ومحاولات الحد من استهلاك الوقود ، وتزايد انتاج الدول من غير أعضاء الأوبيك ، فضعف الموقف التفاوضي وتفككت وحدة الأوبيك ، ولم يمكن الاتفاق على مستوى مرتفع موحد من الأسعار ، وكان على تلك الدول التى لها عائدات بترولية تفوق قدراتها على الانفاق التنموى بسبب محدودية السكان والموارد الطبيعية ، كان عليها أن تستثمر الفائض فى أى مكان وغالبا فى الدول الصناعية ، وكان عليها اللجوء للدول الصناعية أيضـا للحصول على السلع الرأسمالية والخبرات التقنية ، التى كانوا بحاجة اليها لتطوير الاقتصاد وبناء قواتهم المسلحة ٠

وقد كان لذلك الاعتماد المتزايد وجه آخر فاستخدام البلدان العربية لسلاح المقاطعة عام ١٩٧٣ ، بين للدول الصناعية حدود امكانية الاعتماد على بترول الشرق الأوسط ، وبمرور هـذا العقد كانت هناك مؤشرات بأن الولايات المتحدة يمكن أن تتدخل بالقوة اذا تعرضت وارداتهـا من البترول مرة ثانية للتهديد ، سواء أكان ذلك نتيجة الثورات فى الدول المنتجة ، أم بسبب خطر توسع النفوذ السوفيتى فى بلدان الخليج ، الا أن التدخل يجب أن يظل الملجأ الأخير ، حيث ظل اعتماد الولايات المتحدة فى هذا الشأن على حلفائها الرئيسيين فى منطقة الخليج والسعودية وايران ، وبنهاية السبعينيات تغير الموقف ، فقد أذكى الاحتلال الروسى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩ المخاوف بأن الاتحاد السوفيتى ينوى بسط نفوذه على بلاد المحيط الهندى ، وأطاحت الثورة الايرانية ١٩٧٨/١٩٧٩ بالشاه أقوى حلفاء الولايات المتحدة ، وحلت محل حكومته حكومة ملتزمة بتحويل ايران الى دولة اسلامية حقيقية كمقدمة لتغييرات مماثلة فى البلدان الاسـلامية الأخرى ، وكذا خطر انتشار هذه الثورة غربا الى البلاد المجاورة بما قد يؤثر على النظام السياسى لدول الخليج وعلاقاتهـا بالولايات المتحدة ،

وقد أدت مثل هذه الاعتبارات الى صياغة خطط أمريكية للدفاع عن الخليج عند الحاجة وذلك بالاتفاق مع بلدان الشرق الأوسط التى كانت مستعدة للتعاون ، وقد حاولت معظم دول الخليج أن تحافظ على مسافة بينها وبين التحالف الكامل مع الولايات المتحدة ، وفى عام ١٩٨١ شكلت السعودية والدول الأصغر فيما بينها « مجلس التعاون الخليجى » ٠

وقد كان الانفتاح على الغرب أكثر من مجرد تغيير خاطىء على السياسة الخارجية والعسكرية ، فكان أيضـــا تغيرا فى مواقف وسياسات معظم الحكومات العربية من الناحية الاقتصادية ، وكانت تغيرا عرف فى مصر باسم الانفتاح ، وصدر بشأنه القانون فى ١٩٧٤ وقد أدت اليه بعض الأسباب : أولا قوة الولايات المتحدة كما تجلت فى حرب ١٩٧٣ وما بعدها، وثانيا الحاجة للقروض الأجنبيـــة والاستثمار من أجـل تطوير الموارد واكتساب القوة ، وربما أيضا للوعى المتزايد بحدود سيطرة الدولة على الاقتصاد وكذا ضغوط المصالح الخاصة ٠

وقد تضمن الانفتاح عمليتين وثيقتى الارتباط ببعضهما البعض ، فمن ناحية ، كان هناك تغير فى التوازن بين القطاعين العام والخاص فى مجال الاقتصاد ، فبخلاف لبنان التى لم يكن فيها عمليا أى قطاع عام ، اتجهت البلاد الأكثر التزاما بالاستثمار الخاص نحو تحقيق السيطرة العامة (الحكومية) على بعض المجالات ، حيث لم تكن هناك أية امكانية للنمو السريع بدون الاستثمار والتوجيه الحكومى ، ففى العربية السعودية على سبيل المثال أممت صناعة البترول وامتلكت الدولة المشاريع الصناعية الكبرى الجديدة ، الا أن مجالات أوسع انفتحت فى بعض البلدان أمام المشروعات الخاصة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وكان ذلك أكثر وضوحا فى مصر حيث شهدت السبعينيات تغيرا واسعا وسريعا مختلفا عن اشتراكية الدولة فى الستينيات ، وفى تونس ، واجهت تجربة الدولة فى محاولتها للسيطرة على الواردات والصادرات وكذا فى الانتاج الصناعى والتوزيع الداخلى صعوبات ، وشهد عام ١٩٦٩ نهاية التجربة وجرت فى سوريا والعراق أيضا ـ برغم المبادىء الاشتراكية لحزب البعث ـ تغيرات مشابهة ٠

وثانيا ، كان الانفتاح يعنى انفتاحا على الأجنبى ، خاصـــة نحو الاستثمار والمشروعات الغربية ، ورغم تراكم رأس المال من انتاج البترول ، لم تكن الموارد الرأسمالية للبلدان العربية كافية للنمو والتطوير السريع والواسع المدى ، الذى كانت معظم الحكومات ملتزمة به ، وجرى تشجيع الاستثمارات من الولايات المتحدة وأوروبا ومن الهيئات الدولية بالضمانات والامتيازات الضرائبية ، وخففت القيود على الواردات ، وكانت النتائج بشكل عام ، أقل من المتوقع ، فلم يأت الكثير من رأس المال الأجنبى الى تلك البلاد التى كانت فى معظمها أنظمة غير مستقرة ، وفرص الربح فيها غير مؤكدة ، بل جاء معظم العون من حكومات أو وكالات دولية ، وجرى توظيفه فى مجالات اعادة التسليح والبنية الأساسية والمشروعات الطموحة وقد قدمت بعض المعونات بشروط صريحة أو ضمنية ، وأدى ضغط صندوق النقد الدولى على مصر لتخفيض العجز ، الى محاولة لرفع أسعار الغذاء أثارت اضطرابات خطيرة عام ١٩٧٧ ، كما أن تخفيف القيود على الواردات كان يعنى أن تواجه الصناعات الأهلية الصغيرة منافسة من الصناعات الأمريكية والغربية واليابانية الراسخة ، على الأقل فى خطوط الانتاج التى تتطلب خبرات تقنية وعملية عالية ، وكانت النتيجة أن تجمدت الدول العربية ، كمعظم بلدان العالم الثالث ، فى وضع يمكنها فقط من انتاج الســـلع الاستهلاكية لأنفسها ، مع الاستمرار فى الاعتماد على استيراد المنتجات ذات التقنية المتقدمة ٠

وفاة عبد الناصر وأحداث السبعينات

أضعفت وفاة عبد الناصر وأحداث السبعينات من أوهام الاستقلال والوحدة ٠ ولكن وبشكل ما ، توثقت الروابط من عدة نواح بين بعض الدول العربية خلال نفس الفترة ، وتنامى وجود بعض المنظمات العربية عن ذى قبل ، وأصبح بعضها أكثر فعالية ، وفقدت الجامعة العربية بعد طرد مصر منها الكثير من سلطاتهـا التى كانت محدودة على الدوام ، ولكن حجم عضويتها تزايد ، فانضمت اليها موريتانيا في غرب أفريقيا ،

وجيبوتي والصومال في شرق أفريقيا ، رغم أنهم ليسوا عربا (*) ، ولم ينظر اليهم كعرب ، وكان قبولهم علامة على غموض لفظ « العرب » ونجح أعضاء الجامعة في الأمم المتحدة وفي الهيئات الدولية الأخرى في انتهاج سياسة مشتركة ، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ٠

وضاقت فجوة اختلافات المصــالح بين الدول ذات الموارد البترولية وتلك التي ليس لها مثل هذه الموارد ، بانشاء مؤسسات مالية اقتصادية أمكن من خلالها اعطاء جزء من ثروات الدول الغنية أو اقراضه للدول الأقل غنى ، وقد كان بعض هذه المؤسسات أوسع من مجرد كيان وطني ، فنشأ الصندوق الخاص الذي أنشأته الأوبك ، والصندوق الذي أنشأته منظمة الدول العربية المصدرة للبترول (الأوبك) والصندوق العربي للاقتصاد والتنمية الاجتماعية ، وصناديق أخرى أنشأتها دول منفردة مثــل الكويت والسعودية وأبو ظبي ، وبنهاية السبعينات أصبح حجم الدعم كبيرا جدا ٠

ففي عام ١٩٧٩ ، قدمت الدول المنتجة للبترول للدول النامية ٢ مليار دولار أمريكي بما يمثل ٩ر٢٪ من اجمالي الناتج القومي (للبلدان المانحة) ٠ وكانت هناك أنواع أخرى من الروابط أكثر أهمية ، فقد كانت روابط بين أفراد وكذا بين المجتمعات التي كانوا جزءا منهــا ، فالثقافة المشتركة في طور التكوين ٠ واستمر التوسع في التعليم ، الذي بدأ عند الاستقلال ، في كل البلاد بدرجات متفاوتة ، وبحلول عام ١٩٨٠ ، كانت نسبة الأولاد الذكور في سن المدرسة الابتدائية الذين التحقوا بالمدارس ٨٨٪ في مصر ، و ٥٧٪ في السعودية ، وبالنسبة للاناث ٩٠٪ في العراق ، و ٣١٪ في العربية السعودية ونسبة المتعلمين في مصر كانت ٨ر٥٦٪ للرجال ، و٢٩٪ للنساء ، وفي مصر وتونس كان قرابة ثلث طلاب الجامعات من الاناث ، وفي الكويت كان أكثر من ٥٠٪ منهن ، وحتى في السعودية كانت النسبة قرابة الربع وكانت المدارس والجامعات من نوعيات مختلفة ، فالحاجة لتعليم أكثر ما يمكن من أفراد بأسرع ما يمكن كانت تعني فصولا كبيرة

(*) رأى في حاجــة الى تمحيص ٠ فقد رتق الاســلام الى حد ما الفتق بين الزنوجة والعروبة في غرب افريقيا ، وشرقها ــ كما سبق أن رتق ــ الى حد ما أيضا ــ الخرق بين العرب والبربر في شمال افريقيا ــ (المراجع) ٠

العدد ، ومعلمين على غير تدريب كاف ، ومبان غير مناسبة ، وقد كان العامل المشترك فى معظم المدارس هو التركيز على التعليم بالعربية ، وتدريس المواد الأخرى من خلال العربية ، وأصبحت العربية بالنسبة الى أغلبية من تخرجوا من المدارس أو من الجامعات ، هى اللغة الوحيدة التى يجيدون التعبير بها ، والوسيط الذى يرون العالم من خلاله ، وقد قوى هذا من الوعى بالثقافة المشتركة بين كل من يتحدثون العربية ٠

وانتشرت هذه الثقافة والوعى المشترك من خلال وسيط جديد ، فقد ظلت الاذاعة والسينما والصحف على أهميتها ولكن زاد من نفوذها وتاثيرها التلفاز ، وكان عقد الستينات هو العقد الذى أنشأت فيه الدول العربية محطات التليفزيون ، وأصبح التلفاز جزءا من كل بيت ، لا يقل أهمية عن الموقد أو الثلاجة لدى كل الطبقات ، عدا شديدى الفقر ، أو سكان القرى التى لا تصلها الكهرباء ، وفى عام ١٩٧٣ كان هناك ما يقدر بنصف مليون جهاز تليفزيون فى مصر ، وعدد مقارب فى العراق ، و ٣٠٠ر٠٠٠ فى السعودية ، وكان ما تنقله يشمل الأخبار التى تقدم بطريقة تجتذب الدعم لسياسة الحكومة ، وبرامج دينية فى معظم البلدان بنسب متفاوتة ، والأفلام والمسلسلات المستوردة من أوربا وأمريكا ، وتقدم أيضا تمثيليات وبرامج موسيقية من انتاج مصر ولبنان ، وقد حملت هذه المواد أفكارا وصـــورا وبرامج تسلية ، دعمت من امكانات انتقالها عبر حدود الدول العربية ٠

وأدى تنقل الأفراد فيما بينها ، الى نشـــوء رباط آخر بين الدول العربية ، وازدادت فى تلك الحقبة قربا بعضها من البعض ، وكانت فترة أصبح فيها الطيران فيها متاحا لطبقة عريضة من السكان،وشيدت المطارات وأصـــبح لمعظم هذه البلدان خطوطها الجوية الوطنية التى ربطت بين العواصـــم العربية ، كما انتعش السفر البرى كذلك بتحسن الطرق ، وانتشرت السيارات الخاصة والحافلات ، وتخللت الصحراء الجزائرية والسعودية والسورية طرق جيدة . ورغم الصراعات السياسية التى يمكن أن تؤدى الى غلق الحدود وتعطيل المسافرين والبضائع ، حملت هذه الطرق أعدادا متزايدة من السائحين ورجال الأعمال٠وقد لاقت الجهود التى بذلتها

الجامعة العربية والهيئات الأخرى لتقوية الروابط التجارية بين الدول العربية بعض النجاح ، رغم أن التجارة العربية ظلت تمثل أقل من ١٠٪ من التجارة الخارجية للبلدان العربية فى عام ١٩٨٠ .

ولم تكن حركة البضائع هى الأكثر أهمية على الطرق الجوية والبرية ، بل حركة المهاجرين من البلدان العربيــة الأفقر الى تلك البلدان التى أصبحت غنية بفضل البترول ، وقد بدأت حركة الهجرة فى الخمسينات ، ولكنها تعاظمت فى أواخر الستينات والسبعينات ؛ بسبب نوعين مختلفين من العوامل ، فمن ناحية أدت الزيادة الهـائلة فى الأرباح من البترول الى برامج ومشروعات تنمية طموحـة ؛ ممـا أنعش الاحتيـاج للأيدى العاملة ، فى البلدان المنتجة للبترول ، وتزايد أيضا عدد هذه الدول ، فبخلاف الجزائر والعراق ، لم يكن من بينها من لديها الأيدى العــاملة اللازمة على المستويات المختلفة لتطوير مواردها الذاتية . ومن ناحية أخرى تزايد ضغط السكان فى البلدان الفقيرة ، خاصة فى مصر ، فقد كانت التنمية الاقتصادية محدودة فى أعقاب ١٩٦٧ ، ومن جانبها شجعت الحكومة الهجرة خلال فترة الانفتاح ، وما كان أصلا حركة من الشباب المتعلم أصبح هجرة جماعية من العمال على كافة المستويات ليس فقط بهدف العمل فى الوظائف الحكومية أو المهن ، ولكن كعمال بناء وخدم منازل ، وكانت فى معظمها حركة الرجال من العزاب ، أو بشكل متزايد النساء اللائى خلفن عائلاتهن وراءهن،ولكن الفلسطينيين بعد أن فقدوا وطنهم،كانوا يتحركون كعائلات بأكملها للاستقرار بشكل دائم فى دول الهجرة .

ومن الصعب أن يكون تقدير العدد الاجمالى للعمال بشكل دقيق ، ولكن بنهاية السبعينات كان هناك ٣ ملايين مهاجر عربى ، نصفهم تقريبا فى السعودية ، وأعداد كبيرة أيضا فى الكويت وبلدان الخليج الأخرى وليبيا ، وكانت الكتلة الكبرى التى تمثل قرابة ثلث هذا العدد من المصريين ، وعدد مقارب من اليمنيين ، ونصف مليون من الأردن أو فلسطين (يشمل عائلاتهم) ، وعدد أقل من سوريا ولبنان والسودان وتونس ومراكش ، وكان هناك أيضا بعض الهجرة فيما بين الدول الأفقر ، بتحرك الأردنيين تجاه الخليج ، وحلول المصريين محلهم فى بعض قطاعات الاقتصاد الأردنى .

ولابد أن المعرفة المتزايدة بالشعوب واللهجات العامية التى جلبتها هذه الهجرة الواسعة النطاق ، قد عمقت الاحساس بوجود عالم عربى واحد ، يمكن للعرب أن يتحركوا فيه بحرية نسبية وفهم لبعضهم البعض ، لكن ذلك لم يعن بالضرورة رغبة فى وحدة أوثق . فقد كان هناك الوعى بالاختلاف أيضا ، وكان المهاجرون على ادراك بكونهم مستبعدين فى المجتمعات المحلية التى انتقلوا اليها ٠

تفرق العرب

وبرغم قوة هذه الروابط ، الا أن الاتجاه العام فى المجال السياسى خلال السبعينات كان ينحو للاختلاف ، بل وحتى الى العداء بدلا من الوحدة ، ورغم أن شخصية عبد الناصر أثارت عداءات وأدت الى انقسامات بين الدول العربية وصراعات بين الحكومات والشعوب ، الا أنها خلقت نوعا من التضامن ، واحساسا بأن هناك ما يسمى بأمة عربية فى طور التكوين ، ولسنوات قليلة بعد وفاته استمر شيء من هذا القبيل ، وكان تجليها الأخير فى حرب ١٩٧٣ عندما بدا للحظة ان هناك جبهة مشتركة من الدول العربية بصرف النظر عن طبيعة نظمها ، وسرعان ما انفرطت تلك الجبهة ، ورغم المحاولات بين دولتين عربيتين أو أكثر باتجاه الوحدة فقد ظلت رهن التفاوض أو البيانات من وقت لآخر ، وكان الانطباع العام الذى أوحت به الحكومات العربية لشعوبها وللعالم أسره بنهاية السبعينات، هو الضعف والتفرق ٠

وكان الضعف جليا كأوضح ما يكون فيما يتعلق بما اعتبره كل العرب مشكلتهم المشتركة ، مشكلة اسرائيل ومصير الفلسطينيين ٠ وبنهاية السبعينات كان الموقف فى المناطق التى احتلتها اسرائيل خلال حرب ١٩٦٧ يتغير بسرعة ، وبدأت سياسة الاستيطان اليهودى تنمو بسرعة لأسباب كان بعضها استراتيجيا ؛ واتخذت أبعادا جديدة بوصول الحكومة الوطنية المتشددة برئاسة مناحم بيجين للحكم فى اسرائيل ، وأنشئت المستوطنات على نطاق واسع مع مصادرة الأراضى والمياه من السكان العرب بهدف ضمها لاسرائيل نهائيا ، وكان الجزء العربى من القدس وكذا منطقة

الجولان المحتلة من سوريا ، قد ضمت رسميا فى الواقع الى اسرائيل. ووقفت الدول العربية والفلسطينيون بلا حراك ولا حيلة ، ورغم قدرة منظمة التحرير ورئيسها ياسر عرفات على التحدث باسم الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة والحصول على الدعم الدولى ، فانها لم تتمكن من تغيير الموقف بأى قدر ملحوظ ، ولم يأت أى من منهاجى العمل المتاحين نظريا أمام العرب بأية نتيجة ، فالمقاومة الايجابية للتعديات الاسرائيلية كانت مستحيلة بالنظر للتفوق العسكرى الاسرائيلى ، ومصالح الدول العربية المتفرقة التى لم يكونوا على استعداد لتعريضها للمخاطر . وقد أدى الطريق الذى جربته مصر خلال حكم السادات الى انسحاب من سيناء ، ولكن سرعان ما أصبح واضحا أن مصر لم تكتسب نفوذا كافيا على اسرائيل لاقناعها بتغيير سياستها ، أو على الولايات المتحدة لاقناعها بمعارضة سياسة اسرائيل بشكل أكثر فعالية .

كما أدت عوامل الضعف العسكرى وتنامى المصالح المتفرقة ، والخضوع الاقتصادى كلها جميعا الى تفكك أية جبهة موحدة قامت خلال عام ١٩٧٣ ، وكان الخط الواضح فى الانقسام بينها حول الانحياز النهائى لأمريكا ، والتسوية السياسية مع اسرائيل ، والاقتصاد الرأسمالى الحر من ناحية وبين المتمسكين بسياسة الحياد فى المعسكر الآخر ، مثل الجزائر وليبيا وسوريا والعراق واليمن الجنوبى مع منظمة التحرير ، التى كانت الدول العربية تعتبرها رسميا حكومة منفصلة .

وفى الواقع ، لم تكن الخطوط بهذا التحديد والوضوح فقد تتقاطع التحالفات بين الدول مع هذه التحديدات ، ولم تكن العلاقات بالضرورة وثيقة أو سلسة بين الدول التى تنتمى الى نفس المعسكر ، فقد أدت السياسة المستقلة التى انتهجتها مصر فى موقفها من اسرائيل الى احراج المنحازين للغرب ، وقطعت كل البلاد العربية العلاقات معها وان كانوا لم يوقفوا تدفق تحويلات المهاجرين المالية الى أسرهم ، وفى المعسكر الآخر كانت هناك علاقات مختلفة بالقوة العظمى الأخرى ، فحصلت سوريا والعراق واليمن الجنوبى على معونات اقتصادية وعسكرية من الاتحاد

السوفيتي ، وكانت هناك أيضا خصومات عميقة بين النظامين البعثيين في سوريا والعراق ، بسبب التنافس حول الدور القيادي لما كان يبدو لفترة كحزب قومي قوى متنام ، وكذا اختلاف المصالح بين هذين البلدين ذوى الحدود المشتركة والمتقاسمين في الموارد المائية لنهر الفرات . وكانت هناك مشاكل لا تنتهي مع ليبيا ، وحاول القذافي الرجل القوى فيها ارتداء قميص عبد الناصر والقيام بدوره في بعض الأحيان بلا أى أسس من القوة ، الا ما يمكن تحقيقه منها بالمال .

في تلك الفترة ، كان هناك ثلاثة صراعات مسلحة ، أثرت بشكل عام على العلاقات بين الدول العربية . وقع الأول منها في أقصى الغرب من العالم العربي ، وكان يتعلق بمنطقة الصحراء الغربية القليلة السكان وهى امتداد من الصحراء الغربية الى جهة الغرب باتجاه سواحل الأطلنطي جنوب مراكش ، احتلتها وحكمتها اسبانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وظلت على أهمية استراتيجية واقتصادية محدودة حتى الستينات ، حين اكتشفت احتياطات من الفوسفات مهمة ومبشرة ، قامت باستخراجها شركة اسبانية ، وفي السبعينات بدأت مراكش بالمطالبة بها ؛ لأنها كانت تحت حكم السلطان من قبل ، وقد عارضت اسبانيا هذه المطالب وكذا موريتانيا الدولة المجاورة في الجنوب ، التي كانت تحت الحكم الفرنسي منذ بداية القرن العشرين ، واستقلت في ١٩٦٠ ، وهى أيضا كانت لها أيضا مطالبها في جزء من المنطقة على الأقل . وبعد تحركات دبلوماسية طويلة توصلت كل من اسبانيا والمغرب وموريتانيا الى اتفاق في عام ١٩٧٥ ، تنسحب بمقتضاه اسبانيا من المنطقة التي تقسم بين الجانبين الآخرين . ولم ينه ذلك الاتفاق الأزمة ، فقد نظم شعب المنطقة حركاته السياسية ، وفي أعقاب اتفاقية ١٩٧٥ قامت احدى هذه الحركات وتعرف باسم « البوليساريو » بمعارضة المطالب الموريتانية والمغربية ، وطالبت بالاستقلال ، وتخلت موريتانيا عن مطالباتها في عام ١٩٧٩ ، ولكن مراكش انخرطت في صراع طويل مع البوليساريو ، التي كانت تحظى بدعم من الجزائر وهى دولة ، لها حدود مشتركة مع المنطقة ، وغير راغبة في توسع النفوذ المغربي ، وجرى صراع استمر بشكل أو بآخر لعدة سنوات ، وتسبب في تعقيد العلاقات ،

ليس فقط بين مراكش والجزائر ، ولكن أيضا داخل المنظمات التي كانت أعضاء فيها : الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية .

واندلع صراع آخر في لبنان في نفس الوقت تقريبا ودفعت اليه بطريقة أو بأخرى القوى السياسية الرئيسية في الشرق الأوسط : الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل وأوروبا الغربية والقوى العظمى ، وترجع جذوره لتغيرات معينة في المجتمع اللبناني طرحت تساؤلات حول النظام السياسي للبلاد ، فعندما حصل لبنان على الاستقلال في الأربعينات ، كان يضم ثلاث مناطق بأنواع مختلفة من السكان وتقاليد الحكم : منطقة جبل لبنان ، وغالبية سكانها من الموارنة المسيحيين في الشمال ، مع مزيج من المسيحيين والمسلمين في جنوبها ، ثم المدن الساحلية وبها مزيج من المسلمين والمسيحيين ، والثالثة مناطق ريفية معينة الى شرق وجنوب جبل لبنان ، وسكانها الغالبون من المسلمين الشيعة ، وأولى هذه المناطق كان لها تراث طويل من الادارة المنفصلة تحت سيطرة كبارها ؛ وبعدها كمنطقة متميزة من الامبراطورية العثمانية اندمجت في لبنان عن طريق حكومة الانتداب الفرنسي ، ولقد كان للدولة الجديدة (بعد الاستقلال) دستور ديمقراطي ، وبعد خروج الفرنسيين كان هناك اتفاق بين زعماء الموارنة والسنة ، على أن يكون رئيس الجمهورية على الدوام مارونيا ، ورئيس الوزراء سنيا وتوزع بقية المناصب الادارية في الحكومة بين الجماعات الدينية المختلفة ، بطريقة تحفظ السلطة الفعلية بين أيدي المسيحيين .

وبين عامي ١٩٤٥ ، ١٩٥٨ نجح النظام في الحفاظ على التوازن ودرجة ما من التعاون بين زعماء الجماعات المختلفة ، ولكن خلال جيل واحد دب الضعف في أسس هذا النظام ، نتيجة لتغيرات ديموجرافية ، فتزايد السكان من المسلمين بمعدل أعلى من المسيحيين . وبحلول السبعينات ، كان من المعترف به ان الطوائف الاسلامية الثلاث (السنة والشيعة والدروز) أضحت أكثر عددا من المجتمعات المسيحية ، وبعض قادتها لم يكونوا على استعداد لتقبل موقف تكون السلطة العليا والرئاسة فيه بين أيدي المسيحيين ، علاوة على التغيرات الاقتصادية السريعة في البلاد ، وكذا في

الشرق الأوسط ، والتي أدت الى نمو بيروت لتصبح مدينة كبرى ، يعيش فيها نصف سكان البلاد ، وأصبحت لبنان الدولة مدينة ممتدة تحتاج لسيطرة حكومة قوية وفعالة ، وتزايدت الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وكان غالبية الفقراء من السنة أو الشيعة المسلمين ، وكانوا باحتياج لاعادة توزيع الثروة من خلال الضرائب والخدمات الاجتماعية ، ولم تكن تلك الحكومة القائمة على اتفاق هش بين الزعماء ، فى وضع يمكنها من تحقيق ما كان مطلوبا ؛ لأن بقاءها كان مرهونا بتجنب اتباع أية سياسة قد تزعج مصالح الأقوياء .

واختل التوازن عام ١٩٥٨ ، واندلعت حرب أهلية لعدة شهور ، وانتهت باعادة فرض هذا التوازن تحت شعار « لا غالب ولا مغلوب » ، ولكن العوامل الدفينة التى أدت الى ذلك الانهيار ظلت موجودة ، وفى العقد والنصف التاليين ، أضيف عامل آخر ، هو الدور المتزايد الذى تلعبه لبنان فى المواجهة بين الفلسطينيين واسرائيل ، فبعد انهيار قوة فتح والميلشيات الأخرى فى الأردن عام ١٩٧٠ ، تركزت معظم جهودهم فى جنوب لبنان ، الذى كانت حدوده مع اسرائيل هى الوحيدة المتاحة للعمل بشىء من الحرية ، بدعم من غالبية السكان من اللاجئين الفلسطينيين . وقد آثار ذلك احساسا بالخطر لدى عناصر مهمة من المسيحيين ، وخاصة حزبهم السياسى الجيد التنظيم « الكتائب » ؛ لأن النشاط الفلسطينى فى الجنوب أدى الى ردود أفعال اسرائيلية قوية يمكن أن تهدد استقلال البلاد ، وأيضا لأن وجود الفلسطينيين أعطى دعما لجماعات قوامها المسلمون والدروز الذين كانوا راغبين فى تغيير النظام السياسى ، والذى كانت السلطة فيه أساسا بين أيدى المسيحيين .

وبحلول عام ١٩٧٥ ، تحول الأمر الى مواجهة خطيرة بين القوات ، وتلقى كل طرف السلاح والتشجيع من الخارج : الكتائب وحلفاؤهم من اسرائيل ، والفلسطينيون وحلفاؤهم من سوريا واندلع قتال عنيف فى ربيع ذلك العام واستمر بدرجات متفاوتة فى المدن حتى أواخر ١٩٧٦ ، عندما أمكن الاتفاق على هدنة شبه مستقرة . وقد غيرت سوريا ، المحرض الرئيسى وراء الأحداث ، من سياستها خلال فترة القتال . فقد بدلت بدعم

الفلسطينيين وحلفائهم ، ولكنها فيما بعد تقاربت مع الكتائب وحلفائهم خاصة عندما أصبحت هزيمتهم وشيكة ، وكانت المصالح السورية تقتضى الحفاظ على توازن القوى بما يكبح الفلسطينيين ويحول بينهم وبين اتباع سياسة في جنوب لبنان ، قد تجر سوريا الى حرب مع اسرائيل ، ولتحقيق هذه المصالح ، أرسلت سوريا قوات الى لبنان بموافقة من الدول العربية الأخرى والولايات المتحدة ، وظلت القوات هناك حتى ما بعد انتهاء القتال . وتلا ذلك حوالى خمس سنوات من الهدنة غير المستقرة ، وسيطرت الجماعات المارونية على شمال البلاد وتمركز الجيش السورى فى الشرق وسادت المنظمة فى الجنوب ، وقسمت بيروت بين شرق تسيطر عليه الكتائب ، وغرب تحكمه منظمة التحرير الفلسطينية وحلفاؤها ، وأصبحت سلطة الحكومة غائبة تقريبا ، وقد جلبت قوة المنظمة المنفلتة صراعات متقطعة مع اسرائيل ، تصاعدت عام ١٩٧٨ لتتحول الى غزو أوقفه الضغط الدولى ، ولكنه خلف وراءه حكومة محلية تسيطر عليها اسرائيل فى شريط على طول الحدود ، وقد أدى الغزو والموقف المضطرب فى الجنوب الى قيام السكان الشيعة فى المنطقة بتأسيس قوتهم السياسية والعسكرية الذاتية ، « حركة أمل » .

واتخذ الموقف أبعادا خطيرة عام ١٩٨٢ ، فبعد أن أمنت حكومة اسرائيل حدودها الجنوبية بمعاهدة السلام مع مصر ، حاولت فرض حلها الخاص للمشكلة الفلسطينية ، وكان ذلك يعنى محاولة تدمير كل من القوة العسكرية والسياسية للمنظمة فى لبنان لفرض نظام موال هناك ، وبعد التخلص من المقاومة الفلسطينية الفعالة يمكنها مواصلة سياستها فى الاستيطان وضم بقية فلسطين المحتلة . وبدرجة من الرضا والاذعان من الولايات المتحدة غزت اسرائيل لبنان فى يونيو ١٩٨٢ ، وتمخض الغزو عن حصار طويل للجزء الغربى من بيروت وغالبية سكانه من المسلمين الذين تسيطر عليهم المنظمة ، وانتهى الحصار باتفاقية تم التوصل اليها من خلال الحكومة الأمريكية ، تخلت بمقتضاها منظمة التحرير عن بيروت لقاء ضمانات تقدمها الحكومتان اللبنانية والأمريكية بسلامة المواطنين الفلسطينيين المدنيين ، وفى نفس الوقت أسفرت انتخابات الرئاسة عن

وصول القائد العسكرى للكتائب بشير الجميل لرئاسة الدولة ، واغتيل بعدها بفترة وجيزة وانتخب أخوه أمين الجميل ، وانتهزت اسرائيل فرصة الاغتيال لاحتلال بيروت الغربية ؛ مما مكن الكتائب من تنفيذ مذبحة للفلسطينيين على نطاق واسع فى المخيمات الاسلامية فى « صبرا وشاتيلا » ٠

وبينما أدى انسحاب المنظمة الى توقف القتال لبعض الوقت ، الا أنه نقل الصراع الى طور آخر أكثر خطورة فقد تزايدت الفجوة بين الجماعات المحلية ، فالحكومة الجديدة التي تسيطر عليها الكتائب وتدعمها اسرائيل ، حاولت فرض حلها الخاص بتركيز القوة في يدها وعقد اتفاقية مع اسرائيل ، تنسحب بمقتضاها القوات الاسرائيلية فى مقابل سيطرة الحكومة سياسيا واستراتيجيا على البلاد ، وأثار ذلك معارضة قوية من الجماعات الأخرى من الدروز والشيعة بدعم من سوريا ، ورغم أن الغزو أظهر عجز كل من سوريا والدول العربية عن القيام بعمل منسق ، فقد ظلت القوات السورية فى أجزاء من البلاد ، وكان النفوذ السورى قويا بين أولئك الذين عارضوا الحكومة ، وكان بامكان سوريا وحلفائها الحصول على المساعدات من الاتحاد السوفيتى،في حين كانت الولايات المتحدة فى وضع يمكنها من تقديم العون العسكرى والدبلوماسى للكتائب ، ومن يدعمونهم من الاسرائيليين ٠ وقد كان أحد الشروط التى انسحبت المنظمة بمقتضاها من بيروت أن ترسل قوة متعددة الجنسيات يمثل الأمريكيون فيها جانبا كبيرا الى بيروت ، ولكنها انسحبت بسرعة ثم عادت بعد مذبحة « صبرا » و « شاتيلا » ، ومنذ ذلك الوقت كان الفيلق الأمريكى من القوة المتعددة الجنسيات قد توسعت وظائفه من الدفاع عن السكان المدنيين الى الدعم الايجابى للحكومة اللبنانية الجديدة والاتفاق الاسرائيلى اللبنانى ، الذى توصل اليه الطرفان بمعونة من أمريكا التى عاونت فى التفاوض عليه فى عام ١٩٨٣ ، وفى الشهور الأخيرة من ذلك العام ، انخرطت فى عمليات عسكرية لدعم الحكومة اللبنانية ، ولكن بعد هجمات تعرض لها رجال مشاة الأسطول الأمريكى ، وبضغط من الرأى العام ، قامت أمريكا بسحب قواتها ، وألغت الحكومة اللبنانية اتفاقها مع اسرائيل بعد أن وجدت نفسها بلا دعم أمريكى أو اسرائيلى فعال فى مواجهة مقاومة قوية من الدروز والشيعة وسوريا ، وكان من نتائج هذه الظروف ظهور حركة « أمل » وجماعات شيعية أخرى

كعوامل رئيسية فى السياسة اللبنانية ، وفى عام ١٩٨٤ ، حققت حركة « أمل » سيطرة فعالة على بيروت الغربية ، وانسحبت القوات الاسرائيلية من كل لبنان عدا الشريط على طول الحدود الجنوبية ·

وكان الصراع الثالث فى تنك السنوات بين دولة عربية وأخرى غير عربية ، وهدد بجر دولة عربية أخرى اليه ، الحرب بين العراق وايران ، التى بدأت عام ١٩٨٠ ، فقد كانت هناك قضايا حدودية معلقة بينهما ، وحلت لصالح ايران عام ١٩٧٥ ، عندما كان الشاه فى أوج قوته وعظمته عالميا ، ثم جاءت الثورة الايرانية وفترة الفوضى والضعف التى تلتها ، مما أعطى العراق الفرصة لتصحيح الوضع ، وكان هناك أمر أكثر أهمية ، فالنظام الايرانى الجديد ناشد المسلمين فى كل مكان استعادة حــكم الاسلام فى مجتمعاتهم ، وكانت له جاذبية معينة بين الأغلبية الشيعية فى العراق · وواجه النظام العراقى عام ١٩٨٠ تهديدا مزدوجا ، كنظام قومى علمانى ، وحكومة تسيطر عليها أغلبية سنية ، وغزا الجيش العراقى ايران ، وبعد نجاحها فى الاجتياحات الأولى ، لم يكن باستطاعة العراق احتلال أى جزء من البلاد بشكل دائم ، وبعد فترة استطاعت ايران اتخاذ المبادرة وغزت العراق · لم تحدث الحرب انقساما فى المجتمع العراقى فقد ظل شيعة العراق فى سكون ، ولكنها قسمت العالم العربى الى حد ما ، وأيدت سوريا ايران بسبب خلافاتها مع العراق ، ولكن معظم البلدان العربية الأخرى قدمت الدعم العسكرى أو المادى للعراق،ولكن معظم البلدان سيؤدى الى الاخلال بالنظام السياسى فى الخليج ، ويمكن أيضا أن يهز نظام المجتمع فى البلدان ذات الأغلبية الشيعية ·

وتوقف القتال فى النهاية بوقف اطلاق النار الذى أمكن التوصل اليه من خلال الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ ، ولم يكتسب أى من الطرفين أية أراض ، وتعرض كلاهما لخسائر عالية فى الأرواح والموارد الاقتصادية ، وبشكل ما حصل كل منهما على شىء ما ، فلم يسقط أى من النظامين فى الحرب ، ولم تمتد الثورة الايرانية الى العراق أو الخليج ·

وقد فتحت نهاية الحرب العراقية الايرانية البــاب أمام احتمالات التغيير فى العلاقات بين الدول العربية ، وبدا أن العراق بطاقاته التى

انطلقت ، وبجيشه المتمرس في القتال سيلعب دورا أكثر نشاطا فى المجالات الأخرى ، فى الخليج وفى السياسات العامة للعالم العربى ، وقد انتعشت علاقاته بمصر والأردن بفعل المساعدات التى قدمتها اليه هاتان الدولتان خلال سنوات الحرب ، أما علاقاته بسوريا فكانت سيئة بسبب التأييد والدعم السورى لايران وكخصم لسوريا ، فقد تدخل العراق بشكل فعال فى الشئون اللبنانية المتشابكة ٠

ودخلت المشكلة الفلسطينية أيضا مرحلة جديدة فى ١٩٨٨ ، فقد اندلعت بنهاية العام السابق بين سكان المناطق تحت الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وغزة ، حركة من المقاومة في كل مكان ، سلمية حينا وعنيفة حينا آخر ، رغم استخدام الأسلحة النارية ٠ وكان لزعاماتها المحلية روابط مع منظمة التحرير ومنظمات أخرى ، واستمرت هذه « الانتفاضة » طوال عام ١٩٨٨ ، وغيرت علاقات الفلسطينيين بعضهم ببعض وبالعالم خارج المناطق المحتلة وعبرت عن وجود فلسطينى متوحد ، وأعادت رسم الحدود بين المناطق التى تحتلها اسرائيل واسرائيل نفسها ، ولم تكن الحكومة الاسرائيلية قادرة على قمع الحركة ، وقد اتخذت موقفا دفاعيا حيال الانتقادات الأجنبية ، خاصة فى مواجهة رأى عام داخلى منقسم بعمق ٠ ووجد الملك حسين فى الأردن نفسه عاجزا عن السيطرة على الانتفاضة ، أو التحدث باسم الفلسطينيين وانسحب من المشاركة الفعالة في البحث عن تسوية ، وتمكنت المنظمة من ملء الفراغ ، ولكن طبيعتها تغيرت ، وكان عليها أن تضع فى اعتبارها آراء سكان المناطق المحتلة ، ورغبتهم فى انهاء الاحتلال ، وانعقد المجلس الوطنى الفلسطينى في الجزائر ، وأصدر ميثاقا يعلن الاستعداد لقبول وجود اسرائيل والتفاوض معها بشأن تسوية نهائية ، وجرت التغيرات فى سياق جديد من اعادة تأكيد الوحدة العربية حيال هذه المشكلة ، وعودة مصر كمشارك فى الشئون العربية ، والتغير فى العلاقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وأعلنت الولايات المتحدة للمرة الأولى استعدادها للتفاوض المباشر مع المنظمة ، وبدأ الاتحاد السوفيتى في التدخل بشكل أكثر فعالية فى شئون الشرق الأوسط ٠

الفصل السادس والعشرون

أرواح مضطربة (منذ ١٩٦٧)

الانقسامات العرقية والدينية

أظهرت الصراعات في لبنان والعراق مدى السهولة التى تتداخل بها العداوات بين الدول ، بتلك العناصر المتخاصمة داخل الدولة الواحدة ، فقد أصبحت بعض الخلافات الداخلية في كل الدول فى تلك الفترة أكثر دلالة ، ففى العراق ظهر الخلاف بين العرب والأكراد ، حيث ظلت الأقلية الكردية في الشمال الشرقى للبلاد مهملة فى التدابير الاقتصادية والتغييرات الاجتماعية التي جرى تنفيذها أساسا فى المناطق القريبة من المدن الكبيرة ، ولأنهم من سكان سفوح الجبال أو القبائل الرحل ، فقد رفضوا السيطرة المباشرة من البيروقراطية فى المدن ، كما مستهم أيضا قضية الاستقلال الكردى التى بزغت منذ أواخر الفترة العثمانية ، ومنذ عصر الانتداب البريطانى كانت هناك ثورات كردية متقطعة ، وأصبحت أكثر اصرارا وأفضل تنظيما ، وتلقت المزيد من الدعم من الدول المعادية للعراق منذ ثورة ١٩٥٨ ، فقد تلقت الثورة دعما من ايران لعدة سنوات ولكنه توقف عندما توصلت الدولتان الى اتفاق حول بعض القضايا عام ١٩٧٥ ، وبعدها انتهت الثورة ، واتخذت الحكومة بعض الاجراءات لمنح المناطق الكردية اداوة خاصــة ، وبرنامجا للتطوير الاقتصـادى ، ولكن الموقف ظل غير مستقر واندلعت الثورة مرة ثانية فى الثمانينات ، خلال الحرب بين العراق وايران .

وكان هناك موقف مشابه في الجزائر ، حيث كان جزء من السكان فى المناطق الجبلية من جبال أطلس فى مراكش « وكابيليا » فى الجزائر

من البربر ، يتحدثون لهجات من لغة مختلفة عن العربية ، ولهم تقاليد عريقة من التنظيم المحلى والزعامة· وفى فترة الحكم الفرنسى ، كانت الحكومة تحاول الابقاء على الاختلافات بينهم وبين السكان الذين يتحدثون العربية ، جزئيا لأسباب سياسية ، وأيضا لميل المسئولين المحليين الطبيعى للحفاظ على الطبيعة الخاصة للمجتمعات التى يحكمونها ، وعندما تولت الحكومة الوطنية السلطة بعد الاستقلال ، كانت سياستها قائمة على بسط سيطرة الحكومة المركزية ، وأيضا نشر الثقافة العربية · وفى مراكش ، دعم هذه السياسة عاملان : التراث الطويل والقوى من سيادة السلاطين ، ومكانة الثقافة العربية للمدن الكبرى ، ولم تكن اللغة البربرية لغة مكتوبة ذات ثقافة عالية ، وبدخول القرى البربرية الى مجال اشعاع الحياة الحضرية ، مالوا للتحدث بالعربية ، الا أن الموقف فى الجزائر كان مختلفا فقد كان تراث الثقافة العربية ضعيفا ؛ لأن الجزائر لم يكن بها مدن أو مدارس ، ومثيلاتهــا من الثقافة الفرنسية كانت أقوى ، وكانت تقدم رؤية بديلة للمستقبل ، كما أن سلطة الحكومة لم تكن محكمة ذات جذور ، وادعاءاتها بالشرعية كانت مبنية على قيادتها للصراع من أجل الاستقلال ، وفى ذلك الصراع كان للبربر من « كابيليا » دور كبير ·

وقد أعطت الخلافات العرقية بعدا جديدا للاختلافات فى المصالح ، وكان ذلك أيضا شأن الخلافات الدينية ، وقد أظهر مثال لبنان كيف يمكن أن يعبر صراع حول السلطة عن نفسه بشكل دينى ، وفى السودان ، كان هناك موقف مشابه ، فسكان الجزء الجنوبى من البلاد لم يكونوا عربا ولا مسلمين ، وبعضهم اعتنق المسيحية على أيدى الارساليات خلال فترة الحكم البريطانى ، وكانت لهم ذكريات عن فترة تعرضوا فيها لهجمات تجار العبيد من الشمال ، وبعد الاستقلال أصــبحت السلطة بين أيدى جماعة حاكمة كانت أســاسا من العرب والمســلمين ، وكان الجنوبيون متخوفين من المستقبل ، فقد تحاول الحكومة الجديدة نشر الاسلام والثقافة العربية جنوبا ، وقد تصبح أكثر ادراكا لمصالح المناطق قرب العاصمة عنها لمصالح المناطق البعيدة ، وبمجرد أن أصبحت البلاد مستقلة اندلعت ثورة في الجنوب استمرت حتى ١٩٧٢ وانتهت بموجب اتفاقية منحت

الجنوب قدرا كبيرا من الحكم الذاتي ، واستمرت التوترات والشكوك المتبادلة حتى طفت على السطح في بداية الثمانينات ، عندما بدأت الحكومة في اتباع سياسة اسلامية أكثر صراحة ، حيث قامت ثورة ضد حكم الخرطوم استمرت على نطاق واسع خلال الثمانينات ، ولم تكن الحكومة قادرة على قمعها أو الاتفاق معها ٠

ونشأ موقف شديد الخطورة والتعقيد في البلاد ذات التعداد الشيعي الكبير في العراق والكويت والبحرين والسعودية وسوريا ولبنان ، فقد بدا الأمر كما لو أن الثورة الايرانية سوف تثير احساسا قويا بالهوية الشيعية ، مما يمكن أن يكون له تداعيات سياسية في البلدان التي تركزت فيها السلطة بين أيدي السنيين ، ومن ناحية أخرى ، كان الاحساس بالمصالح الاقتصادية أو المشاعر الوطنية المشتركة يعمل في الاتجاه المعاكس ، ففي سوريا كان هناك موقف مختلف وقتيا على الأقل ، فالنظام البعثي الذي تولى السلطة منذ الستينات ، سيطرت عليه منذ ١٩٧٠ مجموعة من الضباط والسياسيين على رأسها الأسد ، وكانت تنتمي في غالبيتها للطائفة العلوية ، وهي فرع منشق من الشيعة ، ولهذا فقد كانت المعارضة للحكومة تتخذ شكل التأكيد للاسلام السني على أيدي الاخوان المسلمين والجماعات المشابهة ٠

الغنى والفقر

كانت هناك فجوة من نوع آخر تزداد اتساعا في معظم البلدان العربية ، تلك الفجوة التي تقوم بين الأغنياء والفقراء ، كانت دائما موجودة بالطبع ، ولكنها اتخذت معنى جديدا في حقبة التغيرات الاقتصادية السريعة ، وكانت فترة من النمو أكثر منها فترة تغيرات هيكلية أساسية ، سببتها الزيادة في أرباح البترول ، وقد كان معدل النمو عاليا ليس فقط في البلدان المنتجة للبترول ، ولكن في البلدان الأخرى التي استفادت من القروض والهبات والاستثمارات والتحويلات من العمال المهاجرين ، وكان المعدل السنوى للنمو في السبعينات أكثر من ١٠٪ في الامارات العربية المتحدة والسعودية ، و ٩٪ في سوريا ، و ٧٪ في العراق والجزائر ،

و ٥٪ فى مصر ، ولم يحدث النمو بشكل متواز فى كل القطاعات الاقتصادية ، فاستخدم جزء كبير من الزيادة فى ايرادات الحكومة فى استجلاب السلاح (أساسا من الولايات المتحدة وأوربا) وأيضا فى تضخيم الآلة الحكومية (الجهاز الادارى) ، وكان قطاع الخدمات هو الأسرع نموا بين القطاعات الاقتصادية ، وخاصة الخدمات الحكومية ، وبحلول عام ١٩٧٦ بلغ موظفو الخدمة المدنية ١٣٪ من السكان القادرين على العمل فى مصر ، وتلاه قطاع الصناعات الاستهلاكية : المنسوجات والصناعات الغذائية والسلع الاستهلاكية ، والانشاءات ، وقد شجع هذا التوسع فى تلك الفترة على تخفيف القيود فى معظم البلدان على الاستثمار الخاص ، ونتج عن ذلك إنشاء عدد كبير من الشركات الصغيرة ، والزيادة الهائلة فى حجم التحويلات من المهاجرين العائدين ، وبحلول عام ١٩٧٩ كان الحجم الاجمالى لهذه التحويلات فى حدود ٥ بلايين دولار أمريكى سنويا ، وقد شجعتها الحكومات لأنها كانت تخفف من مشكلة ميزان المدفوعات ، واستخدمت أساسا فى العقارات والسلع الاستهلاكية المعمرة .

وبشكل عام ، لم يكن لدى الاستثمار الخاص ما يشجعه على استثمار أمواله فى الصناعات الثقيلة ، التى تتطلب رؤوس أموال ضخمة وقدرا كبيرا من المخاطرة ، وبالتالى كان الاستثمار الأجنبى فيها محدودا ، وكانت الصناعات الثقيلة الوحيدة الجديدة هى ما قررت الحكومات الاستثمار فيها ، اذ كان لديها الموارد الضرورية لذلك ، وقد حاول عدد من الدول المنتجة للبترول تطوير صناعات البتروكيماويات ، وكذلك الصلب ، والألومنيوم ، وكانت التطورات بشكل عام على نطاق أوسع مما تتحمله السوق ، وكانت أكثر الخطط الصناعية طموحا فى السعودية ، حيث بنى مجمعان كبيران أحدهما على ساحل البحر الأحمر والآخر على الخليج ، وفى الجزائر ، خلال حكم بومدين ، كانت سياسة الحكومة الجزائرية تتجه الى تخصيص جزء كبير من مواردها للصناعات الثقيلة مثل الصلب ، والصناعات ذات التكنولوجيا المتقدمة ، على أمل جعل البلاد مستقلة عن تأثير الدول الصناعية القوية ، وعلى أن تستخدم فيما بعد التكنولوجيا الحديثة ومنتجات الصناعات الثقيلة لتطوير الزراعة وانتاج السلع

الاستهلاكية ، وفى أعقاب وفاة بومدين عام ١٩٧٩ ، تغيرت هذه السياسة وزاد التركيز على الزراعة والخدمات الاجتماعية .

وكانت الزراعة أقل القطاعات حظا فى كل مكان تقريبا ، فكان الاستثناء الرئيسى هو سوريا التى وظفت أكثر من نصف استثماراتها للزراعة ، وخاصة لبناء سد على الفرات ، وبدأ العمل فيه فى عام ١٩٦٨ بمساعدة من الاتحاد السوفيتى ، وبنهاية السبعينات كان ينتج الكهرباء ، كما أدى الى توسع الرى فى وادى النهر . وقد كان من نتيجة هذا الاهمال العام للزراعة ، رغم أن جزءا كبيرا من السكان فى كل البلاد يعيش فى القرى ، أن الانتاج الزراعى لم يزد فى معظم البلاد ، وقل فى بعضها الآخر ، ففى المملكة العربية السعودية يعيش ٥٨٪ من السكان القادرين على العمل فى الريف ، ولكنهم ينتجون ١٠٪ من الناتج القومى الاجمالى ، فقد كانت الظروف استثنائية فى هذا البلد بسبب الأهمية القصوى لانتاج البترول ، ولكن لم تختلف النسب كثيرا فى مصر حيث يعيش ٥٢٪ فى الريف وكان انتاجهم ٢٨٪ من الناتج القومى الاجمالى ، وبنهاية السبعينات كانت نسبة كبيرة من الغذاء المستهلك فى البلدان العربية من الأغذية المستوردة .

ولم ترفع التنمية الاقتصادية من مستويات المعيشة فى البلدان العربية كما كان متوقعا ، بسبب التزايد فى السكان بمعدل أعلى من أى وقت مضى ؛ ولأن الأنظمة السياسية والاجتماعية فى معظم هذه البلاد العربية لم توفر توزيعا عادلا متساويا لعائدات الانتاج ، وبالنظر الى الدول العربية ككل ، كان التعداد الكلى العام للسكان بين ٥٥ و ٦٠ مليون نسمة فى عام ١٩٣٠ ، وتزايد الى ٩٠ مليونا فى عام ١٩٦٠ ، ووصل الى ١٧٩ مليونا فى ١٩٧٩ ، وكان معدل التزايد الطبيعى فى معظم البلدان بين ٢ و ٣٪ ، ولم يكن السبب فى ذلك مجرد زيادة المواليد ، بل وعلى العكس كان سببا متناقضا مع انتشار وسائل ضبط النسل ، وظروف المعيشة فى الحضر التى اضطرت الشباب للزواج المتأخر ، فقد كانت الزيادة فى طول العمر المتوقع وكذا تناقص معدل وفيات الأطفال هما السبب الرئيسى .

وكما كان الحال من قبل ، جعل تزايد السكان المدن مكتظة بارتفاع الزيادة الطبيعية فى سكان الحضر عن ذى قبل بفضل تحسن الظروف الصحية ، وأيضا مع الهجرة من الريف ، فقد كان أكثر من نصف السكان فى معظم البلاد العربية تقريبا فى منتصف السبعينات يعيشون فى المدن : أكثر من ٥٠٪ فى الكويت والسعودية ولبنان والأردن والجزائر وبين ٤٠ الى ٥٠٪ فى مصر وتونس وليبيا وسوريا ، وكانت الزيادة فى المدن الكبيرة والصغيرة على السواء ، ولكنها كانت شديدة الارتفاع فى العواصم والمراكز الرئيسية للصناعة والتجارة ، وفى منتصف السبعينات ، كان هناك ٨ مدن عربية ذات تعداد يزيد على المليون ، فى حين وصلت القاهرة الى ٦ر٤ مليونا وبغداد الى ٨ر٣ مليون نسمة .

وقد أدت طبيعة النمو الاقتصادى والتحول السريع ، الى استقطاب أكبر وأكثر وضوحا فى المجتمع عن ذى قبل ، فالمستفيدون من النمو كانوا منذ البداية من أعضاء الجماعات الحاكمة ، وضباط الجيش ، وكبار المسئولين الحكوميين والتقنيين ورجال الأعمال فى مجال الانشاء والاستيراد والتصدير والصناعات الاستهلاكية ، أو ذوى العلاقات بالمشروعات العملاقة المتعددة الجنسيات ، وقد جنى العمال المهرة فى الصناعة أيضا بعض الأرباح ، خاصة حينما سمحت لهم الظروف السياسية بتنظيم أنفسهم بشكل فعال ، أما الشرائح الأخرى من السكان ، فقد استفادت بشكل أقل أو لم تستفد على الاطلاق ، وكان هناك فى المدن سكان من صغار الموظفين وصغار التجار وأولئك الذين يقومون على خدمة الأغنياء ، وحولهم كان عدد أكبر من السكان ممن يعملون فى القطاع غير الرسمى « كباعة جائلين » أو عمال يومية مؤقتين ، أو ممن لا يعملون على الاطلاق ، وفى الريف كان ملاك الأراضى من متوسطى وكبار الملاك فى البلدان التى لم يجر فيها اصلاح زراعى يزرعون أراضيهم ويحققون عائدا مرضيا ، حيث كانت القروض متاحة لهم ، ولكن الفلاحين الفقراء ممن يمتلكون أراضى صغيرة أو لا يمتلكون اطلاقا ، لم يكن بامكانهم أن يطمحوا فى تغيير وضعهم ، والعمال المهاجرون الى البلاد المنتجة للبترول كانوا يكسبون أكثر مما يمكنهم أن يأملوا فيه فى موطنهم ، ولكن بلا أمان ، وبلا امكانية لتحسين

وضعهم من خلال عمل جماعي ، وكان يمكن انهاء خدمتهم بلا مقدمات ، فهناك آخرون فى انتظار أن يحلوا محلهم ، وبنهاية السبعينات أصبحوا أيضا أكثر عرضة لهذه الاحتمالات ، لأن كثيرين منهم لم يكونوا من بلاد عربية ، ولكنهم جلبوا بشــكل مؤقت من جنوب شرق آسيا : تايلاند وماليزيا والفلبين وكوريا ٠

وقد اتجهت بعض الحكومات ، تحت تأثير الأفكار السائدة فى العالم الخارجى ، الى انشاء خدمات اجتماعية أدت الى شيء من اعادة توزيع الدخل فى الاســكان الشعبى وخــدمات الصــحة والتعليم ، ونظم التأمينات الاجتماعية ، ولم يكن كل السكان قادرين على الاستفادة منها حتى فى أكثر البلاد غنى ، ففى الكويت كان للكويتيين ميزة الاستفادة منها ، ولكن القطـاع غير الكويتى من الســكان كانوا أقل استفادة ، وفى السعودية أحاطت مدن الصفيح بالمدن الكبرى ولم تكن القرى تعيش فى ســعة ، وكان الموقف أصعب ما يمكن فى المدن الكبرى التى تنامت بسرعة من خلال الهجرة والزيادة الطبيعية ، واذا أمكن للحكومات هناك هدم مدن الصفيح ، فلم يكن الاسكان الرخيص الذى حل محلها بأفضل منها ، حيث كان يفتقر الى الخدمات الأساسية والى الاحســـاس بالحياة الاجتماعية التى كانت متوفرة فى مدن الصفيح ، (تعرف بالعشش) ووســائل النقل العامة كانت معيبة تقريبا فى كل مكان ، وكان هناك تمييز حاد بين أولئك الذين لديهم وسائل انتقال خاصة ومن ليس لديهم ، وفى معظم المدن ، كانت شبكات المياه والصرف مبنية لمجتمعات أصغر عددا ، ولم تعد تكفى للوفاء بمتطلبات العدد الكبير للسكان ، وقد انهار نظام الصرف الصحى فى القاهرة فعليا ، وفى الكويت والسعودية حلت مشكلة المياه بتحلية مياه البحر ، وهى طريقة مكلفة ولكنها فعالة ٠

المرأة فى المجتمع

وكانت تلك أيضا فترة شهدت تحول العلاقات داخــل المجتمع الى مشكلة صريحة ، فقد أدى تغير دور المرأة ، والتغير فى تركيبة الأسرة الى طرح تساؤلات على الرجال الذين كانوا يرغبون فى بنــاء مجتمع وطنى

صحيح قوى ، وأيضا على النساء الواعيات بوضعهن كاثات ، فعلى مدى الأجيال السابقة حدثت تغيرات مختلفة ، كان مقدرا لها أن تؤثر على وضع المرأة فى المجتمع ، أحدها كان انتشار التعليم : فقد التحقت الفتيات بالمدارس فى كل البلاد حتى فى أكثرها محافظة فى شبه الجزيرة العربية ، وفى بعض البلدان كان هناك تقريبا عدد متساو من الذكور والاناث فى المستوى الابتدائى ، وفى المستويات الأعلى ، كانت النسبة تتزايد بشكل سريع ، رغم أن درجة التعليم بين النساء ظلت أقل من نسبتها بين الرجال ، وفى بعض البلدان كان الجيل الناشىء من الاناث متعلمات بالكامل ، وأيضا لأسباب أخرى اتسع مجال العمل للمرأة فى الريف عندما هاجر الرجال الى المدن أو للبلاد المنتجة للنفط وغالبا ما تقوم النساء برعاية الأرض والماشية فى غياب الرجال • وفى المدينة ، استخدمت المصانع الحديثة النساء ، ولكن العمل فيها كان مزعزعا ، فكن يستخدمن اذا ما كان هناك نقص فى العمال من الرجال ، وفى ظروف الكساد والعمالة الزائدة كن أول من يستغنى عن خدماتهن من العمالة غير الماهرة ، وكان الاحتمال الأغلب أن يجدن عملا كخادمات فى المنازل ، وكن أساسا من الفتيات الصغار غير المتزوجات اللاتى أتين من الريف ، وقد عملت النساء المتعلمات بأعداد متزايدة فى المكاتب الحكومية ، وخاصة فى الوظائف الكتابية ، وأصبح هناك عدد متزايد من المهنيات من المحاميات والطبيبات والعاملات فى الخدمة الاجتماعية ، وفى بعض البلدان ، كان هناك عدد صغير ولكن متزايد من النساء على مستويات أعلى من المسئولية فى الحكومة ، وكان هذا صحيحا بشكل خاص فى بلدان مثل تونس واليمن الجنوبية والعراق ، التى كانت تبذل جهودا دؤوبة للانفصال عن الماضى وخلق مجتمع حديث ، وبرغم هذه التغيرات كانت نسبة ضئيلة من النساء يعملن خارج المنازل ، وعلى كل المستويات تقريبا كانت تعوقهن المنافسة مع الرجال •

وقد كان لظروف الحياة فى المدينة والعمل خارج المنزل بعض التأثير على الحياة العائلية ووضع المرأة فيها ، ففى القرية كانت هجرة العمال الذكور تعنى المزيد من المسئولية على عاتق الزوجة تجاه العائلة ، وكان عليها اتخاذ القرارات التى كانت متروكة للزوج • وفى المدينة ، لم تعد

الأسرة الممتدة تعيش نفس الواقع الذى كانت تعيشه فى القرية ، فلم تعد الزوجة تعيش فى المجتمع النسائى الكبير من الأخوات وبنات العم تحت سيطرة الحماة ، وأصبح الأزواج والزوجات على اتصال مباشر كل منهما بالآخر ، ولم يعد الأطفال يمارسون حياتهم الاجتماعية فى اطار العائلة الكبيرة ، بل أصبح من الممكن أن يتشكلوا بالمدرسة والشارع بالاضافة الى البيت ، كما أدى انتقال الأفكار وتوسع الخدمات الصحية الى انتشار وسائل تحديد النسل ومنع الانجاب ، ومالت العائلات الحضرية بدافع من الاحتياج الاقتصادى ، وبسبب الاحتمالات المستجدة لأن تكون عادة أقل من مثيلتها فى القرية ، وبسبب التعليم والوظيفة ، تزوجت الفتيات فى أواخر سنى المراهقة أو العشرينات بدلا من أواسط أو أوائل مرحلة المراهقة ، وانهارت الفواصل بين الجنسين فى الشارع أو فى مكان العمل بشكل حتمى ، وأصبح الحجاب أقل شيوعا مما كان ، كما أن الأشكال المختلفة للفصل بين الجنسين بدأت فى الاختفاء ، وقد قامت العربية السعودية بمحاولة لمنع ذلك ، فكان الحجاب ضروريا فى الشارع بشكل عام ، والتعليم منفصل بشكل صارم ، وتحددت مجالات منفصلة لعمل المرأة ، فكان بامكانهن العمل فى التدريس أو فى العيادات النسائية ، ولكن ليس فى مكاتب الحكومة أو الأماكن الأخرى التى يمكن أن يختلطن فيها بالرجال .

وقد حدثت هذه التغيرات فى اطار أخلاقى وقانونى ظل غالبا بلا تغيير ، يعضد سيادة الرجل ، وأدخلت بعض التعديلات على طرائق تفسير القوانين الاسلامية والأحوال الشخصية ، وقد كانت تونس هى الوحيدة بين الدول العربية التى منعت تعدد الزوجات ، ولكنه أصبح أكثر ندرة فى البلاد الأخرى ، وفى بعض البلدان ، على سبيل المثال تونس والعراق ، أصبح أكثر سهولة للمرأة أن تطلب فسخ الزواج ، ولكن ظل حق الزوج فى الطلاق بلا ابداء الأسباب فى كل البلدان ، وبدون اجراء قضائى ، كما ظل مكفولا أيضا حق الزوج المطلق فى حضانة الأبناء بعد سن معينة ، وفى بعض البلدان رفع الحد الأدنى لسن الزواج ، وفى بعض البلدان أعيد تفسير قوانين الميراث ، ولكن لم يحدث فى أى منها أن تم وضع

قانون علمانى للأحوال الشخصية ، ليحل محل تلك القوانين المستمدة من الشريعة كما حدث مثلا فى تركيا ٠

وحتى عندما تغيرت القوانين ، لم تتغير معها العادات الاجتماعية بالضرورة ، فالقوانين الجديدة لم يمكن فرضها فى كل الأحوال ، خاصة عندما تعارضت مع العادات الاجتماعية العميقة الجذور ، والتى أكدت وكرست سيطرة الرجال ، فقد استقرت بشكل نهائى القواعد التى يتعين على الفتيات بموجبها أن يتزوجن مبكرا ، وأن على العائلة أن ترتب لزيجاتهن بالاضافة الى ممارسة طلاق الزوجات بسهولة ، وكلها كانت أفكارا متجذرة بشكل صارم ، وحافظت عليها النساء أنفسهن : الأم والحماة اللتان كانتا غالبا عماد ذلك النظام ، وظل عدد كبير من النساء يتقبلن الوضع من حيث المبدأ ، الا أنهن كن يحاولن تحقيق وضع أفضل لأنفسهن بالاستغلال الذكى الواعى لرجالهن ، ويصور موقفهن فى قصص كاتبة مصرية « أليفة رفعت » تصور المسلمات اللاتى كانت حياتهن ما زالت منضبطة بالنداء على الصلاة من المآذن لرصلوات الخمس :

« وترفع يدها الى شفتيها لتقبلها ظهرا لبطن شكرا له على كرمه ، وكانت تأسى لأن هذه الحركات والتمتمات القليلة كانت هى وسيلتها الوحيدة لشكر خالقها ، وقد كانت فى حياة أحمد تقف وراءه فى الصلاة ، وتتبع حركاته كلما ركع أو سجد ، تنصت فى خشوع لما يقرأ من الآيات، وهى تعلم أن من يصلى خلف امام وتتبع شعائره يكون قد أدى الصلاة ، وعندما توفى أبطلت الصلاة المعتادة » (١) ٠

وكان هناك عدد متزايد من النساء اللاتى لم يتقبلن النظام ، وطالبن بالحق فى تعريف هويتهن الخاصة ، واجراء تغييرات فى وضعهن الاجتماعى بما يعكس هذا التعريف الجديد ، ولم يكن بعد فى موقع قوة ، فالنساء من الوزيرات أو أعضاء البرلمان لم يكن سوى رمز للتغير ، وقد نشرت آراؤهن فى اطار المنظمات النسائية والصحافة ، وكان هناك عدد من المفكرات ممن انتشرت أعمالهن انتشارا واسعا فى العالم الخارجى

من خلال الترجمة وأيضا فى البلدان العربية ، وقد كتبت الروائية المغربية فاطمة المريسى « وراء الحجاب » ، ورأت أن عدم المساواة بين الجنسين مبنى على نظرة اسلامية خاصة للنساء ، بأن لديهن قوة خطيرة لابد من احتوائها ، وهى ـ كما تقول ـ نظرة غير متوافقة مع احتياجات الأمم المستقلة فى العالم الحديث .

وقد شاعت حقا ظاهرة فى أواخر السبعينات وبداية الثمانينات يمكن أن تؤكد اتجاها مخالفا ، فقد ظهر فى الشوارع وأماكن العمل ، وخاصة فى المدارس والجامعات ، نسبة متزايدة من صغار النساء يغطين رؤوسهن ان لم يكن وجوههن وينفادين الاختلاط الاجتماعى أو المهنى بالرجال ، وكان هذا التناقض الظاهرى علامة على تأكيدهن على هويتهن وليس قوة الرجل . واللائى انتهجن هذا المسار ، لم يكن من عائلات تنتهج الفصل بين الجنسين ولكنهن اتخذنها كفعل اختيارى ناشىء من نظرة معينة لما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم ، وهى أيضا نظرة تأثرت بالثورة الايرانية ، وأيا كانت الدوافع ، فعلى المدى الطويل تميل الى تقوية النظرة التقليدية لمكانة المرأة فى المجتمع .

الميراث وتحديثه

كان من شأن أحداث ١٩٦٧ ، وعملية التغيير التى تلتها ، أن تكشف من اضطرابات الروح ، ذلك الاحساس بأن العالم قد انقلب ، والتى كانت تعبر عنها أشعار الخمسينات والستينات ، فهزيمة ١٩٦٧ لم يكن ينظر اليها كمجرد نكسة عسكرية ، ولكن كحكم أخلاقى ، واذا كان العرب قد انهزموا بهذه السرعة ، وبشكل علنى وكامل ، أفلا تكون هذه علامة على أن هناك شيئا فاسدا فى مجتمعاتهم وفى النظام الأخلاقى الذى يعبرون عنه ؟ وقد انتهى العصر البطولى للصراع من أجل الاستقلال ، ولم يعد بامكان هذا الصراع أن يوحد الدول العربية أو الشعب فى أى بلد منها ، ولم يعد من الممكن تبرير الفشل وعدم الكفاءة بالتدخل الأجنبى كما كان شائعا فيما مضى .

وقد نشأ بين الرجال والنساء المتعلمين المتأملين وعى متزايد بالتغيرات السريعة الهائلة فى مجتمعاتهم ، وبالطرائق التى تأثر بها وضعهم الخاص بفعل هذه التغييرات ، فزيادة السكان ، وتنامى المدن ، وانتشار التعليم الشعبى ، ووسائط الاعلام كانت تجلب صوتا جديدا الى النقاش الدائر فى المسائل العامة ، صوت يعبر عن قناعتهم وأحزانهم وآمالهم بلغة تقليدية ، وهذا من ناحيته كان يثير الوعى بين المتعلمين حول الفجوة بينهم وبين العامة ، وتبرز مشكلة الاتصالات ، وكيف يتأتى للصفوة المتعلمة أن تتكلم الى العامة أو نيابة عنهم ، وفيما وراء ذلك ، كانت تتضح مشكلة أخرى ، مشكلة الهوية ، وما الرباط المعنوى بينهم والذى يمكن بفضله الادعاء بأنهم مجتمع ووحدة سياسية ؟

وقد كانت مشكلة الهوية تعبر عن نفسها الى حد كبير بمفردات العلاقة بين التراث الماضى واحتياجات الحاضر ، فهل يسير العرب على طريق يرسم لهم من الخارج ؟ أم هل بامكانهم أن يجدوا فى المعتقدات الموروثة وثقافتهم تلك القيم التى يمكن أن تكون لهم مرشدا فى العالم الحديث ؟ وهذا السؤال قد أوضح العلاقة الوثيقة بين مشكلة الهوية ومشكلة الاستقلال ، فاذا كانت القيم التى يعيش عليها المجتمع مستجلبة من الخارج ، ألا يعنى ذلك ضمنا اعتمادا دائما على العالم الخارجى ، وبالذات أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ؟ وأليس محتملا أن يجلب الاعتماد الثقافى معه الاعتماد الاقتصادى والسياسى كذلك ؟ وقد أثار الاقتصادى المصرى د. جلال أمين (ولد سنة ١٩٣٥) هذه النقطة بقوة فى كتابه « محنة الاقتصاد والثقافة فى مصر » وهو كتاب حاول تتبع آثار العلاقات بين الانفتاح وأزمة الثقافة، ويؤكد فيه أن الشعب المصرى والشعوب العربية الأخرى ، قد فقدوا الثقة فى أنفسهم ، فالانفتاح وكذا مجمل حركة الأحداث منذ الثورة المصرية فى ١٩٥٢ كان قائما على غير أساس صحيح من القيم لمجتمع الاستهلاك فى الحياة الاقتصادية ، وسيطرة صفوة حاكمة بدلا من الولاء الوطنى الصادق، فالمصريون يستوردون كل ما أقنعهم الأجانب بأنهم يحتاجون اليه ، وأدى ذلك الى الاعتماد الدائم عليهم . ولكى يكون المجتمع صحيا ، يجب أن

تكون الحياة السياسية والاقتصادية مستمدة من قيمهم الأخلاقية والمعنوية ، التى لا أساس لها الا فى الدين .

وبطريقة مقاربة كتب كاتب مصرى آخر هو حسن حنفى عن العلاقة بين التراث والحاجة للتغيير ، فالعرب مثلهم فى ذلك مثل باقى البشر قد وجدوا أنفسهم فى ثورة اقتصادية لا يمكنهم المضى فيها الا « بثورة انسانية » ، ولا يعنى ذلك التخلى عن التراث الماضى الذى كان العرب مسئولين عنه بنفس القدر كمسئوليتهم عن « الشعب والأرض والثروة » . لكن يجب اعادة تفسيره « فى ضوء احتياجات العصر بحيث يتحول الى أيديولوجية تبزغ منها حركة سياسية ، أما التمسك الأعمى بالتراث ، والتحديث الأعمى ، فكلاهما لا يصلح : الأول لأنه لا يقدم اجابة عن مشكلة الحاضر ، والثانى لأنه لا يحرك الجماهير فهو يعبر عنهم بلغة غريبة مختلفة عما يفهمونه ، والحاجة قائمة الى بعض الاصلاح للفكر الدينى الذى يعطى الجماهير تعريفا جديدا لأنفسهم ، وحزب ثورى يبدع ثقافة وطنية ، وبهذا يغير أنماط السلوك الجمعى » .

وكثير من الفكر العربى المعاصر يدور حول هذه الاشكالية بين الماضى والحاضر ، وقد قام بعض الكتاب بمحاولات جريئة لحلها ، فالجواب الذى طرحه الفليسوف السورى صادق جلال العظم (ولد سنة ١٩٣٤) نبع من الرفض التام للفكر الدينى ، وكان زائفا كما ادعى ، وغير متوافق مع الفكر العلمى الصادق الأمين فى نظرته لماهية المعرفة وطرائقها فى التوصل الى الحقيقة ، وليس هناك طريقة للتوفيق بينهما فمن المستحيل الايمان بالحقيقة الحرفية للقرآن ، والفكر الدينى ليس فقط زائفا ، وانما هو أيضا خطر . لقد دعم وساند النظام القائم للمجتمع ، وأولئك الذين يسيطرون عليه ، وبهذا أجهض الحركات الحقيقية للتحرير السياسى والاجتماعى .

وقد اتخذ بعض الكتاب الآخرين هذا الموقف ، ولكن الأكثر شيوعا كان الاتجاه لتحليل كيان المعتقدات الدينية الى كيان من الثقافة الموروثة

وبهذا تتحول الى موضوع يمكن معالجته نقديا ، فالهوية الوطنية عند التونسى هشام جيت Djait (ولد سنة ١٩٣٥) لا يمكن تعريفها بمصطلحات الثقافة الدينية ، وبالتأكيد يتعين الحفاظ على تلك الثقافة التى تنقل رؤية الحياة البشرية عن خلال محمد ﷺ ، ومشاعر الحب والولاء اللذين اجتمعا حوله على مدى القرون يجب الاعتزاز بها والحفاظ عليها من قبل الدولة ، الا أن المؤسسات الاجتماعية والقوانين يجب أن تكون منفصلة تماما عن الدين وقائمة على مبادىء « انسانية » · والمواطن الفرد يجب أن يكون حرا فى التخلى عن ايمانه الموروث اذا ما رغب فى ذلك :

« نحن مع العلمانية ، ولكنها يجب أن تكون علمانية غير معادية للاسلام ، ولا تستمد دوافعها من مشاعر مناهضة للاسلام ، وفى رحلة تاريخنا الملتاعة تعلقنا بضرورة الايمان ، وحنين عميق لا ينمحى لهذا الدين الذى أضاء طفولتنا ، وكان مرشدنا الأول للخير واكتشاف المطلق ··· ان علمانيتنا تجد مداها فى التعرف على جوهر العلاقة بين الدولة ، وبين عناصر معينة فى السلوك الأخلاقى والاجتماعى ، وبنية الشخصية الجمعية والدين الاسلامى ، والتزامها بهذا الدين وباصلاحه ، والاصلاح لا يجب أن يكون متعارضا مع الدين ، ويجب أن يتم بالدين ، وفى الدين ، ومستقلا عنه » (٢) ·

وعنه كاتب مغربى آخر هو عبد الله لاروى ، يرى أنه من الضرورى تعريف الماضى والحاضر ، وأن ما نحتاج اليه هو الفهم التاريخى الحقيقى ، بأن « نملك ماضينا » من خلال تفهم السببية التى تتطور بها الأمور من بعضها البعض · وقيما وراء ذلك الرغبة فى التفوق على الماضى بأخذ الضرورى عن طريق « النقد الجذرى للثقافة واللغة والتراث » واستخدامه لابداع مستقبل جديد ، هذه العملية من الفهم النقدى فى حد ذاتها لا تؤدى للمستقبل ، ويجب أن تسترشد بالفكر الحى للعصر ، وخاصة بالماركسية اذا ما فهمت بشكل صحيح وبدلالتها على أن التاريخ له اتجاه ويتحرك فى مراحل تجاه هدف ، ويمكن أن يكون الفراسة التى تعين على توحيد الماضى فى نظام جديد للفكر والعمل (٣) ·

وعلى الطرف الآخر من الصورة ، كان أولئك الذين آمنوا بأن التراث الاسلامى فى حد ذاته يمكن أن يكون أساسا للحياة الحاضرة ، وأنه وحده القادر على ذلك لأنه مستمد من كلمة الله ، وكان هذا هو الموقف الذى عبر عنه بعبارات حادة بعض الذين لهم علاقة بالاخوان المسلمين فى مصر وغيرها ، وقد وقع فى الستينات بعض الاستقطاب لبعض القادة والأعضاء فى هذه الحركات ، وكانوا على استعداد لقبول حل وسط مع أصحاب السلطة والقبول بالنظم القائمة على الأقل فى حينه ، على أمل أن يعطيهم ذلك نفوذا سياسيا ، والآخرون تحركوا فى اتجاه مضاد : الرفض التام لكل أشكال المجتمع عدا المجتمع الاسلامى الكامل · وفى كتاب نشر فى ١٩٦٤ (معالم فى الطريق) ، عرف سيد قطب المجتمع الاسلامى الحق فى كلمات لا تقبل بالحلول الوسط ، أنه ذلك المجتمع الذى يقبل بحاكمية الله ، أى الذى يعتبر القرآن هو المصدر لكل ارشادات وتعاليم الحياة الانسانية ، لأنها وحدها القادرة على بلورة النظام الأخلاقى والقانونى الذى يوافق طبيعة الواقع ، وكل المجتمعات الأخرى مجتمعات جاهلية ، أيا كانت مبادؤها ، سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية أم وطنية ، قائمة على أديان أخرى زائفة أو تدعى الاسلام ولكنها لا تسير وفق الشريعه :

« وسوف تنتهى قيادة الرجل الغربى للعالم ، لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست أو فقدت قواها الاقتصادية أو العسكرية ، ولكن لأن النظام الغربى قد لعب دوره ، ولم يعد يمتلك رصيد القيم التى أوصلته الى القيادة ، وقد انتهى دور الثورة العلمية وما صاحبها من قوميات ومجتمعات محصورة فى حدود ، ·· ، ولقد جاء دور الاسلام » (٤) ·

والطريق لايجاد مجتمع اسلامى حق كما أعلن سيد قطب ، يبدأ بالايمان الاعتقادى الفردى ، الذى يتحول الى صورة حية فى القلب ، ويتجسد فى برنامج للعمل وأولئك الذين يقبلون هذا البرنامج ، يمكن أن يشكلوا الطليعة من المقاتلين ، الذين يستخدمون كل الوسائل بما فيها الجهاد ، والذى لا يمكن القيام به الا بعد أن يصل المقاتلون الى مرحلة النقاء الداخلى ، ولكن يجب السعى اليه آنئذ ليس فقط من أجل الدفاع ، ولكن

لتدمير كل العبادات للآلهة الزائفة ، وازالة كل العوائق التي تمنع الناس من الخضوع للاسلام ، ويجب أن يكون الجهاد بهدف خلق مجتمع اسلامي عالمي لا يكون فيه تمييز على أساس الجنس ، ويشمل العالم كله ، « لقد انتهى العصر الغربي » ولم يستطع تقديم القيم اللازمة لدعم الحضارة المادية الحديثة ، والاسلام فقط يقدم الأمل للدنيا .

وقد كانت دلالة هذه التعاليم بعيدة المدى اذا ما أخذت بجدية ، وقد أدى ذلك الى تشكيل الجناح الموالي لسيد قطب من الاخوان المسلمين في معارضته لعبد الناصر ، وألقى القبض على سيد قطب نفسه وحوكم وأعدم عام ١٩٦٦ ، وفي الحقبة التالية التزمت الجماعات المنبثقة من الاخوان بتعاليمه حرفيا ، من حيث ان المرحلة الأولى في اتجاه خلق مجتمع اسلامي ، كانت في الانسحاب من مجتمع الجاهلية ، والعيش طبقا للشريعة ، وتنقية القلب ، تكون نواة للمقاتلين الملتزمين ، وهذه الجماعات كانت مستعدة للقتال والشهادة ، وكان ذلك واضحا عندما اغتال أحد أعضائها السادات في عام ١٩٨١ ، وعندما حاول الاخوان المسلمون اسقاط الأسد في العام التالي .

وفي وسط هذا الطريق ، كان أولئك الذين استمروا في الاعتقاد بأن الاسلام أكثر من مجرد تراث ، وأنه كلمة موحاة من الله ، ولكن يجب فهمها على الوجه الصحيح ، والأخلاقيات والقوانين الاجتماعية المستمدة منها يمكن تطويعها لتصبح الأسس الأخلاقية لمجتمع حديث ، وكانت هناك أشكال عديدة لهذا الموقف الاصلاحي ، فالمحافظون من المدرسة الوهابية في السعودية وغيرها آمنوا بأن الدستور القانوني القائم يمكن تطويره ببطء وحذر ليصبح نظاما مناسبا لضرورات ولاحتياجات الحياة الحديثة ، والبعض آمن بأن القرآن فقط هو المقدس ويمكن استخدامه بحرية كأساس للقانون الجديد ، والبعض اعتقد أن التفسير الحقيقي للقرآن هو التفسير الصوفي ، والتنسك الصوفي متوافق مع تنظيم المجتمع على خطوط تقارب العلمانية .

وبذلت بعض المحاولات بشكل كان جادا وشجاعا لبيان كيف أن النظام الأخلاقى والقانونى الجديد ، يمكن أن يستمد من القرآن والحديث ، فظهر فى السودان الصادق المهدى (ولد سنة ١٩٣٦) ، وهو ابن حفيد لزعيم دينى فى أواخر القرن التاسع عشر وهو نفسه زعيم سياسى مهم بارز ، أكد أنه من الضرورى أن يكون لدينا نوع جديد من الفكر الدينى الذى يستخرج من القرآن والحديث (شريعة) ، مطوع لاحتياجات العالم الحديث ، وقد تكون أفضل هذه المحاولات المصاغة بمنطق وعناية لوضع مبادىء شرع جديد ، تلك التى جاءت من خارج العالم العربى ، من أحد العلماء الباكستانيين هو « فضل الرحمن » (١٩١٩ ــ ١٩٨٨) فى محاولة لتقديم علاج « للاضطراب الروحى » للمسلمين فى الوقت الحاضر ، واقترح طريقة للتأويل القرآنى يمكن ــ حسب اعتقاده ــ أن تكون أمينة على الروح الاسلامية ، وتراعى احتياجات الحياة الحديثة ، فقال ان « القرآن هو استجابة الهية لعقل النبى تجاه الوضع الأخلاقى الاجتماعى فى الجزيرة العربية فى عهده » ، فاذا كنا نحاول تطبيق تعاليمه على الوضع الأخلاقى الاجتماعى لعصر مختلف ، فعلينا بالضرورة استخلاص المبادىء العامة من تلك الاستجابة الالهية ، وذلك بدراسة الظروف الخاصة التى أحاطت بالوحى بتلك الاستجابة ، على أن يتم ذلك فى ضوء فهم القرآن كوحدة ، وبمجرد استخلاص المبدأ العام ، يمكن أن يستخدم بعناية ووضوح لفهم ما يتصل بالموقف الذى نحتاج الى ارشاد فى شأنه ، وهكذا يتحول تفسير الاسلام الى تأويل تاريخى (*) ، يتحرك بدقة من الحاضر الى الماضى ليعود مرة أخرى ، ويتطلب ذلك نوعا مختلفا من التعليم الدينى (٥) .

استقرار النظم

يجد المراقب للبلاد العربية فى الثمانينات مجتمعات ذات روابط ثقافية قوية ، وربما تزداد قوة مع الزمن ، الا أنها لا تؤدى الى الوحدة السياسية ، حيث الغنى المتزايد موزع بلا مساواة ، وأدى هذا الغنى الى

(★) لا يوافق معظم المسلمين السنة على رأى فضل الرحمن هذا ، لأنه يعنى ببساطة قصر القرآن الكريم على مرحلة تاريخية معينة ــ (المراجع) .

نوع من أنواع النمو الاقتصادى ، الا أنه أدى أيضا الى فجوة أوسع بين الذين استفادوا منه ، والذين لم يستفيدوا ، ممن يعيشون فى المدن المكتظة والريف ، حيث أصبح بعض النساء أكثر وعيا بوضعهن المتدنى فى عوالمهن الخاصة والعامة ، حيث كان العامة فى الحضر يتساءلون عن عدالة النظام الاجتماعى ، وشرعية الحكومات ــ من أعماق تراثهم الموروث ، وحيث كانت الصفوة المتعلمة ضحية اضطراب روحى عميق ·

ويلاحظ المراقب أيضا شيئا آخر يؤدى الى الدهشة فى كل الظروف، وهو الاستقرار الواضح للأنظمة السياسية ، ورغم أن البلدان العربية غالبا ما كانت تعتبر غير مستقرة سياسيا ، فقد حدث فى الواقع تغيير بسيط فى نظرة العامة للأنظمة أو اتجاه السياسة منذ نهاية الستينات ، ورغم التغير فى الشخصيات ، فلم يحدث فى السعودية وبلاد الخليج والأردن وتونس ومراكش تغيرات أساسية لجيل من الزمان أو أكثر ، وفى الجزائر وقع التغيير الحقيقى فى عام ١٩٦٥ ، وفى ليبيا والسودان واليمن الجنوبى والعراق ، كانت المجموعة التى ظلت فى الحكم حتىالثمانينات قد بدأت منذ عام ١٩٦٩ ، وفى سوريا منذ عام ١٩٧٠ ، وفى مصر أيضا ، حدث التغير من عبد الناصر الى السادات ، والذى بدا للوهلة الأولى كتغيير فى الأشخاص بين جماعة حاكمة مستقرة ، سرعان ما ظهر أنه تغيير فى الاتجاه· وكانت السبعينات فى ثلاث دول فقط فترة من الاضطرابات : اليمن الجنوبى حيث كان هناك صراع داخل الحزب الحاكم ، واليمن الشمالى حيث حدث تغيير معين غير شامل فى النظام عام ١٩٧٤ ، ولبنان التى ظلت فى حالة من الحرب الأهلية والاضطرابات منذ ٧٥ وما بعدها ·

وقد كان التناقض الظاهرى للنظم المستقرة والمستمرة فى المجتمعات الشديدة الاضطراب أمرا يستأهل البحث ، رغم أنه فى النهاية يمكن أن يتضح أنه ليس تناقضا ، ونستعير هنا احدى أفكار ابن خلدان ، حيث يمكن أن يقال إن استقرار أى نظام سياسى يعتمد على توليفة من ثلاثة عوامل ، ويكون متماسكا عندما تستطيع مجموعة حاكمة أن تربط مصالحها بالعناصر القوية فى المجتمع ، عندما يتجلى هذا التحالف فى المصالح من

خلال فكرة سياسية تشكل شرعية هؤلاء الحكام في عيون المجتمع أو على الأقل في عيون الجزء الأكبر منه ٠

ويمكن تفسير تماسك النظام وثباته جزئيا بطرائق واضحة ، فقد أصبح للحكومات وسائل للسيطرة والقمع والقهر متاحة أكثر من أى وقت سابق من الاستخبارات وخدمات الأمن والجيش ، وفى بعض الأماكن جنود مرتزقة مستجلبة من الخارج ، واذا ما رغبوا ، فبامكانهم سحق أية ثورة وبأى ثمن اذا لم تنكسر بين أيديهم أدوات القمع هذه ، وتمثـل العـائق الوحيد فى أن الأدوات لم تكن سلبية بشكل كلى ، بل يمكن أن تعمل فى غير صالح الحكام ، أو تنفرط ، كما حدث فى ايران ، فى مواجهة الثورة الشعبية الهائلة فى (١٩٧٩ ــ ١٩٨٠) ٠ كما أنهم أيضا سيطروا مباشرة على كل المجتمع بطريقة لم تتح لأية حكومة فى الماضى ، ففى البداية بسط المصلحون العثمانيون وبعدهم الحكام الأوربيون الاستعماريون ، سلطة الحكومة حتى ما وراء المدن والأراضى الداخلية التابعة لها الى أبعد المناطق من الريف ووديان الجبال والسهول ، وكانت السلطة تمارس فى الماضى على المناطق النائية بالمناورات السياسية وبالقوى الوسـيطة من سـادة الوديـان وزعماء القبـائل أو نسـل الأولياء ، ولكنها أصبحت تمارس بالسيطرة البيروقراطية المباشرة ، التى مدت يد الحكومة فى كل قرية وكل بيت أو خيمة تقريبا ، وأينما كانت الحكومة ، كانت معنية فقط كما كان الحال فى الماضى ، بالدفاع عن المدن والطرق والحدود وجباية الضرائب ، وأيضا بكل المهام التى تؤديها الحكومات الحديثة من التجنيد والتعليم والصحة والخدمات العامة والقطاع العام (فى الاقتصاد) ٠

وبخلاف هذه الأسـباب الواضحة لقوة الحكومات ، كانت هنـاك أسباب أخرى ، فقد نجحت الجماعات الحاكمة فى ارساء ودعم عصبيتها الخاصة ، أو التضامن المكرس تجاه الحفاظ على السلطة ، وفى بعض البلاد مثل الجزائر وتونس والعراق ، كانت وحدة الحزب ، وفى غيرها ، كانت وحدة جماعة من السياسيين الذين جمعتهم روابط منـذ بواكير حيـاتهم قوتها التجربة المشتركة ، كما كان الحال مع السياسيين العسكريين فى

مصر وسوريا ، وفي بلاد أخرى كانت وحدة العائلة الحاكمة ومن يرتبطون بها عن قرب تجمعهم روابط الدم والمصالح المشتركة ، وهذه النوعيات المديدة من الجماعات ، لم تكن مختلفة بشكل كبير فيما بينها كما كان يبدو ، فقد كانوا يرتبطون جميعا برابطة المصالح التى تقويها صلات الجوار وقرابة الدم أو النسب ، وتقاليد الشرق الأوسط ومجتمعات المغرب تفترض أن العلاقات المختلفة تقوى بالقرابة العائلية .

والأكثر من ذلك أن الجماعات الحاكمة أصبح تحت تصرفها آلة حكومية أكبر وأكثر تعقيدا مما كانت فى الماضى ، ويرتبط بها ويعتمد عليها عدد هائل من الرجال والنساء ، ولهذا يحرصون (على الأقل الى حد ما) على مساعدتها فى الحفاظ على سلطتها ، وفيما مضى كان هيكل الحكومة بسيطا ومحدودا ، فقد كان سلطان مراكش حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ملكا متجولا يجمع الضرائب ، وتظهر قوته بالمرور فى مناطق نفوذه مصحوبا بجيش شخصى وبضع عشرات من المساعدين والموظفين ، وحتى فى الامبراطورية العثمانية التى كانت أكثر الحكومات التى عرفها الشرق بيروقراطية ، كان عدد المسئولين محدودا نسبيا ، ففى بداية القرن التاسع عشر كانوا قرابة ٢٠٠٠ مسئول مدنى فى الادارة المركزية ، ولكن بنهاية القرن تزايد الرقم ليصبح ٣٥٠٠٠ ، وفى بدية الثمانينات كان مسئولو الحكومة فى مصر ضعف عدد العاملين فى الصناعة ، وكانت النسبة مماثلة فى بلدان أخرى ، وكانت هذه الطائفة الكبيرة من الموظفين موزعة على عدد من الهياكل المختلفة التى تسيطر على القطاعات المختلفة للمجتمع ، من الجيش والشرطة والاستخبارات وهيئات التخطيط وسلطات الرى وادارات المالية والصناعة والزراعة والخدمات الاجتماعية .

وقد استغلت المصالح الشخصية أيضا للحفاظ على النظام ، وليس فقط مصالح الحكام ، ولكن مصالح ضباط الجيش وكبار المسئولين ومديرى المشروعات فى القطاع العام والمعينين على المستويات العليا ، والذين لا يمكن بدونهم قيام حكومة حديثة ، وقد كانت سياسات معظم النظم تنحاز للقطاعات القوية الأخرى من المجتمع ، وهم أولئك الذين

سيطروا على قطاعات معينة فى الاقتصاد ، مثل الصناعات الخاصة ، وتجارة الواردات والصادرات ، وهى غالبا على صلة بالمؤسسات المتعددة الجنسيات ، التى تزايدت أهميتها خاصة فى فترة الانفتاح ، اضافة الى كل ما سبق ، وان كان بدرجة أقل ، العمال المهرة فى الصناعات الكبيرة، الذين استطاعوا فى بعض البلاد تنظيم أنفسهم بشكل فعال فى نقابات ؛ مما مكنهم من التفاوض لتحقيق شروط عمل أفضل ، ورواتب أعلى ، رغم أنهم لا يستطيعون استخدام قوتهم الجمعية لممارسة النفوذ على السياسة العامة للحكومة .

وفى العشرين عاما الأخيرة ، ظهرت طبقة اجتماعية جديدة من أولئك الذين استفادوا من الهجرة للدول المنتجة للبترول ، من بين ثلاثة ملايين أو أكثر من المهاجرين من مصر والأردن واليمن وغيرها الى ليبيا والسعودية والخليج ، ذهب معظمهم بلا نية فى الاستقرار ، ولذلك كان من صالحهم وجود حكومات مستقرة ؛ مما يمكنهم من التحرك بحرية جيئة وذهابا ، يجلبون لبلادهم ما ادخروه للاستثمار ، — فى معظم الحالات — فى الأراضى والمبانى والسلع الاستهلاكية المعمرة ، لتظل ممتلكاتهم فى أمان .

وكذلك كان ضباط الجيش ، ومسئولو الحكومة ، والتجار الدوليون، والصناعيون ، والطبقة الجديدة من أصحاب الدخول من توظيف الأموال ، يرغبون جميعا فى أنظمة مستقرة ، وقادرة على الحفاظ على النظام ، وعلى علاقات طيبة مع بعضها البعض (رغم الخلافات السياسية) للسماح بالتدفق الحر للعمل والمال ، هذا التدفق الذى حافظ على اقتصاد مختلط مع ميل الميزان لصالح القطاع الخاص ، وسمح باستيراد السلع الاستهلاكية ،وبنهاية السبعينات ، أصبح معظم الأنظمة من هذا النوع ، مع استثناء اليمن الجنوبى باقتصادها الذى بقى تحت السيطرة المركزية الصارمة ، والجزائر بشكل جزئي ، رغم أن اتجاهها قد تغير بعد وفاة بومدين .

وقد كانت هناك قطاعات أخرى من المجتمع لم تكن مصالحها موضع اهتمام سياسات الحكومة بنفس القدر ، ولكن تلك القطاعات لم تكن فى وضع يسمح لها بممارسة ضغوط فعالة على الحكومات ، فكبار ملاك الأراضى ممن لهم قواعد فى المدن كان الائتمان متاحا لهم وحققوا أرباحا من الزراعة ، ولكن صغار الملاك والمزارعين بالمشاركة والفلاحين بلا حيازة كانوا فى وضع ضعيف ، وكانوا يشكلون نسبة أصغر من السكان عن ذى قبل بسبب الهجرة الى المدن رغم أنهم يمثلون نسبة ملحوظة ، وأنتجوا نسبة أقل من الناتج القومى الاجمالى فى كل البلاد ، ولم يعودوا قادرين على توفير الغذاء الضرورى لسكان الحضر الذين اعتمدوا على استيراد الغذاء ، وكانوا كما مهملا فى برامج الاستثمار فى معظم النظم ، وبشكل عام ، كانوا مطحونين ، ولكن كان من الصعوبة تعبئة الفلاحين للعمل الفعال .

وفى المدن ، كانت هناك طبقة عريضة من العمالة نصف الماهرة أو غير الماهرة ، وصغار موظفى الدولة ، وعمال المصانع غير المهرة والعاملين فى خدمات الامداد ، والعاملين فى القطاع « غير الرسمى » من الاقتصاد كالتجار المتجولين او عمال اليومية والمتعطلين ، وكان وضعهم ضعيفا وفى الأســاس كانوا مشــغولين بالصراع اليومى من أجــل البقاء ، وفى منافسة طبيعية مع بعضهم البعض ، حيث فاق العرض الطلب على خدماتهم بشكل كبير ، وتفرقوا فى جماعات صغيرة من العائلات الكبيرة ومن هــم من نفس المنطقة أو نفس الجماعة العرقية أو الدينية ؛ حتى لا يضيعوا فى المدن الهائلة والعدائية والمجهولة ، وقد يندفعون فى عمل موحد فعال فقط فى الظروف الخاصة عند انهيار نظام السيطرة الحكومية ، أو عندما تكون هناك قضية تمس احتياجاتهم المباشرة أو ولاءاتهم العميقة ، كاضطرابات الخبز فى مصر عام ١٩٧٧ ، أو الثورة الايرانية ٧٩ ـ ٨٠ .

وأحد العلامات على الوضع المسيطر الجديد للحكومات فى المجتمعات العربية ، أنهم كانوا قادرين على أن يصوغوا لأنفسهم الأفكار ، التى يمكن أن تحرك الأذهان أو الخيالات ، لتستخرج منها ادعاء بشرعية السلطة . وفى ذلك الوقت ، كان على أية حكومة عربية ترغب فى البقاء أن تكون

قادرة على ادعاء الشرعية باستخدام ثلاثة مصطلحات : الوطنية ، والعدالة الاجتماعية ، والاسلام .

وقد كانت لغة الوطنية هي اللغة الأولى التي ظهرت كلغة ذات أثر قوى ، فقد وصلت بعض الأنظمة التي كانت موجودة فى بداية الثمانينات الى السلطة من خلال الصراع من أجل الاستقلال ، أو الادعاء بخلافتها لمن كافحوا من أجل الاستقلال ، وقد كانت مثل هذه الدعاوى للشرعية قوية فى المغرب ، حيث ما تزال ذكريات الكفاح ماثلة فى الأذهان ، وتكاد تكون معظم الأنظمة قد استفادت من أنواع مختلفة من ادعاء الوطنية ، وقد انحدروا الى لغة الوحدة العربية واعتبروا الاستقلال كما لو كان الخطوة الأولى تجاه وحدة عربية أوثق ، وارتبط بها العمل المنسق لدعم القضية الفلسطينية .

واللغة الثانية ، لغة العدالة الاجتماعية وقد دخلت الاستخدام السياسى العام فى الخمسينات والستينات ، وهى فترة الثورة الجزائرية وانتشار الناصرية بفكرتها عن اشتراكية عربية خاصة عبر عنها الميثاق الوطنى عام ١٩٦٢ ، ومثل هذه المصطلحات كالاشتراكية أو العدالة الاجتماعية التى استخدمت بمعنى محدد ، كانت تشير الى اصلاح الملكية الزراعية والايجارات ، وامتداد نطاق الخدمات الاجتماعية والتعليم العام للبنين والبنات على السواء ، ولكن كانت هناك محاولة منظمة لاعادة توزيع الثروة عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول فى قليل من البلاد العربية .

وآخر اللغات التى أصبحت قوية كانت لغة الاسلام ، ولم تكن هذه اللغة جديدة بالطبع من بعض الأوجه ، فقد كان هناك احساس بالمصير المشترك بين أولئك الذين ورثوا دين الاسلام ، وهو ايمان تثريه الذكريات التاريخية ، والقرآن وسنة محمد (ﷺ) ، والشريعة التى فصلت المبادىء التى تنظم الحياة الفاضلة المشتركة .وبحلول الثمانينات ، أصبحت اللغة الاسلامية أكثر أهمية فى الخطاب السياسى عما كانت عليه قبل عقد

أو اثنين ، وكان ذلك راجعا لتوليفة من نوعين من العوامل ، من ناحية كان هناك التوسع الهائل والسريع فى مساحة المشاركة السياسية بفضل زيادة السكان ونمو المدن وتزايد وسائط الاعلام ، وزيادة المهاجرين من الريف الى المدن ، وقد جلبوا ثقافتهم ولغتهم السياسية الخاصة معهم ، وكان هناك تحضر للمهاجرين كما حدث أيضا (ترييف) للمدن ، فقد جعلهم الانقطاع عن صلات القربى والجيرة التى جعلت الحياة ممكنة فى القرى ، يعيشـــون فى مجتمع كانت ظواهره الخارجية غريبة عليهم ، والاحساس بالاغتراب يمكن أن يعادله الاحساس بالانتماء للمجتمع الاسلامى العالمى ، الذى تكمن فيــه قيم أخلاقية معينة ، وقد وفر هذا الانتماء لغة يمكنهم بها التعبير عن أحزانهم وطموحاتهم ، وكان على من يرغب فى حثهم على الحركة والعمل أن يستخدم نفس اللغة ، حيث يتيح الاسلام لغة فعالة لمعارضة القوى والنفوذ الأجنبى ولأولئك الذين يتهمون بالتبعية لهما ، وللحكومات الفاسدة والعاجزة التى استحالت الى أدوات للمصالح الخاصة ، ولمجتمع فقد وحدته ومبادئه الأخلاقية وتوجهاته .

وقد كانت عوامل من هذا النوع هى التى أفرزت حركات ، كالاخوان المسلمين ، والتى كان قادتها فصحاء ومتعلمين ، وكانت لها جاذبيتها عند المحرومين من القوة والثروة فى المجتمعات الجديدة ، وقد حاولت معظم النظم الحاكمة استخدام لغة الدين أكثر من ذى قبل للدفاع عن نفسها ، أو لمخاطبة قطاع أعرض من مجتمعاتها ، وبعض الأنظمة استخدمت تلك اللغة عفويا وباستمرار ، خاصة السعودية ، وهى لغة نشأت عن حركة لتأكيد أولوية ارادة الله فى المجتمعات الانسانية ، والبعض الآخر بدا كما لو كان يساق اليها حتى بين أكثر الجماعات الحاكمة علمانية ، فى سوريا على سبيل المثال والعراق والجزائر ، مالوا جميعا لاستخدامها بشكل يكاد يكون مقنعا وبطريقــة أو أخرى ، قد يثيرون أفكارا تاريخية عن العرب حملة الاســلام ، فقد أثار حكام العراق خلال حربهم مع ايران ذكريــات معركة القادسية عنــدما قهر العرب آخر الحكام الســاسانيين ، وأدخلوا الاسلام فى ايران ، وفى معظم البلاد التى ينتمى سكانها لأديان مختلفة ، يحدد الدستور بأن يكون الرئيس مسلما لربط دين الاسلام بالسلطة

الشرعية ، وفى الدساتير القانونية قد تكون هناك اشارة للقرآن أو الشريعة كأساس للتشريع ، ومعظم الحكومات التى انتهجت هذا الطريق مالت لتفسير الشريعة بطريقة حديثة تقريبا لتسويغ التجديدات التى كان لابد منها للمجتمعات التى تعيش فى العالم الحديث ، وحتى فى السعودية لجأوا الى تفسير مبادىء الفقه الحنبلى لتبرير القوانين الجديدة والضوابط الضرورية للنظام الاقتصادى الجديد ، وبعض الأنظمة عمدت الى تطبيقات رمزية حرفية للشريعة ، فقد حرم بيع الكحوليات فى السعودية والكويت ، وفى السودان وفى السنوات الأخيرة من حكم النميرى ، طبق نص من الشريعة أن معتادى السرقة تقطع أيديهم ، وفى بعض البلدان شجعت الحكومات الالتزام الصارم بصوم رمضان ، وقد حاولت الحكومة التونسية قبل ذلك بفترة ، أن تشجع الاغضاء عنه حيث يعطل الجهود الضرورية للتنمية الاقتصادية ، وقد واجهتها معارضة واسعة ٠

هشاشة الأنظمة

ربما يعين تضافر عوامل : الجماعات الحاكمة المتماسكة ، والطبقات الاجتماعية السائدة ، والأفكار القوية على تفسير سبب استقرار الأنظمة خلال السبعينات ، ولكن اذا بحثت بدقة فقد تكون كل هذه العوامل الثلاثة مصدرا للضعف ٠

فالجماعات الحاكمة كانت معرضة للتنافر والخصومة الشخصية التى طفت بشكل حتمى خلال صراع الطموحات ، أو الاختلافات حول السياسة وايضا بسبب الانقسامات الهيكلية التى ظهرت نتيجة تضخم الآلة الحكومية من حيث الحجم والتعقيد ، فقد أصبحت الأفرع المختلفة للحكومة مراكز قوى منفصلة مستقلة : الحزب والجيش والمخابرات ، وقد يحاول أعضاء المجموعة الحاكمة من ذوى الطموح السيطرة على مركز آخر من هذه المراكز ، مثل هذه العملية كانت تحدث فى كل النظم المعقدة للحكومة ، ولكن أمكن حصرها فى بعض أنواع الحكومات فى اطار عمل المؤسسات المستقرة الثابتة والعادات السياسية المتجذرة ، وعندما لا يمكن احتواؤها تؤدى الى تشكل الأجنحة السياسية ، التى يحاول فيها رأس كل

جناح أن يتخلص من خصومه ، لتمهيد الطريق للصعود لأعلى المناصب ، مثل هذا الصراع يمكن احتواؤه فقط بالممارسة الدائمة لفنون وألاعيب المناورات السياسية التي يقوم بها رئيس الحكومة .

كذلك يمكن أن تكون الرابطة بين النظام والجماعات الاجتماعية المسيطرة هشة ، وما أمكن ملاحظته هو نسق متكرر في تاريخ الشرق الأوسط ، فالطبقات التي سيطرت على هيكل الثروة والقوة الاجتماعية في المدن ، كانت تريد السلام ، والنظام ، وحرية النشاط الاقتصادي ، وتدعم النظام طالما كان يعطيهم ما يريدون ، ولكنهم لن يحركوا ساكنا للدفاع عنه ، ويمكن أن تقبل نظاما آخر يخلفه اذا ما اتبع سياسة مماثلة ، ففي منتصف الثمانينات ، كان وضع بعض الأنظمة مزعزعا ، فقد بلغت أسعار النفط ذروتها عام ١٩٨١ وبعدها تقلصت بسرعة بسبب زيادة الانتاج والحرص في استخدام الطاقة في البلدان الصناعية ، وفشل الأوبك في تكوين جبهة موحدة حول الأسعار وحجم الانتاج وهكذا ، كان لتقلص عائدات البترول وآثار الحرب العراقية الايرانية ، تأثير على البلدان العربية الفقير منها والغني على السواء .

واذا كان الدعم الذي تقدمه القطاعات القوية من المجتمع للحكومات سلبيا وصامتا ، كان ذلك راجعا لأنهم لم يشاركوا بفعالية في صنع القرارات ، وفي معظم الأنظمة كان اتخاذ القرار في مستوى عال وعلى يد مجموعة صغيرة ، ولايعلن عنه على نطاق واسع ، وكان الحكام يميلون بعد استقرارهم في السلطة الى أن يصبحوا أكثر ميلا للسرية ، تحوطهم قوى خدمات الأمن والمقربون والمسئولون القريبون منهم ونادرا ما يظهرون علنا لاعلان تفسيرات رسمية لأفعالهم لجمهرة من المستأنسين ، ووراء السبب في بعد المسافة بين الحكومة والمجتمع ، كان هناك سبب آخر ، هو ضعف الاقتناع الذي يربط كلا منهما بالآخر .

وبمجرد أن تطرح الحكومات أفكارا سياسية ، تصبح هذه الأفكار في خطر من فقدان معناها ، وتصبح شعارات بالية بالتكرار ، ولم يعد

باستطاعتهم جمع أفكار جديدة من حولهم لتصبح كوكبة فكرية قوية ، تعبيء القوى الاجتماعية للفصـــل والحركة ، أو تحول السلطة الى سلطة شرعية • ويبدو أن فكرة القومية قد تعرضت لذلك المصير ، الا أنها موجودة على الدوام كرد فعل طبيعي وفورى لأى تهديد من الخارج ، وظهر هذا خلال الحرب بين العراق وايران عندما أبدت قطـــاعات من الشعب العراقى الحكومة ، فى حين كان من المتوقع منها أن تكون معادية لها ، ولكن كان من المشكوك فيه أن تصبح القومية العربية قوة معبئة للعمل الفعال ، أو كمركز لنظام فكرى يمكن من خلاله تنظيم حياة المجتمع ، وقد تطفو « العروبة » التى تمثل فكرة أمة عربية موحدة سياسيا ، مرة أخرى بأزمة جديدة فى العلاقات بين اسرائيل وجيرانها العرب ، وقد ترجع استكانة الدول العربية خلال الغزو الاسرائيلى جزئيا لتعقيدات الوضع اللبنانى ، ولم تكن بالضرورة مقدمة لما سيحدث اذا ما دخلت اسرائيـــل الحرب مع جيرانها ، وبشكل عام ، فالوظيفة الرئيسية للعروبة كانت فى كونها سلاحا فى الصراعات بين الدول العربية ، وكذريعة للتدخل فى شئون الدول الأخرى ، ولم يتراجع من الذاكرة بعد مثال عبد الناصر الذى يخاطب الشعوب من فوق رأس الحكومات ، ومن ناحية أخـرى ، فقد تؤدي تقوية الروابط البشرية بين الشعوب العربية بسبب التعليم والهجرة ووسائط الاعلام ، الى احداث تأثير على المدى البعيد •

أما فيما يتصـــل بالأفكار الرائدة الأخرى عن العدالة الاجتماعية والاسلام ، فيمكن أن يقال عنها عكس ذلك ، لا لأنها فقدت معناها ، ولكن لأن لها معنى أكبر من أن يتحدد ، ولها تأثيرا كبيرا كقوة دافعة للفعل ، تختزن طالما لا يحتاجها النظام ، وجذورها فى التاريخ والوعى أعمق من أن تستخدم كأدوات مستأنسة للحكومة •

والحكومات التى نادت بمثل هذه الأفكار القوية العميقة التجذر قد فعلت ذلك بما يعرضها للخطر ، وتورطت فى غموض الدلالات والأصداء القوية ، فاذا هم استخدموا العبارات ذات الأصداء القوية ، فقد كان بامكان معارضيهم فعل نفس الشيء ، فى ســبيل اظهـار الفجوة بين ما تفعله

الحكومة وما تقوله ، ويلجأون الى استخدام مصطلحات ذات قوة قاتلة كالطغيان والنفاق التى ظلت تجلجل على طول التاريخ الاسلامى ، وقد كانت حادثة اغتيال السادات عام ١٩٨١ ، وحادثة السعودية عام ١٩٧٩ ، عندما احتلت مجموعة من المسلمين المتشددين الكعبة ، علامة على قوة هذه الحركات المعارضة ، خاصة عندما يستطيعون توحيد دعوى العدالة الاجتماعية بعدالة الاسلام ٠

وحتى أكثر الأنظمة استقرارا وأطولها بقاء يمكن أن يتضح أنها هشة ، وهناك بالتأكيد تحولات للقوة داخل الجماعات الحاكمة بسبب الموت أو الانقلابات ، ففى عام ١٩٥٨ خلع النميرى حاكم السودان بانقلاب عسكرى ، صاحبته اضطرابات أهلية واسعة الانتشار ، وفى عام ٨٨ انتهت فترة حكم بورقيبة الطويلة على الحياة السياسية فى تونس عندما خلع وحل محله ضابط من الجيش ، هو زين العابدين بن على ، وقد أدت مثل هذه الأحداث الى تغيرات فى اتجاه السياسة ، كما حدث عندما خلف السادات عبد الناصر ، ولكن هل من المنتظر أن تحدث تغيرات أكثر عنفا وراديكالية ؟ ٠

فى بعض البلدان ، كانت هناك امكانية أن تعود الى الحكم مؤسسات رسمية أكثر قدرة على البقاء ، تعمل على توسيع حدود المشاركة فى صنع القرارات ، كان ذلك أمل الطبقات المتعلمة وحتى بعض أفراد النظام ، الذين كانوا يرون أن ذلك فى صالحهم ، فبدون درجة من المشاركة ، تصبح التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاستقرار الحقيقى مستحيلا بلا مؤسسات ، بمعنى وجود مسلمات مقبولة ومعروفة حول طريقة الوصول الى السلطة واستخدامها ، وتفويضها ٠

ويعتمد هذا التغير على مستوى التعليم ، ومدى قوة الطبقات المتوسطة وحجمها ، وثقة النظام بنفسه ، وليس من المتوقع أن تحدث فى معظم البلاد العربية ، ولكن كانت هناك علامات على أنها سوف تحدث فى بعضها ، ففى الكويت ، عاد البرلمان فى ١٩٨١ بعد غياب لعدة سنوات ، واثبت أن له

زايا مستقلا ، وقدرة على اقناع الحكومة لأن تأخذ ذلك فى اعتبـارها ، ولكنه حل فى ١٩٨٦،وفى الأردن،كانت كانت محاولة فى ١٩٨٤ لاستعادة البرلمان الذى كان غائبا لفترة من الوقت ، وفى لبنان ، رغم الحرب الأهلية ظلت فكرة أن البرلمان هو فى النهاية المكان الذى يمكن فيه تسوية الخلافات ، وأن الحكم الدستورى كأساس للشرعية ظل حيا ٠

وكان أكثر البلدان التى يبدو الحكم الدستورى فيها وشيكا هى مصر ، حيث كانت الطبقة المتعلمة عريضة ، وكانت على مستوى من الفهم السياسى أعلى من مستوى معظم البلدان العربية ، ولها وحدة ثقافية اجتماعية ، وذكريات حية باقية عن فترة الحكم الدستورى التى استمرت ثلاثين عاما ، وكانت الأفكار فيهـا حرة فى حدود معينة ، وقد انبعثت ذكرياتها فى السنوات الأخيرة نتيجة نماذج الحرية السياسية النسبية فى فترة حكم عبد الناصر والسادات ٠ وفى حكم خليفة السادات ، مبارك ، بدأ تغيير حذر ، وأجـريت الانتخابات للمجلس التشريعى فى ٨٤ ، وقد فصل النظـام الانتخابى بطريقة تضمن الأغلبيـة للحكومة ، وأجريت الانتخابات فى جو من الحرية النسبية فى المناقشـات ، وانتخب بعض أعضاء أحزاب المعارضة من حزب « الوفد » ، وكان ذلك مؤشرا على اتجاه مصر الى وضع يشابه تركيا أو بعض بلاد أمريكا الجنوبية ، حيث تتعاقب فترات الحكم البرلمانى والحكم العسكرى وتعود الحياة الدستورية على الدوام كما تبقى مهددة أيضا على الدوام ٠

ويبدو أن ظهور حركات أصولية كان أكثر احتمالا فى الثمانينات ، وكانت تحدث باسم فكرة اسلامية عن عدل الله على الأرض ، والذى يفوق الفكرة العلمانية البحتة ، ولم تكن هناك فكرة واحدة عن الاسلام ، ولكن مجموعة كبيرة من الأفكار ، ولم يكن هناك معنى واحد بسيط لكلمة اسلام ، ولكن تعلقت بها كافة المعانى التى صنعها المسلمون ، فقد تعنى بالنسبة للقرويين التقليديين كل ما يفكرون وما يعملون ، أما بالنسبة للمسلمين المتأملين ، فهى تشكل معيارا يحاولون صياغة حياتهم على منواله ، ويحكم به على أعمالهم ، الا أن هناك أكثر من معيار ٠ وقد أصبح مصطلح الأصولية

« مودة » بالرغم من أنه يحمل أكثر من معنى مختلف ، فقد يعنى أن على المسلم أن يحاول العودة الى تعاليم وممارسات الرسول والرعيل الأول من صحابته ، أو قد يعنى أن القرآن فقط هو مصدر معايير الحياة الانسانية. وقد تكون هذه الفكرة ثورية لو أن المسلمين ادعوا أن لهم الحق فى تفسير القرآن بحرية ـ كما يبدو أن القذافى زعيم ليبيا قد فعـــل ـ ويمكن أن يستخدم الكلمة لوصف سلوك ما يحسن أن تطلق عليه « المحافظة » وهو سلوك الذين يرغبون في قبول ما ورثوه عن ماضيهم ويحافظون عليـــه ، وبما يشمل كافة التراث التراكمى فى الاسلام بالصورة التى تطور اليها فى الواقع ، وأن يجرى التغير عليها بحرص واحساس بالمسئولية ، وقد كان ذلك هو سلوك النظام السعودى ومؤيديه ، وكذلك النظـــام الثورى فى ايران ، وذلك بالرغم من أن التراث التراكمى الذى يقبله كل منهم يختلف تماما عن تراث الآخر ·

وتتفاوت ظروف الدول العربية المختلفة تفاوتا كبيرا ، فحركة اسلامية فى بلد ما ، يمكن أن يكون لها معنى مختلف عما يبدو أنه نفس الحركة فى بلد آخر ، فالاخوان المسلمون فى ســـوريا لم يكن لهم نفس الدور كالاخوان فى مصر ، فقد كانت تمثل وسيطا لمعارضة السكان الحضر من السنة ، لسيطرة نظام يرتبط بالمجتمع العلوى ، وبالمثل فان تتخذ الثورة الايرانية شكلا معينا ، لا يعنى أنها سوف تتخذ نفس الشكل فى بلدان أخرى ، اذ يمكن تفسير الثورة جزئيا بعوامل محددة تختص بايران : هو أن هناك : طبقات اجتماعية قوية كانت تستجيب بشكل خاص للنداءات المعبر عنها فى اللغة الدينية ، وكانت هناك زعامة سياسية قادرة على العمل كنقطة التقاء لكل الحركات المعارضة ، ومستقلة نسبيا عن الحكومة ، وتحظى باحتـــرام عام لتقواها وتعاليمهـــا ، وعملت على الدوام كمتحدث عن الوعى الجماعى الشامل ·

ولم يوجد مثل هذا الموقف فى البلدان العربيـــة ، ففى العراق ، حيث يغلب الشيعة ، لم يكن لرجال العلم نفس الرابطة الحميمة بجماهير الحضر ، او نفس التأثير على الحكومة كما كان الحال فى ايران ، وعلماء

السنة كان لهم وضع أقل استقلالية ، فقد أصبحوا تحت الحكم العثماني من موظفي الدولة ، مقربين من الحكومة وتوصلوا الى تسويات بعلاقاتهم معها ، وارتبطوا من خلال التقاليد والمصالح بالبرجوازية العليا للمدن الكبرى ، وأصبحت زعامة الحركات الاسلامية بين أيدي العامة ، والخارجين عن الصفوة المتعلمة الحديثة ولا تتمتع مثل هذه الحركات بما يضفيه عليها ذوو التقوى المتوارثة والعلم المعترف به ، ولم يزد قدرهم عن أحزاب سياسية تتنافس مع بعضها البعض ، وبشكل عام ، لم يكن لديهم سياسات اجتماعية أو اقتصادية واضحة ، وكان من المتوقع أنها ستصبح قوى معارضة مهمة ، ولكن لن يكون بامكانها أن تصبح في موقف يسمح لها بتشكيل حكومات .

والمراقب للبلاد العربية أو العديد من البلدان الاسلامية الأخرى في منتصف الثمانينات ، قد يصل الى قناعة مؤداها أن شيئا مماثلا للمسار الايراني سيكون المسار المستقبلي ، ولكن ذلك قد يكون استنتاجا متعجلا حتى فيما يتعلق بايران ، بمعنى أن حكم رجال الدين هو اعادة لتأكيد التراث ، ولكنه من ناحية أخرى كان يجري على عكس التقاليد ، فالحكمة الموروثة للعلماء كانت في ألا يربطوا أنفسهم بشكل وثيق بحكومات الدنيا ، ويجب عليهم الابتعاد الى مسافة معنوية منها ، مع الحفاظ على اتصالهم بالحكام وتأثيرهم عليهم ، وكان من الخطورة ربط المصالح الأبدية للاسلام بمصير حكم دنيوي مؤقت ، وكان هذا الموقف ينعكس في الشك الشعبي في رجال الدين ، الذين لعبوا دورا بارزا في شئون الدنيا ، فقد كانوا معرضين كالآخرين لفساد استغلال السلطة والثروة ، وربما لم يكونوا حكاما ناجحين .

ويمكن أيضا أن يحدث في مرحلة معينة من التطور الوطني، أن تفقد الأفكار الدينية جاذبيتها ، على الأقل تلك الأفكار التي اكتسبت قداستها من التراث المتراكم ، ولم يعد لها نفس القوة التي اكتسبتها مجموعة أخرى من الأفكار ، التي تكونها توليفة من الأخلاقيات الاجتماعية والأحكام الدينية ، وهي أساسا علمانية ولكن قد تكون لها علاقة ما بالمبادىء العامة للعدالة الاجتماعية الموروثة في القرآن .

الهـــوامش

الفصل الثالث عشر :

(١) ابن خلـدون (المقـدمة) ص ١٨٣ ، الترجمـــة الانجـــليزية ، ج (١) ، ص ٣٧٢ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ الترجمة الانجليزية ، ج (١) ، ص ٢٠٠ .

(٣) T. W. Arnold, « The Chaliphate », p. 203.

(٤) C. M. Doughty Travels in Arabia Deserts, p. 6-8.

الفصل الرابع عشر :

(١) أحمد الناصرى السلاوى « كتاب الاستقصاء » ج (٧) ، ص ٦ ـ ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج (٤) ، ص ٤ ـ ١٦٣ .

الفصل الخامس عشر :

(١) W. L. Wright « Ottoman Stetcraft », pp. 117-18.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار » ج (٤) ، ص ٢١٤ .

الفصل السادس عشر :

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٨ .

(٣) H. Inalcki, « The Middle East and North Africa in World Politics ».

ج ١ ، ص ٢٦٩ ـ ٧١ .

الفصل السابع عشر :

(١) H. H. Jessup, « Fifty Three Years in Syria ».

ج ٢ ، ص ٧٨٦ ـ ٧ .

(٢) J. Cambon., « Les algeriens musulmans et la France ».

ص ٤٧٨ .

الفصل الثامن عشر :

(١) J. W. van Goethe, « Aus Dem Nachlass ».

(٢) R. Kipling, « A Ballad of East and West,

(٣) رفاعة الطهطاوى ، « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، ص ٢٠٨ .

(٤) خير الدين التونسي ، « اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » ، ص ٥ ٠
(٥) رشيد رضا ، (طريق الأستاذ ، الامام محمد عبده » ، جـ ١ ، ص ١١ ٠
(٦) طه حسين ، الايام » ، جـ ٢ ، ص ٣ ــ ٤ ٠

الفصل التاسع عشر :

(١) T. E. Lawrence, « Seven Pillars of Wisdom », p. 0E.
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣ ٠
(٣) J. Berque, « Le Maghreb entre deux guerres », p. 60.

الفصل العشرون :

(١) ابو القاسم الشابي ، « مدخل نقدى للشعر العربي الحديث » ، ص ١٥٩ ٠
(٢) طه حسين ، « الرسالة » ، ص ٨ ــ ٩ ٠
(٣) احمد شوقي ، « الشوقيات » ، جـ ١ ، ص ١٥٣ ــ ٦٦ ٠
(٤) عنبره سلام خالدى ، « جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين » ٠
(٥) علي عبد الرازق ، « الاسلام واصول الحكم » ، ص ١٠٣ ٠
(٦) R. Michell, « The Socilty of Moslem Brothers », p. 30.

الفصل الحادى والعشرون :

(١) G. Tillion, « Les ennemis Cimplémentaires ».

الفصل الثالث والعشرون :

(١) عبد الله لاروى ، « تاريخ المغرب » ، ص ١٠ ، ص ٢٨٤ ــ ٥ ٠
(٢) S. K. Jayyosi, « Trends and movements in Modern Arabic Poetry ».
(٣) بدر شاكر السياب « انشودة المطر » ، ص ١٠٣ ــ ٧ ٠

الفصل الرابع والعشرون :

(١) وزارة الاعلام ، « مشروع الميثاق » ، ص ١٢ ٠

الفصل السادس والعشرون :

(١) ٠ف رفعت ، « نظرة عن بعد للمئذنة » ، ص ١٠٩ ٠
(٢) Hichem Djait, « La personalite et le devenir Arabo-Islamiques », p. 140.
(٣) عبد الله لاروى ، ازمة المثقفين العرب » ٠
(٤) سيد قطب ، « معالم على الطريق » ، ص ٤ ــ ٥ ٠
(٥) F. Rahman, « Islam and Modernity ».

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى

ي· رادو نكايلوم جابوتنسكي
الالكترونيات والحياة الحديثة

ألدس هكسلي
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ج· فوربس و ا· ج· ديكستر
تاريخ العلم والتكنولوجيا ٢ ج

ليسترديل رى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

قدري حفني وآخرون
الانسان المصري على الشاشة

أولج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها - عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمي ومنطق

د· محسن جاسم الموسوي
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية
والفرنسية

د· عبد المعطي شعراوي
المسرح المصري المعاصر
أصله وبدايته

أنور المعداوي
علي محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادينيت
القوة النفسية للأهرام

د· صفاء خلوصي
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوي

فكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات في مضمار
الفيزياء الذرية »

سدني هوك
التراث الغامض · ماركس
والماركسيون

ف· ع· أدينكوف
فن الأدب الروائي عند تولستوي

هادي نعمان الهيتي
أدب الأطفال ، فلسفته ، فنونه ،
وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوي
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل أحمد الطائي
أعلام العرب في الكيمياء

جلال العشري
فكرة المسرح

هنري باربوس
الجحيم

السيد عليوة
صنع القرار السياسي في
منظمات الإدارة العامة

جاكوب برونوفسكي
التطور الحضاري للانسان

د· روجر ستروجان
هل تستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتي ثير
تربية الدواجن

ا· سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة في العصور
الوسطى

د· ليونارد تشاميرزوايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
أثر الكوميديا الالهية لدانتي
في الفن التشكيلي

د· رمسيس عوض
الأدب الروسي قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز في عالم
متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوربي الحديث ٤ ج

شوكت الربيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

د· محيي الدين أحمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· دادلي اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصي

د· جوهان دورشنر
الحياة في الكون كيف نشأت
وأين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجي
حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عناني
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب الياباني
« الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

جوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد . س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

هري روبرتسون
الهيروين والايدز وأثرهما في المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الالف الياء

ويليام بيك
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية أسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون . ر. بورر وميلتون جولدينج ،
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج وآخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد أبو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الاساطير الاغريقية والرومانية

توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي
روائع الآداب العالمية ج ١

روي ارمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور ، شين يي ينج وآخرون
مختارات من الآداب الآسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجيروس أوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص أخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ ج

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في أوربا
بول كولز

هوريس بيل برايز
صناع الخلود

ريجموند فيرث
بطاقات من الشراع

جوناثان ريلي سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة
الحروب الصليبية

ألفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة
مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

مرابيم روزنثال
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصري
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر ميكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميري
النقد السينمائي الأمريكي

نفتالي لويس
مصر الرومانية

سيفر ورسمد
التاريخ من شتى جوانبه ٢ج

موري مرح واخرون
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

سامي محمد العرار
ماسترخت

آرثر كريم
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج

د. ريال عبد الله
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو موه
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مرجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر في ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادي أونيمود
افريقيا — الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برونسلاو مالينوفسكي
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو دا جاما

بيتر سامويل
كوننا المتمدد

سوندرز
الفلسفة الجوهرية

مارش هارت كرلما
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقي

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد علي
الى السادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دي بونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيوز
ما هي الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو في السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكي

جورج ستاينر
بين تولستوي ودوستويفسكي
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامي عطا الله
الفيلم التسجيلي

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلي جيه سولومون
أنواع الفيلم الأمريكي

هاري ب. ناش
السمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة
في الصين

ليوناردو دافنشي
نظرية التصوير

س. ج. هـ. جيمس
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبورج
رحلة الأمير رودولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبري
الرواية اليوم

وليم ماريسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنري بيرين
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

ديفيد بشبندر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم أفضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسي للعلم
والتكنولوجيا

المشير محمد الغنى الجمسى
اطـلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى

ليو بوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينر
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٣ جـ

يوسف شرورة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسـان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جورج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ جـ

حسـام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجـاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ملو
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرابنر
موتسارت

غنى عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س. ديفيز
المفهوم الحديث للمـكان والزمان

س. هوارد
أشهر الرحـلات الى غرب افريقيـه

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيماتيـانو
تاريخ اوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتـاهة

هنرى برجسون
الضحـك

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضـمير المهندس

أ. ر. جرنى
الحيثيون

ستينو موسـكاتى
الحضـارات السامية

ألبرت حورانى
تاريخ الشعوب العربيه

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسيه

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٢٤/١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 6025 — 3

انتهى حورانى فى القسمين الأولين من كتابه هـذا (صـدرا معـاً فـى الجـزء الأول من تاريخ الشـعوب العربيـة فـى هـذه السلسـلة) مـن دراسـة الحيـاة الثقافيـة والاجتماعية والسياسية للعالم العربى حتى سـقوط دولـة الممـاليك. وهـو يتعـرض فى هذا الجزء لتاريخ العـالم العربـى منـذ قيـام الدولـة العثمانيـة حتـى التـاريخ المعاصر. وفى مستهل هـذه الفـترة كـان العـالم الإسـلامى موزعـاً بيـن ثـلاث إمبراطوريات كبيرة: المغـول فـى الـهند، الصفوييـن فـى إيـران، بينمـا خضـع المشرق العربى، فيما عدا بعض أطرافه، إلى هيمنة العثمـانيين. ثـم ينتقـل المؤلـف إلى عصر الإمبراطوريات الغربيـة، حيـث بـدأت أوروبـا تبسـط هيمنتـها علـى القارات الأخرى، ومنها عالمنا العربى الذى التهمتـه قطعـة فقطعـة.

ويكشف حورانى عن حقيقة هامة، وهى أن الاحتلال الأوروبى لم يسـتطع أن يمحـق الهوية العربية الإسلامية، بل فجَّر طاقات الوطنية والقومية التى كانت مكبوتة فى ظـل الحكم العثمانى، الذى كان يتوسل بالدين لكى يفرض هيمنته على الشـعوب الإسـلامية الخاضعة له، التى كانت ترى فى ظهور أية دعوى قومية أو وطنية لوناً مـن إضعـاف الوحدة الإسلامية. والمفارقة هنا أن الأتراك كانوا أبعد ما يكون عن الدين، فهم بتمييزهم للعنصر التركى خالفوا قاعدة المساواة بين شعوب الأرض التى بشر بها الإسلام، وهـم باستئثارهم للثروة، خالفوا مبادئ العدالة التى هى لب الدعوة الإسلامية.

وقد نجح حورانى فى أن يرسم لوحة متكاملة لذلك العصر الذى يمثل خلفية التطـورات الحالية التى صنعت العصر الذى نعيشه.

المؤلف: د.ألبرت حورانى، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر للشرق الأوسط فـى جامعة أكسفورد ــ من أصول لبنانية، هاجرت أسرته واستقرت فـى مانشستر بالمملكة المتحدة.

المترجم: نبيل صلاح الدين، مترجم له اهتمامات بالدراسات العلمية والتار سبقت له ترجمة كتاب عن أينشتين والنظرية النسبية شارك فى إعـداد ال العربية من دائرة المعارف الإسلامية.

المراجع: د.عبد الرحمن الشيخ، أستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر، شارك الإشراف على إعداد الطبعة العربية من دائرة المعارف الإسلامية، وله الك الدراسات والترجمات الهامة فى التاريخ الإسلامى.

٨٧٥ قـرشـاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب